سفيتلانا الكساندروفنا الكسييفتش



صلاة تشرنوبل



جائزة نوبل للآداب ٢٠١٥

ترجمة: ثائر زين الدين

فريد حاتم الشحف

طوى
للثقافة والنشر والإعلام

سفيتلانا الكساندروفنا الكسييفتش

جائزة نوبل للآداب ٢٠١٥

صلاة تشرنوبل

وقائع المستقبل

ترجمة

د. ثائر زين الدين - د. فريد حاتم الشحف



للثقافة والنشر والإعلام

سفيتلانا الكساندروفنا الكسييفتش: صلاة تشرنوبل

Book: Salat Tchernobyl

الكتاب: صلاة تشرنوبل - وقائع المستقبل

ترجمة: د. ثائر زين الدين - د. فريد حاتم الشحف

تأليف: سفيتلانا الكساندروفنا الكسييفتش

SVETLANA ALEXIEVICH

First Edition: 2016

الطبعة الأولى ٢٠١٦



للثقافة والنشر والإعلام

طوى للثقافة والنشر والإعلام - لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Tel: 009662108111 - 00966505481425

Email: Tuwa.pub@gmail.com

نحن هواء، نحن لسنا أرضاً...

م. ماماردا شفيلي

وثيقة تاريخية

"بيلاروسيا... نحن بالنسبة للعالم terra incognito[1] - أرض مجهولة، غير معروفة، "روسيا البيضاء"، - هكذا يلفظ تقريباً باللغة الانكليزية اسم بلدنا. أما تشرنوبل فيعرفها الجميع، لكن في ارتباطها بأوكرانيا وروسيا فحسب. وما زال ينبغي أن نتحدث عن أنفسنا..."

"نارودنايا غازيتا"[2]، ٢٧ نيسان (أبريل) ١٩٩٦

"٢٦ نيسان (أبريل) ١٩٨٦ الساعة الواحدة وثلاث وعشرون دقيقة وثمان وخمسون ثانية - سلسلة انفجارات هدَّمت مبنى ومفاعل كتلة الطاقة الرابعة في محطة تشرنوبل الكهرذرية، الواقعة قرب الحدود البيلاروسية. كارثة تشرنوبل أضخم كارثة تكنولوجية في القرن العشرين.

تعدُّ الكارثة بالنسبة لبيلاروسيا الصغيرة (عدد سكانها ١٠ ملايين نسمة)، فاجعة وطنية، مع أنّ البيلاروسيين لا يمتلكون حتى محطة كهرذريّة واحدة. إنّها كما كانت في السابق بلد زراعي، ذو أغلبية سكانية

---

(١) الأرض المخفية - باللاتينية في الأصل.

(٢) الصحيفة الوطنيّة أو صحيفة الوطن؛ واحدة من أهم صحف الاتحاد السوفيتي وأشهرها.

تعمل بالزراعة. لقد قضى الفاشيون الألمان في الحرب الوطنية العظمى[١]، على ٦١٩ قرية في الأراضي البلاروسيّة بمن فيها من السكان. وبعد كارثة تشرنوبل فقد البلد ٤٨٥ قرية: ٧٠ منها دفنت في الأرض إلى الأبد. استشهد أثناء الحرب كل رابع شخص بيلاروسي، اليوم يعيش كل خامس شخص على أرض ملوّثة بالإشعاعات. هذا يعني ٢,١ مليون إنسان، منهم ٧٠٠ ألف طفل. الإشعاعات تحتل المركز الرئيس بين عوامل الانقراض الديموغرافي. تزيد في مقاطعتي غوميل وموغيليف (الأكثر تضرراً من كارثة تشرنوبل) نسبة الوفيات بمقدار ٢٠٪ عن نسبة الولادات.

قُذِفَ في الجوّ نتيجة الكارثة 50x10(6) ku من النويدات المشعّة، ٧٠٪ منها سقطت في بيلاروسيا: فأصبح ٢٣٪ من مساحتها ملوثاً بالنويدات المشعة بكثافة تزيد عن 1 ku/km من السيزوم ـ ١٣٧. للمقارنة: تلوثت ٤,٨ من مساحة أوكرانيا، و ٠,٥ من مساحة روسيا. إنّ المساحة الصالحة للزراعة التي بلغت كثافة تلوثها من 1 ku/km وما فوق تقدر بـ ١,٨ مليون هكتار، والملوثة بالسترونتسيوم ـ ٩٠، بكثافة 0.3 ku/km وأكثر ـ حوالي ٠,٥ مليون هكتار. أُخرِجت مساحة ٢٦٤ ألف هكتار من الأرض من الدورة الزراعية.

إن بيلاروسيا ـ بلد الغابات، لكن ٢٦٪ من الغابات وأكثر من نصف الهضاب التي تقع في مجاري أنهار بريبيات، والدنيبر، وسوج تدخل ضمن منطقة التلوّث الإشعاعي...

وكنتيجة للتأثير الدائم للجرعات الصغيرة من الإشعاعات يزداد كل

---

(١) الحرب العالمية الثانية ـ المترجمان.

عام عدد المصابين بالأمراض السرطانية، والتخلّف العقلي، والاضطرابات النفسية ـ العصبية، والتغيرات الجينية المفاجئة...".

"تشرنوبل"، "الموسوعة البيلاروسية"، ١٩٩٦،

الصفحات: ٧، ٢٤، ٤٩، ١٠١، ١٤٩.

"سُجلت حسب إحصائيات الرقابة نسبة إشعاعية عالية بتاريخ ٢٩ نيسان (أبريل) عام ١٩٨٦ في بولونيا، وألمانيا، والنمسا، ورومانيا. وفي ٣٠ نيسان (أبريل) ـ في سويسرا، وشمال إيطاليا. ١ ـ ٢ أيار (مايو) ـ في فرنسا، وبلجيكا، والنرويج، وبريطانيا، وشمال إيطاليا. وفي ٣ أيار (مايو) في إسرائيل، والكويت، وتركيا...

انتشرت التشكُّلات الغازية والمواد الطائرة المنبعثة إلى ارتفاعات عالية في أنحاء العالم: تم تسجيلها في ٢ أيار (مايو) في اليابان، وفي ٤ أيار ـ في الصين، وفي ٥ أيار ـ في الهند، وفي ٥ و٦ أيار ـ في الولايات المتحدة وكندا.

لقد احتاج الأمر إلى أقل من أسبوع، حتى أصبح تشرنوبل مشكلة العالم كلّه...".

" آثار حادثة تشرنوبل على بيلاروسيا" مينسك.

معهد ساخاروف الدولي العالي للبيئة ـ الإشعاعية. ١٩٩٢، ص ٨٢

"إنّ المفاعل الرابع، المسمّى "المأوى"، مازال يحفظ في جوفه الرصاصي الإسمنتي المسلّح حوالي ٢٠٠ طن من المواد النووية. في الوقت الذي يختلط الوقود فيه بجزئيات الجرافيت والإسمنت. ماذا يحصل لكل ذلك اليوم، لا أحد يعرف.

لقد تم تشييد المدفن على عجل، التصميم كان مميّزاً، ربما يمكن للمهندسين ـ المصممين من بطرسبورغ الافتخار به. يفترض أنّه سيخدم الهدف ثلاثين عاماً. لكن بناءه قد نُفِّذ "عن بعد"، ودمجوا الصفائح بمساعدة الطائرات الحوّامة والرجال الآليين ـ ما سبب بقاء الشقوق. اليوم وحسب بعض المعطيات، فإنّ المساحة الإجمالية لتلك الشقوق والفتحات تزيد عن ٢٠٠ متر مربع، يستمر انبعاث الغبار المشعّ منها. إذا هبت الريح من الشمال، يتجه نحو الجنوب ـ غبار شعاعي: يحتوي على اليورانيوم، والبلوتونيوم، والسيزوم. والأكثر من ذلك، أنه في اليوم المشمس وعندما تكون الأضواء مطفأة في صالة المفاعل يمكن رؤية أعمدة النور تتساقط من الأعلى. ما هذا؟ حتى المطر ينفذ إلى الداخل. وعندما تصل الرطوبة إلى الكتلة التي تحتوي الوقود، قد تؤدي إلى تفاعلات متسلسلة...

إنه تابوت ـ الميت، الذي يتنفّس. يتنفّس موتاً. إلى متى يمكنه أن يتحمّل؟ لا أحد يقدم الإجابة، لا يمكن حتى الآن الوصول إلى الكثير من العقد والتصاميم، لمعرفة، ما هو احتياطي المتانة الذي تملكه. لكن الجميع يدرك: انهيار "المأوى" يمكن أن يؤدي إلى نتائج أكثر خطورة، مما كان عام ١٩٨٦...".

مجلة "أغونيوك"، عدد ١٧، نيسان (أبريل) ١٩٩٦

"قبل تشرنوبل... كانت الإصابات بالأمراض السرطانية بحدود٨٢ حالة، من كل ١٠٠ ألف مواطن بيلاروسي. الإحصائيات اليوم كالآتي: ٦ ألاف مريض من كل ١٠٠ ألف شخص؛ أي أن النسبة ازدادت ٧٤ ضعفاً.

ارتفعت نسبة الوفيات في الأعوام العشر الأخيرة ٢٣,٥٪. يموت شخص واحد من كل ١٤ شخصاً بسبب الشيخوخة، معظمهم من القادرين على العمل - ومن ذوي الأعمار ما بين ٤٦ حتى٥٠ عاماً. وفي المناطق الأكثر تلوثاً سُجِّلَ: سبعة مرضى من بين كل عشرة أشخاص. أمّا إذا ذهبت إلى الريف، فتُدهشك الزيادة في مساحات المقابر...".

"الكثير من الأرقام مجهولة حتى الآن... ما زالوا يحتفظون بها سرّاً؛ لأنها مرعبة. لقد أرسل الاتحاد السوفيتي إلى مكان الكارثة ٨٠٠ ألف جندي ممن يؤدون الخدمة الإلزامية والمستدعون للخدمة بهدف القضاء على آثار الكارثة، كان متوسط أعمارهم ٣٣ عاماً. أما الأولاد فقد تم استدعاؤهم للخدمة بعد الثانوية مباشرة...

كان عدد البيلاروسيين منهم ١١٥٤٩٣ شخصاً فقط. وحسب إحصائيات وزارة الصحة، فقد توفي منهم ٨٥٥٣ شخصاً ما بين عامي ١٩٩٠ و٢٠٠٣. أي بمعدل وفاة شخصين كل يوم من هؤلاء...".

"هكذا بدأت القصة...

عام ١٩٨٦... تصدرت صفحات الصحف المحلية والأجنبية الأولى ريبورتاجات حول محاكمة المذنبين في كارثة تشرنوبل...

و هكذا... تصوّروا مبنىً مؤلفاً من خمس طبقات. خالياً من السكان، لكن الأثاث ما زال بداخله، الموبيليا، والثياب، التي لا يمكن أن يستخدمها أحد. لأنه مبنى في تشرنوبل... لكن عقد في هذا البيت بالذات من المدينة الميّتة مؤتمرٌ صحفيٌ صغيرٌ للصحفيين؛ أولئك الذين تعيّن عليهم محاكمة المذنبين في تسبب الكارثة النووية. لقد قرّروا على أعلى المستويات، في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي، بأن المسألة يجب أن ينظر فيها في مكان وقوع الجريمة. في تشرنوبل نفسها.

عُقِدَت المحكمة في مبنى بيت الثقافة المحلّي. وجلس ستة أشخاص في قفص الاتهام: مدير المحطة النووية فيكتور بريوخانوف، كبير المهندسين نيقولاي فومين، ونائب كبير المهندسين أناتولي دياتلوف، ورئيس الوردية بوريس روغوجكين، ورئيس قسم المفاعل الكسندر كوفالينكو، ومفتش الرقابة النووية الحكومية في الاتحاد السوفيتي يوري لاوشكين.

مقاعد المشاهدين خالية. جلس الصحافيون وحدهم. وعموماً فما من بشر هنا، لقد "أقفلوا" المدينة، بصفتها "منطقة رقابة إشعاعية صارمة". أما اختاروا هذا المكان بالتحديد لإجراء المحاكمة لهذا السبب؟؟ ـ كلما كان عدد الشهود أقل، كان الضجيج أقل. لا يوجد مصورين صحفيين ولا صحفيين غربيين. طبعاً الجميع كان يرغب أن يرى في قفص الاتهام عشرات الموظفينِ المسؤولين، ومن بينهم المسكوفيين. وكان يجب أن يتحمل المسؤولية العِلمُ المعاصر. لكنهم اقتصروا على "المحوّلين".

قرار المحكمة... السجن عشر سنوات لكل من فيكتور بروخانوف، ونيقولاي فومين وأناتولي دياتلوف. وكانت مدة السجن أقل للباقين. مات في السجن أناتولي دياتلوف ويوري لاوشكين بسبب آثار التعرض لإشعاعات نووية قوية. وأصيب كبير المهندسين بالجنون... أمّا مدير المحطة فيكتور بروخانوف فقد أمضى مدّة عقوبته بالتمام والكمال ـ عشر السنوات كلّها. استقبله أقرباؤه وعدد من الصحافيين. لقد مرّ الحدث بسرعة.

يعيش المدير السابق في مدينة كييف، ويعمل موظفاً عادياً في إحدى الشركات...

وهكذا انتهت القصّة..."

... "تبدأ أوكرانيا في المستقبل القريب عملية بناء ضخمة. سيظهر فوق التابوت الذي غطّى عام ١٩٨٦ البلوك الرابع في محطة تشرنوبل الكهرذرية، غطاءٌ جديد سيسمّى "قنطرة أو القوس". حيث ستحوّل ٢٨ دولة ـ مموّلة في وقت قريب ـ الرأسمال الأولي لهذا المشروع، الذي يزيد عن ٧٦٨ مليون دولار. المأوى الجديد يجب أن يصلح لمئة عام وليس لثلاثين. ويفترض أن يكون أكثر ضخامة، لكي تكون له سعة كافية، فيتم العمل فيه على إعادة دفن بقايا المواد المشعّة. سيكون بحاجة إلى أساس متين: ينبغي في الواقع بناء أرضية صخرية اصطناعية من أعمدة الإسمنت المسلّح والألواح الحديدية. بعدها يجب تجهيز مستودع، تُنقل إليه بقايا المواد المشعّة، المأخوذة من تحت التابوت القديم. سيصنّع المأوى الجديد نفسه من الحديد ذي الجودة العالية، قادراً على تحمّل إشعاعات ـ غامّا. يحتاج المشروع ١٨ ألف طن من المعادن فقط...

ستصبح "القنطرة" هيكلاً مشيّداً، غير مسبوق في تاريخ البشرية. لأنّه: أولا، سيثير الدهشة بحجمه وأبعاده ـ إنه طبقة ثنائية ارتفاعها ١٥٠ متراً. أمّا جماليّا فهو يشبه برج إيفل...".

من مقالات الصحف ـ الإلكترونية البيلاروسية أعوام ٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٥

صوت إنساني وحيد

"لا أدري عمّا أتحدّث... عن الموت أم عن الحب؟ أو إنّهما الشيء نفسه... عن ماذا؟

... لقد تزوجنا حديثاً. كنّا نمشي في الشارع متشابكي الأيدي، حتى لو ذهبنا إلى المتجر، كنّا معاً دائماً. قلت له: "إنّي أُحبك". لكن لم أكن أعرف كم أُحبّه... لم أكن أتوقع... عشنا في سكن فوج الإطفاء الجماعي، حيث كان يعمل، في الطابق الثاني. وهناك سكنت أيضاً ثلاث أسر فتيّة، كان لدينا مطبخ واحد للجميع. أمّا في الأسفل، في الطابق الأول، فقد كانت تقف سيارات؛ سيارات إطفاء حمراء. ذلك كان عمله. كنت دائماً على علم: أين هو، وماذا يحصل له؟ منتصف الليل سمعتُ ضجيجاً ـ ما، صرخات. نظرت من النافذة. شاهدني وصاح قائلاً: "اقفلي النافذة واذهبي إلى النوم. هناك حريق في المحطة. سأعود قريباً".

لم أر الانفجار نفسه. رأيت اللهب فقط. وكان كل شيء مضاءً... السماء كلّها مضاءة... لهب عال. سخام. حرّ مخيف. وهو بعد لم يأت.. لم يأتِ. السخام كان نتيجة احتراق الإسفلت، سقف المحطة كان مطلياً بالإسفلت. تذكّر فيما بعد أنّهم كانوا يسيرون وكأنهم فوق طبقة من القطران. حاولوا إخماد النار، لكن النار كانت تزحف. ترتفع. كانوا يبعدون الغرافيت المحترق بأرجلهم... ذهبوا لإخماد الحريق من دون

بذلات مطاطية، انطلقوا بلباسهم الذي كانوا يرتدونه، بقمصانهم فحسب. لم يحذروهم، استدعوهم لإخماد حريق عادي...

مرّ الوقت، إنها الساعة الرابعة صباحاً... الخامسة... السادسة... كنّا نستعد للسفر إلى أهله في السادسة صباحاً؛ لزراعة البطاطا. أربعون كيلومتراً تبعد قرية سبيريجي حيث يعيش أهله عن مدينة بريبيات. الفلاحة والزرع... عمله المُفضّل... غالبا ما تتذكر والدته، كيف أنها ووالده، ما كانا يرغبان بالسماح له أن يذهب إلى المدينة، حتى أنّهما بنيا بيتاً جديداً. استدعوه للخدمة العسكرية في الجيش. أمضى خدمته تلك في موسكو في فرق الإطفاء العسكرية، وعندما عاد: أصر على أن يصبح رجل إطفاء! لم يعترف بأي عمل آخر. (تصمت).

يُهيأ لي أحيانا أني أسمعُ صوته... إنّه حي... حتى الصور لا تؤثر بي، كما يفعل الصوت. لكنّه لا يناديني أبداً. حتى في الحلم... أنا من يناديه...

الساعة السابعة صباحاً... أخبروني في السابعة صباحاً، بأنّه في المستشفى. هرعت إلى هناك، لكن رجال الشرطة كانوا قد شكلوا حلقة حول المكان، لم يسمحوا لأحد بالدخول. سيارات "الاسعاف" فقط، كانت تدخل إلى المستشفى. رجال الشرطة يصرخون: لتبتعد السيارات المدنية، لا تقتربوا. لست أنا وحدي من هرع إلى المكان بل الزوجات كلهن، زوجات أولئك الذين كانوا في المحطة تلك الليلة. اندفعت أبحث عن إحدى معارفي، طبيبة تعمل في هذا المستشفى. تمسكت بمريلتها، عندما خرجت من السيارة وصحت بها قائلة: "اسمحي لي بالدخول!"، "لا أستطيع! وضعه الصحي سيء. وضع الجميع سيء. أتمسّك بها قائلة: "ألقي نظرة إليه فقط". قالت: "حسناً، لنسرع إذا.

لخمسة عشرة ـ عشرين دقيقة". رأيته... جسمه كلّه متورم... لا توجد عينان تقريباً... قالت لي صديقتي: "نحتاج إلى الحليب. كمية كبيرة من الحليب!، كي يشربوا حتى ولو ثلاثة ليترات لكل منهم". "إنّه لا يشرب الحليب" ـ "الآن سيشرب". الكثير من الأطباء والممرضين، وبخاصّة الذين اعتنوا بالمرضى في هذا المستشفى، يمرضون بعد فترة ـ ما. ثم يموتون. لكن حينها لم يكن يعلم بذلك أحد...

الساعة العشرة صباحاً مات مراقب الأجهزة شيشينوك... إنّه أوّل من مات... في اليوم الأول... علمنا أن الثاني ـ فاليري خوديمتشوك، بقي تحت الأنقاض. لم يتمكنوا من إخراجه. صبوا الاسمنت فوقه. لكن لم نكن نعلم حينها، بأن هؤلاء جميعهم ـ هم الأوائل.

سألتها: "ما العمل، فاسينكا؟" ـ "سافري من هنا! سافري! سيكون لديك طفل". إنني ـ حامل. لكن كيف أتركه؟ طلبت مني: "سافري! أنقذي الطفل!" ـ "بداية يجب أن أحضر لك الحليب، ومن ثم نقرر".

هرعت صديقتي تانيا كيبينوك... زوجها يرقد في هذا القسم نفسه. يرافقها والدها، ومعه سيارته. جلسنا في السيارة وانطلقنا إلى أقرب قرية من أجل إحضار الحليب، تبعد القرية حوالي ثلاثة كيلومترات عن المدينة... اشترينا الكثير من الزجاجات ذات الثلاثة ليترات من الحليب... اشترينا ستة ـ كي تكفي الجميع... لكن الحليب سبب لهم إقياء مخيفاً... أصيبوا بالإغماء طوال الوقت، علّقوا لهم السيرومات. لا أدري لماذا، كان الأطباء يؤكدون، بأنهم أصيبوا بالتسمم نتيجة استنشاقهم الغازات السامة، لم يتكلم واحد منهم عن الإشعاعات. أمّا المدينة فقد امتلأت بالآليات العسكرية، أقفلوا الطرق جميعها. العسكر في كل مكان. توقفت القطارات والحافلات الكهربائية عن العمل. غسلوا

الشوارع بمسحوق أبيض ـ ما... انتابني القلق، كيف سأتمكن غدا من الوصول إلى القرية، لشراء الحليب له؟. لم يتكلّم أحد عن الإشعاعات...

العسكر وحدهم تجوّلوا بالكمّامات الواقية... سكان المدينة أحضروا الخبز من البقاليات، أكياس الكراميلا مفتوحة، الحلويات توضعت على الصواني... حياة اعتيادية. كانوا يغسلون الشوارع بمساحيق ـ ما...

مساءً لم يسمحوا بالدخول إلى المستشفى... حوله بحر من الناس... وقفت مقابل نافذته. اقترب من النافذة وقال لي صارخاً كلاماً ـ ما. سمع أحد الجمهرة: وقال يائساً: سينقلونهم الليلة إلى موسكو. تجمعت النساء ضمن حشد واحد. وقرّرن: سنسافر معهم. اتركونا ندخل إلى أزواجنا! ليس من حقكم أن تمنعونا! ضربن وخمشن. الجنود، شكلوا سلسلة من صفين، صدّونا إلى الخلف. خرج طبيب حينها وأكد قائلاً بأنهم سينقلونهم بالطائرة إلى موسكو، لكن علينا إحضار الثياب لهم، ـ تلك التي كانوا يرتدونها في المحطة، احترقت. باصات النقل كانت معطلة، ركضنا عبر المدينة كلها. عدنا بسرعة إلى المستشفى مع الحقائب، لكن الطائرة كانت قد أقلعت. كذبوا علينا عن قصد... كي لا نصرخ، ونبكي...

الوقت ليلا... وقفت الباصات إلى جانب واحد من الشارع، مئات الباصات (كانوا يحضِّرون المدينة لإخلائها من السكان)، وفي الطرف الآخر من الشارع ـ وقفت المئات من سيارات الإطفاء. لقد أحضروها من كل مكان. الشارع مغطى بالرغوة البيضاء... ونحن نسير في هذا الشارع... نشتم ونبكي...

أعلنوا من خلال المذياع، بأنّه قد يتم ترحيل السكان من المدينة

لمدة ثلاثة ـ خمسة أيام، اصطحبوا معكم أمتعة دافئة وبذلات رياضية، ستقيمون في الغابة. داخل الخيم. حتى أن الناس فرحوا بهذا الخبر: سنذهب إلى الطبيعة! وسنحتفل هناك بالأول من أيار. حالة غير عادية. جهّز الناس المشاوي، واشتروا النبيذ. اصطحبوا معهم آلات القيثارة، وأجهزة التسجيل. إنّها أعياد شهر أيار المفضلة! لقد بكى فقط أولئك، النساء اللواتي تعرّض أزواجهن للإصابة في الكارثة.

لا أتذكر الطرق... وكأنني استيقظت، عندما رأيت والدته: "ماما، فاسيا في موسكو! نقلوه بطائرة خاصة!". نحن زرعنا الحديقة ـ بالبطاطا، والملفوف (لكنهم سيخلون القرية من السكان بعد أُسبوع!)، من كان يعلم؟ من كان يعلم حينها؟ أصابتني في المساء حالة إقياء. أنا ـ حامل في الشهر السادس. حالتي الصحية سيئة جداً... حلمت في الليل أنّهُ يناديني، عندما كان على قيد الحياة، ناداني في الحلم: "لوسيا! لوسينكا!". لكن عندما مات، لم يناديني أبدا. ولا مرّة واحدة... (تبكي) .خطرت لي فكرة عندما استيقظت في الصباح، بان أسافر وحدي إلى موسكو... بكت الأم قائلة: "إلى أين تسافرين وحدك، وأنت على هذه الحال؟". لقد رافقني الوالد في الطريق: "دعيه يوصلك بالسيارة إلى موسكو". لقد سحب النقود من بنك التوفير، النقود التي كانت لديهم. النقود كلّها.

لا أذكر الطرق... الطريق خرجت مرّة أخرى من الذاكرة... سألنا أول شرطي مرور نصادفه في موسكو، في أي مستشفى يرقد رجال تشرنوبل للإطفاء، فأجابنا، لقد دهشتُ، لأن الناس أخافتنا: إنّه سرّ حكومي، وسرّي للغاية.

المسشفى رقم ستة ـ قرب محطة "شوكينسكايا"...

لم يسمحوا في هذا المستشفى، وهو المتخصص بعلاج الأمراض الإشعاعية، بالدخول دون تصريح خطيّ. أعطيت الحارسة بعض النقود وحينها قالت: "ادخلي". ووجهتني إلى الطابق المطلوب. سألت مرّة أخرى شخصاً ما، توسّلتُ... وها أنا أجلس في مكتب رئيس قسم الأمراض الإشعاعية ـ أنغلينا فاسيليفناغوسكوفا. حينها لم أكن أعرف اسمها، لم أتذكر شيئاً. عرفت فقط، بأنّ عليّ رؤيته... إيجاده...

سألتني مباشرة:

ـ عزيزتي! عزيزتي!... هل لديكم أطفال؟

كيف عليّ أن أعترف؟! أدركت حينها، بأنّ عليّ أن أُخفي حملي. لن تسمح لي بالدخول. من الجيّد أنني نحيلة، ولا يلاحظ حملي.

أجبتها: ـ يوجد.

ـ كم طفل؟

أعتقد: "يجب القول، اثنين. إذا كان طفل واحد ـ لن تسمح لي بالدخول".

ـ صبي وفتاة.

ـ بما أنهما اثنان، فأعتقد أنكما لن ترغبا بطفل آخر. اسمعي إذا: الجملة العصبية المركزية مصابة بالكامل، والنخاع الشوكي مصاب أيضاً بالكامل...

"فكرّت: ليكن، سيصبح أكثر عصبية".

ـ اسمعي أيضاً: إذا بكيتِ ـ سأخرجك على الفور. ممنوع المعانقة والقبل. لا تقتربي منه. أُعطيك نصف ساعة من الوقت.

لكني أعرف، بأنني لن أخرج من هنا. وإذا خرجت، فسأخرج بصحبته. أقسمت بذلك لنفسي!

دخلت... إنهم يجلسون على السرير، ويلعبون بورق الشدّة ويضحكون.

صاحوا به ـ فاسيا!

استدار، ثم قال:

ـ أو، أيّها الأخوة! لقد ضعتُ! وهنا تمكنت من العثور عليّ!

يا له من مظهر مضحك، البيجاما التي يرتديها، مقاسها ثمانية وأربعون، أمّا مقاسه ـ فاثنان وخمسون. كمان قصيران، ورجلا البيجاما قصيرتان. لكن الورم زال عن وجهه... لقد سكبوا لهم محلولاً ـ ما...

سألته:

ـ كيف لك أن تضيع فجأة؟

أراد معانقتي.

لم يسمح له الطبيب بالاقتراب منّي:

ـ أجلس ـ أجلس، لا حاجة للعناق هنا.

و حولنا الأمر بطريقة ما إلى مزحة. وهنا هرع الجميع إلينا، ومن الغرف الأخرى أيضاً. جميعهم من معارفنا. من مدينة بريبياتِ. عددهم ثمانية وعشرون شخصاً، نقلوهم بالطائرة. كيف الوضع هناك؟ ماذا يحصل في المدينة؟ أجبتهم، لقد بدؤوا بترحيل السكان، وينقلونهم جميعاً إلى خارج المدينة لثلاثة أو خمسة أيّام. صمت الشباب، وكان هناك امرأتان، عملت إحداهنّ في مدخل الموظفين، وقد كانت ورديتها يوم الحادثة، بكت قائلة:

ـ يا إلهي! أطفالي هناك. ماذا يحصل لهم؟

رغبتُ أن نكون نحن الاثنين وحدنا، ولو لدقيقة واحدة. شعر الشباب بذلك، واختلق كل منهم عذراً، وخرجوا إلى الممر. عانقته حينها وقبّلته. ابتعد قائلاً:

ـ لا تجلسي بالقرب منّي. خذي الكرسي.

لوّحت بيدي قائلة:

ـ دع عنك كل ذلك محض غباء ـ لوحت بيدي ـ هل شاهدت أنت أين حصل الانفجار؟ ماذا حدث؟ لقد كنتم أوّل من وصل إلى هناك...

ـ على الأغلب، كان ذلك عملاً تخريبياً. أحد هم افتعل الأمر. هذا رأي الشباب جميعاً.

هكذا تحدّثوا عن ذلك حينها. وهكذا اعتقدوا.

عندما وصلت في اليوم التالي، كانوا قد فرّقوا المرضى أحدهم عن الآخر، وضعوا كلاً منهم في غرفة منفصلة. منعوهم منعاً باتاً من الخروج إلى الممر. والاختلاط فيما بينهم. فتواصلوا من خلال الجدار: إشارة فاصلة، إشارة فاصلة... إشارة... علل الأطباء ذلك، إنّ كل جسم يتفاعل مع جرعة الإشعاعات بشكل مختلف عن الآخر، بعضهم يتحمّل الجرعة، وبعضهم الآخر ليس في مقدوره. هناك حيث كانوا يرقدون، تحرّكت حتى الجدران. لقد أخلوا الطابق الأيمن، والأيسر، والذي تحتهم، ولم يبقوا أي مريض هناك... لا أحد فوقهم ولا تحتهم...

سكنت ثلاثة أيام عند معارفي المسكوفيين. قالوا لي: خذي طنجرة، وصحوناً، خذي ما تحتاجينه، لا تخجلي. يا لكرم هؤلاء الناس!... حضّرت حساء من مرقة الديك الرومّي لستة أشخاص. لستة من شبابنا... رجال الإطفاء... من ورديّة واحدة... لقد كانوا في مناوبتهم تلك الليلة:

فاشوك، وكيبينوك، وتيتينوك، وبرافيك، وتيشورا. اشتريت لهم جميعاً من المتجر معجون أسنان وفرشايات، صابوناً. لم يكن في المستشفى أي مادة منها. اشتريت أيضاً مناشف صغيرة...

أدهشني معارفي الآن، لقد كانوا خائفين طبعا، وما كان باستطاعتهم ألاّ يخافوا، فقد انتشرت إشاعات مختلفة، لكن بالرغم من ذلك عرضوا علي بأنفسهم: خذي كل ما يلزم. خذي! كيف حاله؟ كيف حال الجميع؟ هل سيبقون على قيد الحياة؟ سيعيشون... (تصمت) .التقيت حينها الكثير من الناس الجيدين، لا أتذكّر الجميع... ضاق العالم حتي أصبح نقطة... هو... هو فحسب... أتذكر تلك الممرضة العجوز، التي علّمتني: "هناك أمراض، لا شفاء لها. يجب الجلوس إلى جانب المريض والمسح على يديه".

في الصباح أقصدُ سوق الخضار، ومن هناك أتوجّه إلى معارفي. أحضّر الشوربة، أمسح كل شيء، وأزيّن، وأوزع إلى حصص. أحدهم طلب: "احضري لي تفاحاً".

... مع ست زجاجات سعة نصف ليتر... دوماً يجب تقسيم المواد إلى ستةّ!. أجلس حتى المساء... في المستشفى. وفي المساء ـ أعود مرة ثانية إلى الطرف الآخر من المدينة. إلى متى يمكن تحمّل ذلك؟ لكن بعد ثلاثة أيام اقترحوا علي، أن بإمكاني العيش في الفندق المخصص لموظفي الصحّة، داخل سور المستشفى نفسه. يا إلهي، يا لها من سعادة!!

ـ لكن لا يوجد هناك مطبخ. كيف سأحضّر لهم الطعام؟.

ـ لا حاجة لتحضير الطعام. ستتوقف بطونهم عن تقبل الطعام.

بدأت ملامحه تتغيّر ـ كنت ألتقي كل يوم إنساناً آخر... انتقلت

الحروق إلى الأعلى... إلى الفم، وعلى اللسان، والخدين - ظهرت بداية قرحات صغيرة، ثم أخذت بالنمو... خرجت اللزوجة على شكل طبقات، وأغشية بيضاء. لون الوجه... لون الجسد... أزرق... أحمر... بنّي - مائل للرماديّ... هو[1] على حاله تلك كلّه لي، إنّه محبوبي الغالي!. لا يمكن الحديث عن ذلك!. ولا يمكن الكتابة عنه!. وحتى التعايش مع ما يحصل... ما أنقذ الوضع، أن كل ذلك حصل بلحظة، ولم يكن هناك متسع من الوقت للتفكير به، ولم يكن هناك وقت للبكاء.

لقد أحببته!. لم أكن أعرف كم أحبّه! لقد تزوجنا لتوّنا... لم نفرح أحدنا بالآخر بعد... كان أثناء سيرنا في الشارع، يحملني فوق يديه ويدور بي حول نفسه، ويقبلني، يقبلني يمرّ الناس من جانبنا، ويبتسم الجميع.

مكث في المركز الصحّي لعلاج الأمراض الإشعاعية الحادّة - أربعة عشر يوماً... بعد تلك الأيام الأربعة عشر توفيَ...

أخضعني الإختصاصيون في اليوم الأول لدخولي الفندق لقياس نسبة التلوّث الإشعاعي، ففحصوا الثياب؛ والحقيبة، والجزدان، والحذاء، كُلّها كانت "تحترق". وصادروا منّي كلّ ذلك. وحتى الثياب الداخلية. النقود فقط لم يأخذوها. أعطوني بدل ذلك مريلة مستشفى بقياس ستة وخمسين في حين أنني ألبس من قياس أربعة وأربعين، أمّا الحذاء فبقياس ثلاثة وأربعين بدل سبعة وثلاثين. قالوا إنهم قد يعيدون الثياب لي وقد لا يفعلون، فالأرجح إنها لن تستجيب لعملية "التنظيف". ظهرتُ أمامه بهذا المظهر. أصابه الفزع: "أيتها السماوات، ماذا حصل

---

(١) تستخدم الروائية هنا ضميراً محايداً ليس مذكراً ولا مؤنثاً؛ وهو غير موجود في العربية؛ وكأنها تعبر بذلك عن تلك التغيرات المخيفة التي ألمت بالجسد جراء تعرضه للإشعاعات.

لك؟". وبالرغم من كل شيء فقد تحايلت وحضّرت الحساء. سكبت الماء المغلي في وعاء زجاجي... وأضفت إليه قطع لحم الدجاج... قطع صغيرة ـ صغيرة... ثم قدّم لي أحدهم طنجرة صغيرة، أعتقد أنها عاملة النظافة أو المناوبة في الفندق. وقدم شخصٌ آخر لوحاً خشبياً، قطّعت عليه البقدونس الطازج. ما كان باستطاعتي الوصول إلى سوق الخضار في مريلة المستشفى، فجلب لي الخضار أحدٌ ما. لكن كان ذلك دون فائدة، لم يستطع حتى شرب الحساء... وشرقَ بيضة نيّئة... لقد رغبتُ أن أقدم له طعاماً لذيذاً!. وكأن ذلك يمكن أن يساعده. أسرعت إلى مكتب البريد: "أيتها الفتيات ـ أرجوكنَّ ـ أريد الاتصال بوالدي بالسرعة القصوى في ايفانا ـ فرانكوفسك. زوجي هنا يفارق الحياة". شعرتُ وكأنّهن توقعن مباشرة، من أين أنا ومن هو زوجي، وحوّلن لي الاتصال على الفور. توجّه والدي وأختي وأخي في اليوم نفسه بالطائرة إليّ في موسكو. أحضروا لي أغراضي الشخصية، والنقود.

إنّه التاسع من أيار (مايو)... لقد كان يقول لي دائماً: "لا تتصوّري، كم هي جميلة موسكو! وبخاصّة يوم عيد النصر، عندما يطلقون الساليوت[1]. أتمنى، أن تشاهدي ذلك". أجلس بالقرب منه في غرفة المستشفى، يفتح عينيه ويسأل:

ـ الوقت الآن نهار أم مساء؟

ـ التاسعة مساء.

ـ افتحي النافذة! سيبدأ الساليوت!

---

(١) ساليوت بالروسيّة: التحيّة، إطلاق السلام وهنا تنطلق الألعاب النارية التي تضيءُ سماء موسكو والمدن الروسيّة والسوفيتيّة (يومذاك) كلها، احتفاء بيوم النصر على الفاشيين الألمان.

فتحتُ النافذة. الطابق الثامن، المدينة كلّها أمامنا! باقة من النار انتثرت في السماء.

ـ يا للروعة!

ـ لقد وعدتك، بأنني سأُريك موسكو. وعدتك، بأنني سأهديك الورود في الأعياد مدى الحياة...

التفتُ نحوه ـ يُخرج من تحت المخدة ثلاث زهرات قرنفل. لقد أعطى الممرضة نقوداً ـ وهي التي اشترتها.

اندفعت نحوهِ وقبلته:

ـ أنت وحيدي! أنت حبّي!

تذمّر قائلاً:

ـ ما الأوامر التي فرضها الأطباء عليك؟ ممنوع معانقتي! ممنوع تقبيلي!

لقد منعوني من معانقته. تمسيده... لكن أنا... أنا كنت أرفعه وأجلسه على السرير، أرتبُ فرشة سريره، وأضعُ له ميزان الحرارة، أحضرُ المبولة وأعيدها... أمسحها... لقد بقيت إلى جانبه ـ طوال الليل. حرستُ كل حركة من حركاته. وحتى الهواء.

من الجيد، أنني لم أكن داخل الغرفة، بل في الممرّ... أصابني دوار، تمسّكتُ بالنافذة... مرّ الطبيب بالقرب منّي، أمسكني من يدي. وقال بشكل غير متوقع:

ـ هل أنت حامل؟

خفتُ إلى درجة كبيرة، أن يسمع أحد ـ ما، وقلت له:

ـ لا ـ لا!

تنهّد قائلاً:

ـ لا تكذبي.

ارتبكت كثيراً، حتى أنني لم أجد الوقت لأسأله شيئاً.

في اليوم التالي استدعوني إلى رئيس القسم، التي سألتني بقسوة:

ـ لماذا كذبت عليّ؟

ـ لم يكن هناك مخرج آخر. لو قلت لك الحقيقة ـ لكنت قد أرسلتني إلى البيت. إنّه كذب مقدّس!.

ـ ماذا فعلت!!

ـ لكنني معه...

ـ يا عزيزتي أنت، يا عزيزتي...

سأبقى طوال حياتي ممتنّة لأنجيلا فاسيليفنا غوسكوفا. طوال حياتي!

حضر زوجاتُ رجال آخرين أيضاً، لكن لم يُسمح لهنّ بالدخول. كانت أمهاتهنَّ معي: سمحوا للأمهات... أمُ فولوديا برافكين كانت تسأل الله طوال الوقت: "الأفضل أن تأخذني بدلا عنه".

البروفيسور الأمريكي، الدكتور هيل... الذي أجرى عملية زرع نخاع العظم... هدّأني قائلاً: هناك أمل، صغير، لكنّه موجود. يا له من جسم قويّ جداً، إنّه شاب قوي! لقد استدعوا كلّ أقربائه. أخواته الاثنتين قدمتا من بيلاروسيا، وأخوه من لينينغراد، حيث كان يخدم هناك. نتاشا الصغيرة، كان عمرها أربعة عشر عاماً، بكت كثيراً وخافت. لكن نخاعها العظمي كان مناسباً أكثر من نخاع بقية أفراد الأسرة... (تتوقّف). باستطاعتي الآن التحدث عن ذلك... لم أستطع من قبل. لقد صمتُّ عشرة أعوام... عشرة أعوام... (تتوقّف).

عندما علم، بأنّ نقي العظام سيأخذونه من أخته الأصغر، رفض رفضاً قاطعا: "الأفضل أن أموت. لا تلمسوها، إنّها صغيرة". الأخت الأكبر لودا كانت في الثامنة والعشرين من عمرها، هي نفسها ممرضة، تدرك، على ماذا تقدم. كانت تقول: "المهم أن يبقى حيّا". شاهدتُ العملية. فقد استلقيا على طاولتين جنباً إلى جنب... هناك نافذة كبيرة في غرفة العمليات. استمرت العملية ساعتين... عندما انتهوا كان وضع لودا أسوأ من وضعه، كان في صدرها ثمانية عشر ثقباً، خرجت بصعوبة من تحت تأثير التخدير. والآن هي مريضة، ولديها إعاقة... كانت جميلة، كانت فتاة قويّة. لم تتزوج... أنا حينها كنت أتنقل بسرعة من حجرة إلى أخرى، من عنده ـ وإليها. كان ساعتها يرقد ليس في حجرة عاديّة، بل في حجرة ضغط خاصّة، خلف ستارة شفافة، لم يسمح بالدخول إليها. هناك أجهزة خاصّة، كي لا يتم المرور من تحت الستارة تسمح بإعطاء الحقن، ووضع القسطرة...، وكلّها مختومة بلصاقات طبية، ومقفلة بالقفل، وأنا تعلّمت استخدامها... أحشر نفسي... وأصل إليه... هناك كرسي صغير بجانب سريره... أصبحت حالته الصحيّة سيئة، لدرجة أنني لا أستطيع الابتعاد عنه لدقيقة واحدة. دائماً كان يناديني: "لوسيا، أين أنت؟ لوسينكا!". نادى ونادى... غرف الضغط الأخرى، التي يرقد فيها شبابنا، كان يخدمها جنود، لأنّ ممرضات المستشفى رفضن ذلك، مطالباتٍ بثياب واقية. الجنود كانوا يحضرون المبولات. يمسحون الأرض، ويبدلون فرشات الأسرة.. يخدمون خدمة كاملة. من أين ظهر الجنود هناك؟ لم أسأل... كان هو فقط... هو... كل يوم أسمع: لقد مات، لقد مات... مات تيشورا. مات تيتينوك. مات... كانت كضربات مطرقة على الرأس...

الكرسي الخامس والعشرون ـ ثلاثين مرة في اليوم. مع الدم

والمخاط. بدأ الجلد بالتشقق في اليدين والرجلين... غطت الجسم كله البثور. وعندما كان يديرُ رأسَه، تبقى على المخدة خصلة شعر... وما زال شقيقي وحبيبي... حاولت أن أمزح: "إنّ هذا مريح، لم يعد هناك حاجة لحمل المشط". حلقوا رؤوس الجميع بعد وقت قصير. حلقت شعره بنفسي. أردت أن أفعل له كل شيء بنفسي. لو استطعت جسديا التحمّل، لما فارقته طوال الأربع والعشرين ساعة. كنت آسف لكل دقيقة... الدقيقة مؤسفة... *(تغطي وجهها بيديها وتصمت)*. وصل أخي فأصابه الفزع، قال لي: "لن أسمح لك بالدخول إلى هنا!". أمّا والدي فقد قال له: "هل يمكن أن تمنع مثلها؟ ستتسلّق.. من النافذة! أو من خلال سلّم الطوارئ!".

غادرت... وعندما عُدت - وجدت برتقالة على الطاولة... كبيرة، ليست صفراء، بل وردية. ابتسم قائلاً: "ضيّفوني إيّاها. خذيها أنت". لوّحت الممرضة بيدها من خلال الستارة، بأن هذه البرتقالة غير صالحة للأكل. ا كانت لفترة من الزمن بالقرب منه، فهي ليست غير صالحة للأكل فحسب، بل أصبح الاقتراب منها مخيفاً. "تناوليها - رجاني - أنت تحبين البرتقال". أتناول البرتقالة في يدي. وفي هذا الوقت يغلق عينيه ويغفو. كانوا يعطونه الحقن طوال الوقت، كي ينام. حقن مخدِّرة. نظرت الممرضة إليّ وأصابها الرعب... أمّا أنا؟ فكنت مستعدة لعمل كل شيء، كي لا يفكر بالموت... وأن مرضه مخيف، وأنا أخافه... مقطع من حديث... أحملهُ في ذاكرتي... أحدهم يوصي: "عليكِ ألا تنسي: أن أمامك ليس زوجك، ولا الشخص الحبيب، بل جسم مشعّ بكثافة عالية من التلوّث. أنت لست انتحاريّة. تماسكي". وأنا كالمجنونة: "أنا أحبّه!. أنا أحبّه!". همست له وهو نائم: "أنا أحبك!". مشيت في فناء المستشفى: "أنا أحبك!". حملت المبولة: "أنا أحبك!". تذكرتُ

كيف كنّا نعيش من قبل... في سكننا الجماعي... كان يغفو ليلاً عندما يمسك بيدي فقط. كانت هذه عادته: يمسك بيدي أثناء النوم. طوال الليل.

أمّا في المستشفى فأنا أمسك بيده ولا أتركها...

الوقت ليلا. هدوء تام. نحن وحدنا. نظر إليّ بتمعّن - بتمعّن وقال فجأة:

- كم أرغب في أن أرى طفلنا. كيف سيكون؟.

- ماذا سنسمّيه؟.

- أنت نفسك من سيختار الاسم...

- لماذا أنا وحدي، ونحن اثنان؟.

- حسنا، إذا كان ذكراً، فليكن اسمه فاسيا، وإذا كان أنثى ناتاشكا.

- كيف نسمّيه فاسيا؟ لديّ فاسيا واحد. هو أنت! لا أحتاج إلى فاسيا آخر.

ما كنت أعرف كيف أحببته!. هو... فقط هو... كامرأة عمياء! لم أشعر حتى بضربات القلب. مع أنني في الشهر السادس... اعتقدتُ، بأنّ صغيرتي في داخلي، محميّة. صغيرتي...

لا يعرف أحدٌ من الأطباء، بأنني أنام عنده في الغرفة المعزولة. لم يتوقعوا. سمحت لي الممرضات. لقد حاولن في البداية إقناعي: "أنت - فتيّة. ماذا تعتقدين؟ إنّه لم يعد إنساناً، بل مفاعل. ستحترقان سويّة". أنا مثل الكلبة، ركضت خلفه... وقفت ساعات أمام الباب. طلبتُ - توسّلتُ. وحينها قالوا لي: "لتذهبي إلى الجحيم! أنت - مجنونة". صباحاً قبيل الثامنة، عندما تبدأ جولة الأطباء، يؤشرن لي من خلال

الستارة: "اهربي". حينها أذهب إلى الفندق لمدة ساعة. ومن التاسعة صباحاً، حتى التاسعة مساء لدي تصريحٌ بالدخول. لقد ازرقّت رجلي حتى الركبة، وتورّمت، لأنني تعبت كثيراً. كانت روحي أقوى من جسدي... كان حبّي...

حين أكون معه... لم يفعلوا ذلك... لكن بعد أن أخرج من هناك، يصوّرونه... لا توجد أية ثياب. إنّه عار؟ يوجد فقط شرشف خفيف يغطيه من الأعلى. كنت أبدّل هذا الشرشف كل يوم. عندما يحين المساء يكون قد امتلأ بالدم. وحين أرفعه، تبقى على يدي قطع من الجلد، وتلتصق. أرجوه: "حبيبي! ساعدني! استند إلى يدك، على مرفقك، قدر استطاعتك، كي أرتب لك الفراش، لم تخرج بعد إلى الأعلى قطبة الثنية". أية قطبة صغيرة - هي جرح عليه. لقد قلّمت أظافري إلى أقصى حد، كي لا تعلق في أي موضع من جسده. لا أحد من الممرضين يتجرّأ على الاقتراب منه، ولمسه. إذا احتاجوا شيئاً - ما، ينادونني. وهم... هم يصوّرون... قالوا من أجل العلم. لو كان الأمر بيدي، لطردتهم جميعاً من هناك!. لكنتُ صرخت وضربت!. كيف يمكنهم فعل ذلك!. لو كان باستطاعتي لرفضت السماح لهم بالدخول... لو كان باستطاعتي...

أخرج من الغرفة إلى الممر... وأمشي إلى الجدار، إلى المقعد، لأنّني لا أرى شيئا. أستوقف الممرضة المناوبة: "إنّه يموت". أجابتني: "وماذا كنت تريدين؟. لقد تلقّى ألف وستمئة رونتجين، والجرعة القاتلة أربعمئة". إنّها آسفة لأجله أيضاً. لكن كان بإمكانها الإجابة بطريقة أخرى. وبالرغم من ذلك كلّه لي... كلّه حبيبي.

عندما مات الجميع،.أجروا صيانة في المستشفى.. قشروا الجدران، فجّروا الأرضيات ورحّلوها... وورشة نجارة...

بعد ذلك ـ أخيراً... أتذكّر مقاطع... كلّها تطفوا...

أجلس ليلاً على الكرسي إلى جانبه... في الساعة الثامنة صباحاً قلت له: "فاسينكا، إني ذاهبة. سأرتاح قليلا". فتح عينيه وأغلقهما ـ وترك يدي. ما أن وصلت إلى الفندق، إلى غرفتي، وأستلقيت على الأرض، لأنني لم أستطع الاستلقاء على السرير، فقد كان كل ما فيي يؤلمني، حتى قرعت الممرضة الباب قائلةً: "اذهبي! اركضي إليه! يناديك بلا هوادة!". وفي صباح ذلك اليوم كانت تانيا كيبينوك قد دعتني قائلة: "تعالي معي إلى المقبرة. لا أستطيع الذهاب بدونك". دفنوا في ذلك الصباح فيتيا كيبنوك وفولوديا برافيك. كانا صديقي فاسيا، كانت صداقتنا أسريّة. التقطوا سويّة صورة تذكارية في السكن الجماعي قبل يوم واحد من الانفجار. بدا أزواجنا في الصورة فرحين! وجميلين! في آخر يوم من حياتنا تلك... ما قبل تشرنوبل... كذلك كنّا سعداء!.

اتصلت بعد عودتي من المقبرة بسرعة إلى مكتب الممرضة وسألتها: "كيف حاله هناك؟" ـ "لقد فارق الحياة قبل خمس عشرة دقيقة". كيف؟ لقد كنت معه طوال الليل. تركته لثلاث ساعات فقط!. وقفت عند النافذة وصرخت: "لماذا؟ بأيّ سبب؟". نظرت إلى السماء وصرخت... انتشر صراخي في المستشفى كلّه... خافوا الاقتراب منّي... تذكرتُ: في النهاية يجب أن أراه! أراه! نزلت بسرعة على الدرج... إنّه ما زال يرقد في الغرفة المعزولة، لم ينقلوه. كانت آخر كلماته: "لوسيا! لوسينكا!" ـ هدأته الممرضة قائلة: "خرجت لتوّها. ستعود بسرعة"، تنهّد وصمت.

لم أعد أبتعد عنه... سرتُ معه إلى التابوت... مع العلم أنّ ما بقي في ذاكرتي ليس التابوت نفسه، بل كيس البوليتيلين الكبير... ذلك الكيس... سألوني في ثلاجة الموتي: "تريدين أن تري الثياب التي

سنلبسها له؟". نعم أريد. ألبسوه بذلة الاستعراض العسكري، ووضعوا الطاقية على صدره. لم يجدوا الحذاء المناسب، لأنّ رجليه متورمتان. قنابل بدل الأرجل. البذلة الاستعراضية قصّوها أيضاً، لم يستطيعوا شدّها، نصف الجسد لم يعد هناك. كل شيء ـ كان جرحا دمويّآ. آخر يومين في المستشفى... أرفع يده، يهتز العظم، ويتأرجح، انفصلت عنه طبقة الجلد. سرت قطع الرئتين، وقطع الكبد من خلال الفم... شرق بأعضائه الداخلية... كنت ألف يدي بالشاش وأدخلها في فمه، وأستخرجها.. هي أمور لا يمكن الحديث عنها!، ولا يمكن كتابتها! وحتى عيشُها!... إنّ كل ذلك شقيقي... ذلك... وما من حذاء بأي قياس كان يمكن أن يدخلوا قدمه فيه... وضعوه في التابوت حافياً...

أمام عيني... أدخلوه في كيس البلاستيك بالزيّ الاستعراضي وحزموه. وهذا الكيس وضعوه في تابوت خشبي... ولفّوا التابوت أيضاً، بكيس من البلاستيك... البلاستيك شفاف، لكنّه سميك، مثل المشمّع. وكل ذلك وضعوه في تابوت من الزنك، أدخلوه بصعوبة. بقيت القبعة في الأعلى.

اجتمعنا كلّنا... أهله، وأهلي... اشترينا في موسكو أوشحة سوداء... استقبلتنا لجنة الطوارئ. قالت للجميع الكلام نفسه، لا نستطيع إعطاءكم جثث أزواجكم، أولادكم، لأنّها عالية الإشعاع وسوف تدفن في مقبرة موسكو بطريقة خاصّة، في توابيت من الزنك محكمة الإغلاق، تحت ألواح من الإسمنت المسلّح. ويجب عليكم أن توقعوا على هذه الوثيقة... نحتاج موافقتكم... وإذا تذمّر أحد ـ ما، وأراد أن ينقل التابوت إلى مسقط رأسه، أقنعوه، بأنّ هؤلاء أبطال ولم تعد ملكيتهم لأسرهم. إنّهم الآن أناس حكوميون... وتعود ملكيتهم للدولة.

ركبنا في سيارات دفن الموتى... الأقرباء وشخصيات عسكرية. عقيد

يحمل جهز لاسلكي... يوجّهون من خلال جهاز اللاسلكي: "انتظروا تعليماتنا! انتظروا!". سرنا ساعتين أو ثلاث في موسكو، وفي الطريق الدائري. ثم عدنا إلى موسكو مرّة أخرى... يعلنون عبر اللاسلكي: "لا نسمح بدخول المقبرة الآن. يهاجم المقبرة صحافيون أجانب. مزيد من الانتظار". صمت الأهل... ماما ترتدي وشاحاً أسود... وأنا أشعر بأنني أفقد الوعي. أصابتني حالة هستيرية: "لماذا يتوجب على زوجي التخفي؟... من ـ هو؟ قاتل؟ مجرم؟ جانٍ؟ من ندفن نحن؟. قالت ماما: "اخفضي صوتك، اخفضي صوتك، يا ابنتي". طبطبت على رأسي، ومسكتني من يدي. قال العقيد عبر اللاسلكي: "اسمحوا لنا بمتابعة السير إلى المقبرة. الزوجة بحالة هستيرية". في المقبرة طوّقنا الجنود. سرنا تحت الحراسة. وحملوا التابوت تحت الحراسة. لم يسمحوا لأحد أن يودع الجثمان... الأقرباء وحدهم... دفنوه فوراً. أمر الضابط قائلاً: "بسرعة! بسرعة!". منعونا حتى من معانقة التابوت.

ومباشرة إلى الباصات...

اشتروا تذاكر العودة وأحضروها على الفور... في اليوم التالي... رافقنا طوال الوقت شخص يلبس بزة رسميّة، ذو هيبة عسكرية، لم يسمح لنا بالخروج من غرفة الفندق، وبشراء طعام في الطريق. والويل لنا لو تحدثنا إلى أحد، وبخاصّة أنا. وكأن باستطاعتي التحدث، لم أعد أستطيع حتى البكاء. عندما خرجنا من الفندق، عدّت الموظفة المناوبة كل المناشف، وشراشف السرير... طوتها مباشرة في كيس من البلاستيك. أعتقد، أنّهم أحرقوها... دفعنا نحن أجرة الفندق. لقاء أربعة عشر يوماً...

المركز الصحّي لمعاجة الأمراض الإشعاعية ـ أربعة عشر يوماً... الإنسان يموت بعد أربعة عشر يوماً...

غفوت في البيت. دخلت إليه وارتميت على السرير. نمت ثلاثة أيام... لم يستطيعوا إيقاظي... حضرتْ "سيارة الإسعاف". قال الطبيب: "لا، إنّها لم تمت. ستستيقظ. إنّه سبات مخيف".

كنت في الثالثة والعشرين من عمري...

أتذكر حلماً... تأتي إليّ جدتي المتوفاة، في الثياب التي دفناها فيها. وأخذت تزيّن شجرة الميلاد. سألتها: "جدتي، لماذا شجرة الميلاد عندنا؟ أليس الوقت صيفا؟".

أجابت: "ضروري ذلك. قريبا سيأتي إلى عندي زوجك فاسيا". لقد نما وسط الغابات. أذكر... الحلم الثاني... يأتي فاسيا باللباس الأبيض وينادي ناتاشا. ناتاشا هي الابنة التي لم ألدها بعد. كانت قد كبرت، دهشت: متى كبرت بهذا الشكل؟ يؤرجحها إلى ما تحت السقف، ويأخذان بالضحك... وأنا أنظر إليهما وأفكر، بأن السعادة ـ بهذه البساطة. بسيطة إلى هذا الحد! حلمت فيما بعد... أننا نخوّض سوية في الماء متسكعين. نمشي طويلاً ـ طويلاً... طلب منّي على ما يبدو، أن لا أبكي. لقد أعطى إشارة من هناك. من الأعلى. *(تهدأ لفترة طويلة)*.

وصلت إلى موسكو بعد شهرين. من محطة القطار ـ إلى المقبرة. إليه! وجاءني المخاض هناك في المقبرة، ما إن بدأت التحدّث إليه... استدعوا "الإسعاف". أعطيتهم العنوان. وضعت جنيني في المكان نفسه... عند أنجيلينا فاسيليفنا غوسكوفا تلك... لقد حذّرتني حينها: "تعالي إلينا للولادة". إلى أي مكان آخر سأذهب وأنا في هذا الوضع؟ لقد وُلّدت قبل أسبوعين من الموعد...

جعلوني أراها... بنت... سميّتها: "ناتاشينكا، بابا سمّاك

ناتاشينكا"[1]. ظاهرياً إنه طفل معافى. يداها، رجلاها... لكن كانت مصابة بتصلب الكبد... ثمانية وعشرون رينجين في كبدها... وفتق ولادي في القلب... بعد أربع ساعات قالوا بأن الطفلة ماتت. ومرّة أخرى، قالوا لن نسلّمك إيّاها! كيف لن تسلّموني إيّاها؟! أنا لن أسلّمكم إيّاها! تريدون أخذها للعلم، وأنا أكره علمكم! أكرهه! أخذهُ منّي في البداية، وينتظر الآن... لن أعطيك إيّاها! سوف أدفنها بنفسي، إلى جانبه... *(تنتقل إلى الهمس)*.

ليست تلك هي الكلمات التي يجب أن أقولها... ليست تلك... ممنوع أن أصرخ بعد الجلطة. وأن أبكي أيضاً. لكن أريد... أريد، أن تعرفوا... لم أعترف حتى الآن لأحد... عندما لم أعطهم ابنتي الصغيرة. ابنتنا... حينها أحضروا لي صندوقاً خشبياً وقالوا: "هي ـ هناك". نظرت: لقد قمّطوها. تمددت في القماط. وحينها بكيت قائلة: "ضعوها عند رجليه. قولوا له، إنّها ابنتنا ناتاشينكا".

هناك في المقبرة لم يُكتب ناتاشا ايغنوتينكا... هناك اسمه فقط... لقد كانت من دون اسم، من دون أي شيء... روح فقط... لقد دفنت هناك روحاً...

آتي إليهما دائماً بباقتي ورد: باقة ـ لهُ، والباقة الثانية ـ أضعها لها في الزاوية. أزحف عند القبر على ركبتي... دائماً على ركبتي... *(من دون ربط)*. لقد قتلتها... أنا... هي... أنقذت... ابنتي أنقذتني، لقد تقبلت كامل الضربة الإشعاعية على نفسها، أصبحت كما لو أنها جهاز استقبالٍ امتص تلك الضربة. صغيرة لدرجة. صغيرة جداً. *(تقطعت أنفاسها)*. لقد

---

(١) اسم تصغير من ناتاشا للتحبب.

حمتني... وأنا أحببتهما.. الاثنين... هل... هل يمكن القتل بالحب؟ بمثل هذا الحب!!. لماذا هما الواحد إلى جانب الآخر؟ الحب والموت. هما دائماً معاً. من يفسّر لي؟ أزحف عند القبر على ركبتيَّ... (*تنطفئ لفترة طويلة*).

... منحوني شقة في مدينة كييف. في مبنى كبير، حيث يعيش هناك الآن، أولئك الذين غادروا المحطة الذرية. كلّهم معارفنا. الشقة كبيرة، تتألّف من غرفتين، هي التي كنّا نحلم بها أنا وفاسيا. لكنني فيها أصبتُ بالجنون! في كل زاوية، وإلى أي مكان أنظر ـ أراه هناك.. في كل ركن... عيناه... بدأت بالصيانة، فقط كي لا أجلس، فقط كي أنسى. وهكذا مرت سنتان... رأيت حلماً... نمشي سوّية، لكنّه يمشي حافياً. قلت له: "لماذا دائماً تسير من دون حذاء؟". أجابني: "لأنّه لا يوجد لديّ ما أنتعله". قصدتُ الكنيسة... علّمني الخوري قائلاً: "يجب شراء حذاء مقاسه كبير ووضعه في تابوت أحدهم. وكتابة ملاحظة ـ بأنّ هذا الحذاء له". هكذا فعلت... سافرت إلى موسكو، ومباشرة ـ إلى الكنيسة، في منطقة قريبة منه... هو يرقد هناك، في مقبرة ميتينسك... حدثت الكاهن، بالأمر، وأن عليَّ أن أرسل إليه الحذاء. سأل: "هل تعرفين كيفية القيام بذلك؟". شرح لي مرّة أخرى... وللمصادفة حضروا لدفن جدّ عجوز. اقتربتُ من التابوت، رفعتُ الغطاء ووضعتُ الحذاء هناك. "هل كتبت الرسالة؟" ـ "نعم، لقد كتبت، لكنّي لم أشر في أي مقبرة يرقد" ـ "إنهم هناك في عالم واحد. سيجدونه".

لم تكن لي أدنى رغبة في الحياة. أقف ليلاً عند النافذة، أنظر إلى السماء وأقول: "ماذا أفعل فاسينكا؟ لا أريد العيش من دونك". أمرّ بالقرب من روضة الأطفال نهاراً، أتوقف... نظرت ونظرت إلى الأطفال... أصابني الجنون! ليلاً رجوته: "فاسينكا، أريد أن ألد طفلاً.

أخاف البقاء وحدي. لا أستطيع التحمّل أكثر. يا فاسينكا!!". وفي مرّة أخرى رجوته أيضاً: "فاسينكا، لا أحتاج إلى الرجال، لا يوجد أفضل منك عندي. أريد طفلاً".

أنا في الخامسة والعشرين من عمري...

وجدت رجلاً... شرحت له كلّ شيء... الحقيقة كلّها: لديّ حبّ واحد، طوال حياتي. أطلعته على كل شيء... كنّا نلتقي، لكن ما دعوته إلى بيتي أبداً، في البيت لم أستطع. هناك ـ فاسيا...

عملتُ في صنع الحلوى، أحضّر الكاتو.. والدموع تنهمر. أنا لا أبكي لكن الدموع تنهمر، الأمر الوحيد الذي طلبته من الفتيات: "لا ترثين لحالي، لوفعلتُن ذلك فسأذهب"، أردتُ أن أكون كالآخرين. ليس على أحد أن يرثي لحالي.... في يوم ما كنت سعيدة....

أحضروا إلي وسام فاسيا... النجمة الحمراء[1]. لم أستطع النظر إليه طويلاً. تدحرجت الدموع...

... وَلَدْتُ طفلاً. أندريه... أندرييكا... استوقفتني صديقاتي وقلن لي: "لا يمكنك الانجاب"، وأخافني الأطباء: "جسمك لا يتحمّل". فيما بعد... فيما بعد... قالوا لي بأن الطفل سيكون بدون يد... بدون اليد اليمنى... الجهاز شخّص ذلك... فكرت: "وليكن، أعلّمُهُ الكتابة باليد اليسرى". لكنّه وُلدَ طبيعياً... صبيٌّ جميلٌ... يتعلم الآن في المدرسة، متفوّق في دراسته. يوجد الآن لديَّ أحد ـ ما، أعيش وأتنفّس به. إنّه نور في حياتي. إنّه يستوعب كلّ شيء بشكل رائع. قال لي ذات مرّة: "ماما، هل يمكنك التنفّس إذا سافرت إلى جدتي لمدة يومين؟". لا

---

(١) هو الوسام الأرفع في الاتحاد السوفييتي.

أستطيع! أخاف أن أفارقه ليوم واحد. كنّا ذات مرّة نسير في الشارع... وشعرت بأنني، أسقط... حينها أصبت بالجلطة الأولى... هناك، في الشارع... "ماموشكا[1]، هل تريدين ماء". - "لا، قف إلى جانبي. لا تذهب إلى أي مكان". وتشبثت بيده. بعدها لا أذكر شيئاً... فتحت عيني في المستشفى... مسكت به، إلى درجة أن الأطباء تمكنوا بصعوبة من فتح أصابعي. بقيت يده مزرقّة لفترة طويلة.

الآن، وعندما نخرج من البيت، يقول لي: "ماموشكا، لا تتشبثي بيدي. لن أبتعد عنك". إنّه أيضاً يمرض: أسبوعين في المدرسة، وأسبوعين في البيت مع الطبيب. هكذا نعيش. يخاف كلّ منّا على الآخر. لكن فاسيا في كلّ زاوية... صوره... أتحدّث إليه ليلاً وأتحدّث... يحدثُ أحياناً، أن يسألني في الحلم: "أرني طفلنا". نتقدّم أنا وأندريه نحوه... وهو بدوره يمسكُ بيد ابنتنا ويحضرها معه. هو دائماً مع الابنة. ويلعب معها فقط...

هكذا أعيش... أعيش في الوقت نفسه في العالمين الواقعي وغير الواقعي. لا أعرف أين الأفضل بالنسبة لي... *(تقف وتقترب من النافذة)*. عددنا كبير هنا. شارع بأكمله، يسمّونه - شارع تشرنوبل. هؤلاء الناس عملوا طوال حياتهم في المحطة. الكثير منهم ما زال يذهب إلى هناك للمناوبة، تتم خدمة المحطة الآن بنظام الورديات. لا يعيش أحد هناك، ولن يعيش فيها أحد أبداً. لدى الجميع أمراض صعبة، إعاقات، ولكنهم لا يتركون أعمالهم، يخافون حتى التفكير بذلك. لا توجد لديهم حياة بدون المفاعل، المفاعل - هو حياتهم. أين ومن اليوم يحتاجهم في مكان آخر؟. غالبا ما يموتون. يموتون فجأة. يموتون في الطريق - مشى

---

(١) لفظ تصغير من أماه (مات) للتحبب.

وسقط، غفا ولم يصحُ. حمل الورد للممرضة وتوقف قلبه. وقف على موقف الباص... إنّهم يموتون، لكن لكن أحداً لم يسألهم بشكل جدّي، كيف كانت معاناتهم... ماذا شاهدوا... لا يحبُ الناس أن يسمعوا عن الموت. عن المخيف...

لكنّني حدثتكم عن الحب... وكيف أحببت...»

لودميلا ايغناتينكو،

زوجة الشهيد رجل الإطفاء

فاسيلي ايغناتينكو

مقابلة ما بين المؤلفة ونفسها حول التاريخ المُغفل، لماذا يضع تشرنوبل تصوّرنا للعالم تحت الشكوك

أنا شاهدة على تشرنوبل... أهمّ أحداث القرن العشرين، بغض النظر عن الحروب المخيفة والثورات، التي سيتذكرها هذا القرن. عشرون عاما مرّت بعد الكارثة، لكن لديّ حتى الآن سؤال ـ على ماذا سأشهد: على الماضي أم على المستقبل؟ من السهل هكذا السقوط في الابتذال... في ابتذال الرعب... لكنني أنظر إلى تشرنوبل، كبداية للتاريخ الجديد، إنّه ليس معرفة فحسب، بل مقدمة المعرفة، لأنّ الإنسان دخل في جدال مع التصوّرات القديمة عن نفسه وعن العالم. عندما نتكلّم عن الماضي أو عن الحاضر، فإنّنا نُدخل في هذه الكلمات تصوّراتنا عن الزمن، لكن تشرنوبل ـ هو قبل كلّ شيء كارثة الزمن. إن النيكلودات المشعّة المنثورة على أرضنا، ستعيش خمسين، مئة، مئتي ألف عام... وأكثر... فهي أبديّة من وجهة نظر الحياة الإنسانية. ما الذي نقدر نحن على إدراكه؟ هل بمقدورنا الوصول إلى المغزى الكامن في هذا الرعب غير المعروف لنا من قبل ووعيه تماماً؟.

عن ماذا هذا الكتاب؟ ولماذا كتبته؟.

هذا الكتاب ليس عن تشرنوبل، بل عن عالم تشرنوبل. كُتِبتْ عن الحادثة نفسها آلاف الصفحات وصُوِّرت مئات آلاف المترات من أفلام التصوير. أنا أشتغلُ على ما يمكن أن أسمّيه التاريخ المغفل، على الآثار

التي لم تترك أثراً لوجودنا على سطح الأرض وفي الزمن. أكتبُ وأجمعُ الأحاسيس اليومية، والأفكار، والكلمات. أحاول الارتقاء لأكون روحاً. وأكتب عن الحياة اليومية المعيشة للناس العاديين. هنا كلّ شيء غير عادي: الظروف، والناس، وكيف أُجبروا أن يكونوا، رفعوهم ليصبحوا بمستوى الظروف، عندما أعمروا الفضاء الجديد. تشرنوبل بالنسبة لهم ـ ليس استعارة ولا رمزاً، هو ـ بيتهم. كم مرّة أجرى الفن بروفات على الرؤيا، وجرّب سيناريوهات تكنولوجية متعددة ليوم القيامة، لكننا الآن نعرف بدقة، بأن الحياة ستكون أكثر غرابةً. سألني أحدهم بعد سنة من الكارثة: "الجميع يكتب. وأنت تعيشين هنا ولا تكتبين. لماذا؟" أنا لم أعرف، كيف أكتب عن ذلك، بأيّة وسيلة ومن أين تدخل. إذا كنت في السابق، عندما كتبت كتبي، قد نظرت عميقاً في معاناة الآخرين، فأنا وحياتي الآن قد أصبحنا جزءاً من الأحداث نفسها. فقدنا بصيرتنا جميعاً، ولا يمكننا الابتعاد إلى مسافة ما عما جرى. اسم دولتي الصغير الضائع في أوروبا، تلك التي لم يعرف عنها العالم تقريباً أي شيء من قبل، رنَّ في جميع اللغات، وتحوّلت إلى مختبر تشرنوبل الشيطاني، أمّا نحن البيلاروسيين، فأصبحنا شعب تشرنوبل. ما من مكان أظهر فيه الآن إلا وينظرون إلي بفضول سائلين: "هل أنت من هناك؟ ماذا حدث عندكم؟". طبعاً كان يمكن كتابة كتاب بسرعة، مثل تلك الكتب التي صدرت فيما بعد، الواحد تلو الآخر ـ ماذا حصل تلك الليلة في المحطة، من المذنب، كيف أخفوا الحادث عن العالم وعن شعبهم، كم احتاج الأمر من أطنان الرمل والإسمنت لتشييد التابوت فوق المفاعل الذي يتنفّس الموت، ـ لكن شيئاً ـ ما استوقفني. قبض عليّ من يدي. ماذا؟ الإحساس بالسرّية. هذا الإحساس الذي استقر فينا، وخيّم حينها فوق كل شيء: أحاديثنا، وتصرّفاتنا، ورعبنا مما أعقب الحادث مباشرة.

الحادث ـ الوحش الضخم. لقد ظهر لدى الجميع إحساس يمكن التعبير عنه أو لا يمكن، بأننا اصطدمنا بالمجهول. تشرنوبل ـ هو سرّ، يتعيّن علينا حلّه. هو رمز غير مفسّر. لعلّه لُغز للقرن الحادي والعشرين. وتحدّ له. لقد أصبح واضحاً: فماعدا التحديات الدينية والقومية والشيوعية التي نعيشها ونتخطّاها اليوم، تنتظرنا تحديات أخرى، أكثر وحشية وشمولية، لكنها ما زالت خافية عن العين. إلا أن شيئاً ـ ما بدأ يتكشّف بعد تشرنوبل...

ليلة ٢٦ نيسان (أبريل) عام ١٩٨٦... خلال تلك الليلة الواحدة انتقلنا إلى مكان آخر من التاريخ. حققنا قفزة إلى واقع جديد، وتبيّن أن هذا الواقع أعلى ليس فقط من معرفتنا، بل ومن تصوّراتنا أيضاً. انقطع ارتباط الأزمان... اتّضح فجأة أن الماضي عاجز وغير قادر، لا شيء فيه تستند إليه، لم نجد (كما كنّا نعتقد) في أرشيفات البشرية كلّها، مفاتيح كي نفتح هذا الباب. سمعت أكثر من مرّة في تلك الأيام عبارات: "لا أستطيع إيجاد الكلمات، لأعبّر، عما شاهدت وعايشت"، "لم يحدثني أحد من قبل عما يشبه ذلك"، "لم أقرأ عن ذلك في أي كتاب، ولم أر في السينما". إنّ الفترة ما بين حصول الكارثة، وبداية التحدّث عنها، كانت فترة توقف مؤقت. لحظة بُكم... علقت في ذاكرة الجميع... اتخذوا في مكان ـ ما، في الأعلى حلولاً محددة، ألّفوا تعليمات سرّية، أطلقوا طائرات الهيليوكوبتر إلى السماء، حرّكوا في الطرق أعداداً ضخمة من الآليّات، وفي الأسفل ـ انتظروا الأخبار وخافوا. عاشوا مع الشائعات، لكنهم جميعاً سكتوا عن الأهم ـ ما الذي حصل بالفعل؟. لم يجدوا كلمات للأحاسيس الجديدة ولم يجدوا أحاسيس للكلمات الجديدة، لم يستطيعوا التعبير بعد، لكن شيئاً فشيئاً انغمسوا في أجواء محاكمات عقلية جديدة، هكذا يمكن اليوم، تحديد حالتنا حينها.

ببساطة لم تعد الحقائق تكفي، كنا مشدودين للنظر إلى ما خلفها، والدخول في جوهر ما يحدث. كان تأثير الهزّة بادياً على الوجوه. وأنا كنتُ أبحث عن هذا الإنسان المهزوز... قال نصوصاً جديدة... كانت الأصوات أحيانا تخترق.. وكأنّها ـ من خلال حلم أو هذيان ـ قادمة من العالم الموازي. قريباً من تشرنوبل بدأ الجميع بالتفلسف. أصبحوا فلاسفة. امتلأت المعابد بالناس من جديد... مؤمنين وملحدين منذ زمن غير بعيد.. بحثوا عن الأجوبة، التي لم تستطع الفيزياء والرياضيات تقديمها. اهتز العالم ثلاثيّ الأبعاد، ولم ألتقِ مقدامين، يستطيعون من جديد أن يقسموا بإنجيل الماديّة. ومضت بشكل ساطع اللانهائية. صمت الفلاسفة والكتاب، الساقطين عن سكة الثقافة والتقاليد المعروفة. الأكثر إمتاعاً في تلك الأيام، كان التحدّث ليس إلى العلماء، والموظفين والعسكريين ذوي الرتب العالية، بل

إلى كبار السن من الفلاحين. يعيشُ هؤلاء من دون تولستوي ودوستويوفسكي، ومن دون الانترنيت، لكنّ إدراكهم استوعب بشكل ـ ما صورة العالم الجديدة. ولم تتحطم. أعتقد أننا كنا تمكنا على الأغلب من معالجة الأمر، لو تعاملنا مع الحالة النووية العسكرية كما في هيروشيما، لأننا كنّا مستعدين لها. لكن الكارثة حصلت في موقع نوويٍ غير عسكري، ونحن كنّا أبناء زمننا ووثقنا بما علّمونا إياه، من أنّ المحطات النووية السوفيتية هي أكثر أماناً في العالم، ويمكن بناؤها حتى في الساحة الحمراء. الذرّة العسكرية ـ هي هيروشيما وناكازاكي، أمّا الذرة السلمية ـ فهي مصباح كهربائي في كلّ بيت. لم يتوقع أحد بأنّ الذرة العسكرية والذرة السلمية توأمان. شريكان. لقد ازددنا ذكاء، والعالم كلّه ازداد ذكاء، لكنّه فعل ذلك بعد تشرنوبل. البيلاروسيون اليوم "صناديق سوداء" حيّة، تسجّل المعلومات للمستقبل. وللجميع.

طويلاً كتبت هذا الكتاب... عشرين عاماً تقريباً... التقيت الموظفين السابقين في المحطة وتحدثت إليهم، والتقيت العلماء، والأطباء، والجنود، والنازحين، والوافدين... التقيتُ كل من شكّل تشرنوبل بالنسبة له ـ المحتوى الأساس لعالمه، من سمّم تشرنوبل ما في داخله ومحيطه، وليس الأرض والماء فحسب. تحدثوا جميعهم، وبحثوا عن أجوبة... فكرّنا سويّة... تعجّلوا جميعهم، مخافةَ أن يداهمهم الوقت، لم أكن أعرف أن ثمن شهاداتهم ـ هي الحياة. "اكتبي... ـ كرّروا القول ـ لم نفهم كل شيء شاهدناه، لكن فلتبقَ شهاداتنا تلك. قد يقرأها أحد ـ ما ويفهمها. فيما بعد... من بعدنا...". لم يكن استعجالهم سدى، الكثير منهم لم يعد في عداد الأحياء. لكنهم تمكنوا من إرسال إشارة...

كل ما هو معروف لنا عن الرعب والخوف، مرتبط بمعظمه بالحرب. معسكرات العمل الستالينية (الغولاغ)و مثيلاتها قريبة العهد اكتسبت صبغة الشر... التاريخ كان دائماً تاريخ الحروب وقادتها، وعُدَّت الحرب ـ ولنقل ـ مقياساً للرعب. لهذا السبب يخلط الناس ما بين مفهومي الحرب والكارثة... في تشرنوبل كما لو أن كل علائم الحرب بدت واضحة: الكثير من الجنود، النزوح، البيوت المهجورة. اختلت مسيرة الحياة. المعلومات عن تشرنوبل في الصحف معظمها كلمات عسكرية: الذرّة، انفجار، أبطال... وهذا ما يعقد إدراك أننا موجودون في تاريخ جديد... بدأ تاريخ الكوارث... لكن الإنسان لا يريد أن يفكر بذلك، لأنّه لم يشغل ذهنه بذلك أبداً من قبل. إنّه يختبئ خلف ما هو معروف بالنسبة له. خلف الماضي. حتى أن النصب التذكارية التي أقيمت لأبطال تشرنوبل، تشبه النصب التذكارية العسكرية...

ـ زيارتي الأولى إلى المنطقة...

الحدائق مزهرة، بفرح يلمع العشب الفتي في الشمس. الطيور تغرّد. إنّه عالم... معروف... معروف. الفكرة الأولى: كل شيء في مكانه، وكل شيء كما في السابق. الأرض نفسها، والماء نفسه، والأشجار نفسها. والشكل، واللون، ورائحتها أبديّة، وليس بمقدور أحد أن يغيّر أي شيء. ومنذ اليوم الأوّل شرحوا لي: لا تقطفي الورود، والأفضل أن لا تجلسي على الأرض، لا تشربي الماء من النبع. لاحظت في المساء، كيف أراد الرعاة دفع القطيع المتعب إلى النهر، لكن الأبقار ما إن اقتربت من الماء حتى استدارت عائدة. وكأنها استشعرت الخطر. أما القطط ـ وكما حدّثوني ـ فقد امتنعت عن أكل الفئران الميّتة، المتناثرة في كل مكان: على الأرض، وفي فناء البيوت. انتشر الموت في كل مكان، لكنّه كان موتاً من نوع آخر. بأقنعة جديدة. وبمظهر غير معروف. لقد باغتوا الإنسان على حين غرّة، لم يكن مستعداً. لم يكن مستعداً، كنوع بيولوجي، لم يعمل جهازه الطبيعي كلّه، المجهّز، كي يرى، ويسمع ويلمس. كل ذلك ما كان ليعمل، فالعينان، والأذنان، والأصابع لم تصلح، ما استطاعت الخدمة، لأن الإشعاعات لا ترى وليس لها رائحة ولا صوت. إنّها دون جسد. حاربنا طوال حياتنا أو استعدينا للحرب، ونعرف عنها الكثير ـ وفجأة! تغيّر شكلُ العدوّ. ظهر لدينا عدوّ آخر... أعداء... يقتلُ العشبُ الصالح للأكل. السمكةُ المصطادةُ تقتلُ، الطريدة الممسوكة تقتلُ. التفاح... كانَ العالمُ حولنا من قبل، طيباً دمثاً ومحباً للصداقة، أمّا الآن فهو مثير للرعب. نظر كبار السن، وهم يغادرون أثناء عملية الإخلاء ـ دون أن يتصوروا أنّ هذا الإخلاء للأبد ـ نظروا إلى السماء: "الشمس تستطع... لا دخان ولا غاز، لا أحد يطلق النار. أيعقل أن تكون هذه حرباً؟ وهل هناك من داع لكي نصبح نازحين...". عالم... معروف... غير معروف.

كيف نفهم أين نحن؟ وماذا يحصل لنا؟ هنا... الآن... لا أحد تسأله...

تدهشك في المنطقة وحولها... الأعداد الهائلة للتقنيات العسكرية. يسير الجنود حاملين رشاشات جديدة، بعتادهم القتالي الكامل. ما أذكره أكثر من سواه ولا أدري لماذا ليس طائرات الهليوكوبتر والمدرعات، بل هذه الرشاشات... السلاح... شخص يحمل بندقية في المنطقة... على من يمكنه إطلاق الرصاص وممّن يدافع عن نفسه؟ من الفيزياء... من الجزئيات غير المرئية... إطلاق الرصاص على المنطقة الملوّثة أو الشجر؟ عملت الكي. جي. بي. في المحطة نفسها. بحثوا عن الجواسيس والمخرّبين، انتشرت إشاعات، بأن الحادثة ـ عمل مخطط له من قبل الاستخبارات الغربية، بهدف تقويض المعسكر الاشتراكي. يجب توخّي الحذر.

لقد انهارت عندي صورة الحرب هذه... وثقافة الحرب هذه.. أمام عيني. دخلنا عالماً غير شفّاف، حيث الشرّ لا يقدم أي توضيح، لا يكشف غن نفسه ولا يعرف القوانين.

شاهدت، كيف يتحوّل إنسان ما قبل تشرنوبل إلى إنسان تشرنوبل.

ـ لقد سمعت أكثر من مرّة... وهنا يوجد ما يجب أن نفكر به... سمعت رأياً مفادُه إن سلوك رجال الإطفاء، الذين أخمدوا الحريق في الليلة الأولى في المحطة النووية، والعاملين على إزالة آثار الكارثة، يذكّرُ بالانتحار. الانتحار الجماعي. لقد عملوا غالباً دون ثياب واقية، وتوجهوا إلى العمل ـ حيث "ماتوا" ـ دون تردد، لقد أخفوا عنهم حقيقة تلقيهم جرعات عالية، وتعايشوا مع هذا الأمر، ومن ثم فرحوا، عندما تسلّموا شهادات التقدير والميداليات، التي قلّدوهم إياها قبل

الموت... وكثير منهم لم يسعفه الوقت للتكريم... وهكذا من يكون هؤلاء؟ أبطالٌ أم انتحاريون؟ ضحايا الأفكار السوفيتية وتربيتها؟ لماذا يُنسى مع مرور الزمن، أنّ هؤلاء أنقذوا بلدهم. وأنقذوا أوروبا؟ تصوّروا لثانية المشهد، ماذا لو انفجرت المفاعلات الثلاثة الأخرى...

إنّهم ـ أبطال. أبطال التاريخ الجديد. يقارنونهم بأبطال معركة ستالينغراد أو المعركة على مشارف واترلوو، لكن هؤلاء أنقذوا ما هو أكبر من وطنهم الأم، لقد أنقذوا الحياة نفسها. زمن الحياة. الزمن الحيّ. ما فعله الإنسان في تشرنوبل جعل له فضلاً على الجميع، على عالم الربّ، حيث هناك عدا عن الإنسان، تعيش آلاف الكائنات الأخرى، من حيوانات ونباتات. عندما ذهبت إليهم... وسمعت أحاديثهم، كيف أنّهم (أول من فعل ذلك ولأوّل مرّة) مارسوا عملاً إنسانياً وغير إنساني جديد ـ لقد دفنوا الأرض في الأرض، أي أنّهم دفنوا الطبقات الملّوثة في مخابئ خراسانية محصّنة بطريقة خاصّة بكل سكانها ـ الخنافس والعناكب والديدان. والحشرات المتنوعة، التي ما عرفوا لها تسمية. ما تذكّروها.

لقد كان لديهم إدراك مغاير تماماً للموت، انسحب هذا الإدراك على الجميع ـ من الطيور حتى الفراشات. عالمهم أصبح عالما آخر ـ بحقوق جديدة للحياة، ومسؤولية جديدة وشعور بالذنب جديد. لقد حضر في كل أحاديثهم موضوع الزمن، قالوا "لأوّل مرّة"، "أحيانا أكثر"، "إلى الأبد". تذكّروا كيف ذهبوا إلى القرى المهجورة والتقوا هناك أحياناً كبار سنّ وحيدين، رفضوا ترك المكان مع الآخرين أو عادوا فيما بعد من المناطق الغريبة: جلسوا في الأمسيات في ظل الضوء المنبعث من الحطب، وكانوا يقصّون العشب بالقصّاصات، ويحصدون بالمناجل، ويقطعون الشجر بالفؤوس، ويوجّهون صلواتهم إلى الأرواح والوحوش.

إلى الله. كما كانوا يفعلون ذلك قبل مئتي عام مضت، وفي الأعلى وفي مكان ـ ما تطير السفن الفضائية. لقد قضم الزمن ذيله، واندغمت البداية بالنهاية. لم ينته تشرنوبل بالنسبة للذين كانوا هناك، في تشرنوبل. عادوا ولكن ليس من الحرب... بل وكأنّهم من كوكب آخر... لقد أدركتُ أنّهم حوّلوا معاناتهم عن قصد إلى معرفة جديدة، وأهدونا إيّاها: انظروا، يجب عليكم أن تفعلوا شيئاً بهذه المعرفة، وكيف يمكن استخدامها.

لأبطال تشرنوبل نصبٌ تذكاري واحد... هو ـ التابوت المصنوع يدوياً، والذي دفنوا فيه النار النووية. إنّه أهرام القرن العشرين.

ـ يُؤسف على الإنسان في أرض تشرنوبل. لكن يُؤسف على الوحش أكثر... أنا لم أوضّح الأمر إلى النهاية... سأشرح لكم الآن. ما الذي بقي في الأرض الميّتة، بعد أن تركها الناس؟ المقابر القديمة والمقابر البيولوجية، وهي تسمية تطلق الآن على مقابر الحيوانات. لقد أنقذ الإنسان نفسه، وخان الباقين جميعاً، دخلت القرى بعد النزوح مجموعات من الجنود أو الصيّادين وأطلقوا النار على الحيوانات فقتلوها. الكلاب كانت تركض نحو الصوت الإنساني... والقطط... والخيول.. لم تستطع هذه المخلوقات فهم ما يحدث... وهي غير مذنبة في شيء ـ لا الوحوش، ولا الطيور، لقد ماتت بصمت، هل هناك ما هو أكثر رعباً. كان الهنود الحمر في المكسيك في زمن ـ ما، وهو ما حدث أيضاً حتى في روسيا ما قبل المسيحية، يقدمون الاعتذار للحيوانات والطيور، التي كان عليها قتل نفسها من أجل تغذية الآخرين. وكان للحيوانات في مصر القديمة الحق في الشكوى ضد الإنسان. لقد كُتب على إحدى اللفافات، التي بقيت محفوظة في الأهرامات: "لا توجد أية شكوى للثور ضد H.". تلا المصريّ القديم قبيل مغادرته إلى

مملكة الموتى، صلاة، منها الكلمات التالية: "لم أزعج أي كائن، لم أنتزع من أمام الحيوان لا القمح، ولا الحشائش".

ماذا أعطت تجربة تشرنوبل؟ هل جعلتنا نستدير نحو هذا العالم الصامت والسري "عالم الآخرين"؟.

ـ شاهدت ذات مرّة كيف دخل الجنود إلى القرية، التي خرج منها السكان وبدؤوا بإطلاق النار...

تعالى صراخ الحيوانات الضعيفة... صرخت بلغاتها المختلفة... لقد كُتب عن ذلك في العهد الجديد. دخل يسّوع المسيح إلى معبد[١] القدس ورأى هناك الحيوانات، المُعدّة لطقوس التضحية: حناجرها مقطوعة، والدم يسيل منها. صرخ يسوع: "لقد حوّلتم بيت الصلاة إلى مأوى لقطاع الطرق". وكان بإمكانه إضافة ـ وإلى مسلخ... بالنسبة لي فإنّ مئات المقابر البيولوجية المتروكة في تلك المنطقة هي كأضحيات في المعابد القديمة، لكن لمن من الآلهة؟ لإله العلم والمعرفة أم لإله النار؟ إنّ تشرنوبل في هذا المعنى أتى بعد أوسفينتسيم[٢] وكوليما، بعد الهولوكوست. إنّه يقدّم نهاية المطاف. ولا يستند إلى شيء.

أنظر إلى العالم من حولي بعينين أُخريين... تزحف على الأرض نملة صغيرة، هي الآن أقرب إليّ. الطير في السماء يطير، وهو أقرب. تتقلّص المسافة ما بيننا. الهوّة السابقة غير موجودة. كلّها ـ الحياة.

علق في ذاكرتي الآتي... حدّث مربي نحل عجوز (ثم سمعت

---

(١) تستخدم الروائية كلمة "معبد"، ولا تذكر الهيكل أو سواه.

(٢) اسم مدينة في بولونيا تم إعدام مئات الآلاف من الناس فيها على يد الفاشيين الألمان خلال الحرب العالمية الثانية، أصبح المكان متحفاً فيما بعد تخليداً لأرواح الضحايا/ . المترجمان./

الرواية نفسها من آخرين): "خرج في الصباح إلى الحديقة، شيءٌ ـ ما ناقص، صوتٌ معروفٌ. ليس من نحلة واحدة، لا يسمع طنين أيّة نحلة! أبداً! ماذا إذاً؟ ما الذي حصل؟. وفي اليوم التالي لم يطرن. وفي اليوم الثالث أيضاً... أخبرونا فيما بعد، أنّ حادثاً قد حصل ـ في المحطة الذريّة، وهي قريبة منّا. لم نعرف شيئاً لفترة طويلة. النحل قد عرف، أما نحن فلا. الآن، إذا ألمَّ بنا شيءٌ ـ ما، فسأنظر إليها. وإلى حياتها". مثال آخر... تحدّثت إلى صيّادي الأسماك عند النهر، تذكّروا قائلين: "انتظرنا، حتى يوضّحوا لنا عبر التلفاز... يحدثوننا، كيف نحمي أنفسنا. أمّا الديدان. الديدان البسيطة. فقد غارت عميقاً في الأرض، مسافة نصف متر أو متر. لم نفهم ذلك. حفرنا ـ حفرنا. لم نجد أيّة دودة نجعلُ منها طُعماً...".

من منّا الأسبق، والأمتن والأكثر أبديّة على الأرض ـ نحن أم هي؟ يتعيّن علينا التعلّم منها، كيف نحيا... وكيف نعيش...

ـ كارثتان توافقتا: اجتماعية ـ انهار الاتحاد السوفيتي أمام أعيننا، وغرقت تحت الماء القارّة الاشتراكية العملاقة، وفضائيّة ـ تشرنوبل. انفجاران كونيان. الانفجار الأوّل ـ الأقرب، والأكثر فهماً من قبلنا. الناس نهاراً ومعيشةً مشغولين: بماذا نشتري، إلى أين نسافر؟ بماذا نؤمن؟ تحت أيّة راية نقف من جديد، أو أن علينا أن نتعلّم كيف نعيش لأنفسنا ولحياتنا؟ الانفجار الثاني ـ غير معروف لنا، لا نتمكن من التعامل معه، لأننا ما عشنا من قبل أبداً بتلك الصورة. هذا ما يعانيه الجميع وكل فرد. نتمنى أن ننسى كل ما يتعلق بتشرنوبل، لأنّ الوعي استسلم أمامه. إنّه كارثة الوعي. انفجر عالم قيمنا وتصوّراتنا. لو انتصرنا على تشرنوبل أو فهمناه للنهاية، لكنّا فكرنا وكتبنا عنه أكثر. وهكذا نعيش نحن في عالم، ووعينا موجود في عالم آخر. ينزلق الواقع، لا يستوعبه الإنسان.

ـ نعم... لن نتمكن من اللحاق بالواقع...

ـ مثال على ذلك... نستخدم حتى الآن كلمات قديمة: "بعيد ـ قريب"، "أقرباء ـ غرباء"... لكن ماذا يعني قريب أو بعيد بعد تشرنوبل، عندما سبحت غيومُ تشرنوبل لمدة أربعة أيام بلياليها فوق أفريقيا والصين؟ تبيّن أن الأرضَ صغيرة، إلى درجة أنها لم تعد تلك الأرض زمن كولومبوس.. اللانهائية. الآن ظهر لدينا إحساس آخر بالمكان. نعيش في مكانٍ مفلسٍ. أيضاً... في الأعوام المئة الأخيرة أصبح الإنسان يعيش أطول مما سبق، لكن مع ذلك فعُمرهُ يعدُّ لا شيء وتافهاً مقارنة بحياة النيكلودات المشعّة، التي استوطنت الأرضَ. سيعيش الكثير منها آلاف السنين. نحن لا يمكن أن يمتد بصرنا إلى ذلك البعد! وستعاني بالقرب منه إحساساً آخر بالزمن. كل ذلك ـ هو تشرنوبل. وآثاره. خياليّ ما يحصل لعلاقاتنا بالماضي ومعارفه... اتضحَ أن الماضي عاجز، من معرفتنا ازدادت معرفتنا بمقدارِ جهلنا. تحدثُ إعادةُ بناءِ الأحاسيس... غالبا ما يحصل الآن أن يقول الطبيب بدل المواساة العاديّة للزوجة، عن زوجها الذي يموت: "ممنوع الاقتراب! ممنوع تقبيله! ممنوع تمسيده! إنّه لم يعد الحبيب، بل جسم يخضع لإبطال مفعول الإشعاعات". يتراجع هنا شكسبير. ودانتي العظيم. السؤال: أقترب ـ لا أقترب؟ أقبّلُ ـ لا أقبّل؟ إحدى بطلاتي (كانت حامل في تلك الفترة) اقتربت وقبّلت، ولم تتخلَّ عن زوجها حتى لحظة موته. دفعت ثمن ذلك صحّتها وحياة طفلتها الصغيرة. وإذاً كيف كان يمكن الاختيار بين الحب والموت؟ بين الماضي والحاضر غير المعروف؟ من يملك الشجاعة ليحاكم أولئك الزوجات والأمّهات، اللواتي لم يجلسن بالقرب من أزواجهن وأولادهن الذين يفارقون الحياة؟ إلى جانب أجسام مشعّة... لقد تغيّر في عالمهم الحبّ. والموت.

لقد تغيّر كل شيء، ماعدانا نحن.

ـ كي يصبح الحدث تاريخاً، يحتاج إلى خمسين عاماً على الأقل. وفي حالتنا ينبغي أن نسير على أثارِ ساخنة...

ـ المنطقة... عالمٌ منفصلٌ... آخرُ وسط الأرض المتبقية كلها... في البداية اختلق تلك المنطقة الخياليون. لكنّ الأدب سرعان ما تراجع أمام الواقع. ما عاد بإمكاننا أن نؤمن الآن كبطلُ تشيخوف: سيصبحُ الإنسان بعد مئة عام رائعاً! الحياة ستصبح أكثر روعة! لقد فقدنا هذا المستقبل. بعد مئة عام كانت معسكرات العمل الستالينية (الغولاغ)، وأوسفينتسم... تشرنوبل... وأيلول في نيويورك... من غير المفهوم، كيف تموضعت كل تلك الأحداث وكيف استطاعت حشر نفسها في حياة جيلٍ واحدٍ، وعلى مقاسه. على سبيل المثال، في حياة والدي، الذي هو الآن في الثالث والثمانين من عمره؟ ولقد تمكّن هذا الشخص من البقاء على قيد الحياة!؟

ـ المصير ـ حياة إنسان واحد. التاريخ ـ حياتنا جميعاً. أريد أن أروي التاريخ بشكلٍ لا يضيعُ فيه عن بصري مصيرُ... إنسان واحد...

ـ أكثر ما يبقى في ذاكرتك عن تشرنوبل هو الحياة "بعد كلّ ما حدث": حاجياتٌ من دون إنسان، منظرٌ طبيعي من دون إنسان. الطريقُ لا يصل إلى أي مكان، الأسلاكُ ممتدة ليس إلى مكان. لا، نعم وتفكّر، ما هذا ـ ماضٍ أم حاضر؟

ـ يُهيّأ لي أحياناً أنني أُسجّل المستقبل..

الفصل الأول

أرض الموتى

مونولوج: لماذا يتذكرُ الناسُ

"لدي سؤال أيضاً... لا أستطيع الإجابة عنه بنفسي...

لكنكم تستعدون للكتابة عن ذلك... عن ذلك؟ لكنني لا أريد أن تعرفوا عنّي ذلك. ما عانيته هناك... من جهة لدي رغبة في الانفتاح، وقول ما عندي، لكن من جهة أخرى ـ أشعر، بأنني أتعرّى، وهذا ما لا أريده...

تذكرون، بيير بيزأوخوف عند تولستوي؟ كيف كان مصدوماً بعد الحرب، لدرجة، هُيّأ له فيها ـ أن العالم كلّه تغيّر وإلى الأبد. لكن بعد مرور بعض الوقت، لاحظ على نفسه، بأنه أخذ يشتم السائق من جديد، ويتذمّر كذلك، كما في السابق. فلماذا إذا يتذكر الناس؟ لاستعادة الحقيقة؟ العدالة؟ التحرر والنسيان؟ كي يدركوا، بأنّهم ـ مشاركون في الحدث الضخم؟ أو يبحثون عن الحماية في الماضي؟ وهذا بالرغم من أن الذكريات ـ شيء هشّ، سريع الزوال، إنّها ليست معرفة دقيقة، بل حدس الإنسان عن نفسه. وهذه ليست المعرفة، إنّها أحاسيس فحسب.

شعوري... لقد عانيت، فتّشت في الذاكرة وتذكرت...

ما هو أكثر رعباً حدث معي في طفولتي... إنه ـ الحرب...

أتذكر، كيف نحن الأطفال، كنّا نلعب لعبة "بابا وماما": نزعنا

ثياب الصغار ووضعناهم أحدهم فوق الآخر... هؤلاء كانوا أوّل الأطفال، الذين وُلدوا بعد الحرب. القرية كلّها، كانت تعرف ما هي الكلمات التي يتحدثونها، ومتى بدؤوا المشي، لأنهم وبسبب الحرب كانوا قد نسوا الأطفال. لقد انتظرنا ظهور الحياة في "بابا وماما" ـ هكذا كانت تسمّى اللعبة. أردنا أن نرى ظهور الحياة... وكنا يومها نحن أنفسنا ما بين الثامنة والتاسعة من أعمارنا...

لقد شاهدت، كيف قتلت امرأة نفسها. بين الشجيرات عند النهر. مسكت قطعة قرميد وضربت رأسها. لقد كانت حاملاً من شرطي، تكرههُ القرية بأكملها. وعندما كنت طفلاً شاهدت، كيف تُولدُ القطط الصغيرة. وساعدت أمي بسحب العجل من جوف البقرة، أخذت الخنزيرة التي نملكها إلى المزرعة لتلقيحها من خنزير... أتذكر... أتذكر، كيف أحضروا والدي المقتول، كان في كنزة، حاكتها له أمي بنفسها، تم إطلاق النار على والدي، على ما يبدو، من مدفع رشّاش أو من بندقيّة آليّة وخرجت من الكنزة قطعٌ مدمّاةٌ. لقد استلقى على سريرنا الوحيد، حيث لم يكن من مكان آخر يوضع عليه. ثم دفنوه أمام البيت. تحت الحوض المعد لزراعة الشوندر، الأرض ليست ناعمة، بل طين قاس. المعارك حولنا في كل مكان... انتشرت جثث الناس والخيول في الشوارع...

تلك الذكريات ممنوعة بالنسبة لي، لدرجة أنني لم أتكلم عنها بصوت عال...

كنت حينها أتقبل الموت، تماماً كما أتقبل الولادة. كان شعوري نفسه، عندما ظهر العجل من البقرة... وعندما وُلدت القطط الصغيرة. وعندما قتلتِ المرأة نفسَها بين الشجيرات كذلك. لسبب ـ ما هُيّأ لي أنهما الأمر نفسه، متكافئان. الولادة والموت...

أتذكر منذ الطفولة، كيف كانت رائحة البيت، عندما يذبحون

الخنزير... يكفي أن تلمسوني فحسب حتى أسقط، أسقط هناك. في كابوس... في رعب... وأطير...

أتذكر كذلك، كيف اصطحبتنا النسوة معهن، عندما كنّا صغاراً، إلى الحمّام. هبطت الأرحامُ عند النساء جميعهنّ بما فيهنّ والدتي (نحن كنّا ندرك ذلك)، وقد ربطنَها بقطعِ قماشية. رأيت ذلك... خرجت الأرحامُ بسبب العمل الشاق. لم يكن هناك رجال، لقد قتلوهم على الجبهة، وفي حرب العصابات، ما من خيول أيضاً، لذلك كانت النساء تجرّ المحاريث بأنفسهن. حرثن حدائقهن، وأراضي الكولخوز. عندما كبرت، وعاشرت امرأة، تذكرت... ما كنت شاهدته في الحمام...

أردت أن أنسى. أنسى كل شيء... ونسيت... فكرتُ، أن ما هو أكثر إثارة للخوف قد أصبحَ ورائي... وهو ـ الحرب. وأنني محميّ، أنني الآن محميّ. محميّ بمعرفتي، وبما هو هناك في الماضي... حينها... عشتُه... لكن...

سافرتُ إلى منطقة تشرنوبل... زرتها مرّات كثيرة... وأدركت هناك، بأنني ضعيف. لم أفهم... وكنتُ أنهارُ بسبب ضعفي. ولأنني، لم أتمكن من التعرّف إلى العالم، العالم الذي تغيّر فيه كل شيء. حتى أن الشرّ هناك مختلف. الماضي لم يعد يحميني... ولا يهدئني... لا أجوبة فيه... من قبل كانت دائماً موجودة، أما اليوم فهي غير موجودة. يحطمني المستقبلُ، وليس الماضي. (يفكّر)

لماذا يتذكّرُ الناس؟ هذا هو سؤالي... لكنني تحدّثت إليكم، أفشيتُ شيئاً ـ ما بالكلمات... وفهمت شيئاً ـ ما... لم أعد وحيداً الآن إلى تلك الدرجة. لكن كيف هو الأمرُ عند الآخرين؟".

بيوتر س. طبيب نفسي.

مونولوج: يمكن التحدث إلى الأحياء، وإلى الموتى كذلك

"ليلاً دخل ذئبٌ إلى الفناء... نظرت من النافذة ـ يقف ويضيء بعينيه. مصابيح أماميّة...

اعتدتُ كل شيء. سبع سنوات أعيش وحيدةً، منذ أن غادرت الناس... يحصل، أن أجلس، ليلاً، حتى الفجر، وأفكّر، أفكر. واليوم جلست طوال الليل على السرير كالخطّاف، ثم خرجت أنظر، يا لتلك الشمس الساطعة. ماذا أقول لكم؟ الموت هو الأمرُ الأكثر عدالة في هذا الكون. لم يفتدِ أحدٌ نفسَه حتى الآن. الأرض تستقبل الجميع: الطيبين، والشرّيرين، والمذنبين. ما من عدالةٍ فوقَ ذلك في هذا الكون. لقد عملت طوال حياتي بكدٍ ونزاهة. عشت بشرف. لكن العدالة لم تنزل عليّ. قسّم الله عطاءه في مكان ما حتى إذا ما وصلَ إليَّ لم يبقَ في جعبته شيء. الشاب يمكن أن يموت، والعجوز يجب أن يموت... لا أحد خالد ـ لا القيصر، ولا التاجر... في البداية انتظرتُ الناس، وفكرت ـ الجميع سيعودون. لم يغادر أحدٌ للأبد، لقد غادروا لبعض الوقت. والآن أنتظر الموت... ليس صعباً أن أموت، بل مخيف. لا توجد كنيسة، والخوري لا يأتي. لا يوجد أحد أحمل إليهِ ذنوبي...

... قالوا لنا أوّل مرّة، عندنا إشعاعات، ففكرنا هكذا: إنّه مرض ـ ما، من يصبه ـ يمت مباشرة. قالوا لا، إنّها شيء ـ ما، يتوضّع على

الأرض ثم يغوصُ فيها، لكن لا يمكن مشاهدته. الوحش، يمكنه أن يراه ويسمعُه، أما الإنسان فلا. لكن ذلك ليس صحيحا! أنا شاهدت... هذا السيزيوم متناثراً في الحديقة، قبل أن يغسله المطر. لونه أزرق... يتوضَّع وينسكب أو يتفتتُ قطعاً... أتيت مسرعة من أرض الكولخوز ودخلت إلى حديقة المنزل... فوجدت قطعة زرقاء... وبعد مئتي متر قطعة أخرى... رقعتُها، بمقدار رقعة المنديل الذي أرتديه على رأسي. صحت بالجارة، والنساء الأخريات، وأخذنا نبحثُ. في حدائق المنازل كلّها، وفي الأرض من حولنا... في مساحة حوالي هكتارين... وجدنا أربعَ قطع كبيرة... إحدى هذه القطع لونها كان أحمر... هطل المطر في اليوم التالي. منذ الصباح. عند الظهيرة لم يعد لها وجود. حضرت الشرطة، لكن لم يعد هناك شيء لمشاهدته. لقد حدثناهم فقط... قطع بهذا الحجم... *(أشَرَت بيديها)* .مثل منديلي. زرق وحمر.

لم نخف كثيراً من هذه الإشعاعات... لو أننا لم نشاهدها، لم نعرفها، كان يمكن أن نخافها، لكن عندما رأيناها، لم تعد مخيفة إلى تلك الدرجة. وضعت الشرطة والجنود لوحاتٍ. جانب بيت أحدهم أحياناً، وأحياناً في الشارع ـ كتبوا عليها: ٧٠ كيوري، ٦٠ كيوري... عشنا طوال حياتنا على البطاطا، والبصل الذي نزرعه، وهنا قالوا ـ ممنوع! لا يسمحُ بزراعة البصل، ولا بزراعة الجزر. مصيبة للبعض، وشيء مضحك للبعض الآخر. نصحونا أن نرتدي الكمامات الطبية، والقفازات المطاطية أثناء العمل في الحديقة. ودفن الرماد الناتج في الموقد. دفن. أو ـ وو. وقدم حينها أيضاً أحد العلماء الكبار فألقى محاضرة في النادي، وقال يجب غسل الحطب... يا للأعجوبة! احمرّت أذناي! أمرونا بغسل الشراشف والستائر... هذه الأشياء إذاً في المنزل وفي الصناديق والخزائن. أيّة إشعاعات تلك التي داخل المنزل؟ وخلف

الزجاج؟ خلف الباب؟ أعجوبة! أبحث عن الإشعاعات في الغابة، وفي الأراضي من حولنا.. أقفلنا على الآبار بالمفتاح، وغطينا الفتحات بقطع من البلاستيك... والماء... "وسخ"... كيف هو وسخ! إنه نظيف جداً، جداً! ثرثروا بمقدار كيسٍ محشوٌ. أنتم ستموتون جميعاً... يجب عليكم الرحيل... إخلاء المنطقة...

خاف الناس... تملّكهم الرعب... اقترح عددٌ منهم دفن ممتلكاتهم ليلا. أمّا أنا فقد وضَبتُ ثيابي... وشهادات التقدير الحمراء لقاء عملي النزيه، والنقود، التي احتفظت بها ليومي الأسود. يا للحزن! يا له من حزن ثقيل على القلب! أتمنى الموت بمقدار ما أقول لكم الحقيقة! وهنا سمعت، بأن الجنود أخلوا السكان من إحدى القرى، لكن بقي فيها جد عجوز وامرأته. أخذا البقرة وذهبا إلى الغابة، قبل أن يوقظ العسكرُ الناسَ ويسوقونهم إلى الباصات. انتظرا هناك. كما كان الأمر في الحرب... عندما أحرق المطهّرون القرية... من أين تأتي المصيبة؟ (تبكي) .حياتنا هشّة... سأكون مسرورة إن لم أبكي، لكن الدموع هي التي تسيل...

أو! أنظر في النافذة: غراب العقعق وصل... أنا لا أطردها... ولو أنّ هذه الغربان تسرقُ أحياناً البيض من الحظيرة. مع ذلك لا أطردها. لقد حلّت المصيبة علينا جميعاً الآن. لا أطرد أحداً! وبالأمس أتى ثعلب أيضاً...

آه لو أن الناس في كل قرية. هناك غير بعيدة في قرية أخرى، تعيشُ امرأة، قلت لها أن تأتي إليّ. قد تساعد، وقد لا تساعد، لكن لأتحدث إلى شخصٍ ما. أناديه... ليلاً يؤلمني جسدي كلّه. رجلاي ترتعشان، وكأن النمل يدبُّ فوقهما، إنّه العصب داخلهما. أمسك الحبوب بيدي...

وأدلكهما، أدلكهما. يهدأ العصب حينها... ما كسبته طوال حياتي، كان كافياً بالنسبة لي. لم أحتجْ شيئاً، ولا أرغب بشيء. ولو متُّ، لكنتُ قد ارتحت. كيفما كان وضع الروح هناك، لكن الجسد سيكونُ مرتاحاً. ولدي بنات وصبيان... جميعهم في المدينة. أمّا أنا فلا أريد ترك هذا المكان! مدَّ الله في عمري، لكنه لم يعطني حصّتي. أعرف أن العجوز يكون ضجراً متعجّلاً، الأطفال يتحملون، يتحملون وينزعجون. الأطفال يمنحونك السعادة طالما هم صغار. نساؤنا اللواتي غادرن إلى المدينة، يبكين جميعهنّ. منهنّ من تُزعجها زوجة الابن، ومنهن الابنة. يردن العودة. صاحب بيتي هنا... يرقد في المقبرة... لو لم يكن راقداً هنا، لعاش في مكان آخر. وأنا معه. *(يبدو السرور عليها فجأة)*. إلى أين أرحل؟ هنا المكان جيّد! كل شيء ينبت، كل شيء يزهر. ابتداء من الذباب حتى الوحوش، كلّها تعيش.

سأتذكر لكم كل شيء... تطير الطائرات وتطير. كلّ يوم. على مستوى منخفض ـ منخفض فوق رؤوسنا. يطرنَ إلى المفاعل. إلى المحطة. واحدة تلو الأخرى. وعندنا ـ إخلاء. إعادة توطين. اقتحام للمنازل. أقفلَ الناس على أنفسهم، اختبؤوا. يخورُ القطيع، ويبكي الأطفال. إنّها الحرب!. أما الشمس فتضيء... وأنا أجلسُ ولا أخرج من البيت، صحيح، لا أقفل الباب على نفسي. قرع الجنود الباب وقالوا: "ربّة المنزل، هل جمعت حاجياتك؟". أسألهم: "هل ستربطون يدي ورجلي عنوة؟". صمتوا، وصمتوا، ثم غادروا. أطفال! صغار ـ صغار. النساء يزحفن على ركبهن أمام منازلهنّ... ويتوسّلن... الجنود يمسكون بيدي واحدة، ثم أخرى ـ ويوصلونهنّ إلى السيارة. أمّا أنا فقد هددتُهم، الذي سيلمسني، ويظهر قوّته، سيتلقى ضربة بعصا البيليياردو. شتمتُ! شتمتُ بقوّة! لم أبكِ. ولم تسلْ الدموع ذلك اليوم.

أجلس في البيت. وأسمع صراخاً. صراخ! ثم يحلّ الهدوء... هدأ كل شيء. أنا في ذلك اليوم... في اليوم الأول لم أخرجْ من البيت...

حدّثوني: لقد مرّ طابور من الناس... ومرّ طابور من القطيع. إنّها الحرب!

كان ربّ منزلي يحب القول، بأن الإنسان يطلق الرصاص، والله يحضرُ له الطلقات. لكلّ واحد مصيره!. الشباب، الذين غادروا، بعضهم فارق الحياة. هناك في المكان الجديد. أمّا أنا فأتنقّل ـ وعصا البيليباردو في يدي. أتعكز. وعندما ينتابني الملل، أبكي. القرية فارغة... لكن الطيور هنا بأنواعها... تطير... والأيّل يتنقل.. المهم هناك أحدٌ ما... (تبكي).

أذكر كل شيء... غادرت الناسُ، أما القطط والكلاب فقد تركوها. تجوّلتُ في الأيام الأولى، وسكبتُ الحليب للجميع، ومنحتُ قطعة خبز لكل كلب. وقفت الكلابُ في أفنية بيوتها تنتظر أصحابها. انتظرت الناسَ طويلاً. القطط الجائعة أكلت الخيار... وأكلت البندورة... كنت حتى الخريف أقصّ العشب أمام بوابة جارتي. سقط السياج. ثبّتُهُ لها. انتظرتُ الناسَ... عاش عند جارتي تلك كلبٌ، اسمه جوتشوك. قلت له: "أرجوك يا جوتشوك، ـ إذا التقيت الناس قبلي ـ نادني".

أحلمُ ليلاً، أنني أنزح... يصيح الضابط: "يا ربّة المنزل، قريباً سنحرق كل شيء وندفنه. اخرجي!". ويأخذونني باتجاه ـ ما، إلى مكان غير معروف. غير مفهوم. إنه ليس مدينة، ولا قرية. وليس أرضاً...

حصلت قصّة معي... كان لديّ قط. اسمهُ فاسكا. تعرضت لهجوم الجرذان الجائعة شتاء، ما من منقذ. دخلت تحت اللحاف. الحبوب في البرميل الخشبي ـ قضمت الجرذانُ الخشبَ صانعةً ثغرة. فإذا بـ فاسكا

ينقذ الموقف... لولاه كنت في عداد الأموات... تحدّثنا أحدنا للآخر، وتناولنا طعام الغداء. وحينها اختفى فاسكا... ربما هاجمتهُ الكلابُ الجائعة وأكلته؟ كانت تتجوّل متضورة جوعاً، حتى ماتت، والقطط كانت جائعة وأكلت الصغار منها، في الصيف لم تأكل، أما في الشتاء. يا إلهي، سامحنا! لقد قرضت الجرذان امرأة هنا... في بيتها. جرذان شقراء.... صحيح أم لا يتحدّثون....... يتجوّل هنا مشرّدون... كان الخير وافرا في الأعوام الأولى: القمصان، والكنزات، والمعاطف الجلدية. اجمَعْ وانقلْ إلى سوق الأشياء المستعملة. وعندما يشربون ويثملون، يأخذون بالغناء. ويشتمون. أحدهم سقط عن الدراجة الهوائية ونام في الشارع. وجدوا في الصباح عظمتين والدراجة. صحيح أم غير صحيح؟ لن أقول لكم. يتحدّثون...

يعيش هنا كلّ شيء. نعم كل شيء ـ كل ـ شيء! تعيش السحلية، والضفدع ينق. والدود يزحف. والفئران موجودة! كل شيء! الربيع بخاصّة جميل هنا. وأنا أحب لحظة يزهر الليلك. حيث تفوح منه رائحة الكرز. عندما كانت رجلاي قويتان، كنت أذهب بنفسي لإحضار الخبز، المسافة باتجاه واحد فقط خمسة عشر كيلومتراً. لو كنت فتية لقطعت هذه المسافة ركضاً. اعتدتُ الأمر. كنّا نذهب بعد الحرب لإحضار البذور من أوكرانيا. لمسافة ثلاثين، وخمسين كيلومتراً. كان يحمل كلّ منهم بودا واحدا[١]. أمّا أنا فكنت أحمل ثلاثة منها. والآن، أحياناً لا أستطيع أن أتنقّل داخل القرية. للعجوز الصيف باردٌ قرب الفرن[٢]. يأتي رجال الشرطة إلى هنا، للاطلاع على وضع القرية، يحضرون لي الخبز

---

(١) بود ـ وحدة وزن تعادل ١٦، ٣٨ كغ/ .المترجمان /

(٢) مثل شعبي روسي، كناية عن صعوبة الحياة مع التقدم في العمر/ . المترجمان/

معهم. هل يحضرون للتفتيش فقط؟ أعيش أنا مع القط. إنّه قط آخر عندي. وعندما يصلون يطلقون إشارتهم، نفرح نحن الاثنين. نسرع نحوهم. يحضرون له العظام. ويسألونني: "هل تعرّض قطاع الطرق لنا؟". - "على ماذا سيحصّلون منّي؟ وماذا سيأخذون؟ روحي؟ ليس لديّ سوى الروح". إنّهم فتيان جيدون. يضحكون. أحضروا بطاريات للمذياع. وأنا الآن أستمع إليه. أحب لودميلا زيكين[1]، لكن ولسبب - ما، نادراً ما تغنّي الآن. على ما يبدو إنّها تقدمت في السن مثلي. ربّ منزلي كان يحب القول... لقد قال: انتهت حفلة الرقص.. - الكمنجات.. في حقائبها.

سأحدثكم، كيف وجدت القط. لقد فقدت قطّي فاسكا... انتظرته يوماً، واثنين... وشهر... لكن دون جدوى، بقيت وحيدة. لا يمكنني التحدث إلى أحد. بحثتُ في القرية، ناديتُ في الحدائق الأخرى: فاسكا، فاسكا! في البداية كان الكثير من القطط يجول في القرية، لكنها اختفت فيما بعد. قضي عليها. الموت لا يفرّق... الأرض تستقبل الجميع... تجوّلت، وتجولت. بحثت عنه يومين متتالين، وفي اليوم الثالث - يجلس تحت المتجر... نظرنا أحدنا إلى الآخر... لقد فرح بي، وأنا كذلك فرحت به. لم يتفوّه بكلمة. "هيا، لنذهب، - أرجوك، فلنذهب إلى البيت". بقي جالساً... مياو... وأنا ألححت عليه: "ما ستفعل وحيداً هنا؟ ستأكلك الذئاب. ستقطّعك. عندي بيض، وشحم خنزير". كيف أوضّحُ له؟ إنّه لا يفهم اللغة الإنسانية. فكيف فهمني عندها؟ مشيت أمامه، وهو ركض خلفي. مياو... "سأقطّع لك شحم الخنزير"... مياو... سنعيش سويّة نحن الاثنين"... مياو... "سأسمّيك فاسكا"... مياو... وهكذا قضينا سويّة فصلين من فصول الشتاء...

---

(١) مطربة قديمة مشهورة/ .المترجمان./

حلمتُ ليلا ـ شخصٌ ينادي... إنّه صوت جارتي: "زينا!" ثم تصمت... مرّة أخرى: "زينا!".

أشعر بالوحشة، سأبكي...

أمرّ على القبور. ماما ترقد هناك... ابنتي الصغيرة... احترقت أثناء الحرب بسبب مرض التيفوئيد. ما إن وصلنا بها إلى المدفن، ودفنّاها. حتى خرجت الشمس من بين الغيوم. وأضاءت ـ أضاءت. لو أنك تعودين. تخرجين من القبر. ربُّ بيتي هناك... فيديا... أجلس بالقرب من الجميع. أتنهّد. التحدّث ممكن إلى الأحياء وإلى الأموات أيضاً. لا يوجد فرق عندي. وأنا أسمع هؤلاء وأولئك. عندما تكونين وحيدة... وعند الحزن... والحزن الشديد...

عاش إلى جانب هذه المقابر المعلّم إيفان بروخوروفيتش غافريلينكو، لقد سافر إلى ولده في جزيرة القرم. خلفه ـ بيوتر إيفانوفيتش ميوسكي... سائق الجرّار... الاستاخانوفي[1]، ذات يوم انخرط الجميع في تلك الحركة. إنه صاحب يدين ذهبيتين. نجّرَ من الشجر عروة خشبية. بيته ـ أجمل بيت في القرية. إنّه خصلة من الخيوط! آه، كم أحسستُ بالشفقة، وصعد الدم إلى رأسي، عندما هدموه. ودفنوه. صاح الضابط حينها: "لا تحزني أيتها الأم، البيت مصدر إشعاعات". أمّا هو ـ فقد كان ثملا. اقتربت منه ـ إنه يبكي: "أنت، أيتها الأم، اذهبي من هنا! اذهبي!". طردني. وهناك بعد هذا البيت، بيت ميشا ميخايلوف، كان يوقد تحت الغلايات في المزرعة. لقد مات

---

(١) نسبة إلى ستاخانوفا. إ. عامل منجم وأوّل من أنجز عملاً يفوق كثيراً الخطة المقررة. ثم نشأت حركة من المتطوعين نسبت لاسمه، والتي عدّها الإعلام السوفيتي حينها كمرحلة جديدة من المباراة الاشتراكية. (المترجمان).

ميشا بسرعة. غادر ـ ومات مباشرة. خلفه ـ بيت مربّي الدواجن ستيبان بيخوف... لقد احترق! أحرقه أناس شرّيرون ليلاً. أناس غرباء. وستيبان لم يعش طويلاً أيضاً. دُفن في ضواحي مدينة موغيليوفوم، حيث يعيش أبناؤه. الحرب الثانية... كم من الناس فقدنا! لقد فقدنا كوفاليوف فاسيلي ماكاروفيتش، وآنّا كوتسوروفا، ومكسيم نيكيفورينكو... كانت البهجة في يوم من الأيام تغمر حياتنا. كنّا في الأعياد ـ نُغنّي ونرقص. ونعزف على الأكورديون. أمّا الآن، أعيش كما في السجن. أحيانا يحدثُ أن أسير في القرية مغمضة العينين... أقول لهم، أين الإشعاعات هنا، في الوقت الذي تطير فيه الفراشات، والنحل يطنّ. وقطّي فاسكا يصطاد الفئران. (تبكي).

وأنت عزيزتي لوبوتشكا، هل فهمت حزني؟ انقليه إلى الناس، قد لا أكون ساعتها على قيد الحياة. سيجدونني في الأرض... تحت الجذور...".

زينايدا يفدوكيموفنا كوفالينكا

أحد الذين رفضوا الإخلاء

مونولوج عن حياة كاملة، كُتبت على الأبواب

"أريد أن أشهد...

كان ذلك منذ عشر سنوات، وكل يوم يحدث لي الأمر نفسه. الآن.. في هذه اللحظة. إنّه دائماً معي.

كنّا نعيش في مدينة بريبيات. في المدينة نفسها، التي يعرفها العالم كلّه. أنا لست كاتباً. لكنّني شاهد. إليكم كيف حصل ذلك... منذ البداية...

أنت تعيشُ... إنساناً عاديّاً. إنساناً صغيراً. مثلك، مثل الجميع من حولك ـ تذهب إلى العمل، وتعود من العمل. تستلم مرتباً متوسّطاً. تسافر لقضاء الإجازة السنوية مرّة في العام. لديك ـ زوجة. وأطفال. إنسان طبيعي!. وتتحوّل في يوم واحد إلى إنسان تشرنوبل. إلى إنسان غريب!. إلى شيء ـ ما، يهتم الجميع به ولا يعرفه أحد. تريد أن تكون مثل الجميع، لكن لم يعد ذلك ممكناً، لا يمكنك العودة إلى العالم السابق. ينظرون إليك بعيون أخرى. يطرحون عليك أسئلة: هل كان ذلك مخيفاً؟ كيف احترقت المحطة؟ ماذا شاهدت؟ وبشكل عام هل أنت قادر على الإنجاب؟ زوجتك لم تهجرك؟ لقد تحوّلنا جميعاً في اللحظات الأولى إلى معروضات نادرة... كلمة "إنسان تشرنوبل" نفسها، غدت إشارة صوتية حتى الآن... الجميع يحوّلون رؤوسهم باتجاهك... من هناك!.

تلك كانت أحاسيس الأيام الأولى... نحن لم نفقد مدينة، بل فقدنا حياة بأكملها...

غادرنا البيت في اليوم الثالث... المفاعل يحترق... أتذكر أن أحداً من المعارف قال: "تفوح رائحة المفاعل". رائحة لا توصف. قرأ عن ذلك الجميع في الصحف. لقد حوّلوا تشرنوبل إلى مصنع للقصص المرعبة، لكن في الواقع حولوه إلى فيلم كارتون(صور متحركة). وينبغي أن نفهمه، لأننا سنعيش معه. سأُحدّثكم بما يخصّني فحسب... حقيقتي أنا...

ما حصل على الشكل التالي... أعلنوا في الراديو: يُمنع اصطحاب القطط! الابنة ـ تبكي، خوف فقدان قطتها المحبوبة، وأخذت تتلعثم. ضعوا القطة في الحقيبة! لكن القطة رفضت الدخول إلى الحقيبة، وحاولت الإفلات. خرمشت الجميع. يُمنع أخذ الأمتعة! أنا لا أريد اصطحاب أي متاع، سآخذ شيئاً واحداً. شيئاً واحداً فقط! سأنزع باب الشقة وآخذه معي، لا أستطيع ترك الباب... أمّا المدخل، فسأغلقه بالألواح الخشبية...

باب بيتنا... هو تعويذتنا! قطعة أثريّة أُسريّة. لقد رقد والدي على هذا الباب. لا أعرف، حسب أيّة تقاليد، ليس الأمر كذلك في كل الأماكن، لكن قالت أمي، إن التقاليد عندنا، تستوجب وضع الميّت على باب بيته. لقد بقي على هذه الحال، حتى أحضروا التابوت. جلست إلى جانب والدي طوال الليل، فقد كان ممدداً على هذا الباب... البيت بقي مفتوحاً... طوال الليل... نُقش على هذا الباب من أسفله إلى أعلاه مجموعة نقاط... تشيرُ كيف تطوّر نموّي... وضعت إشارات: الصف الأول، الثاني. ثم السابع. قبيل الالتحاق بالخدمة العسكرية... إلى جانب ذلك ـ نقاط تتعلق بنمو ابني... وابنتي... حياتنا كلّها مسجلة على هذا الباب، كما على البرديّات القديمة، كيف أتركه؟.

طلبت من جاري، كان لديه سيّارة: "ساعدني!". أشار نحو رأسي: أي، هل أنت يا صديقي بكامل وعيك. لكنّني نقلته... الباب... ليلاً... على الدراجة النارية... عبر الغابة... نقلته بعد عامين، عندما كانت شقتنا قد نُهبت. ونُظّفت. طاردتني دورية شرطة: "سنطلق الرصاص! سنطلق الرصاص!". طبعاً، تعاملوا معي، على أنني لصّ. كيف أسرق باب بيتي الخاص...

... أرسلت ابنتي وزوجتي إلى المستشفى. لقد ظهرت على جسديهما بقع سوداء. تظهر هذه البقع أحيانا، وتختفي أحيانا أخرى. اتساعها، اتساع قطعة خمسة كوبيكات[1]... لكنّهما لم تشعرا بأية آلام... أجروا لهما الدراسات المطلوبة. سألتهم: "أخبروني، ما هي النتيجة؟" ـ "النتيجة ليست لكم". "لمن ستقدم النتيجة إذا؟".

الجميع من حولنا قالوا حينها: سنموت ـ سنموت... سيختفي البيلاروسيون حتى العام ألفين. أكملت ابنتي عامها السادس. في يوم الحادثة نفسه. عندما أضعها في السرير كي تنام، تهمس في أذني: "بابا، أريد أن أعيش، أنا ما زلت صغيرة". اعتقدت، أنّها لا تدرك شيئاً... لكن عندما ترى المربية في روضة الأطفال أو طباخ المطعم يرتديان المريلة البيضاء، تصاب بالهيستيريا: "لا أريد الذهاب إلى المستشفى! لا أريد أن أموت!". لم تعد تحتمل اللون الأبيض. حتى أنّنا بدّلنا الستائر البيض في البيت الجديد.

هل أنتم قادرون على تصوّر رؤية سبع طفلات بلا شعر في اللحظة نفسها؟ كان عددهن في غرفة المستشفى سبع... لا، يكفي! إنّني أنتهي!

---

(١) أي حوالي ٢ سم. ـ المترجمان ـ

عندما أحدّثُ، لدي شعور وكأن قلبي يقول، يتنبأ ـ أنت ترتكب خيانة. لأنّه يتوجّب عليّ وصفها، كطفلة غريبة... ووصف عذاباتها... عادت زوجتي من المستشفى. لم أعد أحتمل: "الأفضل لو أنّها ماتت، من أن تتعذّب بهذا الشكل. أو لو أموت أنا، كي لا أشاهدها على هذه الحال". لا، يكفي! لم أعد قادراً. لا!

وضعناها على الباب... على الباب، الذي سجّينا عليه يوماً ـ ما والدي. حتى أحضرنا تابوتاً صغيراً... لقد كان صغيراً، كعلبة لعبة كبيرة. كاللعلبة...

أريد أن أشهد ـ ابنتي ماتت بسبب تشرنوبل. ويريدون منّا، أن نصمت. يقولون العلم، لم يثبت بعد، لا يوجد بنك معلومات. يجب الانتظار مئات الأعوام. لكنّ حياتي الإنسانيّة... أقصر من ذلك... لن أتمكن من الانتظار. سجّلوا... ولو أنتم فقط سجّلوا: اسم ابنتي كاتيا... كاتيوشينكا... ماتت في السابعة من عمرها...".

نيقولاي فومين كالوغين، أب

مونولوج إحدى القرى: كيف ينادون الروح من السماء، كي تبكي وتتناول معهم طعام الغداء

قرية بيلي بيريغ منطقة ناروفليانسك في مقاطعة غوميل.

يتحدث: أنا بافلوفنا أرتيوشينكو، ويفا أداموفا أرتيوشينكو، وفاسيلي نيقولايفتش أرتيوشينكو، وصوفيا نيقلايفنا موروز، وناديجدا بوريوفنا نيقلاينكو، والكسندر فيودوروفيتش نيقولاينكو، وميخائيل مارتينوفيتش ليس.

ـ ضيوف قادمون إلينا... أناس طيبون... لم نستقرئ اللقاء، لا توجد أيّة إشارة. يحدث، أن كفّك يحكك ـ ستصافح أحداً. لكن اليوم، لا يمكن أن نقول شيئاً، لم تكن هناك أيّة إشارات. عندليب غنّى طوال الليل ـ يعني أن نهاراً مشمسا سيكون. آه! نساؤنا تفرّ في لحظة. انظروا ناديا تطير...

ـ تعايشنا مع كل شيء، وتحمّلنا...

ـ آه، لا أريد أن أتذكر. شيء مخيف. طردونا، طردنا الجنود. آليات عسكرية بأعداد كبيرة. وآليات ذاتية الدفع. أحد كبار السن... استلقى على الأرض. كان يموت. إلى أين نذهب؟ بكى قائلاً: "سأقف وأذهب

إلى المقابر. على رجليّ". كم دفعوا لنا مقابل البيوت؟ ماذا؟ انظروا، إلى هذا الجمال! من سيدفع لنا مقابل هذا الجمال؟ منطقة سياحيّة!

ـ طائرات، وطائرات هيليكوبتر ـ ضجيج آليّات. سيارات شحن كاماز مع قاطراتها... جنود. أفكّر، بدأت الحرب. ضدّ الصينيين أو الأمريكيين.

ـ وصل ربّ البيت من اجتماع الكولخوز وقال: "غدا سيرحّلوننا". قلت له: "وماذا سنفعل بالبطاطا؟ لم نجمعها بعد". قرع جارنا الباب، وجلس إلى زوجي احتسيا الخمر. شربا وأخذا يشتمان رئيس الكولخوز: "لن نغادر ونقطة على أوّل السطر. لقد عشنا الحرب، وهاهيذي الإشعاعات". حتى ولو غُرنا في هذه الأرض. لن نغادر!

ـ اعتقدنا في البداية، بأننا سنموت بعد شهرين ـ ثلاثة. خوّفونا من ذلك. حملة دعائية كي نغادر. الحمد لله ـ ما زلنا على قيد الحياة!

ـ الحمد لله! الحمد لله!

ـ لا أحد يعرف، ماذا ينتظرنا في العالم الآخر. هنا أفضل... نعرفه أكثر. وكما قالت والدتي ذات مرّة: كن جميلاً، كن فرحاً واقلق بنفسك.

ـ فلنذهب إلى الكنيسة كي نصلّي.

ـ ذهبنا... أخذت تراباً من قبر أمّي في كيس. جلست على ركبتي: "سامحينا لأننا سنتركك". ليلاً ذهبت إليها ولم أخف. كتبتِ الناس أسماء عائلاتها على البيوت. وعلى جذوع الأشجار، وعلى الأسيجة. وعلى الإسفلت.

ـ الجنود قتلوا الكلاب. أطلقوا الرصاص عليها. باخ ـ باخ! لم أستطع بعدها سماع صراخ أي كائن حيّ.

ـ كنت مسؤولاً هنا. خمسة وأربعين عاماً... أسفت على الناس... نقلنا الكتان إلى المعرض في موسكو، لقد أرسلني الكولخوز. عدتُ من

هناك بميدالية وشهادة تقدير حمراء. تعاملوا معي هنا باحترام: "فاسيلي نيقولايفتش... نيقولايفتش مسؤولنا...". لكن من سأكون هناك، في المكان الجديد؟ الجد العجوز يحمل كيس السيروم. هنا سأموت، ستحضر النساء لي الماء، ويدفِّئن بيتي. أسِفتُ لحال الناس... تعود النسوة مساء من الحقل وهن يرددن الأغاني، وأنا أعرف، بأنهن لن يتلقين شيئاً. ستوضع لهن العلامات فقط على دفاتر العمل. وهن يرددن الأغاني.

ـ يعيشُ الناس في القرية هنا سويّة. في عالم واحد.

ـ رأيت في الحلم، أنني أعيش عند ابني في المدينة. حلم... وأنا أنتظر الموت، حتى وصل. أوصيت أولادي: "انقلوني إلى مقابرنا، وقفوا ولو لخمس دقائق قرب بيتنا". وكنت أرى من الأعلى، كيف ينقلني أولادي إلى هناك...

ـ ولتكن ملوّثة، بالإشعاعات، لكنها وطني. لن يحتاجنا أحد في أي مكان. حتى الطيور ترى أعشاشها أفضل.

ـ سأكمل... عشت عند ابني على الطابق السابع، أقترب من النافذة، وأنظرت إلى الأسفل، أرسم إشارة الصليب. يهيّأ لي، أنني أسمع الحصان. والديك... وآ أسفاه... وأحيانا أحلم بفناء البيت: أربط البقرة وأحلبها، أحلبها... أستيقظ... لا أريد أن أنهض ما زلت هناك. إنني أحيانا هنا وأحيان هناك.

ـ عشنا نهاراً في المكان الجديد، وليلاً في الوطن. في الحلم.

ـ الليالي طويلة في الشتاء، نجلس، وأحيانا، نعدُّ: من مات؟ الكثيرون ماتوا في المدينة بسبب العصبية والإحباط، عن أعمار تتراوح ما

بين الأربعين ـ خمسين عاماً، هل هذا هو سن الموت؟ أما نحن فما زلنا نعيش. ونصلّي كل يوم لله، ونطلب منه أمراً واحداً ـ الصحّة.

ـ كما يقال، إنك تصلح للمكان الذي وُلدت فيه.

ـ رقد ربّ بيتي لمدة شهرين في السرير... كان صامتاً، لم يستجيب لنداءاتي. منذ غضب مني. أتجوّل في فناء المنزل، ثم أعود: "أيّها الجد، كيف حالك؟". يرفع عينيه للصوت فقط، فأشعر أن حالتي أفضل. ليته كان رقد، وصمت، وكان هناك في البيت. عندما يكون الإنسان على فراش الموت، يُمنع البكاء. إنه يعيق رحيله، وسيرهق طويلاً. أخذت شمعة من الخزانة ووضعتها في يده. أخذها وتنهّد.... عيناه، أراهما معتمتين... لم أبكي... طلبت أمراً واحدا: "بلّغ سلامي لابنتي وأمّي الحبيبة". صليّتُ، كي نكون معاً... يستجيب الرب لدعاء بعضهم، لكنّه لم يمنحني الموت. مازلت حيّة أرزق.

ـ أنا لا أخاف الموت. لا أحد يعيش مرتين. ورق الشجر يتساقط، والشجرة تهوي.

ـ أيتها الجدات! لا تبكين. كنتن في الطليعة كل هذه الأعوام. وكنتن ستاخانيون. تحملتن مرحلة ستالين، والحرب!. لو لم تضحكن وتهدئن من روعكن، لكنتن قد انتحرتن منذ زمن. تحدثت امرأتان تشيرنوبلسكيتان[1]: "لقد سمعت، أن دم الجميع عندنا أصبح أبيض اللون؟". تجيب الأخرى: "كلام فارغ! لقد بضعت إصبعي يوم أمس، وسال منها دم أحمر".

ـ مسقط الرأس، كالجنّة. أمّا في الأماكن الأخرى فالشمس لا تضيء كما ينبغي.

---

(١) نسبة إلى تشيرنوبل/المترجمان./

- علّمتني أمّي يوماً، أن اقلبي الأيقونة، واتركيها معلّقة على تلك الصورة ثلاثة أيام. وسوف تعودين بالتأكيد إلى البيت، حتى لو كنت في أي مكان. كان عندي بقرتان وعجلتان، وخمسة خنازير، وأوز، ودجاج، وكلب. كنت أمسك رأسي بيدي وأمشي في الحديقة. أمّا التفاح. كم كان لدينا تفاح! لقد ضاع كل شيء، تفو، لقد ضاع!.

- غسلتُ البيت، دهنت الموقد باللون الأبيض... كنّا نضع الخبز على الطاولة والملح، والزبديّة مع ثلاثة ملاعق. عدد الملاعق بعدد القاطنين في البيت... كل شيء، آه، لو يعود كل شيء...

- رؤوس الدجاج كان لونها أسود، وليس أحمر - إنّها الإشعاعات. الجبن لم ينضج. عشنا شهرا بدون اللبن الرائب والجبن. الحليب لم يحمض. فقد تحوّل إلى مسحوق أبيض. إنّها الإشعاعات...

- لقد كانت هذه الإشعاعات عندي في حديقة المنزل. تلوّنت الحديقة كلّها بالبياض، كان بياضاً - ناصعاً، وكأن شيئاً - ما قد نثر. قطعاً.. ندفاً... اعتقدت أن شيئاً - ما نقل من الغابة. والريح نثرته.

- ما أردنا المغادرة. آه، ما أردنا! الرجال ثملون. ألقوا بأنفسهم تحت العجلات. تجولت القيادة على البيوت وأقنعت كل فرد. توصية: "عدم نقل الممتلكات!".

- لم تشرب المواشي منذ ثلاثة أيام، ولم تأكل. إلى الذبح! حضر مراسل إحدى الصحف وسأل: "كيف المزاج؟ كيف حالكم؟". كادت الحلاّبات الثملات يقتلنه.

- جال رئيس الكولخوز والعساكر حول بيتي... يخيفونني: "اخرجي أو سنشعل النار! هيّا أجضر أسطوانة البينزين إلى هنا". أركض - أمسك أحيانا بالمنشفة، وأحيانا بالوسادة...

ـ قلّ لي أنت، كيف تؤثر هذه الإشعاعات من الناحية العلمية؟ قل الحقيقة، فنحن على كل حال سنموت قريباً.

ـ تعتقدون أنّها غير موجودة في مينسك، فهي غير مرئية؟

ـ أحضر حفيدي كلباً... أسميناه رادي[١]، لأننا نعيش في الإشعاعات. وعندما أسأل أين كلبي رادي اختفى، أجدهُ دائماً بالقرب من رجليَّ؟ أخاف أن يخرج من القرية، وتأكله الذئاب. وأبقى وحيدة.

ـ تسمع أثناء الحرب، قعقعة الآليات طوال الليل. ووقع أرجل الجنود. لقد طمرنا الفريز (الفراولة) في الغابة. يقصفون ويقصفون. حرقوا كل شيء، ليس البيوت فحسب بل حدائق المنازل، والكرز احترق.

أي شيء سوى أن تنشب الحرب... كم أخافها!

ـ يسألون في إذاعة أرمينيا: "هل يمكن أكل تفاح تشرنوبل؟". الجواب: "ممكن، لكن يجب دفن الفضلات منها عميقاً في الأرض". السؤال الثاني: "كم يساوي سبعة ضرب سبعة؟". الجواب: "أي واحد من تشرنوبل يحسبها لك على أصابعه" ها. ها. ها.

ـ أعطونا بيتاً جديداً. بيت مبني من الحجر. أتعلمون أننا خلال سبعة أعوام لم نغرس مسماراً واحداً. غربة! كل شيء غريب. رب بيتي بكى وبكى، يعمل في الكولخوز سائق جرار طوال الأسبوع، ينتظر يوم الأحد، وفي يوم الأحد يتمدد قرب الجدار ويبكي.

ـ لم يعد يكذب علينا أحد، لم نتحرّك من مكاننا إلى أي مكان آخر. لا يوجد متجر، ولا يوجد أي مستشفى. لا يوجد ضوء. نجلس تحت

---

(١) الاسم مشتق من "رادياتسيا" بالروسية: إشعاعات/ .المترجمان./

مصباح الكيروسين والأعواد المشتعلة. ونحن مرتاحون! نحن ـ في البيت.

ـ في المدينة، كانت تسير زوجة ابني خلفي تحمل ممسحة وتمسح مقبض الباب، والكرسي... وكل شيء هنا تم شراؤه بنقودي، الموبيليا كلّها وسيارة "الجيغولي". النقود أُنفقتْ، وما من حاجة بعد الآن لماما.

ـ أبناؤنا أخذوا النقود... وما تبقى التهمه التضخم. كل ما قُدّم لنا لقاء ممتلكاتنا، وبيتنا. وتفّاحُنا.

ـ ومع ذلك نعيش بمرح... يسألون في الإذاعة الأرمينية: "ما هو جهاز مراقبة الطفل (يلفظ باللغة الروسية: راديو نيانيا)؟" ـ "إنّها جدة من تشرنوبل" ها. ها. ها..

ـ مشيت أسبوعين سيراً على الأقدام... واصطحبت بقرتي معي... منعنا الناس من الدخول إلى البيت. نمنا في الغابة.

ـ يخافوننا. يقولون، نحمل العدوى. لأيّ سبب يعاقبنا الله؟ غضب منّا؟ لا نعيش مثل الناس، ولا حسب القوانين الإلهية. يقتلُ أحدُنا الآخر. من أجل ذلك.

ـ زارني أحفادي في الصيف... لم يأتوا في الأعوام الأولى، لقد خافوا أيضاً... أمّا الآن فهم يزورونني، ويأخذون المواد الغذائية، يوضبون كل شيء يقدّم لهم. سألوني: "جدتي، هل قرأت الكتاب عن روبينزون؟". عاش وحده، كما نعيش نحن. من دون الناس. أحضرت معي نصف كيس من أعواد الثقاب... فأساً ومجرفة... وعندي الآن شحم خنزير، وبيض، وحليب، ـ كله من إنتاج البيت. السكّر فقط ـ لا يمكن زراعته. خذ من الأرض ما تريد! أحرث ولو مئة هكتار. لا توجد أيّة سلطة. لا شيء يزعج الإنسان هنا... لا قيادة... نحن ـ أحرار.

- عادت القطط معنا. والكلاب. عدنا سويّة. لم يأذن الجنود لنا. القوات الخاصّة. مشينا ليلاً... في مسارات الغابة... دروب العصابات...

- لا نريد شيئاً من الدولة. ننتج كل ما نحتاج بأنفسنا. فقط لا تلمسونا. لا نحتاج حوانيت. ولا باصات. لأجل الخبز والملح نسيرُ على الأقدام عشرين كيلومتراً... نحن سادة أنفسنا.

- عدنا جماعات. ثلاثة أسر... لقد سرقوا كل شيء هنا: حطموا الموقد، والنوافذ، وفكوا الأبواب. والأرضيات. والمصابيح، لقد فككوا كل شيء - المفاتيح الكهربائية والمآخذ. لا يوجد شيء صالح للاستعمال. جددنا كل شيء بهذه الأيدي. كيف إذا!

- الأوز البريّ يصيح - حلّ الربيع. حان وقت الزرع. ونحن في بيوت فارغة... شيء واحد - الأسقف كاملة...

- يصيح رجال الشرطة. يأتون بالسيارات، أمّا نحن - فإلى الغابة. كما كنّا نهرب من الألمان. هاجمونا ذات مرّة مع المدعي العام، وهددنا، بأنّه سيحاكمنا. قلت له: "وليكن، سيحكمونني بالسجن لسنة، سأخرج من السجن وأعود إلى هنا". مهمتهم الصراخ، وعلينا الصمت. أنا أحمل وساماً، كسائق حصّادة متميّزة، وهو يهددني - ستحاكمين حسب المادة العاشرة... كمجرم...

- كنت أحلم ببيتي كل يوم. لقد عدت: أحياناً أحرث حديقة المنزل، وأحيانا أرتّبُ السرير... ودائماً أجد شيئاً - ما: حذاء أحيانا، وصيصاناً أحياناً أخرى... كل ذلك ينذر بالخير، وبالسعادة. وبمناسبة العودة...

- نرجو الله ليلاً، والشرطة نهاراً. تسألونني: "لماذا تبكين؟". أنا لا أعرف، لماذا أبكي. أنا فرحة أنني أعيش في فناء بيتي.

ـ وبقينا أحياء، رغم كل شيء، وتحمّلنا...

ـ سأروي لكم طرفة... نصَّ مرسوم الحكومة حول ميّزات الذين تعرضوا لآثار تشرنوبل... أن يكتب إلى جانب اسم عائلة من عاش على مسافة عشرين كيلومتراً من المحطة كلمة "خلفية". وإلى جوار اسم عائلة من عاش على بعد عشرة كيلومترات ـ كلمة "سيادتكم". ولمن بالقرب من المحطة ـ "سماحتكم". هكذا نعيش هنا "سيادتكم"... ها. ها. ها....

ـ اضطررت لزيارة الطبيب وقلت له: "عزيزي، رجلاي تؤلمانني. مفاصلي تؤلمني" ـ "يجب أن تسلّمي البقرة. الحليب مسموم". ـ "أو، لا ـ أبكي، ـ رجلاي تؤلمانني، وركبي تؤلمني، لكن البقرة لن أسلمها. إنها من يعيلني".

ـ لديّ سبعة أبناء. جميعهم يعيشون في المدينة. أنا هنا وحدي. أشتاق إليهم، أجلس تحت صورهم... أحدثهم... إنني وحدي... وحدي. طليت البيت بالدهان وحدي، ستة علب من الطلاء استهلكت. هكذا أعيش. ربيّت أربعة أولاد وثلاث بنات. وزوجي توفي مبكرا. وحدي.

ـ التقيت ذئباً هكذا: وقف أمامي، وأنا وقفت. نظر أحدنا إلى الآخر. ثم قفز جانباً... وعدا... ارتفعت قبعتي من الخوف.

ـ أي وحش يخاف الإنسان. دع الوحش وشأنه، سيتجنبك. من قبل كنت تتجول في الغابة، تسمع أصواتاً، تهرع إلى الناس، أمّا الآن الإنسان يختبئ من الإنسان. لا قدّر الله أن تلتقي إنسانا في الغابة!.

ـ كل ما كتب في الإنجيل، يتحقق. هناك وعن كولخوزنا قد كتب... وعن غورباتشوف كتب... سيكون هناك مسؤولا كبيراً له علامة على

جبينه.. وأن دولة عظمى ستنحلّ... ثم تَحِلُّ محكمة إلهيّة... سيموت كل من يعيش في المدن. أمّا في القرية فسيبقى إنسان واحد. الإنسان سيكون فرحاً بآثار الإنسان! ليس بالإنسان، بل بآثاره فقط...

- النور عندنا - مصباح. مصباح كيروسين... أخبرتكن النساء بذلك. نقتل الخنزير، ننقله إلى القبو أو ندفنه في الأرض. اللحم يمكن أن يبقى ثلاثة أيام تحت الأرض. (السماغون) الفودكا المنزلية، من انتاجنا. من المربّى.

- لدي كيسين من الملح... لن نضيع بدون الدولة! الحطب كثير - الغابة من حولنا. البيت دافئ. المصباح ينير. جيد! أقتني عنزة، وتيس، وثلاثة خنازير، وأربعة عشرة دجاجة. الأرض - وفيرة، والعشب - وفير. الماء في البئر. الإرادة! وضعنا جيد! هنا ليس لدينا كولخوز، بل مشاع. شيوعية! سنشتري حصاناً. وحينها لا حاجة بنا إلى أحد. حصان واحد...

- نحن لم نعد إلى البيت. كما قال المراسل الصحفي الذي كان هنا دهشاً، بل مئة عام إلى الوراء. نجني المحصول بالمنجل، نقصّ العشب بالمنجل الكبير. نطحن الحبوب بالدرّاسات مباشرة على الإسفلت. رب البيت يحيك السلّة. وأنا أطرّز في الشتاء. وأنسج.

- لقد استشهد من عائلتنا في الحرب سبعة عشر شهيداً. قتلوا أخوي الاثنين... بكت أمّي وبكت. تجولت في تلك الفترة امرأة عجوز في القرى، وتسوّلت. قالت لوالدتي: "تحزنين وتحدّين؟. لا تحدّي. من قدم نفسه في سبيل الآخرين، فهو إنسان مقدّس". وأنا أستطيع أن أضحّي من أجل وطني... لكنني لا أستطيع أن أقتل. أنا - معلّمة، علّمت - حبَ الإنسان. الخير ينتصر دوماً. الأطفال صغار، أرواحهم نقيّة.

ـ تشرنوبل... كان حرباً فوق الحروب. لا يوجد مكان لنجاة الإنسان. لا في الأرض، ولا في الماء، ولا في السماء.

ـ أقفلنا الراديو مباشرة. لا نعرف أيّة أخبار، لذلك عشنا بهدوء. لم ننزعج. يأتي الناس، يكررون الأحاديث: الحرب في كل مكان. وكأنّ الاشتراكية انتهت، ونعيش في ظل الرأسمالية. لقد عاد القيصر. هل صحيح ذلك!؟.

ـ يأتي خنزير من الغابة أحياناً، وأحيانا ذئبة... الناس نادراً ما يأتون. رجال الشرطة فقط...

ـ وأنتم هل ستعرّجون على بيتي.

ـ وعلى بيتي. لم يجلس في بيتي ضيوف منذ زمن طويل.

ـ أرسم إشارة الصليب، وأتضرّع... لله!. حطمت الشرطة الموقد عندي مرتين.. نقلونا على الجرار... وأنا ـ أعود أدراجي! لولا منعهم الناس ـ لعاد الجميع زحفاً على ركبهم. نشروا مصيبتنا في كل مكان. يسمحون للموتى فقط بالعودة. ينقلونهم. أمّا الأحياء ـ فيرجعون ليلا. يسلكون طريق الغابة...

ـ يحاول الجميع الحضور إلى هنا للمرح. الجميع. كل شخص يريد تذكّر قريبه. تسمح لهم الشرطة حسب القوائم، لكنّها لا تسمح للأطفال دون الثامنة عشرة. يأتون ويقفون سعداء إلى جانب بيوتهم... إلى جانب شجر التفاح في حدائقهم... بداية يمضون إلى المقبرة للبكاء، ثم يتفرقون إلى أفنية بيوتهم. وهناك أيضاً يبكون ويصلّون. يشعلون الشموع. يعلقونها على أسيجة بيوتهم، وفي حدائق البيوت وعند القبور... يقرأ الخوري الصلاة: "أيها الأخوة والأخوات! كونوا صبورين!".

ـ يأخذون إلى المقبرة البيض، والمعجنات... ويأخذ الكثير منهم

الفطائر بدلاً من الخبز. يأخذ كلٌ منهم ما لديه... ويجلس بالقرب من فقيده. ينادون: "أيتها الأخت، أتيت لزيارتك. تعالي نتناول طعام الغداء سويّة". أو: "أمّنا أنت... والدنا أنت... عمّتنا...". يستدعون الأرواح من السماء... من مات له أحد هذا العام يبكيه، ومن مرّ على فقيده أكثر من عام، لا يبكي. يحدّث عنه ويتذكّره. الجميع يصلّون. حتى من لا يعرف الصلاة، يصلّي أيضاً.

ـ ليلا لا يجوز البكاء على الموتى. لا بكاء ـ بعد غروب الشمس. استذكر، الله، وأرواحهم. وملكوت السماء لهم!

ـ من لا يقفز، هو الذي يبكي... أوكرانية تبيع تفاحاً كبيراً أحمر في سوق الخضار. وتنادي: "اشتروا التفاح! تفاح تشرنوبل!". نصحها أحدهم: "لا تعترفي عمّتي، بأن هذا تفاح تشرنوبل. لن يشتري أحد". ـ "لا تقل ذلك! سيشترون! منهم من يريده لحماته، ومنهم.. لمسؤوله!".

ـ عاد أحدهم من السجن. بموجب مرسوم عفو. كان يعيش من قبل في القرية المجاورة. كانت أمّه قد ماتت. ودفنوا البيت. أتى إلينا. "عمّتي أعطني قطعة خبز وشحم خنزير. وأنا سأحطب لك الحطب". يتسوّل.

ـ البلد تعمّها الفوضى ـ ويهرب الناس إلى هنا. يهربون من الناس. من القانون. ويعيشون وحدهم. أناس غرباء... جلفون، لا سلام في عيونهم. يثملون ـ ويحرقون. ننام ليلا، ونضع الشوكات والفؤوس تحت السرير. والمطرقة عند باب المطبخ.

ـ جالت في الربيع ثعلبة مسعورة، وعندما تكون مسعورة، يجب ملاطفتها ـ وملاطفتها. لا يمكنها النظر إلى الماء. ضع في الفناء قدراً من الماء ـ ولا تخفْ! سترحل؟

ـ يأتون إلينا... لتصوير أفلامٍ عنّا، ونحن لن نرى أبداً تلك الأفلام. لا تلفزيونات لدينا، لا كهرباء. يمكننا فحسب ـ النظر من النافذة. طبعاً ونصلّي أيضاً. من قبل كان الشيوعيون بدلاً من الله، أمّا الآن فقد بقي الله وحده.

ـ نحن ـ أناس جديرون.. أنا ـ مقاوم، شاركتُ سنة في حرب العصابات. وعندما هبَّ شعبنا لصدّ الألمان، كنت على الجبهة. كتبت اسم عائلتي على الرايخستاغ. كتبت: أرتيوشينكو. خلعت معطفي، وبنيت الشيوعية. أين الشيوعية هنا؟.

ـ لدينا هنا شيوعية. نعيش أخوة وأخوات.

ـ عندما بدأت الحرب، لم يكن في تلك السنة لا فطر، ولا ثمار. أتصدِّقون؟ لقد استشعرت الأرض المصيبة... عام واحد وأربعين... آه، أتذكره! أنا لم أنسَ الحرب. انتشرت إشاعة بسرعة، بأنّهم أحضروا أسرانا، ومن يتعرف إلى أسيره، يستطيعُ أخذهُ. استنفرنا، هرعت نساؤنا!. مساءاً، منا من أخذ أسيره، ومنا من أحضر أسيراً غريباً. لكن كان بيننا سافل... عاش كالآخرين، متزوج وله طفلان. أبلغ القيادة الألمانية، بأنّنا أخذنا أسرى أوكرانيين. فاسكو، ساشكو... أتى الألمان في اليوم التالي على الدراجات النارية... أجبرونا على الركوع... ثم أخذوهم إلى خارج القرية وقتلوهم بالرشاشات. تسعة أشخاص. كانوا فتياناً ـ فتياناً، جيدين! فاسكو، ساشكو...

المهم أن لا تكون هناك حرب. كم أخافها!

ـ تأتي القيادة، تصرخ ـ تصرخ، ونحن صمّ وبكمّ. بقينا على قيد الحياة، وتحمّلنا كل شيء...

ـ انا مهتمة بوضعي... أفكر بحالي وأفكر... في المقابر... من يقرأ

بصوت عال، ومن يقرأ بصوت خافت. يحدث أن آخرين يقولون: "تفتحي، أيتها الرمال الصفراء. تفتّحي، أيتها الليلة الظلماء". يمكنك أن تنتظر شيئاً من الغابة، لكن من الرمل، لا يمكنك أن تنتظر شيئاً. أنا سأتوجّه بلطف: "إيفان... إيفان، كيف لي أن أعيش؟". ولكنه لا يجيبني، لا جيداً، ولا سيّئاً.

ـ أمّا أنا... فلا أخاف أحداً: لا الموتى، ولا الوحوش، لا أحد. يأتي ابني من المدينة ويؤنّبني: "كيف تبقين وحدك؟ كيف. قد يخنقك أحد؟". وما الذي سيأخذه مني؟ الوسائد وحدها... كل الأثاث في بيت متواضع ـ هي الوسائد. عندما يتسلّق اللصّ، سيمد رأسه من النافذة، وأنا سأبعدها بالفأس. حسب تصوّرنا... قد لا يكون هناك إله، قد يكون أحد آخر يسكن في الأعلى، لابد من أحد ما هناك... وأنا أعيش.

ـ علّق الجد في فناء البيت عجلاً مسلوخاً. وبالمصادفة أحضروا في هذا الوقت فريقاً أجنبياً. سألوه: "أيّها الجد، ماذا تفعل؟" ـ "أطرد الإشعاعات".

ـ حصل ذات مرّة... حدَّث الناس... أن دفن زوجٌ زوجَه، وبقي عنده صبيّ صغير. الرجل وحده... ثمل بسبب المصيبة... نزع عن الطفل الثياب المبللة ووضعها تحت الوسادة. فإذا بالأم ـ هي نفسها، أو روحها فقط ـ تحضر ليلاً، تغسلُ تلك الثياب، وتنشّفها وترتّبها في مكان واحد. وعندما شاهدها... ناداها، تبخّرت فجأة... وأصبحت هواءً... نصحه الجيران حينها: عندما تراها ـ أقفل الباب مباشرة، قد لا تهرب بسرعة. لكنّها لم تأتِ ثانية. ما الذي حصل؟ من الذي حضر؟.

لا تصدّقون؟ أخبروني إذاً، من أين تأتي الأساطير؟ لعلها كانت ذات يوم حقيقة؟ ها أنتم متعلّمون...

ـ لماذا انفجر تشرنوبل؟ بعضهم يقول ـ العلماء هم المذنبون. يمسكون الله من لحيته، أما هو فيضحك. ونحن يجب أن نتحمّل!...

لم نعشْ أبداً بشكلٍ جيّد، بهدوء. أخذوا الناس إلى الخدمة قبل الحرب... كان هناك... ثلاثة رجال من عندنا أخذوا.... حضروا بسيارات سوداء وأخذوهم من الحقل، ولم يعودوا حتى الآن. كنّا خائفين دوماً.

ـ لا أحب البكاء... أحب أن أسمع طرفة جديدة... زرعوا التبغ في منطقة تشرنوبل. صنعوا في المعمل سجائر من هذا التبغ. كتب على كل علبة سجائر: "وزارة الصحة لآآآآخر مرّة تحذّر ـ التدخين خطرٌ على الصحة". ها. ها. ها.... كبار السن عندنا يدخنون....

ـ الشيء الوحيد الذي أملكه، هو البقرة. أعطي هذه البقرة مقابل ألا تكون هناك حرب. كم أخافها!.

ـ طائر الوقواق يوقوق، الغربان تنعق. الأيّلة تركض. هل ستستمرُ بالتصرّف لاحقاً بهذه الطريقة، لن يجيبك أحد. نظرت في الصباح إلى الحديقة ـ الخنازير تنقّب. إنّها غير أليفة. الناس يمكن إسكانهم، أمّا الإيّل والخنزير فلا. والمياه لا تحدُّها حدود، تسيل على الأرض، وتحتها...

البيت لا يمكنه البقاء دون الإنسان. والإنسان بحاجة إلى الوحش. الجميع يبحث عن الإنسان. حطَّ اللقلق... الجندب زحف. إنّني فرحة بالجميع.

ـ تؤلمني... ركبتاي آه، كم تؤلمني! يجب الهدوء... يحملون التابوت بهدوء... بحذر... كي لا يرتطم بالباب أو السرير، يجب ألا يمس شيئاً أو يصطدم به. لأنّ ذلك ينذر بمصيبة ـ يعني انتظار وفاة شخص ثانٍ. احفظ، يا إلهي، أرواحهم. ملكوت السماء لهم!. يرثونهم

في المكان الذي يدفنون به. لدينا هنا كلّ شيء ـ قبور. قبور في كل مكان... والآليّات ذاتية الدفع تقرقع. والبلدوزارات. البيوت تتساقط.... عاملو الدفن يعملون ويعملون... طمروا المدرسة، والمجلس الزراعي، والحمّام... إنّه العالم نفسه، لكن الناس ليسوا أنفسهم. شيء لا أعرفه، إذا كان للإنسان روح؟ كيف هي؟ وأين يتسع للناس المكان في العالم الآخر؟

بقي الجد يومين يفارق الحياة، اختبأتُ خلف الموقد وانتظرت: كيف ستطير الروح منه؟ ذهبت لأحلب البقرة... قفزت عائدة إلى المنزل... ناديته... رقدَ وعيناهُ مفتوحتان... طارت روحُه... أم لم يكن هناك من شيء؟ كيف إذا سنلتقي؟.

ـ يقول الخوري، ويعد، بأننا ـ خالدون. نصلّي. يا إلهي، أعطنا القوّة كي نتحمّل إرهاق حياتنا...

مونولوج: إذا عثرت على دودة المطر، ستفرح الدجاجة أيضاً. وما يغلي في القدر، ليس أبديّاً أيضاً

"الخوف الأول...

سقط الخوف الأول من السماء... سبح في الماء... عدد من الناس بمن فيهم كثيرٌ ممن كانوا هادئين، كالأحجار، أقسموا بالصليب على ذلك! الرجال ممن هم أكبر سنّاً، يثملون: "نحن وصلنا إلى برلين وانتصرنا". يقولون ذلك، وكأنهم يلصقون الكلام على الجدار... منتصرون! وبأوسمة شجاعة.

كان الخوف الأول... صباحاً في الحديقة وفي مزرعة البيت وجدنا حيوانات الخلد مخنوقة. من خنقها؟ هي عادة لا تخرج من تحت التراب. لقد طردها شيء ـ ما. أقسم بالصليب!

اتصل ابني من مدينة غوميل:

ـ هل تطير جنادب أيار؟

ـ لا توجد جنادب، وحتى اليرقات لا ترى. لقد اختبأت.

ـ وديدان المطر موجودة؟

ـ تعثر على دودة المطر، تفرح الدجاجة. وهذه غير موجودة.

ـ العلامة الأولى: المكان الذي لا توجد فيه جنادب أيار وديدان المطر ـ هو منطقة إشعاعات عالية الخطورة.

ـ ما هي الإشعاعات؟

ـ ماما، هي موت مخيف. اقنعي جدتي أن تغادر. ستعيشان عندنا.

ـ لم نزرع مزرعة البيت بعد...

لو كان الجميع أذكياء، فأين ستجد الحمقى والمعتوهين. تحترق، ولتحترق. الحريق ـ ظاهرة مؤقتة، لم يخفْ أحدٌ في تلك الأزمان. لم يعرفوا الذرّة. أقسم بالصليب!. لقد عشنا إلى جوار المحطة الذرية، نبعد ثلاثين كيلومتراً ـ كخطٍ مستقيم، أما مسافة الطريق المعبّد فأربعون... كنّا راضين جداً. أشتري التذكرة وأسافر إلى هناك. إمداداتُ المحطّة موسكوفيّة ـ المرتديلا هناك رخيصة، اللحمة متوفرة دائماً في المتاجر. والخيارات متعددة. لقد كانت أياماً جميلة!

أمّا الآن فالخوف وحده يسيطر... يثرثرون، سيبقى الذبابُ والضفادع، أمّا الناس فلا. ستبقى الحياة من دون الناس. يثرثرون بالخرافات والحكايات. معتوه من يحبها! لكن لا يوجد نسيجٌ من دون الحقيقة... إنّها الآن أغنية قديمة...

أُشَغِّلُ المذياع. يخيفوننا ويخيفوننا بالإشعاعات. أصبحنا نعيش بوجود الإشعاعات أفضل مما كنا في السابق. أقسم بالصليب! انظر حولك: أحضروا ثلاثة أنواع من البرتقال، ثلاثة أنواع من المرتديلا، تفضّل... أحفادي في القرية! جالوا نصف العالم. الابنة الصغرى عادت من فرنسا، فرنسا تلك التي هاجمنا منها نابليون ذات يوم... يقول الحفيد الثاني: "جدتي، لقد رأيت الأناناس!"... أخوها في برلين.. أخذوه للعلاج... برلين، التي زحف علينا منها هتلر... بالدبابات... عالم جديد الآن... كل شي أصبح مختلفاً... هل الإشعاعات هي المذنبة أم من؟ كيف هي؟ لعلّهم عرضوها في السينما؟ أنتم شاهدتموها؟ بيضاء اللون،

أم كيف هي؟ أي لون لها؟ بعضهم يقول، لا لون لها ولا رائحة، وآخرون يقولون إنّها سوداء. كالأرض! فإذا كانت دون لون، هي إذا كالإله. الله موجود في كل مكان، ولا يراه أحد. يخيفون الناس! فالتفاح يتدلّى في الحديقة والورق على الشجر، البطاطا في الأرض... أعتقد أنّه، لا يوجد أي تشرنوبل، لقد اخترعوه... كذبوا على الناس... غادرت أختي مع زوجها... ليس إلى مكانٍ بعيد، بل إلى قرية تبعد عشرين كيلومتراً.. عاشا هناك شهرين، هرعت إليهم الجارة تقول: "انتقلت الإشعاعات من بقرتكم إلى بقرتي. إنّ البقرة تتهاوى". "كيف انتقلت؟" - "إنها تطير في الهواء، كالغبار. إنّها طائرة". حكايات! حكايات عن حكايات... لقد كان... لدى جدي نحل، خمس خلايا. لم يطر النحلُ لثلاثة أيام، لم تطر أية نحلة. بقيت في الخلايا. انتظرَتْ. أخذ الجد يتجول في الفناء ذهاباً وإياباً: أي هجوم هذا؟ ما هذه الكوليرا؟ شيء ما حصل في الطبيعة. نظام النحل، كما عرفنا، بعد فترة من الزمن، وقد وضّح لنا جارنا، المعلّم، أفضلُ من نظامنا، وأكثر ذكاءً، لقد سمعت مباشرة. الإذاعة والصحف كانت ما تزال صامتة، أمّا النحلُ فقد عرف. لقد طار في اليوم الرابع فقط. الدبابير... كان عندنا دبابير، عشها الخريفي تحت الشرفة، لم يمسّها أحد، لكن لم يعد لها أثر في الصباح، لا هي حيّة ولا ميتة. عادت بعد ست سنوات. الإشعاعات... تخيف الناس والحيوان... والطيور... وحتى الشجرة تخاف، لكنّها بكماء. لا تتكلّم. أمّا الخنافس الكولورادية فقد زحفت، وأخذت تأكل بصلنا، التهمت حتى القشور، لقد اعتادت السمومَ. مثلنا.

لكن كيف أفكر - لقد مات شخصٌ، في كلّ بيت... وفي الشارع الآخر، على الضفة الأخرى من النهر... أصبحت النساءُ جميعاً من دون أزواج، من دون رجال، الرجال ماتوا. جدنا يعيش في شارعنا، وهناك

رجل آخر أيضاً. إنّ الله يأخذ الرجال قبل النساء. لأيّ سبب؟ لا أحد يرشدنا، لا يعرف هذا السر أحد. فكِّروا: أن يبقى الرجال وحيدين من دون نساء ـ ليس أمراً جيداً. إنّهم يشربون، عزيزتي يشربون. يشربون من الكآبة. من يريد الموت؟ عندما يموت الشخص ـ يا لها من كآبة! المواساة غير ممكنة. لا أحد يستطيع بأية طريقة أن يواسي. يشربون ويتحادثون... يناقشون... يشربون، ويضحكون ويحصل الانفجار! ـ لا. الجميع يحلمون بموت سهل. كيف تستحقه؟ الروح ـ هي الكائن الحيّ الوحيد. عزيزتي أنت... أمّا النساء عندنا، جميعهن فارغات، منتزعٌ ما هو أنثوي ـ عُدَّ ـ من كل ثالثة منهنّ. من الشابة، ومن العجوز... لم يتسنّ للجميع الإنجاب... كما أفكّر.. مضت..، وكأن شيئاً لم يكن...

ما الذي سأضيفه؟ يجب أن نعيش... لا نريد أكثر...

وأضيف أيضاً... كنّا نحضر الزبدة من قبل بأنفسنا، والقشطة، واللبن الرائب، والجبن. وكنّا نغلي رواسب الحليب. هل يأكلون منها في المدينة؟ تسكب الطحين في الماء وتحرّكه، تتكون قطع عجين ممزّقة، حينها تضع هذه القطع في القدر مع ماء يغلي. تسلقها وتسكب عليها الحليب. أرتنا ماما ذلك وعلّمتنا: "تعلّموا أنتم أيّها الأطفال هكذا. فأنا قد تعلّمت من ماما". شربنا عصير البتولا والقيقب ـ بتولا وقيقب. بخرّنا حبوب الفاصولياء في ظروفها داخل قدر معدني في الموقد الكبير. سلقنا الحامض من التوت البرّي... وجمعنا القرّيص، والكينوا والأعشاب الأخرى أيام الحرب. تورّمنا من الجوع، لكننا لم نمت. الثمار في الغابة والفطر... أمّا الآن فإنّ كل شيء تحطّم. اعتقدنا أن ذلك لا يمكن تغييره، دائماً كان هكذا، وسيستمر على هذا المنوال. وإنّ الذي يغلي في القدر المعدني، هو أبديّ. لم أصدّق يوما، بأن ذلك سيتغيّر. لكن الأمر الآن: الحليب ـ ممنوع، البقوليات ـ ممنوعة. الفطر والثمار

ممنوعة... يُعاقبونَ اللحم بسلقه ثلاث ساعات. ويتم تغيير الماء مرتين أُثناء سلق البطاطا. لكنّك لن تحارب الله... نحن بحاجة لأن نعيش...

يخيفونك، أن مياهنا غير صالحة للشرب. لكن كيف يمكن أن نستغني عن الماء؟ الماء موجود في كل إنسان. ما من أحد بلا ماء. تجد الماء في الحجر. ربما الماء أيضاً، أبديٌّ؟ الحياة كلها من الماء... ممن تطلب؟ لن يجيبك أحد. لله نصلّي، وهو لا يُسأل. وهكذا ينبغي أن نعيش...

ها هي الحبوب ارتفعت... حبوب جيدة..."

آنا بيتروفنا بادايفا، من الذين لم يخلوا بيوتهم.

مونولوج عن أغنية من دون كلمات

"سأسجدُ عند قدميك... وأرجوك...

جدوا لنا آنّا سوشكا... لقد عاشت في قريتنا... في قرية كوجوشكي... اسم العائلة ـ آنّا سوشكو... سأقول لكم كل مواصفاتها، وأنتم انشروا ذلك... إنها حدباء، خرساء منذ الصغر... عاشت وحيدة... عمرها ستة عشر عاماً... أخذوها وقت الترحيل في سيارة "إسعاف"، ونقلوها باتجاه مجهول. لم تتعلّم الكتابة، لذلك لم نتلقَ منها أية رسالة. لقد أسكنوا الوحيدين والمرضى في دور الإيواء. أخفوهم. لا أحد يعرف عناوين هذه الدور... انشروا ذلك...

شعرت القرية كلّها بالأسف نحوها. اعتنينا بها كابنة صغيرة. منّا من حطّب لها، ومنّا من أحضر الحليب. وآخر جالسها مساء في البيت... وأوقد الموقد... عامين، ونحن نبحث في الزوايا الغريبة، عدنا إلى بيوتنا الأصليّة. أخبِروها بأن بيتها ما زال كاملاً، السقف موجود، والنوافذ. وسنعيد إصلاح ما قد تضرَّر واستبدال ما سُرق. أعطونا العنوان فقط، أين تعيش وتعاني، سنذهب ونصطحبها. نعيدُها إلى بيتها. كي لا تموت ضجراً... سأسجد أمام رجليك... روح بريئة تتعذّب في عالم غريب...

هناك أيضاً علامة أخرى... لقد نسيت... عندما يؤلمها شيء ـ ما،

فهي تستعين بأغنية. بدون كلمات. الصوت فقط. لا تستطيع التحدّث... عندما تتألم ترفع صوتها: آ. آ. آ..... كالملسوعة آ. آ. آ.

ماريا فولتشوك، جارة

ثلاثة مونولوجات عن الخوف القديم، وعن رجل قد صمت عندما تحدثت النساء

أسرة ك ـ الأم وابنتها. والرجل الذي لم يقل كلمة واحدة (زوج الابنة).

الابنة:

ـ بداية بكيت ليل نهار. أردت أن أبكي وأتكلّم... نحن من طاجكستان، من دوشانبيه. هناك ـ حرب...

يمنعُ أن أتحدّث عن ذلك... إنّني أنتظر طفلاً، أنا ـ حامل. لكن سأقول لكم.... يدخل إلى الباص نهاراً لتدقيق جوازات السفر... أناس عاديون، لكنهم يحملون رشاشات. ينظرون في الوثائق ثمَّ يخرجون من الباص رجالاً... وهنا، إلى جانب الباب... يطلقون الرصاص. حتى أنهم لا يبتعدون بهم قليلاً... أنا لم أصدق أبداً. لكنّي شاهدت... شاهدت، كيف أخرجوا رجلين، أحدهم فتى جميل، صاح بهم باللغة الطاجيكية، وباللغة الروسية... صاح بأن زوجته قد ولدت حديثاً، وأن ثلاثة أطفال ينتظرونه في البيت. ضحكوا فقط، هم أيضاً فتيان. أناس عاديون، لكن يحملون رشاشات. ارتمى الفتى... قبّل أحذيتهم الرياضية... صمت الجميع، الباص بأكمله. ما إن تحرّكنا: طا. طا. طا. خفت أن ألتفت... (تبكي).

يمنعُ عليّ التحدث عن ذلك... أنتظر طفلا... لكنني سأحدثكم... راجيةً منكم أمراً واحداً: لا تذكروا اسم عائلتي، أمّا اسمي فهو سفيتلانا. بقي لدينا أقارب هناك... سيقتلونهم... اعتقدتُ من قبل، بأنّ حرباً لن تحدث عندنا أبداً. دولة كبيرة، حبيبة. هي الأقوى! لقد قالوا لنا فيما مضى، في الدولة السوفيتية، بأننا نعيش بفقر، وبشكل متواضع، لأننا اجتزنا حرباً هائلة، الشعب عانى، لذلك لدينا جيش قويّ جداً، لن يمسّنا أحد بسوء. ولن ينتصر أحد علينا! ولكننا اليوم نطلق النار أحدنا على الآخر... الآن الحرب ليست كما كانت من قبل. يتذكر جدي تلك الحرب، ويقول بأنّه وصل إلى ألمانيا... إلى برلين... الآن الجار يطلق الرصاص على جاره، الفتيان الذين درسوا في المدرسة سوية، يقتل بعضهم بعضاً كذلك، يغتصبون الفتيات اللواتي جلسوا إلى جانبهن في المدرسة. الجميع فقد عقله...

أزواجنا صامتون. الرجال صامتون، لن يقولوا لكم شيئاً. صرخوا بهم من الخلف، بأنهم كالنساء، يهربون. جبناء! يبيعون وطنهم. أين يكمن ذنبهم؟ هل يُعدُ ذنباً، أنك لا تجيد إطلاق الرصاص؟ ولا تريد. زوجي ـ طاجكستاني، كان عليه أن يذهب إلى الحرب ويقتل. لكنه قال: "فلنسافر من هنا ـ فلنسافر. لا أريد الذهاب إلى الحرب. لا أحتاجُ رشاشاً". إنّه يحب النجارة، والاعتناء بالخيل. هو لا يريد إطلاق الرصاص. روحه هكذا... لا يحب الصيد أيضاً... هناك أرضه، ويتكلمون اللغة نفسها، لكنّه غادر. لأنّه لا يريد قتل طاجيكي آخر، مثله تماماً. إنسان يعرفه، إنسان لم يغضبه يوماً... هناك لم يسمع التلفاز حتى... أغلق أذنيه... لكنّه هنا يشعر بالوحدة، أخوته هناك يحاربون، وقد قتل أحدهم. هناك تعيش أمّه. وأخواته. قدمنا إلى هنا في قطار دوشانبيه، لا زجاج للنوافذ، برد، لا يشعلون التدفئة، لم يطلقوا

الرصاص، لكنهم قذفوا القطار بالحجارة في الطريق، وكسروا النوافذ: "ارحلوا أيها الروس! أيّها المحتلون! يكفي سرقتنا!". وهو طاجيكي، وقد سمع كل ذلك. وسمع أطفالنا. تعلمت ابنتنا في الصف الأول، وكانت معجبة بطفل طاجيكي. تأتي من المدرسة وتسأل: "ماما، من أكون أنا - طاجيكيّة أم روسيّة؟". يصعب أن أوضّح لها...

يمنَعُ عليّ الحديث عن ذلك... لكن سأروي لكم... يحارب عندهم الطاجيك الباميريون ضد الطاجيك الكولیابيين. هم جميعاً طاجيك، لديهم قرآنٌ واحدٌ، وعقيدةٌ واحدة، لكن الكولیابيين يقتلون الباميريين، والباميريون يقتلون الكولیابيين. اجتمعوا بداية في الساحة، صاحوا، وصلّوا. أردت أن أفهم، ذهبت أيضاً إلى الساحة. سألت كبار السن: "ضد من تتظاهرون؟". أجابوني: "ضد البرلمان، لقد قالوا لنا إنّه شخصٌ سيءٌ جداً - البرلمان". ثم خلت الساحة، وأخذوا بإطلاق الرصاص. بقدرةِ قادر أصبحت فجأة دولة أخرى، غير معروفة. إنّه الشرق! هُيأ لنا قبل ذلك، بأننا نعيش على أرضنا. وحسب القوانين السوفيتية. كم بقي هناك من مقابر روسية، ليس من يبكي فيها... يرعون القطعان في تلك المقابر... الماعز... يتجوّل كبار السن الروس على حاويات القمامة، بحثاً عما يمكن الاستفادة منه....

عملت أنا في دار للولادة، ممرّضة. ذات مناوبة ليلية. وبينما كانت امرأة تلد، ولادة صعبة، وتصيح... تهرع ممرضة... من دون قفازات معقمة، ومن دون مريلة معقّمة... ماذا يحصل؟ ماذا!! بحيث تدخل صالة الولادة بهذا الشكل؟! "أيتها الفتيات، قطاع طرق!" كانوا يرتدون أقنعة سوداء، يحملون السلاح. ويقصدوننا مباشرة: "اعطُنا مخدرات! اعطُنا سبيرتو!" - "لا يوجد مخدرات، ولا سبيرتو!". وضعوا الطبيب إلى الجدار وصاحوا: هاتِ! وفي هذه اللحظة، صاحت المرأة الولّادة،

صاحت بارتياح. وبسعادة. وبكى الطفل، لقد ولد لتوّه... انحنيت فوقه، حتى أنني لم أميّز أكان: صبيّاً أم بنتاً؟ ما كان له اسم بعد أو أي شيء. واندفع اللصوص نحونا: من هي ـ كوليابكا أم باميركا[1]؟ ليس: صبي أم بنت، بل كوليابكا أو باميركا؟ صمتنا... وهم يصرخون: "من هي!؟". نحن ـ صمتنا. اختطفوا الطفل حينها ـ وربما لم يزد وجودُه في عالمنا عن خمس أو عشر دقائق ـ ورموه من النافذة... أنا ممرضة، وقد شاهدتُ أكثر من مرة، كيف يموت الأطفال... أمّا هنا... فكاد قلبي يقفز من صدري... محظور علي أن أتذكر... *(تبدأ بالبكاء ثانية)* .بعد ذلك الحادث... ظهرت على يدي الأكزما. وطفحت. انتفخت الأوردة. وانتابتني حالة من اللامبالاة تجاه كل شيء، لم أعد أرغب في النهوض من السرير... أقترب من المستشفى ثم أستدير عائدة. وأنا نفسي كنت أنتظر طفلاً... كيف لنا أن نعيش؟ كيف يمكن الولادة هناك؟ أتينا إلى هنا... إلى بيلاروسيا... ناروفليا ـ مدينة صغيرة هادئة. ولا تسألونني أكثر... لا تلمسوني... *(توقفت)* انتظروا... أريد أن تعرفوا... أنا لا أخاف الله... أخاف الإنسان... بداية سألنا هنا: "أين الإشعاعات عندكم؟" ـ "حيثُ تقفين، هناك الإشعاعات". إنها الأرض كلّها؟! *(تمسح دموعها)* .الناس غادروا... الخوف يتملّكهم...

أنا لا أشعر بالخوف هنا بمقدار ما شعرتُ هناك. لقد بقينا من دون وطن، نحن ـ لا ننتمي إلى أحد. الألمان كلّهم غادروا إلى ألمانيا، والتتار عندما سمحوا لهم مضوا إلى القرم، أما الروس فلا يحتاج إليهم أحد. بماذا نعلّق آمالنا؟ وماذا ننتظر؟ روسيا لم تنقذ مواطنيها أبداً، لأنّها

---

(١) سبق وأشارت الساردة إلى الحرب الأهلية الدائرة بين هاتين العشيرتين أو القبيلتين: الكوليابيون والباميركيون/ . المترجمان./

كبيرة، ليس لها نهاية. أقول بصدق، أنا لا أشعر بأن بلدي ـ هي روسيا، لقد تربينا بطريقة أخرى: بلدنا ـ هو الاتحاد السوفييتي. وهكذا لا تعرف الآن، كيف يمكن إنقاذ الروح؟ لا أحد يطرق الباب هنا ـ وهذا جيد. لقد أعطونا بيتاً، وزوجي ـ عملاً. كتبت رسالة إلى معارفي، فحضروا يوم أمس أيضاً. ولن يعودوا. وصلوا مساء، وخافوا الخروج من مبنى المحطة، لم يُسمَح بخروج الأطفال، فجلسوا على حقائبهم. انتظروا الصباح. ثم شاهدوا الناس يمشون في الشوارع، يضحكون ويدخنون... دلوهم على شارعنا، وأوصلوهم إلى البيت مباشرة. لم يستطيعوا التأقلم، فمنذ زمن ما اعتادوا الحياة الطبيعيّة، والسلميّة. ما اعتادوا أن بإمكانهم التجول مساء في الشوارع. وأن بإمكانهم الضحك... ذهبوا في الصباح إلى المتجر وشاهدوا الزبدة، والقشطة، واشتروا من المتجر نفسه ـ هذا ما حدثونا به فيما بعد ـ خمس زجاجات من القشطة وشربوها مباشرة. نظر الناس إليهم، كما ينظرون إلى المجانين... لكنهم ومنذ عامين لم يروا، لا الزبدة ولا القشطة. هناك لا تستطيع شراء الخبز. هناك ـ حرب... من الصعب شرح ذلك للإنسان، الذي لم يشاهد الحرب اليوم... إلا في السينما...

كانت روحي هناك ميّتة... فمن كنت سألد بروحي الميّتة؟. عدد الناس هنا قليل... البيوت فارغة... نعيش بالقرب من الغابة... أنا أخاف، عندما يكون هناك كثير من الناس. كما كانت الحالُ في محطة القطارات... زمن الحرب... *(بكت بمرارة وصمتت)*.

الأم:

ـ عن الحرب فقط... أستطيع الحديث عن الحرب فقط... لماذا أتينا إلى هنا؟ إلى أرض تشرنوبل؟ لأنّ لا أحد سيطردنا من هنا. من هذه الأرض. فملكيتها لا تعود لأحد، أخذها الله... وتركها الناس...

عملت في دوشانبيه نائباً لمدير محطة القطارات، وكان هناك نائبٌ آخر، طاجيكي. أطفالنا نمو سويّة، وتعلموا، جلسنا إلى طاولة عيد واحدة: رأس السنة، والأول من أيار... وعيد النصر... شربنا النبيذ سويّة، وأكلنا البلوف[1] معاً. لقد خاطبني دائماً: "يا أختي. أخيّتي الروسية". وهاهوذا يأتي ذات يوم، نحن نجلس في مكتب واحد، يقف أمام طاولتي ويصرخ:

ـ متى أخيراً، ترحلين إلى بلدك روسيا؟ هذه ـ أرضنا!

اعتقدت في هذه اللحظة أن عقلي لن يتحمّل. قفزت إلى نحوه:

ـ السترة التي تلبسها من أين؟

ـ إنها من لينينغراد. ـ أجاب وقد فاجأهُ السؤال.

ـ انزع السترة الروسية، أيّها السافل! ـ نزعت السترة عنه ـ من أين قبعة الفرو؟ كان يتفاخر، بأنهم أرسلوها إليه من سيبيريا! انزع القبعة، أيّها السافل! أعطني القميص! والبنطال! إنها صناعة المعمل الموسكوفي! هي أيضاً روسيّة!

كنتُ سأُعرّيه من ملابسه حتى السروال الداخلي. رجل ضخم، ضربته على كتفه، ولا أدري لحظتها من أين أتتني القوة، كنت سأنزعُ عنه كل شيء. تجمّع الناس من حولنا. صرخ:

ـ ابتعدي عنّي أيتها المسعورة!

ـ لا، أعطني كل ما هو لي، ما صنع في روسيا! سآخذ كل ما يخصني! ـ كدت أفقد عقلي. ـ انزع الجوارب والحذاء!!

---

(١) حساء روسي شعبي يتكون عادة من الكثير من الخضروات: ملفوف وفاصولياء وعصير البندورا وغيرها/ .المترجمان./

عملنا ليل نهار... تسير القطارات ممتلئة ـ يركض الناس... الكثير من الروس رحلوا من أماكنهم... الآلاف! عشرات الآلاف! مئات.. ! بقيت روسيا وحدها... سيّرتُ القطارَ المسكوفي في الثانية بعد منتصف الليل، بقي في القاعة أطفال من مدينة كورغان ـ تيوبي، لم يتمكنوا من اللحاق بقطار موسكو. أقفلتُ عليهم، وخبأتهم. اقترب مني اثنان. يحملان رشاشين.

ـ أوي، ماذا تفعلون هنا أيها الشباب؟ ـ بينما كان قلبي يرتجف.

ـ هذا خطأُك، الأبواب عندك مفتوحة على مصراعيها.

ـ سيّرتُ القطار. ولم يتسنَّ لي أن أُقفلها.

ـ من هم هؤلاء الأطفال؟

ـ إنّهم دوشانبيين من عندنا.

ـ قد يكونونَ من كورغان؟ كوليابسك؟

ـ لا، لا، إنّهم من جماعتنا.

خرجوا. ماذا لو فتحوا القاعة؟ لكانوا قد قتلوا الجميع... بمن فيهم أنا ـ طلقة في الجبين! وانتهى الأمر. في تلك المنطقة سلطة واحدة ـ إنسان يحمل البندقية. أمّنتُ الأطفالَ في الصباح في القطار المتوجه إلى أستراخان، وأمرت بأن ينقلوهم على أنهم بطيخ، لم يفتحوا الأبواب. *(صمتت في البداية، ثم بكت طويلاً)* .هل هنالك ما يبعث على الخوف، أكثر من الإنسان؟. *(تتوقف مرّة أخرى)*.

عندما سرت في الشارع هنا، رحت ألتفت كل دقيقة، شاعرة بأنّ أحدهم خلف ظهري.. يتبعني... ينتظر. لم يمرّ هناك يوم، ما فكرتُ فيه بالموت... خرجتُ دوماً من البيت بثياب كلّها نظيفة ـ بلوزة، وتنّورة، وثياب داخلية مغسولة لتوّها. قد يقتلونك فجأة!. الآن أتجوّل في الغابة

وحدي لا أخاف أحداً. ما من بشرٍ في الغابة، ما من إنسان واحد. أمشي وأتذكر: هل حصل كل ذلك معي أم لا؟ ألتقي مرّة أخرى صيّادين: يحملون بنادق، ومعهم كلب وجهاز قياس إشعاعات. إنّهم أيضاً أناس يحملون بنادق، لكنهم ليسوا مثل أولئك، لا يلاحقون الإنسان. أسمع إطلاق نار، فأعرف أنهم يطلقون النار على الغربان أو الثعالب. (تصمت) .لهذا السبب أنا لا أخاف هنا... لا يمكنني أنَ أخاف الأرض، والماء... أنا أخاف الإنسان... تشتري الرشاش هناك في البازار بمئة دولار...

أتذكر شاباً طاجيكياً... كان يطارد شاباً آخر... يطاردُ إنساناً!. كيف كان يركض، وكيف كان يتنفّس، أدركت مباشرة، بأنّه يريد قتله... لكنّ ذلك الشاب تمكن من الاختفاء... انهزم... ثم يعود هذا الشخص، ويمرّ بجانبي ويقول لي: "أيتها الأم، أين يمكنني شرب الماء هنا؟". يسأل هكذا ببساطة، وكأن شيئاً لم يكن.. لدينا في المحطة برميل ماء للشرب، أشرت نحو البرميل. ونظرتُ في عينيه وتكلمت ـ وقلت له: "لماذا تطاردون بعضكم بعضا؟ لماذا تقتلون؟". لكأنّه شعر بالخجل. "أيتها الأم اخفضي صوتك". عندما يكونون معاً، يصبحون أناساً آخرين. لو كانوا اثنين أو ثلاثة، لأوقفوني إلى الحائط. لكن إلى إنسان واحد يمكنك التحدّث...

قدمنا من دوشانبيه إلى طشقند، وينبغي المتابعة ـ إلى مينسك. لا يوجد تذاكر ـ وانتهى! كل شيء عندهم مرتب بدهاء، فإذا لم تدفع رشوة، لن تستقل الطائرة، يختلقون لك عيوباً لا تنتهي ـ أحياناً بسبب الوزن وأحياناً بسبب الحجم: هذا ممنوع، ذاك ضعه جانباً. لاحقونا مرتين بدعوى الوزنْ الزائد، أدركت بصعوبة. وضعت نقوداً... "كان ينبغي فعل ذلك منذ زمن، ولا حاجة للجدال". هكذا وبكل بساطة! أما

قبل ذلك... صندوق الأمتعة عندنا ـ يزنُ طنّين، أجبرونا على تفريغه. "أنت قادمة من منطقة ساخنة، قد يكون معك سلاح؟ مخدرات؟". ذهبت إلى المسؤول وتعرفت في غرفة الاستقبال إلى امرأة جيدة، هي أوّل من أوضحَ لي الأمر: "لن تصلي إلى نتيجة هنا، وإذا طالبت بالعدالة، فسيرمون الصندوق على الأرض، ويسرقون أمتعتك". لكن ما العمل؟ لم ننم طوال الليل، أفرغنا الصندوق، ماذا كان لدينا: ثياب، وفرش، وأثاث قديم وثلاجة قديمة، وكيسين من الكتب. "تنقلين كتباً قيّمة على ما يبدو؟". نظروا ـ كتاب "ما العمل؟" تشيرنيشيفسكي، و"الأرض البكر" شولوخوف... ضحكوا. "كم ثلاجة معكم؟" ـ "واحدة وقد أعطبوها هنا". ـ "لماذا لم تأخذوا تصريحاً جمركيّاً؟". ـ "من أين كنا سنعرف أننا بحاجة إلى تصريح جمركي؟. أول مرّة نهربُ من الحرب...". لقد فقدنا وطنين دفعة واحدة ـ وطننا طاجكستان والاتحاد السوفيتي...

أمشي في الغابة، وأفكر. الجميع الآن في البيت، يجلسون أمام التلفاز: كيف الوضع هناك؟ ماذا يحصل هناك؟ أنا لا أريد.

كانت حياة... حياة أخرى... كنت أعدُّ هناك إنساناً كبيراً، لديّ رتبة عسكرية ـ مقدم في قوات السكك الحديدية. أما هنا فقد عشتُ عاطلة عن العمل، قبل أن أعمَلَ مستخدمة في مجلس المدينة. أمسح الأرض... مضت الحياة... ولا تكفيني القوة للحياة الثانية... شطرٌ من الناس يأسفُ لوضعنا، وآخرون ليسوا راضين: "اللاجئون سرقوا البطاطا. يقلعونها في الليل". في تلك الحرب، تذكرتُ والدتي، تعاطف الناسُ أحدهم مع الآخر أكثر مما يفعلون اليوم. لقد وجدوا منذ فترة بالقرب من الغابة، حصاناً تائهاً ميتاً. وفي مكان آخر ـ ثعلباً. لم يقتلهما

أحد بل نفقا. قلق الناس جميعاً لهذا الأمر، وعندما وجدوا مشرّداً ميتاً، مر الحادثُ دون أن يترك أثراً.

اعتاد الناس في كل مكان على رؤية الإنسان الميت...

لينا م. ـ من قيرغيزيا. تجلس على عتبة البيت، كما لو من أجل الصورة، بقربها جلس أطفالها الخمسة والقط ميتيليتسا، الذي أحضروه معهم.

"نحن سافرنا، كما لو أننا نفرُ من الحرب...

اختطفنا أمتعتنا، تابع القط أثرنا، خطوة وراء خطوة، حتى محطة القطار، فأخذناهُ معنا. سافرنا في القطار اثني عشر يوماً، في اليومين الأخيرين توقفنا. لدينا فقط ملفوف مخلل في أوعية زجاجية وماء مغلي. ناوبنا خلف الأبواب، واحد يحمل فأساً، وآخر مطرقة. وفي إحدى الليالي، أقول لكم، هاجمنا قطّاع الطرق. كادوا يقتلوننا. يمكنهم أن يقتلوا من أجل تلفزيون، ومن أجل ثلاجة. سافرنا وكأنّنا نفرُّ من الحرب، بالرغم من أنهم ما كانوا قد بدؤوا بإطلاق الرصاص، حيث كنّا نعيش في قيرغيزيا. حدثت مجزرة في مدينة أوش... القيرغيزيون ضد الأوزبيك... لكنّ الاقتتال هدأ بسرعة. اختفى. وظلّ شيءٌ ـ ما يندفع في الهواء... وفي الشوارع... سأخبركم بأمر... قد نفهم لماذا نخاف نحن الروس، لكن القرغيز أنفسهم يخافون... لديهم طوابير على الخبز، ويصرخون: "أيها الروس ارحلوا إلى بيوتكم! قيرغيزيا ـ للقيرغيز!" ـ ويخرجونك من الطابور. ويطلقون عبارات باللغة القيرغيزيّة، بما يعني أن الخبز لا يكفيهم وحدهم، ويجب عليهم إطعامنا. أفهم لغتهم بشكل

سيء، لقد تعلمت عدداً من الكلمات، كي أتمكن من شراء احتياجاتي في سوق الخضار.

كان لدينا وطن، أمّا الآن فلا. من أنا؟ ماما ـ أوكرانية، بابا ـ روسي. ولدت ونَمَوتُ في قيرغيزيا، تزوجت تترياً. من هم ـ أطفالي؟ ما هي قوميّتهم؟ جميعاً اختلطنا، دمُنا امتزَجَ، مسجل في جواز سفري وجواز سفر أطفالي ـ روس، لكننا لسنا كذلك. نحن ـ سوفييت! لكن تلك البلد التي ولدت فيها، غير موجودة. وغير موجود ذلك المكان، الذي نسمّيه وطناً، وما عاد ذلك الزمان، الذي كان لنا فيه وطن، موجود. نحن الآن، مثل الخفافيش. لدي خمسة أطفال: الابن الأكبر ـ في الصف الثامن، البنت الأصغر ـ في روضة الأطفال. لقد أحضرتهم إلى هنا. دولتنا غير موجودة، أمّا نحن فموجودون.

وُلدتُ هناك، وكبرتُ هناك. بنيتُ مصنعاً، وعملتُ فيه. "اذهبي إلى هناك، حيث أرضك، هنا كلّه لنا". لم يسمحوا لنا أن نأخذَ أي شيء، ماعدا الأطفال: "كل شيء هنا لنا". لكن أين أملاكي؟ يركض الناس. يمشون. كلّهم أناس روس. سوفييت. لا يحتاجهم أحد، ولا أحد ينتظرهم.

لقد كنتُ ذات يوم سعيدة. أنجبتُ أطفالي بالحب... لقد ولدتهم: صبي، صبيّ، صبيّ. ثم ـ بنت، بنت. لا أريدُ الحديث أكثر... سأبكي... *(لكنها أضافت بضع عبارات)* سوف نعيش هنا. الآن هنا ـ بيتنا. تشرنوبل ـ بيتنا... *(تبتسم فجأة)*. فالطيور هنا مثلها مثل الطيور عندنا. وتمثال لينين يقف... *(هي عند البوابة تودعنا)*. في البيت المجاور ومنذ الصباح الباكر يُسمَعُ صوتُ المطارقِ، ينزعون ملابن النوافذ. ألتقي

امرأة فأسألها: "من أين أنتم؟" - "من الشيشان". لا تقول شيئاً... تمشي وقد غطّت رأسها بمنديل أسود[١]...

يلتقيني الناسُ... يستغربون... لا يفهمون... ماذا تفعلين بأطفالك، إنك تقتلينهم. أنت - قاتلة. أنا لا أقتلهم، أنا أنقذهم. انظر أنا في الأربعين من عمري، لكن الشيب يغطي رأسي كله... في الأربعين من عمري!. أحضروا ذات مرّة صحفياً ألمانياً، سألني: "أحضرت أولادك إلى المكان، حيث الجدري والكوليرا؟". الجدري والكوليرا... هذا الرعب الموجود هنا أنا لا أعرفه. لا أراه. وليس له وجودٌ في ذاكرتي...

أنا أخاف الناس... الإنسان الذي يحمل بندقية...".

---

(١) تضع النسوة في تلك البلاد مناديل سوداء على رؤوسهن في فترة الحداد/ . المترجمان/

مونولوج: في الشر فحسب يتثقفُ الإنسان ويتهذَّب، وهو بسيط يمكن الوصول إليه بعدد من كلمات الحب غير الماكرة

"هربت أنا... هربت من العالم... لجأت في الفترة الأولى إلى محطات القطارات، أعجبتني المحطات، لأن الناس كثيرون فيها، وأنت وحدك. ثم قرأت في الصحف ـ وأتيت إلى هنا. هنا أنت حرّ. ويمكن القول ـ جنة. لا يوجد بشر، الوحوش وحدها تتجوّل. أعيش وسط الوحوش والطيور. هل أنا وحيد؟

نسيت حياتي الخاصّة... لا تسألوني... ما قرأتهُ في الكتب ـ أتذكَّره، وما رواه الناس ـ أتذكره، أمّا حياتي فقد نسيتها. كان الأمر في فتوّتي... الخطيئة هي خطيئتي... وما من خطيئة لا يغفرها الرب، بعد توبة صادقة نصوحة يقدمها المرء. إذا كان الناس ظالمين، فالله صبور جداً، ورحيم...

لكن... لماذا؟ لا جواب... لماذا لا يمكن للإنسان أن يكون سعيداً. ولا يجب أن يكون. شاهد الله آدم الوحيد فأعطاه حواء. من أجل السعادة، وليس من أجل الخطيئة. لا يتحققُ للإنسان أن يكون سعيداً. أنا لا أحب الغسق. الظلام. إن هذا الانتقال، كما الآن... من النور إلى الليل... أفكر ولا أستطيع أن أفهم، أين كنت من قبل... أين حياتي؟ منذ ذلك الحين... لا فرق عندي: أستطيع أن أعيش، وأستطيع أن لا أعيش.

حياة الإنسان، كالعشب، تتفتح، ثم تجفف وترمى في النار. لقد أحببتُ التفكير... هنا يمكن أن تقتلَ وبصورة متماثلة على يد الوحش أو البرد، أو التفكير. لا يوجد إنسان واحد على مسافة عشرات الكيلومترات. الشياطين تُطرد بالصوم والصلاة. الصوم ـ للجسد، الصلاة ـ للروح. لكني لم أكن وحيدا أبداً، الإنسان المؤمن لا يمكن أن يكون وحيداً. وهكذا أنا... أتجوّل في القرى... وجدت من قبل معكرونة، وطحيناً. وزيتاً نباتياً ومعلبات. الآن أتجولُ في المقابر. يتركون للموتى ما يُؤكل ويُشرب. وهؤلاء لا يحتاجون لذلك... ولا يغضبون منّي... في الأرض ـ ذرة بريّة. وفي الغابة فطر، وثمار. هنا حرّية. أقرأ الكثير.

نفتح الصفحات المقدسة... رؤيا القديس يوحنا الإنجيلي: "وسقطت من السماء نجمة كبيرة، ساخنة مثل المشعل، ووقعت على ثلث الأنهار ومصادر المياه. اسم هذه النجمة "نبات الشيح". وثلث الماء أصبح شيحاً، والكثير من الناس ماتوا بسبب المياه، لأنّها أصبحت مرّة...".

أستوعب هذه الأمور النبوية... كل شيء متوقع، ومكتوب في الكتب المقدسة، لكن نحن لا نحسن القراءة. لا نستوعب. الشيح باللغة الأوكرانية "تشرنوبل". أُعْطِينا إشارة في الكلمات. لكن الإنسان عصبي... ومغرور... وصغير...

وجدتُ عند والد سيرغي بولغاكوف... "الله كوّن العالم على الأغلب. لهذا لا يمكنُ للعالم ألا ينجح". نحتاج إلى "الشجاعة وتحمّل التاريخ إلى النهاية". وهكذا... وعند شخص آخر... لا أذكر اسمه... لكنني أذكر الفكرة: "الشرّ بشكل خاص ليس جوهراً، بل هو انعدام الخير، مثلما الظلمة، ليست سوى انعدام الضوء". تجد الكتب هنا ببساطة، وسهولة. من الصعب إيجاد قدر فخار فارغ، أو ملاعق وشوك، أمّا الكتب فعلى الرفوف. وجدت منذ فترة كتاب بوشكين... "والموت

فكرة يا روحي الحبيبة". أذكر ذلك. وهكذا... "والموت فكرة"... أنا هنا وحدي. أفكر بالموت. أحببتُ التفكير... الهدوء يساعد على التحضير... يعيش الإنسان وسط الموت، لكنّه لا يعرف ما هو الموت. وأنا هنا وحيد... طردت يوم أمس ذئبة مع جراءها الصغار من المدرسة، لقد عاشوا هناك.

سؤال: حقيقيٌّ هو العالم، المجسّد بالكلمة؟ الكلمة، تقع بين الإنسان والروح... أليس كذلك...

سأقول لكم أيضاً: الطيور، والأشجار، والنمل، - أصبحت قريبة منّي. ما عرفت تلك الأحاسيس من قبل. وما توقعتها. قرأتُ كذلك عند أحدهم: "كونٌ فوقنا وكونٌ تحتنا". أفكر بالجميع. الإنسان مخيف... وغير عاديّ... لكن هنا لا أرغبُ في قتل أحد. لاصطياد السمكة توجد سنارة. أليس كذلك.. لا أطلق النار على الوحش... ولا أترك فخاخاً.. بطلي المفضل... الأمير ميشكين[1]، وقد قال: "هل من الممكن أن تشاهد شجرة، ولا تكون سعيداً". وهكذا... أنا أحب التفكير. والإنسان غالبا ما يشكو، لكن لا يفكر...

لماذا تمعن النظر في الشر؟ إنّه طبعاً، يقلق... الخطيئة - ليست فيزياء أيضاً... من الضروري الاعتراف بغير المحسوس. قيل في الإنجيل: "للمكرّسين - بصورة مختلفة، وللباقين - بالأمثال"[2]، لنأخذ الطير...

---

(١) بطل رواية دوستويفسكي الشهيرة: "الأبله" وهو شخصية مسالمة طيبة فيها الكثير من صفات السيد المسيح/ . المترجمان/

(٢) لم نجد في الأناجيل ما يقترب من معنى اقتباس الروائيّة إلا العبارة التالية التي يوجهها يسوع المسيح لتلامذته: "أنتم قد أوتيتم أن تعرفوا سرَّ ملكوت الله، أما أولئك الذين في الخارج فكل شيء لهم بالأمثال".. إنجيل مرقس٤ - ١١/ .المترجمان./

أو أي كائن مشابه... من المستحيل أن نفهمها إنها تعيش لنفسها، وليس للآخرين. وهكذا... أقول كلمة واحدة حول كل ما يجري...

كل ما هو حيّ ـ على أربعة قوائم، ينظرُ في الأرض وينشدُّ إلى الأرض. الإنسان هو الوحيد، الذي يقفُ على الأرض، بينما يرفع يديه ورأسه إلى السماء، يرفعها إلى الصلاة... إلى الله... العجوز تصلّي في الكنيسة: "لكلّ منّا حسب خطاياه". لكن لا يعترف بذلك لا العالم، ولا المهندس، ولا العسكري. يفكرُ واحدهم: "ليس لدي ما يدعو للتوبة. لماذا يجب أن أتوب؟".. هكذا...

أنا أصلّي ببساطة... أقرأ بنفسي... يا إلهي، أتوجه إليك! اسمعني! في الشر فقط يتهذّبُ الإنسان ويتثقف. وهو بسيط ويمكن الوصول إليه بكلمات حب صادقة. الكلمة حتى عند الفلاسفة قريبة العلاقة بتلك الفكرة، التي يستشعرونها. الكلمة تتوافق تماماً مع ما في الروح، في الصلاة فقط، في الفكرة الصلاواتية. أنا أشعر بذلك جسديّاً. يا إلهي، أتوجه إليك! اسمعني!.

والإنسان أيضاً...

أنا أخاف الإنسان. وأريد لقاءه دائماً. الإنسان الجيد. هكذا... لكن هنا إمّا يعيشُ قطاع طرق، ويختبؤن، أو يعيشُ إنسان، مثلي. مُعذب.

أية عائلة؟ لا يوجد عندي جواز سفر. أخذته الشرطة... ضربني أفرادها: "لماذا تتسكع هنا؟" ـ "أنا لا أتسكع ـ أنا أتوب". ضربوني بصورة أشد. ضربوني على رأسي... لذلك اكتبوا: عبد الإله نيقولاي... أصبحَ ـ إنسانا حرّاً...".

جوقة الجنود

أرتيوم باختياروف/ جندي، أوليغ ليونتيفيتش فوروبي/عاملٌ لدرء أثر الإشعاعات، فاسيلي ايوسيفوفيتش غوسينوفيتش/سائق - استطلاع، غينادي فيكتوروفيتش ديمينيف/ شرطي، فيتالي بوريسوفيتش كارباليفيتش/ عاملٌ لدرء أثر الإشعاعات، فالينتين كومكوف/ سائق - جندي، ادوارد بوريسوفيتش كورومكوف/ طيار هيلوكبتر، ايغور ليتفين/ عاملٌ لدرء أثر الإشعاعات، ايفان الكساندروفيتش لوكاشوك/ جندي، الكسندر ايفانوفيتش ميخاليفيتش/ اختصاصي قياس الإشعاعات، أوليغ ليونيدوفيتش بافلوف/ رائد، طيار هيلوكبتر، أناتولي بوريسوفيتش ريباك/ رئيس فصيل حراسة، فيكتور سانكو/ جندي، غريغوري نيقولايفيتش خفوروست/عاملٌ لدرء أثر الإشعاعات، الكسندر فاسيليفيتش شينكيفيتش/ شرطي، فلاديمير بيتروفيتش شفيد/ملازم، الكسندر ميخايلوفيتش ياسينيسكي/ شرطي.

"استدعوا فوجنا بسبب حالة خطر... سافرنا طويلاً. لم يخبرنا أحد بأمرٍ محدد. أعلمونا في موسكو فقط في محطة قطار بيلاروسيا، إلى أين ينقلوننا. احتج أحد الشبان، أتصور أنّه من لينينغراد، قائلاً: "أريد أن أعيش". هددوه بمحاكمة عسكرية. أعلن قائد الفوج أمام المجتمعين: "سيحكمُ عليك بالسجن أو بالإعدام". كان لدي أحاسيس أخرى. معاكسة تماماً. أردت أن أقوم بفعلٍ بطولي. أن أختبر طبعي. قد

يكون ذلك اندفاعاً طفوليّاً؟ تبيّن أن الذين مثلي، هم الأكثرية، لقد خدم معنا شباب من كل أنحاء الاتحاد السوفيتي. روس، وأوكرانيين، وقوزاق، وأرمن... كان الأمر مقلقاً، ولسبب ما ممتعاً أيضاً.

أحضرونا... أحضرونا إلى المحطة نفسها. أعطوا كلاً منا مريلة بيضاء وقبعة لها اللون نفسه. وكمّامة طبية. نظفنا المنطقة المحيطة. يوم كشطنا فيه الأرضيّة، وجمعنا المواد في الأسفل، ويوم في الأعلى، على سطح المفاعل. المجرفة دائماً معنا. أولئك الذين صعدوا إلى الأعلى أسميناهم "اللقالق". الروبوتات لم تتحمّل، وجنّت الآليات. أما نحن فقد تابعنا العمل. حدث ـ أن خرج الدم من آذاننا، ومن أنوفنا. وانتقل إلى الحنجرة. تشعرُ بتجريح في العيون. كنت تسمع في أذنيك صوتاً رتيباً، شعرنا بالعطش، لكن لم تكن هناك شهية. مُنعت التمارين الفيزيائية، كي لا تتنفس الإشعاعات عبثاً. كنا نذهب إلى العمل في عربات السيارات المكشوفة.

لكننا عملنا بشكل جيد. ونفتخر جداً بذلك...".

"انطلقنا في المنطقة... واجهتنا لوحة مرورية "منطقة محظورة". لم أشارك في الحرب، لكنه شعورٌ مألوفٌ بشيء ـ ما... يتسرب من مكان ـ ما في الذاكرة... من أين؟ شيء مرتبطٌ بالموت...

مررنا في الطرقات بكلاب شاردة، وقطط. تصرفت أحياناً بشكل غريب، لم تتعرّف إلى الناس، هربت منّا. لم أدرك ماذا يحصل لها، قبل أن يأمروننا بإطلاق النار عليها... البيوت مختومة، آليّات الكولخوز متروكة... مشاهدتها تثير الاهتمام. ما من أحد، نحن، والشرطة فقط، نسيّر دوريات. تدخل إلى البيت.. صور معلّقة، وما من بشر. وثائق

منثورة في كل مكان: بطاقات الكومسومول[1]، بطاقات شخصية ومهنية، شهادات تقدير... أخذنا تلفازاً من أحد البيوت لمدة معيّنة، استأجرناه، لكن لم ألاحظ أن أحد رفاقنا، أخذ شيئاً إلى البيت. أولا بسبب إحساس تملّكنا، بأن الناس على وشك العودة... ثانياً، هذا... هذا شيء مرتبط بالموت...

ذهبنا إلى البلوك، إلى المفاعل نفسه. لنلتقط صوراً فوتوغرافية... أردنا أن نتفاخر في البيت... كان هناك خوف، وفي الوقت نفسه اهتمام لا يقاوم: ما الذي يحدث؟ أنا مثلا، رفضت، زوجتي فتيّة، لم أخاطر، أما الشباب فقد شرب كلّ منهم مئتي غرام[2] وسافروا... وهكذا... (صمت) .عادوا أحياء ـ هذا يعني كل شيء على ما يرام.

بدأت بالمناوبة الليلية. نسير في دورية... القمر صاف. كمصباح معلّق.

شارع القرية... لا يوجد أي شخص... في البداية أضاءت المصابيح المنازل، ثم قطعوا التيار الكهربائي.. نتجوّل بالسيارة ـ يركض من باب المدرسة نحونا مباشرة خنزيرٌ برّي. ثعلب. عاشت الوحوش في البيوت، وفي المدارس، وفي الأندية. وهناك اللافتاتُ معلّقة: "هدفنا ـ سعادة الإنسانية كلّها"، "البرولتاريا العالمية ستنتصر"، "أفكار لينين ـ ستعيش إلى الأبد". في مكاتب الكولخوز ـ أعلام حمر، شعارات جديدة، رزمة محفورة من أقوال الزعماء. على الجدران ـ صور للزعماء، على الطاولات تماثيل من الجص للزعماء. النصب التذكارية العسكرية في كل

---

(١) الشبيبة الشيوعية/ . المترجمان./

(٢) من الفودكا طبعاً.. هذه عادة عند الشباب هناك.. ربما لبعث الشجاعة في النفس/ . المترجمان./

مكان... نصب أخرى لم أرَ. ثمَّ بيوت متلاصقة، حظائر إسمنتية رصاصية، وأبراج علف صدئة... ومن جديد ـ تلال المجد الصغيرة والكبيرة... "وهذه هي حياتنا؟". سألت نفسي، بعد أن رأيت كلِ ذلك بعينين مختلفتين ـ أنعيش نحنِ بهذه الطريقة؟". وكأنّ راية الحرب أُزيلت من محطةِ توقُّفٍ مؤقتٍ... وأُلقيت بعيداً...

لقد فجّر تشرنوبل دماغي... وأصبحت أفكّر...

"بيت مهجور... مقفل. قط على النافذة. اعتقدتُ، أنّه ـ من الفخّار. اقتربت: إنّه حي. أكل الورود كلها في الأحواض. نبتة إبرة الراعي. كيف وصل إلى هناك، أم أنّهم نسوه؟.

كتب على الأبواب: "عزيزي المار، لا تبحث عن أشياء ثمينة. لم تكن عندنا هذه الأشياء. استخدم الأغراض كلّها، لكن لا تنهب. سنعود". وفي بيوت أخرى رأيت كتابات بألوان مختلفة: "اعذرنا، بيتنا الأصلي!". لقد ودّعوا البيوت، مثلما يودعون إنساناً. كتبوا: "سنغادر في الصباح" أو "سنغادر في المساء"، ثبّتوا التاريخ وحتى الساعات والدقائق. ملاحظات بخط أطفال على أوراق الدفاتر المدرسية: "لا تضرب القطة. الجرذان ستلتهم كل شيء". أو "لا تقتلوا.... إنها ـ جيدة". (يغمض عينيه) .لقد نسيت كل شيء... أذكر فقط، بأنني ذهبت إلى هناك، لا أذكر أكثر من ذلك. نسيت كل شيء... في السنة الثالثة بعد التسريح من الجيش حدث شيء ـ ما لذاكرتي... حتى الأطباء لم يعرفوا... لا أستطيع عدّ النقود ـ أتعثر. أتجول بين المستشفيات...

هل رويتُ أم لا؟ تقترب وتفكر ـ البيت فارغ. تفتح الباب ـ القط وحده يجلس... هل تتصور، وملاحظات الأطفال تلك...".

"استدعوني للخدمة...

الخدمة كانت على هذا الشكل: عدم السماح للسكان المحليين بالدخول إلى القرى المهجورة. انتصبت سواتر بالقرب من الطرق، بنيتْ مخابئ وأبراج مراقبة. سمّونا، لا نعرف لماذا، "أنصار"[1]. حياة سلمية... ونحن نقف... بالزي العسكري... لم يفهم الفلاحُ، لماذا مثلا، يُمنع من إحضار الدلو من بيته، القدر، المنشار أو الفأس. يمنع من جني المحصول. كيف توضّح الأمر؟ في الواقع: يقف الجنود في جهة واحدة من الطريق، لا يسمحون بالمرور، وفي الجهة الأخرى يرعون البقر، تقرقع الحصادات ويطحنون الحبوب. تتجمع العجائز وتبكي: "أيّها الفتيان اسمحوا لنا... إنّها أرضنا... وبيوتنا...". يقدمون البيض، وشحم الخنزير، والمشروبات الكحولية. اتركونا ندخل... يبكون على الأرض المسمَّمة... على الأثاث... والحاجيات...

وخدمتنا تتمثّلُ في: عدم السماح بالعبور. عجوز تحضر سلّة بيض - مصادرة السلة ودفنها في الأرض. حلبت البقرة، تحمل دلو حليب. عسكري يتابعها. يدفن الحليب... قلعوا سراً بصلهم - أخذ البصل منهم. والشوندر، والبصل، واليقطين. دفنها... حسب التعليمات... تشويه كل شيء من أجل المجد، نحسَدُ على ذلك. والجمال من حولنا. خريف ذهبي. وللجميع وجوهٌ مجنونة. لهم ولنا.

أمّا في الصحف فقد هلّلوا لبطولاتنا... يا لنا من فتيان أبطال... كومسوموليين - متطوّعين!

---

(١) التسمية مأخوذة من تاريخ مقاومة شعوب الاتحاد السوفييتي للنازيين الألمان: أنصار، أو فدائيين، أو رجال العصابات/ . المترجمان./

من كنّا نحن في حقيقة الأمر؟ ما الذي كنّا نفعله؟ أردت أن أعرف عن ذلك... أن أقرأ... بالرغم من أنّني كنت هناك...".

"أنا شخصٌ عسكري، يأمرونني ـ فأُنفّذ... لقد أقسمتُ...

لكن ذلك ليس كل شيء... اندفاع بطولي، تملّكنا أيضاً. لقد ربّوه فينا... وقد حفَّزنا منذ أيام المدرسة. مصدرُه الأهل. ورجال السياسة بما ألقوه من خطب. والراديو، والتلفزيون. أشخاصٌ مختلفون تفاعلوا بطرق متباينة: بعضهم أراد أن يجروا معه لقاءً، وينشرونه في الصحف، بعضهم نظر إلى كل شيء، كجزء من عمله، والبعض الثالث... وأنا التقيتهم، عاشوا بشعور، أنّهم ينجزون عملاً بطولياً. يشاركون في صنع التاريخ.

لقد دفعوا لنا مرتبات جيدة، لكن مسألة النقود لم تكن مطروحة. راتبي العادي ـ أربعمئة روبل، أمّا هناك، فقد كنت أقبض ألف روبل (الروبلات السوفيتية آنذاك). حسب ذلك الزمن هذا مبلغ كبير. أنّبونا فيما بعد قائلين: "لقد استخرجتم النقود بالمجرفة. وعدتم ـ اعطُهم سيارات، وموبيليا بدون طابور". إنّه، طبعاً، لأمرٌ مخزي. فقد كان الأمرُ بالفعل اندفاعة بطولية...

قبل أن نتوجّه إلى هناك، ظهر الخوف. لمدة قصيرة. وهناك اختفى. لو استطعت أن أشاهد ـ هذا الخوف... أمر. عمل. مهمة. كان لدي اهتمام بأن أنظر إلى المفاعل من الأعلى، من الطائرة الحوّامة: ماذا حصل هناك في الواقع، كيف يبدو ذلك؟ لكنهم منعوني. كتبوا في بطاقتي: واحد وعشرون رينجين، لكنني لستُ واثقاً، بأن ذلك صحيح في الواقع. كان المبدأ بسيطاً جداً: تصل إلى مركز منطقة تشرنوبل (هو

في المناسبة، مدينة صغيرة، وليست ضخمة، كما كنت أتصوّرها)، وهناك يجلس اختصاصي بقياس الأشعة، على بعد عشرة ـ خمسة عشر كيلومتراً عن المحطة، كان يقيس مستوى أشعة الخلفية. هذه القياسات تضرب بعدد الساعات، التي تطيرها في اليوم. وأنا ارتفعت من هناك بالحوّامة وطرت فوق المفاعل: ذهاباً ـ وإياباً، ماراً به في الاتجاهين، اليوم هناك ـ ثمانون رينجين، غداً ـ مئة وعشرون... ليلاً أدور فوق المفاعل ـ ساعتين. أنتجنا صوراً بالأشعة تحت الحمراء، لأجزاء الجرافيت المنتثرة على فيلم حيث كانت "تضيء"... في النهار لا يمكن مشاهدتها...

تحدثت إلى العلماء. أحدهم: "أستطيع أن ألحس طائرتك بلساني، ولن يحدث لي مكروه". وآخر: "أيّها الشباب، كيف تطيرون من دون حماية؟ تقصّرون من أعماركم؟ تخطئون!". إنقاذ الغرقى ـ هو بأيدي الغرقى أنفسهم. لقد بطنّا الكراسي بصفائح الرصاص، وأدخلنا في الستر الواقية للصدر... قطعاً رقيقة من ألواح الرصاص... لكن الذي تبيّن لنا، أنّها تقي من أنواع معيّنة من الأشعة، وليس منها جميعاً. احمرّت وجوه الجميع، احترقت، لم يستطيعوا الحلاقة. طاروا من الصباح حتى الليل. ما من شيء خيالي. لكنه عمل. عمل قاس. جلسنا أمام التلفاز ليلاً، وكانت تجري في هذا الوقت بالذات، بطولة العالم لكرة القدم. الحديث طبعاً عن كرة القدم.

أخذنا نفكر... كي نكون صادقين... ربما بعد ثلاثة ـ أربعة أعوام... عندما مرض أحدنا، وثانٍ... ومات ثالث... فقد عقله... انتحر... حينها بدأنا نفكر. وهل سنفهم ماذا حدث لنا، أعتقد بعد عشرين ـ ثلاثين عاماً. لدي ـ أفغانستان (كنت هناك لمدة سنتين) وتشرنوبل (كنت هناك ثلاثة أشهر) ـ أكثر اللحظات الساطعة في حياتي...

لم أخبر أهلي، أنّهم أرسلوني إلى تشرنوبل. اشترى أخي صحيفة "أيزفيستيا"، ومصادفة رأى هناك صورتين.. أحضر الصحيفة إلى والدتي: "خذي، انظري ـ بطل!". بكت أمّي...".

"تحرّكنا نحو المحطة...

سارت في الاتجاه المعاكس قوافل تحمل الناس الذين تم إخلاؤهم. قادوا الآليات، والقطعان بسرعة. ليلا ونهارا. وسط حياة سلمية...

كنّا سائرين... وأنا، هل تعرفون ماذا شاهدت؟ على جوانب الطرق. وتحت أشعة الشمس... بريقٌ ناعمٌ جداً... شيء ـ ما يلتمع كالكريستال... جزيئات صغيرة جداً... سرنا باتجاه كالينكوفيتش، من خلال موزير. تحدثنا فيما بيننا... شيءٌ ما ينسكب، دهشنا. لاحظنا في القرى التي عملنا فيها، كيف ظهرت مباشرة ثقوبٌ متهرِّئة، وبخاصّة على أوراق الكرز. قطفنا الخيار والبندورة ـ وهناك أيضاً ثقوب سوداء... الخريف. ألوان قرمزية لثمار شجيرات التوت البري، أغصان التفاح من كثرة الحمل ـ طبعا، انحنت إلى الأرض، لا يمكنك ألا تشتهيها. ستأكل. شرحوا لنا، إنّها لا تؤكل. اختلفنا وأكلنا.

سافرت... مع أن بإمكاني أن لا أسافر. طلبت التطوع. لم ألتقِ في الأيام الأولى لا مبالين هناك، لاحقاً سأرى فراغاً في العيون. هل أردتُ انتزاع وسام؟ تخفيضات. كلام فارغ!. أنا شخصياً لم أكن بحاجة إلى شيء. شقة، سيارة... ماذا أيضا؟ عزبة... كان كل ذلك عندي. تملّكتني حماسة الرجال... ينطلقُ رجال حقيقيون للقيام بعمل ضروري. أمّا الباقون؟ فليجلسوا تحت تنانير النساء... أحدهم أحضر وثيقة تبيّنُ أن زوجته تلدُ، وآخر قدّم ما يثبت أن لديه طفلاً صغيراً... نعم مغامرة. نعم

خطر ـ إشعاعات، لكن على أحدهم أن يقوم بهذا العمل. كيف مضى آباؤنا إلى الحرب إذاً؟.

عدنا إلى البيت. نزعتُ عنّي الثياب التي ارتديتها هناك كلّها، ورميتها في الزبالة. أما القبعة فقد أهديتها لابني الصغير. رجاني كثيراً. لبسها، ولم ينزعها. بعد سنتين شخصوا مرضه: كتلة في الدماغ...

تابعوا الكتابة بأنفسكم... لا أرغبُ في الحديث أكثر..."

عدت لتويّ من أفغانستان... أردت أن أعيش. وأتزوج. أردت أن أتزوج مباشرة... وهنا ـ بطاقة مضفورة بشريط أحمر "استدعاء خاص" ـ يجب حضورك خلال ساعة إلى العنوان المذكور. أمّي بكت في الحال. اعتقدتْ، أنهم يستدعونني مرّة أخرى إلى الحرب.

إلى أين ينقلوننا؟ ولماذا؟ المعلومات شحيحة. انفجر المفاعل... وما علاقتنا نحن؟. بدلنا ثيابنا في المكان.. وحضّروا أوراقنا وأخبرونا، بأننا سنتوجّه إلى مركز منطقة خوينيكي. وصلنا إلى خوينيكي، مازال الناس في غفلة عما جرى، وهم مثلنا يرون جهاز قياس الأشعة لأول مرة. تابعوا نقلنا، إلى القرية... هناك من يقيمُ عرساً: الشباب يتبادلون القبل، الموسيقى تعزف، يشربون الخمر البيتي. عرس.. فليكن عرساً.. نحن لدينا أمر: قشط التربة بعمق.... قطع الأشجار....

بداية أعطونا سلاحاً. رشاشات. في حال هجوم الأمريكيين... قرؤوا لنا، في التوجيه السياسي، محاضرة عن عمليات التخريب التي تنفّذها الاستخبارات الغربية. وعن أعمال التفجير التي تقومُ بها. تركنا السلاح ذات مساء في خيمة منفصلة. وسط المعسكر. بعد شهر نقلوه. لا يوجد مخربين على الإطلاق. رينغين... كيوري...

التاسع من أيار ـ وصل جنرال على عيد النصر. جمعونا وصففنا بانتظام. هنأونا بالعيد. تجرأ واحد من الصف وسأل: "لماذا يخفون عنّا كم نسبة الإشعاعات؟ وما هي الجرعة التي نتلقاها؟". لقد وُجد شخص يطرح هذا السؤال. استدعاه قائد القطعة بعد أن غادر الجنرال، ووبّخه قائلاً: "إنّك تفتعل استفزازاً! وتثير الرعب!". بعد يومين وزعوا كمامات مضادة للغاز على الجنود، لكن أحداً لم يستعملها. عرضوا لنا جهاز قياس الأشعة مرتين، لكن لم يسمحوا لأحد بإمساكه. أطلقونا لزيارة الأهل مرة كل ثلاثة أشهر ولمدة يومين. تكليف واحد: شراء فودكا. حملت معي حقيبة ظهر ممتلئة بالزجاجات. رفعني الشبابُ على أيديهم من البهجة.

استدعى مسؤول الـ"كي جي بي" الجميع قبيل مغادرتهم إلى بيوتهم ونصحهم بإلحاح: لا تحدثوا أحداً في أي مكان، عما شاهدتموه هنا. لقد عدت من أفغانستان، وعرفت ـ أنني سأعيش!. لكن في تشرنوبل على العكس تماماً: يقتلونك تحديداً عندما ـ تكون في البيت.

عدت إلى البيت... وكل شيء بدأ لتوه... ؟.

"هل ما أتذكره... حفر في الذاكرة؟

يوم كامل.. أتنقل بين القرى... مع اختصاصيي قياس الأشعة.. ما من امرأة تقدم لنا التفاح... الرعبُ في نفوس الرجال أقل، يحضرون الخمر البيتي، وشحم الخنزير: "هيا نتناول طعام الغداء". والرفض غير مستحسن، وأن تأكل التسيزوم النقي ـ ليس مفرحاً. تشرب. من دون المازوات.

الفطر الأبيض يفرقع تحت عجلات السيارات، هل هذا طبيعي؟

تسبح في النهر القراميط الكسولة السمينة، حجمها أكبر خمس إلى سبع مرات من الحجم المعتاد. هل هذا طبيعي؟ هل...

أجلسونا مع ذلك في إحدى القرى إلى الطاولة... خنزير مقلي... اعترف صاحب البيت بعد أن ثمل: "خنزير فتي. ذبحته، لأنني لم أستطع النظر إليه كان، مشوّها! ماتت الشهية عندي". شربت الكأس دفعة واحدة. بعد تلك الكلمات. صاحب البيت يضحك: "اعتدنا هنا، مثل الخنافس الكوليرادية".

أحضرنا جهاز قياس الأشعة إلى البيت ـ ارتفع المؤشر عاليا...".

"عشر سنوات مرّت... وكأن شيئاً لم يكن، لو أنّني لم أمرض، ولكنت نسيت...

يجب خدمة الوطن!. خدمة الوطن ـ عمل مقدّس. استلمت: ثياباً داخلية، وربطات قدم، وحذاء، وقبعة، وبنطال، وبدلة رياضية، والحزام، والجعبة. ثم إلى الأمام. سلّموني شاحنة قلاب. نقلت البيتون. أجلس في غرفة القيادة وأثق، بأن الحديد والزجاج سيحميانني. كأن شيئاً ما كان ـ... أحملُ في الشاحنة... شباباً فتياناً. غير متزوجين. أقنعة طبية واقية لم نستلم... لا، أتذكر واحداً رأيته يرتديها... سائق معمر... فقط... كان دائماً ـ يضع القناع. ونحن ـ لا. رجال شرطة المرور من دون كمّامات. نحن ـ في غرفة قيادة الشاحنة، أمّا هم ـ فقد وقفوا في جو من الغبار الإشعاعي لثمان ساعات. كانوا يدفعون أجوراً عالية للجميع: ثلاثة مرتبات إضافة إلى مهمّة السفر. كنّا نتعاطى المشروبات الكحولية... فودكا، عرفنا، أنّها تساعد. هي الوسيلة الأوليّة لاستعادة الخواص الدفاعية للجسم بعد التعرّض للإشعاعات. وتزيل أيضاً التوتر العصبي.

وليس مصادفة أنهم أعطوا في الحرب الوطنية تلك المئة غرام المشهورة لكل جندي. لوحة عادية: شرطي مرور ثمل يضبطُ سائقاً ثملاً.

لا تكتبوا عن معجزات الوطنية السوفيتية. لقد كانت... المعجزات! بالفعل لكن سبقها في البداية ـ التقصير، والتسيّب، وفيما بعد المعجزات. سدّ الفوّهات... استقبال الرصاص بالصدور... أمّا أن مثل هذه الأوامر ـ من حيث المبدأ ـ لا يجب أن تكون، فعن ذلك لا أحد يكتب. رمونا هناك، مثلما رموا الرمل على المفاعل... كأكياس الرمل. كل يوم يعلّقون "منشوراً حربياً" جديداً: "يعملون بشجاعة وتفان"، "سنصمد وسننتصر...". وسمّونا اسما جميلا "جنود النار"...

أعطوني شهادة لقاء العمل البطولي وألف روبل...".

"في البداية سوء فهم... إحساس، بأنّها تدريبات عسكرية... لعبة...

لكنها كانت حرباً حقيقيةً. حرباً نوويةً... غير معروفة بالنسبة لنا: ما المخيف وما غير المخيف، ماذا نتوخى وماذا لا نتوخى؟ لا أحد يعرف. ولا أحد تسأله. إخلاءٌ حقيقي... في محطات القطار... ما الذي كان يحصل في محطات القطار؟ كنّا نساعد في دفع الأطفال عبر نوافذ العربات... أمّنا النظام في الطوابير... طوابير تقف على نوافذ قطع تذاكر السفر، طوابير على اليود في الصيدليات. شتمَ الناسُ بعضهم بعضاً وتشاجروا. كسروا الأبواب في المتاجر وأماكن بيع المشروبات الكحولية. حطمّوا وكسّروا الشبكات الحديدية على النوافذ. آلاف النازحين... عاشوا في النوادي، والمدارس، ورياض الأطفال. تجوّلوا نصف جائعين. نفدتِ النقود بسرعة. اشتروا كل محتويات المتاجر...

لن أنسى النساء، اللواتي غسلن ثيابنا الداخلية. لم تكن هناك

غسّالات. لم تخطر ببالهم، ولم يحضروها. غسلوا بأيديهم. كل النساء ـ من كبيرات السن. أيديهن ـ متورّمة تملأها الجروح. الثياب الداخلية ليست متسخة فحسب، بل هناك عشرات الرينجينات[1]... "أيها الشباب، تناولوا الطعام..."، "أيها الشباب، ناموا..."، "أيها الشباب، أنتم ما زلتم فتياناً... احموا أنفسكم...". أسفن لوضعنا وبكين.

هل ما زلن على قيد الحياة؟.

نجتمع كل عام في السادس والعشرين من نيسان (أبريل)، كل من كان هناك. كل من بقي على قيد الحياة. نتذكر تلك الفترة. أنت كنت جندياً في الحرب، كنّا بحاجة لك. ما هو سيء تمَّ نسيانه، لكن ذلك بقي. بقي، أنّه من دونك لم نكن نستطيع أن نجتاز الحادثة... كنت ضرورياً... نظامُنا، نظامنا العسكري بصورة عامة، يعمل بشكلٍ رائع في الظروف الطارئة. أنت في النهاية، هناك حرّ وضروري. الحرية! والإنسان الروسي في مثل تلك اللحظات يَظهرُ إنساناً عظيماً! وفريداً! لن نصبح أبداً هولنديين أو ألماناً. ولن يكون عندنا إسفلت طويل الأمد ولا مروج مرتبة. أمّا الأبطال فستجدهم دائماً!...".

"قصّتي

أطلقوا نداءً ـ ذهبت. واجب!. كنت عضواً في الحزب. الشيوعيون، إلى الأمام!. هذه هي الحال. عملت في الشرطة. رقيباً أوّل. وعدوني "بنجمة" جديدة. كان ذلك في حزيران (يونيو) عام سبعة وثمانين... يجب اجتياز اللجنة الطبية، لكن أرسلوني من دون فحص. أحد ـ ما

---

(١) وحدة قياس مستوى التلوث الإشعاعي/ .المترجمان./

هناك وكما يقولون "دبّر حاله"، أحضر تقريراً، بأن لديه قرحة في المعدة، فأخذوني مكانه بالسرعة القصوى. هذا هو الوضع... (يضحك). ظهرت في تلك الفترة طرائف كثيرة. ذات مرّة... وصل الزوج من العمل وشكا لزوجته: "قالوا لي: غداً ـ إمّا ستذهب إلى تشرنوبل، أو تضع بطاقتك الحزبية على الطاولة". "وأنت غير حزبي؟". ـ لذلك أفكر: أين سأجد لهم حتى الصباح بطاقة حزبية".

سافرنا، كأناس عسكريين، لكن في الفترة الأولى نظّموا منّا مجموعة بنّائي حجارة. بنينا صيدلية. ضعف جسمي في الحال، وأصابني نوع من النعاس. أسعل ـ في الليل. قلت للطبيب: "كل شيء على ما يرام. الطقس حار". جلبوا إلى المطعم من الكولخوز لحمة، وحليب، وقشطة، وأكلنا. الطبيب لم يلمس أي شيء. يحضرون الطعام، يدوّن في الملف، بأن كل شيء حسب الأصول، لكنّه لم يأخذ عيّنة. لاحظنا ذلك. هذه هي الحال. شعرنا باليأس. بدأ موسم الفراولة. وخلايا النحل ممتلئة...

بدأ اللصوص باقتحام البيوت. سرقوا كل شيء. سمّرنا النوافذ والأبواب. ختمنا صناديق الخزنة في مكاتب الكولخوز، والمكتبات الزراعية. ثم قطعنا المياه والكهرباء عن المنطقة، وأمنّا المباني في حال الحريق.

سرقت المحلات التجارية، انتزعت الشبكات الحديدية عن النوافذ. الطحين والسكر أصبحا تحت الأرجل، هرست الحلوى بالأقدام... حُطمت البنوك... هجّروا الناس من إحدى القرى، وعاش الكثيرون منهم على بعد خمسة ـ عشرة كيلومترات. نقلوا الحاجيات المتروكة في القرى إلينا. هذه هي الحال... نحن نحرس... يأتي رئيس الكولخوز

السابق مع عدد من السكان المحليين، لقد أسكنوهم مكاناً قريباً وأعطوهم بيوتاً، يأتون إلى هنا لجني الذرة، وللزراعة. لقد نقلوا التبن في شوالات. وجدنا في تلك الشوالات ماكينات خياطة، ودراجات ناريّة، وأجهزة تلفزيونية مخبأة. يعتقدون إن الإشعاعات قد زالت، فالتلفاز لم يعمل في تلك الفترة... عملية تبادل: هم يحضرون زجاجة من السماغون[1] ـ وأنت تعطيهم الموافقة على نقل عربة أطفال. وإذا باعوا أو نقلوا ملكية جرار، أو آلة بذار. زجاجة... عشر زجاجات... النقود لم يهتم بها أحد... *(يضحك)* .كما في مرحلة الشيوعية... لكل شيء وحدة قياس: اسطوانة بنزين ـ نصف لتر من الخمر. معطف فرو ـ ليترين، دراجة ناريّة ـ أنت وذكاؤك... بعد ستة أشهر غادرت، توافقاً مع البرنامج المركزي، المدة نصف عام. ثم أرسلوا ورديّة بديلة. أخّرونا لبعض الوقت، لأن أفراد تلك الورديّة رفضوا القدوم من جمهوريات بحر البلطيق. هذه هي الحال... أعلم بأنهم سرقوا، ونقلوا كل ما يمكن رفعه ونقله. أنابيب الاختبار من المخابر الكيميائية المدرسية سرقوها. منطقة تشرنوبل نقلوها إلى هنا... ابحثوا في البازارات، ومتاجر الحاجيات المستعملة، وفي البيوت الريفية والعزب...

بقيت خلف الأسلاك الأرض فقط... والمقابر... وتاريخنا ـ وبلدنا الكبيرة...".

"وصلنا إلى المكان... سجلنا مهماتنا...

سؤال: إلى أين وصلنا؟ هدّأنا الملازمُ قائلاً: "حادثة، حصلت منذ

---

(١) نوع من الفودكا البيتيّة التي يصنعها الفلاحون/ .المترجمان./

زمن. منذ ثلاثة أشهر مضت. لم يعد الوضع مخيفاً". الرقيب: "كل شيء جيد، يجب فقط غسل الأيدي قبل الطعام".

خدمتُ اختصاصياً بقياس الأشعة. ما إن يحلّ الظلام، حتى يصلُ شبانٌ إلى العربة المناوبة بالسيارات. يقدمون النقود والسجائر، والفودكا... مقابل السماح لهم بالبحث في الأمتعة المصادرة. يملؤون الحقائب. إلى أين ينقلونها؟ ربما، إلى كييف، إلى مينسك... إلى المكبّات...، ما تبقّى، ندفنه. فساتين، أحذية، آلات أوكرديون، آلات خياطة... نضعها في الحفر، التي سميّناها "المقابر الأخوية".

أعود إلى البيت. أذهب إلى الرقص. تعجبني فتاة:

ـ هيّا نكون صديقين.

ـ لماذا؟ أنت الآن رجل تشرنوبل. من هي التي ستتزوجك؟

تعرفت إلى أخرى. قبلتها. عانقتها. المسألة أصبحت قريبة من كتب الكتاب في المحكمة.

ـ عرضت عليها ـ هيا نتزوّج.

جاء سؤالها يشبه: وهل تستطيع؟ قادر...

كان عليّ أن أسافر... وعلى الأغلب سأسافر. لكنني أشفقُ على والديَّ...".

"لدي ذاكرتي...

وظيفتي الرسمية هناك ـ رئيس مجموعة حراسة... أي ما يشبه ـ رئيس منطقة صراع الفناء. (*يضحك*) .هكذا اكتبوا.

نوقف سيارة من مدينة بريبياتي. المدينة تم إخلاؤها، ما من أحدٍ

فيها. "قدموا وثائقكم". لا توجد وثائق. صندوق السيارة مغطّى بشادر. نرفع الشادر. عشرون طقم فناجين شاي، أذكر وكأن ذلك حصل الآن، خزانة صالون خشبية، وديوانيّة، وتلفزيون، وسجاد، ودراجات هوائية...

أكتبُ تقريراً.

أحضروا لحوماً لدفنها في المدافن الخاصة. ما من وثائق وأختام.... وما من عيّنة مفحوصة.

أكتبُ تقريراً.

وصلتنا إخبارية: يفكّكون بيتاً في قرية مهجورة. يرقمون ويوضبون الأخشاب على جرار مع مقطورة. انطلقنا على وجه السرعة، حسب العنوان المذكور. تم إلقاء القبض على "اللصوص". أرادوا نقل البناء وبيعه على أنّه عِزبة. لقد قبضوا عربوناً من الشاري.

أكتبُ تقريراً.

تجولت خنازير شاردة في القرى الفارغة. أمّا الكلاب والقطط فقد انتظرت الناس إلى جانب أبواب بيوتها. حرست البيوت الفارغة.

تقف إلى جانب مقبرة الأخوة... حجر مكسور كتب عليه أسماء عائلات: الملازم بورودين، الملازم الأول... أعمدة طويلة، كقصيدة الشعر ـ عائلات الجنود... ريبينيك، كاربيف، لوبوخي...

فجأةً في حقلِ منزلِ مُراقبِ. صاحبُ الحقل خلف المحراث، قال عندما شاهدنا:

ـ أيّها الأعزاء، لا تصرخوا. لقد كتبنا تعهداً: سنغادر في الربيع.

ـ لكن لماذا تحرث الحقل؟.

ـ إنّها أعمال خريفية...

أنا أفهمك، لكن يجب أن أُعِدَّ تقريراً...".

"فلتذهبوا جميعاً إلى الجحيم...

زوجتي أخذتِ الطفل وغادرت. عاهرة! لكنني لن أشنق نفسي، مثل فانكا كوتوف... ولن أرمي بنفسي من الطابق السابع. عاهرة!. عندما عدتُ من هناك بحقيبةِ نقودٍ... اشترينا سيّارة، ولها ـ معطف من فرو النمس... وهي ـ العاهرة عاشت معي. ولم تخفْ. *(يغنّي فجأة).*

حتى ولو ألف رينجين

لا تستطيع لَيَّ العضو الروسي...

أغنية شعبية جيدة. من هناك. تريدون طُرفة؟ *(يروي مباشرة)* .يعودُ الزوج إلى البيت... قادماً من تحت المفاعل... الزوجة تسأل الطبيب: "ماذا نفعل لزوجي؟" ـ "غسله، معانقته، وإبطال مفعول الأشعة". عاهرة! إنّها تخافني... أخذت الطفل... *(تحوّل إلى الجدية فجأة)* .عَمِلَ الجنودُ... قرب المفاعل... كنت أنقلهم إلى الورديَّة ومن الورديَّة: "شباب، سأعد إلى المئة. انتهى! إلى الأمام!". أنا، كما الآخرين، عُلّق على رقبتي عدّاد ـ تراكمي. لقد جمعتُ تلك العدَّادات بعد الوردية وسلمّتها للقسم الأوّل... سرّي... هناك أخذوا المعطيات، ويفترَضُ أنّهم يسجلونها في أضابيرنا، لكن، كم رينجين تلقّى كل منّا ـ سرّ عسكري. عاهرون.. قحا.. !.... ثمّ تمر فترة من الزمن، فيقولون لك: "قف! لا يجوز الاستمرار!". كل المعلومات الطبية لديهم... ولكنهم حتى عند المغادرة لم يخبرونا ـ كم هي؟ عاهرون!.. قحا.... هم الآن يتنازعون على السلطة... على الحقائب... عندهم ـ انتخابات... هل تريدون نكتة؟

يمكنكم بعد تشيرنوبل أكل كل شيء، لكن فضلاتكم ـ تدفنُ في الرصاص. ها. ها. ها.... الحياة رائعة، وغدة، لكنها قصيرة جداً...

كيف سيعالجوننا؟ لم نحضر أيّة وثائق. لقد بحثتُ... سألتُ في الجهات المختصّة... تلقيت ثلاثة أجوبة واحتفظت بها. الجواب الأول: تم إتلاف الوثائق، نظراً لانتهاء مدة الاحتفاظ بها، مدة الاحتفاظ ـ ثلاث سنوات، الجواب الثاني: تم إتلاف الوثائق أثناء البيريسترويكا[1] وتقليص الجيش وإعادة تشكيل القطع العسكرية، الثالث: تم إتلاف الوثائق لأنها كانت مشعّة. لعلهم أتلفوا الوثائق كي لا يعرف أحد الحقيقة؟ نحن ـ شهود. لكننا سنموت قريباً... بماذا نساعد أطباءنا؟ أحتاج لتقرير: كم عدد الرينجينات؟ كم تلقيت هناك؟ لكنت عرضتُه على عاهرتي... سأثبت لها بعد، أننا سنعيش في أيّة ظروف وننجب أطفالاً.

إليكم صلاة عامل درء آثار الإشعاعات في تشرنوبل: "يا إلهي، إذا كنتَ قد فعلتَ ما يجعلني لا أستطيع، فافعل ما يجعلني لا أرغب". فلتذهبوا جميعكم إلى طيـ !".

"ابتدأنا... ابتدأ كل شيء كما في الروايات البوليسية...

في وقت الغداء ـ اتصال إلى المصنع: إلى جندي الاحتياط فلان... يطلب إليك الحضور إلى لجنة المدينة العسكرية، لتدقيق أمرٍ في وثائقه. زد على ذلك ـ بالسرعة القصوى. وفي اللجنة العسكرية... أمثالي كانوا

---

(١) مرحلة ما سُمّيَ إعادة البناء والعلنيّة والشفافيّة التي قادها ميخائيل غورباتشوف/ . المترجمان./

كثراً، قابلنا ملازماً وكرّر لكل واحد منا: "ستذهبون غداً إلى قرية كراسنوي، حيث ستشاركون في تدريبات عسكرية". اجتمعنا صباح اليوم التالي قرب مبنى اللجنة العسكرية. أخذوا منّا وثائقنا والبطاقات العسكرية وأجلسونا في حافلات. وساروا بنا في اتجاه مجهول. لم يعد أحد يحلم بالتدريبات العسكرية. كان الضباط المرافقون يجيبون، عن الأسئلة كلها بالصمت. تنبأ أحدهم قائلاً: "أيها الأخوة! وإذا كنّا متجهين إلى تشرنوبل؟!". القيادة: "يرجى الصمت! إثارة الخوف ـ محكمة ميدانية عسكرية حسب قوانين زمن الحرب". وكان هناك توضيح بعد مرور بعض الوقت: "نحن في حالة استنفار عسكري. لا نريد مهرجين بيننا! من يترك وطنه في المحنة ـ يُعدُّ خائناً".

في اليوم الأوّل ـ شاهدنا من بعيد المحطة الذريّة. وفي اليوم الثاني كنّا ننظف الأوساخ من حولها... نقلنا دلاءً منها... حفرنا بالمجرفات العادية، كنّسنا بالمكانس، التي يستخدمها عمّال التنظيف. وبالمقاشط. مسألة واضحة ـ المجرفة مصنّعة للرمل والحصى. لكن ليس للزبالة، التي كانت تجمع كل شيء: قطع أشرطة أفلام، حديد بناء، وخشباً وبيتوناً. تقدمنا إلى الذرّة بالمجرفة.. كما يقال. القرن العشرون... الجرارات والبلدوزارات، التي استُخدمت هناك، كانت بلا سائقين، موجّهة عن بعد، أمّا نحن فكنّا نسير خلفها ونجمع البقايا. تنفّسنا ذلك الغبار. بدّلنا خلال الوردية الواحدة حوالي ثلاثين كمّامة، شيء غير مريح وغير متقن. غالباً ما كنّا ننزعها... حيث يصعب التنفس من خلالها، وبخاصة في الحرّ. وتحت الشمس.

بعد كل ذلك... أجرينا تدريبات عسكرية لمدة ثلاثة شهور أخرى... أطلقنا الرصاص على الأهداف التدريبية. درسنا بندقيّة آلية جديدة. في حال وقوع الحرب النووية... (باستهزاء). هكذا أفهم... لم يبدلوا ثيابنا

حتى. كنا في تلك الملابس الرياضية، الأحذية، نفسها التي كنّا نرتديها قرب المفاعل.

أعطوني ورقةً طلبوا أن أوقِّعها... حول عدم البوح... أنا صمتت... حتى لو سمحوا لنا بالتحدث، لمن كنت سأروي؟ أصبحت مباشرة بعد الخدمة العسكرية معاقاً من الدرجة الثانية. في الثانية والعشرين من عمري. عملت في المصنع. رئيس قسم: "توقف عن المرض، وإلاّ سنطردك تقليصاً لعدد العمال"[1]. قلّصوني... ذهبت إلى مدير المصنع قلت له: "لا تملكون الحق بطردي. أنا ـ شاركت في تشرنوبل. أنا أنقذتكم. وحميتكم!" ـ "نحن لم نرسلك إلى هناك".

أصحو ليلاً على صوت أمّي: "لماذا أنت صامت، يا بنيّ؟ أنت لست نائماً، أنت راقد وعيونك مفتوحة. والنور عندك مُضاء...". أصمتُ... من على استعداد لسماعي بوحي؟ يحدثني بطريقة تجعلني... أتوجّهُ إليه بلغتي الخاصّة......

أنا وحيد...".

"ما عدتُ أخاف الموت... الموت نفسه...

لكن من غير المفهوم، كيف سأموت... صديقي مات... تضخّم، وانتفخ... بسبب الكلية... أمّا جاري... وقد كان هناك أيضاً، سائق رافعة. أصبح أسودَ، كالفحم، جَفَّ جسمه وأصبحَ بحجم طفل. لا أفهم، كيف سأموت... لو كان لي أن أتمنى موتاً، فليكن عادياً. وليس موت تشرنوبل. أمرٌ واحد أفهمهُ تماماً: حسب التشخيص، لن أعيش

---

(١) تحت مُسمّى.. إعادة البناء تم طرد عديد من العمال/ .المترجمان./

طويلاً. لو استطعتُ أن أحسَّ بلحظة دنو أجلي... رصاصة - في الجبين. كنت في أفغانستان من قبل... هناك كان الأمر أسهل... فيما يخصُّ الرصاصة...

ذهبت إلى أفغانستان متطوعاً. وإلى تشرنوبل كذلك. أنا الذي طلبت. عملت في مدينة بريبيات. المدينة محاطة بصفّين من الأسلاك الشائكة، كما هي الحال على حدود الدولة. البيوتُ متعددةُ الطوابق والشوارع النظيفة، مغطاة بطبقة سميكة من الرمل، مع الأشجار المقطوعة... لقطات من فيلم خياليّ... نحن نفّذنا أمر - "غسل" المدينة واستبدال وجه الأرض الملوّث عمق عشرين سنتيمتراً بطبقة من الرمل. لا عطلة نهاية أسبوع هنا. كما في حالة الحرب. أحتفظ بصفحة جريدة... تتحدّث عن مراقب الأجهزة ليونيد توبتونوف. كانت ورديّته ليلة الحادث في المحطة، وضغط على الزر الأحمر للحماية من الحوادث، قبل دقائق عدّة من الانفجار. لم يستجيب... عالجوه في موسكو. "للنجاة، بحاجة للجسد"، - زرع الأطباء له يدين. بقيت لديه بقعة واحدة - وحيدة غير ملوّثة في ظهره. دفنوه في مقبرة ميتينسك. وضعوا التابوت داخل ورق الألمنيوم... وصبّوا فوقه مكعباً إسمنتياً، بسماكة متر ونصف، تغطيه طبقة رصاص. حضر والده... وقف وبكى... مرّ الناس من جانبه قائلين: "ابن العاهرة... ابنك فجّر!". وكان مجرّد مراقب... ثمَّ دفن، وكأنّه قادم من الفضاء...

كان الأفضل لو استشهدت في أفغانستان! أقول لكم بصدق، تراودني مثل هذه الأفكار. كان الموت هناك مسألة عاديّة... ومفهومة...".

"من الحوّامة...

طرت على مستوى منخفض فوق الأرض، راقبت... الأيائل، والخنازير البريّة... ضعيفة، ناعسة. تتحرّك وكأنّك تشاهدها في مقطعٍ مُصوّرٍ بطيء... تعيش على العشب، الذي ينمو في المنطقة وتشربُ مياهها. لم تدرك ـ أن عليها الرحيل أيضاً. الرحيل مع الناس...

تسافر ـ لا تسافر؟ تطير ـ لا تطير؟ أنا ـ شيوعي، كيف باستطاعتي أن لا أطير؟ اثنان من ضباط الملاحة رفضا، زوجتاهما صغيرتان وليس لديهما أطفالٌ بعد، تم تأنيبهما. الترقّي الوظيفي انتهى! وأُحيلا إلى محكمة الرجولة... محكمة الشرف! كان ذلكِ بمثابة تحريض ـ هو لم يستطع، وأنا سأذهب. الآن أفكر بطريقة أخرى... بعد تسع عمليات جراحية وأزمتين قلبيتين... الآن، لن أقول لأحد ـ فهمتهما الآن. شابان فتيّان. لكن أنا وفي جميع الأحوال كنت سأطير... هذا مؤكّد ـ هو لم يستطع، أما أنا فسأذهب. رجولة!

من الأعلى... من مسافات عالية... يدهشك عدد التقنيات: طائرات حوّامة ثقيلة، ومتوسطة... مي ـ ٢٤ ـ إنها حوّامة عسكرية... ماذا يمكن أن تفعل في حوّامة عسكرية في تشرنوبل؟ أو على متن طائرة مقاتلة مي ـ ٢. الطيارون... شباب فتيّون... يقفون في الغابة قرب المفاعل، يلتقطون الرينجين. أمر! أمر عسكري! لكن لماذا تم إرسال هذا العدد الكبير من الناس، لتلقي الأشعة؟ لماذا؟! (ينتقل إلى نبرة عالية). تطلب الأمرُ اختصاصيين، وليس مادة بشرية. من الأعلى... ترى... المباني المهدمة، وأكواماً من البقايا المنهارة... وعدداً هائلاً من الشخصيات البشرية الصغيرة. انتصبت رافعة ـ ما ألمانية، لكنّها ميّتة، سارت على السطح قليلاً وماتت. ماتت الأعمال... أعمالنا، التي أسسها الأكاديمي

لوكاتشوف من أجل البحث في المريخ... رجل آلي ياباني، يشبه بشكله الخارجي الإنسان... لكن... احترقت في داخله على ما يبدو الحشوة بسبب الإشعاعات المرتفعة. العساكر في البزات المطاطية، والقفازات المطاطية يركضون. كم هم صغار إذا نظرت من السماء...

أتذكر كل شيء... فكرت، بأنني سأحدّث ابني... وعندما عدت سألني: "بابا، ماذا هناك؟" - "حرب". لم أجد كلماتي...".

الفصل الثاني

إكليل الإبداع

مونولوج حول التنبؤات القديمة

"ابنتي... ليست، كالآخرين... وها هي تكبر، وستسألني: "لماذا لستُ مثل الجميع؟".

عندما وُلدتْ... لم تكن طفلاً، بل كيس حيّ، مُخيّط من جميع الأطراف، لا توجد أية فتحة، عيناها فقط مفتوحتان. كتب في الدفتر الصحي: "الطفلة، ولدت مع جملةٍ أمراضٍ معقدة: عدم تنسّج فتحة الشرج، عدم تنسج المهبل، وعدم تنسج الكلية اليسرى"... هذه صياغة اللغة العلمية، أمّا في اللغة الدارجة: لا مبولة، لا مؤخرة، كلية واحدة... أخذتها في اليوم الثاني لإجراء عملية جراحية، في اليوم الثاني من حياتها... لقد فتحت عينيها، وكأنها تبتسم، اعتقدتُ بداية أنّها ستبكي... آه، يا إلهي، لقد ابتسمت! مثلها لا يعيشون، مثلها يموتون مباشرة. لم تمت، لأنّني أحبها. خلال أربع سنوات - أربع عمليّات جراحية. هذا هو الطفل الوحيد في روسيا البيضاء، الذي عاش مع هذه الأمراض المعقدة. إنّني أحبها كثيراً • (تتوقف) .أنا لن أستطيع الحمل لاحقاً. لا أتجرّأ. عدت من دار الولادة: قبّلني زوجي ليلاً، وأنا أرتجف - لن نفعلها... خطيئة... خوف... لقد سمعت، كيف تحدّث الأطباء فيما بينهم: "الطفلة لم تُولد في قميص، بل في درع. لو عرضوها على شاشة التلفاز، فلن ترغب أية أم في أن تنجب بعد ذلك". الحديث كان عن ابنتنا... كيف نستطيع بعد ذلك أن نحبّ بعضنا بعضاً؟!.

ذهبت إلى الكنيسة. حدثت الخوري. قال، يجب التكفير عن ذنوبي. لكن في سلالتنا ما قتل أحدٌ منا شخصاً آخر... فبماذا أذنبت؟ بداية أرادوا إخلاء قريتنا، ثم حذفوها من القائمة فيما بعد: لا تكفي الأموال عند الدولة... وأنا أحببت في هذه الفترة. وتزوّجت. لم أكن أعلم أننا هنا يجب ألا نحب... لقد قرأت جدتي في الإنجيل منذ زمن، بأنّ يوماً سيأتي تكون فيه وفرة في كل شيء، كل شيء سيزهر ويثمر، ستمتلئ الأنهر بالسمك، والغابات بالوحوش، لكن لن يستثمرها الإنسان. إنّه لن يستطيع إنجاب من يشبهه، ويطيل الخلود. لقد سمعت النبوءات القديمة، كحكاية مخيفة. لم أصدّق. حدثني الجميع عن طفلتنا. اكتبي. إنّها تغنّي في عامها الرابع، وترقص، تحفظ الشعر عن ظهر قلب. لديها تطور عقلي طبيعي، لا تختلف في شيء عن الأطفال، لديها فقط ألعاب أخرى. إنّها لا تلعب في "متجر"، "مدرسة"، إنّها تلعب مع لعبها "في المستشفى": تعطيهم لقاحات، تضع ميزان الحرارة، تصف لهم السيروم، تموت اللعب ـ تغطيهم بشرشف أبيض. أربع سنوات عشت معها في المستشفى، لا يمكن تركها وحيدة هناك، هي لا تعرف، أننا يجب أن نعيش في البيت. عندما أحضرها إلى إليه لشهر ـ شهرين تسأل: "هل سنعود قريباً إلى المستشفى؟". لديها أصدقاء هناك، يعيشون هناك، ويترعرعون. عملوا لها شرجاً... يكوّنون مهبلاً... لقد توقف التبوّل اللاإرادي، بعد آخر عملية جراحية،. لم يتمكّنوا من وضع قسطرة ـ تحتاجُ عمليات جراحية عدة. إلاّ أنهم ينصحون بإجراء هذه العمليات في الخارج. لكن من أين لنا الحصول على عشرات الآلاف من الدولارات، إذا كان زوجي يتقاضى مئة وعشرين دولاراً في الشهر؟ نصحنا بروفيسور في القسم قائلاً: "إنّ طفلتكم في مثل هذا التشخيص، تثير اهتماماً كبيراً للعلم. راسلوا المشافي الخارجية. يجب أن تستدعي

اهتمامها". وأنا أكتب... *(تحاول أن لا تبكي)*. أكتبُ أن عليَّ كل نصف ساعة الضغط بيدي لدفع البول، البول يخرج من خلال ثقوب صغيرة جداً في منطقة المهبل، وإذا لم أفعل ذلك فستتوقف الكلية الوحيدة عن العمل. أين يوجد طفل آخر في العالم، يحتاج إخراج بوله لدفعه باليدين؟ وكم يمكن تحمّل ذلك؟ *(تبكي)* .لا أسمح لنفسي بالبكاء... ممنوع أن أبكي... أقرع كل الأبواب. أكتب. خذوا بنتي، وليكن من أجل التجارب... للدراسات العلمية...... أنا موافقة، بأن تصبح ضفدعة تجريبية، أرنباً، المهم أن تحيا فقط. *(تبكي)* .لقد كتبت عشرات الرسائل... آه، يا إلهي!.

ما زالت غير مُدركة، لكنّها ستسألنا ذات يوم: لماذا هي هكذا وليست كالجميع؟ لماذا لن يستطيع رجل أن يحبّها؟ لماذا يمنع عليها أن تلد؟ لماذا لن يحصل عندها أبدا، ما يحصل عند الفراشات... وعند الطيور... عند الجميع، لكن ليس عندها هي... لقد أردت... كان عليّ إثبات... كي... أردتُ الحصول على وثائق... كي تكبر وتعرف: لسنا أنا ووالدها المذنبين... وليس حبّنا... *(تحاول عدم البكاء من جديد)*. لقد حاربتُ أربع سنوات... الأطباء، والموظفين... حاولت الوصول إلى المكاتب العليا... أعطوني بعد أربع سنوات تقريراً طبّياً فقط، يؤكد علاقة الإشعاعات المؤيّنة (جرعات صغيرة) بحالتها المرضية المخيفة. رفضوا لمدة أربع سنوات، أكدوا لي: "ابنتك ـ معاقة خَلْقياً". أيّة إعاقة خَلْقيّة؟ إنّها ـ معاقة تشرنوبل. لقد درستُ شجرةَ عائلتي: لم يحدث في تاريخ عائلتنا، مثل ذلك عاش الجميعُ حتى التاسعة والثمانين من العمر، جدي عاش أربعةً وتسعين عاماً. لقد سوّغَ الأطباءُ كلامهم قائلين: "لدينا ـ منهج. يجب علينا حتى الآن تقييم مثل هذه الحالات، كأمراض عامة. أمّا بعد عشرين ـ ثلاثين عاماً، وعندما يتجمّع بنكُ معلومات، نبدأ بربط

المرض بالإشعاعات المؤيّنة.. بجرعات صغيرة... وبما نأكل ونشرب على أرضنا... وحتى الآن لا يعرف الطبُ والعلمُ عن ذلك سوى القليل". لكن أنا لا أستطيع الانتظار عشرين ـ ثلاثين عاماً. نصف الحياة! أردت أن أرفعَ دعوى عليهم إلى المحكمة... وعلى الدولة... وصفوني بالمجنونة، ضحكوا، وقالوا لقد ولد مثل هؤلاء الأطفال في اليونان القديمة. وفي الصين القديمة. صرخ أحد الموظفين: "لقد طمحت للاستفادة من فوائد تشرنوبل! من نقود تشرنوبل!". كيف لم يغمَ علي في مكتبه... كيف لم أمت من بنوبة قلبية... ممنوع عليّ ذلك...

لم يستطيعوا فهم أمرٍ واحد... لم يريدوا... كان عليّ أن أعرف، بأننا أنا وزوجي لسنا المذنبين... وليس حبّنا... *(استدارت نحو النافذة وبكت بصوت خافت).*

هذه الفتاة تكبر... إنّها فتاة في جميع الأحوال... لا أريد، أن يذكروا اسم العائلة... حتى جيراننا نحن... ولا أريد أن يعرف أحدٌ شيئاً ولو في بهو السُلّم. أريد أن ألبسها فستاناً، وأسرح شعرها. يقولون لي: "يا لها من جميلة.. ابنتكم كاتيونكا". وأنظر باستغرابٍ إلى النساء الحوامل... كما لو أنني من بعيد... من وراء الزاوية... لا أنظر، بل أسترق النظر... في داخلي خليط من المشاعر: الدهشة والرعب، الحسد والفرح، وحتى ثأر ـ ما. وخطرت لي فكرة، بأنني أنظر بهذا الإحساس إلى كلبة جيراننا الحامل... وإلى أنثى اللقلق في العش...

ابنتي...".

لاريسا ز. أمّ

مونولوج حول منظر قمريٍّ

أخذت أشكُّ فجأة، ما هو الأفضل: أن تتذكر أو تنسى؟

طرحت هذا السؤال على معارفي... بعضهم نسيَ، وآخرون لا يريدون أن يتذكروا، لأننا لا نستطيع أن نغيّر شيئاً، وحتى أن نغادر المكان. حتى هذا...

ماذا أتذكر... اختفت في الأيام الأولى بعد الحادثة، من المكتبات الكتب التي تتحدث عن الإشعاعات، وعن هيروشيما وناغازاكي، وحتى عن الرينجين. انتشرت إشاعة، أن ذلك أتى بقرار من الحكومة، تجنّبا لإثارة حالة من الذعر. من أجل راحتنا. حتى أنّه قد ظهرت طرفة، لو أنّ تشرنوبل انفجر عند البابابويين، لخاف العالم كلّه ماعدا البابويين أنفسهم. لا توجد أيّة نصائح طبيّة... ولا أيّة معلومات... من استطاع الحصول على حبوب يود الكالسيوم (هذه الحبوب لم تكن موجودة في صيدليات المدينة، فقد حصلوا عليها بأثمان باهظة). حصل، أن التهموا حفنة من هذه الأقراص، وشربوا بعدها مباشرة كأساً من الكحول. فأيقظتهم "سيارة الإسعاف" بالتنفس الاصطناعي.

قدم أوائل الصحفيين الأجانب... المجموعة السينمائية الأولى... كانوا يرتدون بدلات عمل مطاطيّة، وقبعات واقية، وقفازات وأحذية مطاطية. رافقتهم فتاة من عندنا.. مترجمة... ترتدي فستاناً صيفياً وصندلاً...

كان الناس يثقون بكل كلمة مطبوعة، بالرغم من أن أحداً لم يطبع الحقيقة. ولم يقل. فمن جهة كانوا قد أخفوا..، ومن جهة ثانية كان الجميع يفهم، من الأمين العام حتى البوّاب. ثم ظهرت علامات، كان يتابعها الناس: إذا رأيت في المدينة أو القرية غرباناً وحماماً، فهذا يعني أن بإمكان الإنسان أن يعيش. وإذا كانت النحلة ما زالت تعمل ـ أيضاً يمكن العيش. لم يفهم سائق سيارة أجرة وهو يسير، لماذا تقع الطيور على الزجاج وتتحطم، وكأنها عمياء. ليست طبيعية... ناعسة... أمرٌ ـ ما يشبه الانتحار... وكي ينسى ذلك، جلس بعد الورديّة وتعاطى الخمر مع أصدقائه.

أتذكر، وأنا عائد من المهمّة... على جهتي الطريق ـ منظر طبيعي قمريّ حقيقي... امتدت حتى الأفق أرضٌ مغطّاة بنثار الدولوميت الأبيض. انتُزِعتِ الطبقةُ العلويةُ الملوّثة من الأرض ودفنتْ، ورشوا مكانها رملاً دولوميتياً. كأنها ليست أرضاً... وليست على الأرض... تعذبتُ طويلاً بهذه الرؤيا وحاولتُ كتابة قصّةٍ قصيرةٍ. تصوّرتُ ماذا سيحدث هنا، بعد مئة عام: ربما إنسان وقد يكون كائناً آخر يقفز على أربعة قوائم، ويرمي رجليه الخلفيتين الطويلتين إلى الخلف بركبتيه، ويرى ليلاً بعين ثالثة، وأذنه الوحيدة، النابتة في أعلى الرأس تسمع حتى صوت دبيب النمل. بقي النمل فقط، ومات كل شيء على الأرض وفي السماء...

أرسلت القصة القصيرة إلى مجلة. تلقّيتُ جواباً، بأن النص ليس نتاجاً أدبياً، بل إعادة سرد للرعب. طبعا لم تكن تنقصني الموهبة. لكنني أشك بوجود سبب آخر. فكرت: لماذا تقلّ الكتاباتُ عن تشرنوبل؟ كتّابنا، يستمرون في الكتابة عن الحرب، وعن معسكرات ستالين، ويصمتون هنا. قرأت كتبَ المرحلة، مرة واثنتين. تعتقدون، أن ذلك

مصادفة؟ الحدثُ مازال خارج الثقافة. وجوابنا الوحيد ـ الصمت. نغلق عيوننا، مثل الأطفال الصغار ونفكر: "إننا نتخفّى، ولن يعثروا علينا". وسيظلُّ علينا شيء ـ ما من المستقبل، لا طاقة لأحاسيسنا به. ولقدراتنا في البقاء على قيد الحياة. تتحدثُ إلى الشخص ـ ويبدأ الحديث ويشكرك على أنك قد استمعت إليه. لم تفهمه، لكن يكفي أنّك سمعته. لأنه هو نفسه لم يفهم... مثلك... لم أعد أحب الروايات الخيالية...

وهكذا ما هو الأفضل: أن تتذكر أم تنسى؟".

يفغيني الكسندروفيتش ببروفكين، أستاذ جامعة غوميل الحكومية.

مونولوجُ شاهدٍ، آلمَهُ ضرسُه، عندما شاهد، كيف سقط المسيح وبدأ بالصراخ

"حينها فكرت بأمرٍ آخر... يبدو لكم غريباً... افترقنا أنا وزوجتي في الوقت نفسه.

يدخلون فجأة، يقدمون إشعاراً ويقولون، بأنّ سيارة تنتظر في الأسفل. ذلك كان "القِمع" الخاص. كما في عام السابعة والثلاثين... يعتقلونك في الليل. من السرير الدافئ. ثم توقف هذا البرنامج عن العمل: لم تفتح الزوجاتُ الأبواب أو كذبن، الزوجُ في مهمة، في المنتجع، في القرية عند أهله. حاولوا تسليمهن إشعارات، لكنهن رفضن. بدأوا يمسكون الناس في العمل، وفي الشارع، وأثناء فترة استراحة الغداء في مطاعم المعامل. كما في عام سبعةٍ وثلاثين... كنت حينها مجنون تقريباً... لقد خانتني زوجتي، وكل ما تبقى بدا هراءً فارغاً. جلست في هذا "القِمع"... اقتادني شخصان باللباس الرسمي، وبهيئةٍ عسكريةٍ، سارا إلى جانبيَّ، خافا على ما يبدو، أن أهرب. لماذا تذكرتُ عندما جلست في السيارة، رائدي الفضاء الأمريكيين، اللذين طارا إلى القمر، وأصبح أحدهما كنتيجة لذلك، كاهناً. أمّا الثاني فقد عقله على ما يبدو؟. قرأتُ أنّه تراءى لهما... وكأنهما شاهدا بقايا مدن، وما يشبه آثاراً بشرية. ومَضتْ في الذاكرة مقاطعُ من الصحف: محطاتنا الذرّية آمنة تماماً، يمكن بناؤها في الساحة الحمراء. إلى جانب الكرملين. إنها أكثر

أماناً من السموفر[1]. إنّها مثل النجوم، و"سنبذر" بها الأرض كلها. لكن زوجتي تركتني... وأنا قادر على التفكير بذلك فقط... حاولت أكثر من مرّة الانتحار، تناولت حبوباً وحلمت أن لا أصحو. كنّا في روضة الأطفال نفسها، تعلّمنا في المدرسة نفسها... في معهد واحد... *(يشعل سيجارة ويصمت).*

لقد حذرتكم... لا يوجد شيء بطولي عند ريشة الكاتب. كانت لدي فكرة؛ أنه ليس زمن الحرب، فلماذا عليّ إذاً أن أغامر، عندما سينام أحدهم مع زوجتي. لماذا أنا مرّة أخرى، وليس هو؟. أقول بصدق، لم أر هناك أبطالاً. رأيت مجانين، يبصقون على حياتهم الخاصّة، وتهوّراً زائداً، لا لا طائل منه. لديّ أنا أيضاً شهادات تقدير وشكر... ذلك أنني لم أخفْ الموت. سيّان عندي!. ذلك كان مخرجاً أيضاً. لكانوا دفنوني مع أصحاب مراتب الشرف... وعلى نفقة الدولة...

... ستجد نفسك هناك مباشرة في عالم الخيال، حيث تتصلُ نهاية العالم بالعصر الحجري. وفي داخلي كان كل شيء مصقولاً... ومُعرّىً... عشنا في الغابة. في خيم. على بعد عشرين كيلومتراً من المفاعل. "تناصروا"[2]. "أنصار" ـ وهم أولئك الذين استدعوهم إلى التدريبات العسكرية التعليميّة. العمر ـ من الخامسة والعشرين حتى الأربعين. الكثير منهم ـ يحملُ شهادات عليا. وشهادات معاهد متوسطة، وأنا بالمناسبة، مدرّس تاريخ. أعطونا بدل الرشاشات، مجارف. جرفنا أكوام الزبالة،

---

(١) جهاز بسيط يبقي الماء ساخناً لإعداد الشاي والقهوة وسواهما/ . المترجمان./

(٢) تشبّهوا بالأنصار.. وهم مجموعات من الثوار أو الفدائيين من الشبان وغيرهم ساعدوا الجيش الأحمر في الحرب ضد الجيوش الألمانية النازية أثناء الحرب العالمية الثانية/ . المترجمان./

وحدائق المنازل. نظرت النساء إلينا في القرى ورسمن إشارات الصليب. كنا نرتدي قفازات، وكمّامات، وثياباً واقية... الشمس حارقة... نظهرُ في حدائقهن، مثل الشياطين. أو ككائنات من كوكبٍ آخر. لم يدركن، لماذا نجرف سرائرهن، وننتزع ثومهن، وملفوفهن، عندما يكون الثوم ـ هو الثوم، والملفوف هو الملفوف. ترسم النساء إشارات الصليب ويقلنَ: "أيّها الجنود، هل هي نهاية العالم؟".

الموقد يشتعل في البيت، وشحم الخنزير يُقلى على النار. تضع جهاز القياس: إنّه ليس موقدا بل مفاعلاً صغيراً. ينادوننا: "اجلسوا إلى الطاولة أيّها الشباب". يرحّبون. نرفض. يرجون: "اجلسوا سنجد لكم مئة غرام من الخمر، حدّثونا". ماذا نحدّث؟ إذا كان رجال الإطفاء، يزيحون عن المفاعل الوقود الخفيف، الذي كان يضيء، وهم لا يعرفون ما هذا. فكيف لنا أن نعرف؟

نسير منفصلين. للجميع ـ جهاز قياس أشعة واحد. لكن في أماكن مختلفة ـ مستويات مختلفة من الإشعاعات: أحدنا يعمل، حيثُ مستوى الأشعة اثنين رينجين، الثاني حيث عشرة رينجينات. ليس عدلا، من جهة، ومن جهة أخرى ـ خوف. ولغز. لكن، أنا لم يكن لديّ خوف. نظرت إلى كل شيء من بعيد...

وصلت مجموعة من العلماء بطائرة حوّامة. في ثياب مطاطية خاصّة، وجزمات طويلة، ونظارات وقاية... روادُ فضاء... تقتربُ امرأة من أحدهم: "من أنت؟" ـ "أنا عالم". ـ "آه، أنت عالم، انظروا إليه كيف يلبس. يتخفّى. أمّا نحن؟". وركضت خلفه ـ تحملُ عصا. خطر في بالي أكثر من مرّة خاطرٌ، بأنّه في يوم ـ ما ستتم مطاردة العلماء والقبض عليهم، مثلما حدث في القرون الوسطى، عندما ألقوا القبض على الأطباء وأحرقوهم. أحرقوهم على المواقد.

رأيت إنساناً، دفنوا بيته أمام عينيه... *(يقف ويقترب من النافذة)* .بقي قبر حديث الدفن... مربّع كبير. دفنوا البئر، وحديقته... *(يصمت)* .نحن ـ دفنّا الأرض... قطعناها، وسحبناها طبقات كبيرة... لقد حذرتكم... لا يوجد شيء بطولي...

نعود مساء في وقت متأخر، لأننا عملنا اثنتي عشرة ساعة في اليوم. دون عطلة في نهاية الأسبوع. الليل فقط للراحة. وهكذا، تسيرُ بنا المدرعة. شخص يمشي على طريق فارغة في القرية. اقتربنا: شاب يحمل سجادة على كتفه... بالقرب سيارة "جيغولي"... وقفنا. الصندوق ممتلئ بالتلفزيونات والهواتف المقطّعة. تستدير المدرّعة وتصدم السيارة: "الجيغولي" خرجت من الخدمة، وأصبحت كعلبة من الصفيح. لم يتفوّه أحد بكلمة...

دفنّا الغابة... نشرنا الشجر قطعاً، بطول متر ونصف، غلفناها بالسيلوفان ورميناها في المقبرة. لم أستطع النوم ليلاً. أغمض عيني: شيء ـ ما أسود يتحرّك، يتقلّب... وكأنه حيّ... طبقاتُ الأرض الحيّة... مع جنادب وعناكب وديدان... لا أعرف منها كائناً، ولا أعرف ما هي مسمّياتها... فقط جنادب وعناكب ونمل. وهي صغيرة وكبيرة، صفراء، وسوداء. متعددة الألوان. قرأت عند أحد الشعراء، بأن الحيوانات ـ شعبٌ منفصلٌ. لقد قتلت العشرات منها، المئات، والآلاف، دون أن أعرف مسمياتها هدمت بيوتها. وأسرارها. دفنتُ... دفنتُ...

عند ليونيد أندرييف، الذي أحبُه كثيراً، قصة عن اليعازر، الذي أطلَّ على ما هو ممنوع. لقد أصبح غريباً، ولن يكون أبداً واحداً من الناس، بالرغم من أن المسيح قد أحياه...

لعل ما قلته كافٍ؟ أفهم أن ذلك مثير للفضول بالنسبة لكم، للذين

ما كانوا هناك، دائماً الأمر يثير الفضول. هناك تشرنوبل واحد في مينسك، وآخر في المنطقة نفسها. وفي مكان ما من أوروبا ـ ثالث. تدهشك في المنطقة نفسها تلك اللامبالاة، التي تكلمنا عنها. التقينا عجوزاً في قرية ميّتة. يعيش وحيداً. نسأله: "ألست خائفاً؟". يجيب: "مما نخاف؟". لا ينبغي أن تعيش دائماً في خوفٍ، لا يستطيع الإنسان.. ستمر فترة من الزمن، وتبدأ حياة إنسانية عاديةٌ. عادية... جيدة... الرجال شربوا الفودكا. لعبوا بورق "الشدة". واعتنوا بالنساء. قيل الكثير عن النقود. لكن ما عملوا هناك من أجل النقود، قلة قدموا من أجلها. عملوا لأنه يجب العمل. قالوا ـ عملنا. ولم نطرح أسئلة.

حلموا بالترفع في الخدمة. مكروا، وسرقوا. أملوا بالفوائد الموعودة: استلام شقة من دون تسلسل الدور. ومغادرة الثكنات. وإرسال الطفل إلى روضة الأطفال، وشراء سيّارة. واحد منّا تجابن، خاف الخروج من الخيمة، ونام في بزة مطاطية مصنّعة يدوياً جبان!.. لقد فصلوه من الحزب. صرخ: "أريد أن أعيش!" كان خليطاً... التقيتُ هناك نساءً، قدمن طواعيةً. حاولن جاهدات. رفضنا، وأوضحنا لهن، بأننا نحتاجُ سائقين، ومتخصصين في اللحام، ورجال إطفاء، لكن وصل خليط... آلافُ المتطوعين... معسكرات طلاب تطوعية و"قِمع" خاص. ليلاً قام بالحراسة الاحتياطيون... جمع الحاجيات... مساهمات نقدية في صندوق المتضررين، مئات الناس عرضوا التبرع بالدم ونقي العظام من دون مقابل... وكان يمكن في هذه اللحظة شراء كل شيء مقابل زجاجة فودكا. شهادة تقدير، إجازة إلى البيت... أحد رؤساء الكولخوزات أحضر إلى معسكر اختصاصيي قياس الأشعة صندوقاً من الفودكا، كي لا يسجلوا قريته في قائمة القرى التي سيتم إخلاؤها، وآخر يعطي صندوقاً من الفودكا كذلك، كي يرحّلوا كولخوزه. لقد وعدوه بشقة

تتألف من ثلاثة غرف في مينسك. لم يدقق أحدٌ عملَ اختصاصيي الأشعة. فوضى روسيّة عادية. هكذا نعيش... شيء ـ ما حُذف من القوائم، تم بيعُه... هذا مقرف من جهة، ولتذهبوا جميعاً إلى الجحيم من جهة أخرى!

أرسلوا طلاباً. نزعوا الكينوا من الحقول. وحرقوا القش. بضعةُ أزواج كانوا صغاراً جداً. اثنان منهم ما زالا يُقتادان باليد... لا يمكن النظر إليهما. أما الأماكن هنا فهي جميلة جداً! ورائعة!. والرعب كان أيضاً أشدّ، بسبب هذا الجمال. يجب على الإنسان الخروج من هنا. الهروب. حتى الشريرو المجرم.

أحضروا الصحف كل يوم. قرأتُ العناوين فقط: "تشرنوبل ـ مكان المآثر"، "المفاعل قد هُزم"، "الحياة مُستمرّة". كان عندنا موجهون سياسيون، نُظِّمت حواراتٌ سياسية. قالوا لنا، يجب أن ننتصر. على من؟ الذرة؟ الفيزياء؟ الفضاء؟ النصر عندنا ليس حدثاً، بل عملية مستمرّة. الحياة ـ صراع. من هنا هذا الحب للفيضانات، والحرائق... والهزات الأرضية... لابدَّ من مكان للفعل، كي "نُظهر الرجولة والبطولة". ولنرفع الراية. قرأ الموجّه السياسي ملاحظات في الصحف حول "الوعي العالي والتنظيم الدقيق". وعن رفع العلم الأحمر بعد الكارثة بعدة أيام فوق المفاعل الرابع. احترق. بعد عدة أشهر أكلتهُ الأشعة العالية. ثم رفعوا العلم من جديد. ثم مرة أخرى... ومزقوا القديم لأنفسهم للذكرى، ودسّوا قطعاً تحت المعطف بالقرب من القلب. ثم أخذوها إلى البيت... ليعرضوها للأطفال بكل فخر... احتفظوا بها... جنونٌ وطنيٌ! لكن أنا أيضاً.... لست أفضل منهم. حاولت أن أتخيل في ذهني، كيف صعد الجنود إلى السطح... انتحاريون. لكنّهم ممتلئين بالأحاسيس... وأولها ـ الإحساس بالواجب، ثانيها ـ الإحساس بالوطن.

ستقولون: الوثنيّة السوفيتيّة؟ لكن المسألة في أنهم، لو وضعوا الراية في يدي، لكنت تسلّقت أيضاً إلى هناك. لماذا؟ لن أجيب. وليس آخر الأمر طبعاً أنني يومها ما كنتُ أخشى الموت... زوجتي لم ترسل لي رسائل. خلال نصف عام لم ترسل حتى رسالة واحدة... *(يتوقف)*.

أترغبون بطرفة؟ هرب موقوف من السجن. اختفى في منطقة الثلاثين كيلومتراً. ألقوا القبض عليه. أخذوه إلى اختصاصيي قياس الأشعة. "إنه يضيء"، إذا، يجب نقله ليس إلى السجن، ولا إلى المستشفى، ولا إلى الناس. *(يضحك)* .أحببنا الطرائف هناك. كوميديا سوداء.

وصلت إلى هناك، والطيور لم تغادر أعشاشها، عُدتُ - والتفاح يتوضع على الثلج. لم يسعفنا الوقت لدفنه كلّه... لقد دفنّا الأرض بالأرض... مع الجنادب والعناكب واليرقات... مع هذا الشعب المنفصل. مع العالم. أكثر انطباعاتي قوة من هناك... عنهم...

لم أحدثكم بالكثير... هي مقاطع... هناك قصة قصيرة عند ليونيد أندرييف[1]: مرّ أحد سكان القدس، من جانب البيت الذي قادوا إليه المسيح، رأى كل شيء وسمع كل شيء، لكن ضرسه كانت تؤلمُهُ. وقع المسيح أمام عينيه، عندما حمل الصليب، سقط وراح يصرخ، ورأى كل ذلك، لكن ضرسه كانت تؤلمه، وهو لم يهرب إلى الشارع. بعد يومين، وعندما توقّفَ ألمُ ضرسه، حدَّثوه، كيف قام المسيح، فكر حينها: "كان يمكن أن أكون شاهداً، لكن ضرسي كانت تؤلمني".

أيعقلُ أن يكون الأمر كذلك طوال الوقت؟ ليس للإنسان أبداً أن

(١) ليونيد أندرييف (١٨٧١ - ١٩١٩) مسرحي وروائي روسي له عديد من الأعمال الشهيرة منها رواية "يهوذا الأسخريوطي".....

يكون بمستوى الحدث العظيم، هو دائماً ليس في مستواه. والدي دافع عن موسكو عام اثنين وأربعين. أما أنّه شارك في التاريخ، فقد عرف بذلك بعد عشر سنوات. من الكتب والأفلام. كان يتذكر فحسب: "جلس في الخندق. أطلق النار. دفنه انفجار. سحبه المسعفون نصف ميّت". وانتهى الأمر.

أما أنا فحينها تركتني زوجتي..."

أركادي فيلين،...

ثلاث مونولوجات عن" الغبار الذي يمشي" و"الأرض التي تتكلّم"

رئيس جمعية هوينيك للصيادين الطوعيين وصيادي الأسماك فيكتور ايوسيفوفيتش فيرجيكوفسكي، وصيادان اثنان ـ أندريه وفلاديمير، رفضا ذكر اسمي عائلتيهما.

ـ أول مرّة أقتل فيها ثعلباً... في الطفولة... المرّة الثانية أيّلاً... أقسمتُ فيما بعد أن لا أقتل أيّلاً، أبداً. إنّ لها عيوناً معبّرة جداً...

ـ نحن، الناس، نفهم شيئاً ما، أمّا الحيوانات فهي ببساطة تعيش. والطيور كذلك.

ـ في الخريف الغزلان حساسة جداً. وإذا كانت الرياح تهبُّ من اتجاه الإنسان، فإنّها ـ لن تقترب. أمّا الثعلب فهو ماكر.

ـ هنا يتسكع أحدهم... يثمل، ثم يحاضر بالجميع. لقد درس في كلية الفلسفة، ثم أودعَ السجن. في المنطقة تلتقي إنساناً لا يصدُق حين يتحدّث عن نفسه أبداً. ربما نادراً. وهذا رجلٌ عاقل... : "إنّ تشرنوبل ـ يقول ـ حدث لمنح الفلاسفة موضوعاتهم". وسمّى الحيوانات "غباراً يمشي"، أمّا الإنسان ـ فـ"الأرض التي تتكلّم" لأننا، نأكل الأرض، أي أننا نبني من الأرض...

ـ المنطقة تجذب... أقول لكم، مثل المغناطيس. آه، سيّدتي ـ سيدتي! من وجِدَ فيها ذات يوم... سينجذب بروحه إليها...

ـ لقد قرأت كتاباً... عن قدّيسين، تحدثوا إلى الطيور والوحوش. أمّا نحن فنعتقد، أنهم لا يفهمون الإنسان.

ـ هيا، أيها الشباب، يجب أن نتحدث بالترتيب...

ـ هيّا ـ هيّا أيها الرئيس. أمّا نحن فسندخّن.

ـ المسألة على الشكل التالي... يستدعونني إلى المكتب التنفيذي للمنطقة ويقولون: "اسمع، أيّها الصياد الرئيس: بقي في المنطقة الكثير من الحيوانات المنزلية ـ قطط، كلاب، ولتجنّب الوباء ينبغي إطلاق النار عليها وقتلها. تصرّف!". استدعيتُ في اليوم التالي الصيادين، جميعهم. وأعلنت لهم، بأن المسألة كذا وكذا... لم يرغب أي منهم بالذهاب، لأن أحداً لم يقدم لنا أية وسيلة للحماية. توجَّهتُ إلى الدفاع المدني ـ لا يوجد لديهم شيء. ولا حتى كمّامة واحدة. تطلّبَ مني ذلك الذهاب إلى مصنع الإسمنت وإحضار الأقنعة من هناك. أقنعة ذات طبقة تصفية رقيقة... تقي من الغبار الإسمنتي... لم يقدِّموا كمّامات.

ـ التقينا عسكرياً هناك. يرتدي قناعاً وقفازات، في مدرعة، أمّا نحن فقد ارتدينا قمصاناً، وربطاتٍ فوق الأنوف. عدنا في تلك القمصان والأحذية إلى البيت. في السابعة مساء.

ـ حشدت فريقين... ووجدت متطوعين.. نظّمت منهم مجموعتين... عشرون شخصاً في المجموعة. وعيّنا مع كل مجموعة طبيباً بيطرياً وشخصاً من المركز الصحّي الوبائي. وكان هناك جرار مع دلو وقلاّب. من العار، أنّهم ما قدِّموا لنا وسائل وقاية، ما فكّروا بالناس...

ـ لكنهم منحوا جائزة ـ ثلاثين روبلاً لكل شخص. في حين ثمن

زجاجة الفودكا يومذاك ثلاث روبلات. استخدمنا لإبطال مفعول الأشعة... ولا أدري من أين ظهرت تلك الوصفات: ملعقةً من سلح الأوز لزجاجة الفودكا. اتركها تتخمر لمدة يومين ثم اشربها. كي لا يتأثر... نشاطنا.. الـ.. عملنا الرجولي. وكانت هناك الأغاني الشعبية، تذكرونها؟ كثيرة. "الزابوروجي"[(١)] ـ ليس سيارة، الكييفليانين[(٢)] ـ ليس رجلاً. إذا أردتَ أن تصبح أباً، لف بيضك بالرصاص". ها. ها...

تجولنا في المنطقة شهرين كاملين، نصفُ القرى في منطقتنا قد أُخليت. وهي بالعشرات: بابتشين، تولغوفيتش... وصلنا أول مرّة ـ الكلاب تتجوّلُ بالقرب من بيوتها. تحرس. تنتظر الناس. فرحت بنا، ركضت نحو الصوت البشري... استقبلتنا... أطلقنا النار عليها في البيت، وفي المستودع، وفي الحديقة. ثم سحبناها إلى الشارع وحمّلناها بالقلاب. طبعاً، كان ذلك مزعجاً. لم تستطع هذه الحيوانات أن تفهم، لماذا نقتلها؟ القتل كان سهلاً. لأنّها حيوانات أليفة... لا تخاف السلاح، ولا تخاف الإنسان... فهي تركض باتجاه الصوت البشري...

ـ زحفت سلحفاة... يا إلهي! جانب بيت فارغ. أحواض السمك في البيت.. والسمك بداخلها...

ـ لم نقتل السلحفاة. وضعناها تحت إطار سيارة الجيب، ومشت السيارة فوقها. درعها العظمي تحمّل السيارة ولم ينكسر. وضعناها تحت الإطار الأمامي لأننا كنا ثملين طبعا. البوابات في أفنية البيوت مفتوحة على مصراعيها... الأرانب تعدو... الداخل كان مقفلاً، أطلقناها. كل

---

(١) هو نوع من السيارات الرخيصة والبسيطة، تُصنعُ في مدينة زوبوروجيا الأكرانيّة/ . المترجمان./

(٢) تعني: الشخص من كييف، نسبةً إلى مدينة كييف عاصمة أوكرانيا/ . المترجمان./

شيء متروك على عجل. مؤقتاً. كيف كان الأمر؟ قرارٌ بالإخلاء: "خلال ثلاثة أيام". أصوات النساء تعلو، الأطفال تبكي، تصرخ القطعان. كذبوا على الأطفال الصغار: "نذهب إلى السيرك". فكرت الناس بالعودة... لم تكن هناك كلمة "للأبد". آخ، سيداتي ـ آنساتي! أقول لكم، حالةُ حرب. القطط تنظر في العيون، والكلاب تعوي، حاولت جاهدة الدخول إلى الباصات. على أنواعها... الجنود يدفعونها. يقذفونها بالأرجل. ركضت لمسافات طويلة خلف الباصات... إخلاء... لا قدّر الله!

ـ الأمر على هذا النحو... كانت هيروشيما عند اليابانيين، وهم الآن يسبقون الجميع. في المرتبة الأولى عالمياً. يعني...

ـ هناك إمكانية لإطلاق النار، حتى على الحيوانات الهاربة. هذا يبعث الحماسة في الصيادين. نحتسي الخمر ـ ونبدأ. في وظائفنا كانوا يعدّوننا على رأس عملنا. يحوّلون لنا المرتبات. كان بإمكانهم طبعاً، أن يرفعوا الأجر لقاء هذا العمل. جائزة ـ ثلاثون روبلاً، إنها ليست تلك النقود، التي كُنّا نتقاضاها في ظل الشيوعيين. فقد تغير كل شيء.

ـ الأمر على هذا النحو... بداية كانت البيوت مختومة، بالأختام الرصاصية. لم ننزع تلك الأختام. تجلس القطة على النافذة، كيف تخرجها؟ تركناها وشأنها. كان ذلك قبل أن يأتي اللصوص ـ ويخلعوا الأبواب، ويحطموا النوافذ، وفتحات التهوية. سرقوا. اختفت أولا آلاتُ التسجيل، والتلفزيونات... ثياب الفرو... ثم أخذوا كل شيء من البيت. بقيت على الأرض ملاعق الألمنيوم... والكلاب المتشبثة انتقلت للعيش داخل البيوت... تدخل ـ تهاجمك... لم تعد تثق بالناس... دخلت ذات مرّة ـ الكلبة وسط الغرفة ترقد ومن حولها الجراء الصغار. أمرٌ مُحزن؟

وهو طبعا، مزعج... صوّبت نحوها... تصرّفنا في الواقع كما أعضاء الحملة التأديبية. كما في الحرب. بالطريقة نفسها... عملية عسكرية... نصل إلى الموقع، نشكّلُ طوقاً حول القرية، لأن الكلاب، عندما كانت تسمع الطلقة الأولى، تهرب. تهرب إلى الغابة. القطط أكثر مكراً، يسهل عليها الاختباء. اختبأ قط في القدر الفخاري... نفضتُه من داخل القدر... من داخل الموقد سحبناها. شعور مقرف... أنت في البيت، وتنطلق القطة من جانب حذاءك بسرعة فائقة، تركض خلفها بالبندقية. إنّها نحيلة، وسخة. وبرُها تجمّع قطعاً، في البداية كان الكثير من البيض، لقد تركوا الدجاج. أكلتِ الكلابُ والقططُ البيضَ، انتهى البيض، أكلتِ الدجاجَ. والثعالبُ أكلت الدجاج، ثمَّ انتقلت للعيش في القرى مع الكلاب. هذا يعني أنّه لم يعد هناك قطط. كانت هناك حالات وجدنا فيها خنازير في المستودع... أخرجناها... ووجدنا الكثير من الأشياء في قبو البيت: مُعلبات الخيار والبندورة... نفتحها ونرميها في الحفرة. لم نقتل الخنازير...

ـ صادفنا امرأة عجوز... أقفلت على نفسها في البيت: لديها خمس قطط وثلاثة كلاب... "لا تضرب الكلب، لقد كان إنسانا" ـ لم تسمح لنا... لعنتنا. أخذناها عنوةً، لكننا تركنا لها قطاً وكلباً. نعتتنا بـ: "قطاع طرق! سجّانين!".

ـ ها. ها... "الجرار يحرثُ تحت التل، والمفاعل يحترق فوق التل، ولو لم يخبِرنا السويديون، لكنّا ما زلنا نفلح الأرض". ها. ها...

ـ قرى فارغة... المواقد وحدها تنتصب. خاتينات[1]! يعيش الجدُ مع

---

(١) جمع خاتين وهي بلدة قرب العاصمة مينسك أباد النازيون أهلها جميعا، ولم يتمكن من النجاة إلا كهلٌ واحد/ . المترجمان./

الجدة. كما في الحكاية. لا يخافان. لو غيرهما لكان فقد عقله! يشعلان جذوع الشجر القديمة. الذئاب تخاف النار.

ـ الأمر كان هكذا... روائح... لم أستطيع معرفة، من أين تنبعثُ تلك الرائحة في القرية؟ ستة كيلومترات يبعد المفاعل... قرية ماسالي... كما في غرفة التصوير بالأشعة. تفوح رائحة يود... رائحة حمض ـ ما... يقولون ـ الإشعاعات لا تبعثُ رائحة. لا أعرف... حدثَ أننا كنّا نطلق النار عن قرب... يعني، الكلبةُ تتمدد وسط الغرفة وحولها الجراء الصغار... تهاجمُني ـ طلقة مباشرة... الجراء تلحس يديَّ، تمازح. اضطررت لإطلاق النار عن قرب... آه، سيداتي ـ آنساتي! كلبٌ أسود... ما زلت آسف عليه حتى الآن. حملّنا شاحنة كاملة، ونقلنا الحيوانات إلى "المقبرة"... أقول لكم بصدق، كان عمق الحفرة عادياً، مع أن المطلوب أن تُحفر عميقاً، على ألا تصل إلى المياه الجوفية، ويُفرَشُ القاعُ بالسوليفان. كنّا نجد مكاناً مرتفعاً... تدركون.. لم يتم التنفيذ حسب الأصول: لم يكن لدينا سوليفان، ولم نبحث طويلاً عن مكان. فالحيوانات لم تكن قد ماتت، بعضها جُرِحَ فقط، إنّها تئن... وتبكي... أفرغناها من الشاحنة في الحفرة، ظلَّ الكلبُ الأسود الصغير يعوي. يتسلّق. ما بقي مع أي منا حتى طلقة واحدة. لا شيء تقضي به عليه... لا طلقة... دفعناه إلى الخلف في الحفرة وطمرناه بالتراب. حتى الآن أحزنُ لأجله.

كانت القطط أقل عدداً من الكلاب. لعلّها لحقت بالناس؟ أو اختبأت؟ الكلب الأسودُ الصغير بيتيٌّ... مدلّل؟...

ـ من الأفضل القتلِ من بعيد، كي لا تلتقي العيون.

ـ تعلّم إطلاق النار بدقّة، كي لا تُجهز على الطريدة فيما بعد.

ـ هؤلاء نحن، الناس، نفهم أمراً ما، أمّا هم، "غبار يتحرّك"، ببساطة.. يعيشون.

ـ الخيول... ساعةَ ينقلُونها إلى المسلخ... تبكي...

ـ وأنا أضيف... الروح في كلِّ كائن حيّ. علمّني الوالد الصيدَ منذ الطفولة. الغزال الجريح... يرقد... يريد أن ترحمه، أما أنت فتجهز عليه. لديه في اللحظة الأخيرة، نظرة واعية، كنظرة الإنسان تقريبا. إنّه يكرهك. أو صلاة: أريدُ أيضاً أن أعيش! أريد أن أعيش!.

ـ تعلّم! أقول لكم، الإجهازُ على الطريدة الجريحة، أقلّ متعة، من قتلها مباشرة. الصيد ـ رياضة، نوع من الرياضات. لماذا، لا يؤنّب أحدٌ صائدي الأسماك، أمّا الصيادون فالجميع يؤنبّهم. ليس هذا عدلاً.

ـ الصيد والحرب ـ نشاطات رئيسة للرجال. منذ القدم.

ـ لا أستطيع الاعتراف لصغيري أين كنت؟ ماذا فعلت؟ إنّه يعتقد حتى الآن أنّ بابا هناك، يدافع عن أحد ـ ما. أدّى واجبه العسكري! عرضوا بالتلفزيون: آليات عسكرية، وجنوداً. الكثير من الجنود. سألني ابني: "كنت، أنت، كجنديّ!".

ـ رافقنا مصوّر من التلفزيون... تذكرون؟ مع الكاميرا. لقد بكى. إنّه رجل... لكنه بكى.. أراد أن يرى الخنزير ذا القرون الثلاث...

ـ ها. ها.... ثعلب ينظر: يتدحرج في الغابة كولوبوك[1]: "كولوبوك... إلى أين تزحف؟" ـ "أنا لست كولوبوك.. أنا قنفذ تشرنوبل". ها. ها. وكما يقال، الذرّةُ السلمية ـ في كل بيت!

---

(١) رغيف خبزٍ كروي صغير، تدور حوله حكاية شعبيّة روسيّة، وقد استثمرته أفلام الصور المتحركة السوفيتيّة/ . المترجمان./

ـ أقول لكم، إنّ الإنسان، يموت، كالحيوان. أنا شاهدت ذلك... الكثير من المرات... في أفغانستان... أصابوني في بطني، أستلقي تحت الشمس. حرّ لا يطاق. أريد أن أشرب!! "سأنفق ـ أفكّر ـ مثل دابةٍ". وأقول لكم، إن الدم يسيل بالصورة نفسها. وتتألّم...

ـ الشرطي، الذي رافقنا... اختلّ عقله. رقد في المستشفى... تألّمَ لأجل القطط السيامية، إنّها غالية الثمن في البازار، جميلة. ذلك الشاب...

ـ تسير بقرة مع عجلها. لم نطلق النار. ولم نطلق النار على الخيول أيضاً. تخافُ الذئابَ، لم تخفْ من الإنسان. الخيلُ يمكن أن تدافع عن نفسها بشكلٍ أفضل. أوّل ما قتلتِ الذئابُ هي الأبقار. حسب شريعةِ الغاب.

ـ نقلوا قطعان الماشية وباعوها في روسيا. أما العُجول المصابة بسرطان الدم فقد ذبحوها وباعوها بسعر رخيص.

ـ العجائز هم أكثر من يثيرُ الأسى... كانوا يقتربون من سياراتنا: "أيها العزيز، انتبه من فضلك لبيتي، هناك". يضع المفتاح في يدي: "خذ البذلة، والقبعة". يقدم نقوداً... "كيف حال كلبي هناك؟". لقد أطلقوا النار على الكلب، والبيت نهبوه. وهم لن يعودوا إلى هناك أبداً. كيف يمكن قول ذلك؟ لم آخذ المفاتيح. لم أردْ الكذب. الآخرون أخذوا: "أين وضعت السماغون؟ في أي مكان؟". وأخبرهم الجد.. وجدوا كميات لا بأس بها.

ـ طلبوا اصطياد خنزير بريّ للعرس. توصية! الكبد ينزلق من اليد بسبب لزوجته... لكنهِ طلبهم في جميع الأحوال... للعرس والتكليل.

ـ نطلق النار أيضاً لأجل العلم. ذات مرّة أوصوا بأن نصطاد لهم:

أرنبين، وثعلبين، وغزالين. جميعها ملوّثة. ونصطاد لأنفسنا مع ذلك، ونأكل. في البداية خفنا، أما الآن فقد تعوّدنا، يجب أن نأكل طعاماً ما، لا يتسع القمر لنا جميعاً. فإلى كوكب آخر.

ـ أحدهم اشترى قبّعة من فرو الثعلب في البازار ـ أُصيبَ بالصلع. أرمني اشترى بندقيّةً آليةً بسعر زهيد من "حفار قبور" ـ فمات. أخاف أحدهما الآخر.

ـ أما أنا فلم يحدث لي ما يسوء، لا في روحي، ولا في رأسي... آه. سيداتي ـ آنساتي!. أطلقت النار. إنّه عملي.

ـ لقد تحدثت إلى السائق، الذي نقل البيوت من هناك. سرقوا المنطقة. باعوها. بالرغم من أن ذلك لم يعد مدرسةً، ولا بيتاً ولا روضةَ أطفال، بل مواقع منمّرة لإبطال مفعول الأشعة. ينقلون كل شيءٍ من هناك! التقيتهُ إمّا في الحمّام الجماعي، أو بجانب كشكٍ لبيعِ البيرة؟ لا أذكر بالضبط. حدّث يقول: يحضرونَ إلى المكان بشاحنة كاماز، وخلال ثلاث ساعات يفككون البيت ويتهافتُ عليه أصحاب المزارع بالقرب من المدن. يقطعونه إلى أجزاء. المنطقة اشتروها لبناء المزارع الصيفيّة. يستلمون النقود لقاء ذلك، إضافة لمأكلهم ومشربهم.

ـ يوجد وسط إخوتنا متوحّشون... صيادو ـ الوحوش المفترسة... أما الآخرين فيحبون التجول في الغابة فقط. ويصطادون الوحوش الصغيرة. والطيور.

ـ أقول لكم... كم من الناس عانوا، ولا أحد يحاسبُ على ذلك. زجّوا في السجن إدارةَ المحطةِ، وانتهى... في ذلك النظام... من الصعب جداً ـ القول من كانَ المذنب.. إذا ما تلقّيتَ أمراً من الأعلى، فماذا أنت فاعل؟ ـ التنفيذ فقط. لقد كانوا يُجرون اختباراً هناك. قرأتُ

في الصحف، أن اختصاصيي البلوتونيوم العسكريين كانوا يفعلون شيئاً ماهناك... من أجل القنابل النووية... لذلك حدث الانفجار... لنطرح ببساطة السؤال التالي: لماذا ـ نشرنوبل؟ لماذا عندنا، وليس عند الفرنسيين أو الألمان؟

ـ لم أستطع أن أنسى أمراً واحداً... من المؤسف، أنّه لم يبقَ مع أحد حينها، ولو طلقة، لم يبقَ لدينا ما نُطلِقُه. على ذلك الكلب الصغير... عشرون شخصاً... وما من طلقةٍ في نهاية اليوم...

مونولوج: لا نستطيع العيش من دون تشيخوف وتولستوي

"لأيّة غايةٍ أصلّي؟ تسألونني: لأية غايةٍ أصلّي؟ أنا لا أصلّي في الكنيسة. بل وحدي... صباحاً أو مساءً... وعندما ينام الجميع في البيت...

أريد أن أحب! أنا أحب! أنا أصلّي لحبّي! عليّ... *(تقطع الجملة. أرى أنّها لا تريد التحدث)* أن أتذكّر؟ قد يكون من الضروري - لمختلف ما قد يحدث - دفع ذلك عن نفسي... إبعاده عنيّ... لم أقرأ مثل تلك الكتب... ولم أشاهد في السينما... في السينما شاهدت الحرب. يتذكر جدي وجدتي، بأنه لم تكن لديهما طفولة، كانت حرب. طفولتهما - حرب، أمّا طفولتي - تشرنوبل. أنا من هناك... هكذا اكتبوا، لكن ما ساعدني أي كتاب، أو فسّر لي. لا المسرح، لا السينما. يمكنني التعامل مع الأمر من دونها. بنفسي. نحن نعيشُ ذلك بأنفسنا، لا نعرف، كيف نتصرّف مع هذا الأمر. لا أستطيع بعقلي فهم ما حدث. أمي بصورة خاصة ارتبكت، إنها تعلّم اللغة الروسية والأدب في المدرسة، وقد علمتني دائماً أن أعيش حسب الكتب. ثم فجأة لا توجد مثل هذه الكتب... ارتبكت ماما... لا تستطيع العيش من دونها. من دون تشيخوف وتولستوي...

هل أتذكر؟ أريد ولا أريد أن أتذكر... *(إمّا أنّها تستمعُ لنفسها، أو*

تجادلها) .إذا كان العلماء لا يعرفون شيئاً، والكتّاب كذلك، فسنساعدهم حينها بحياتنا وموتنا. هكذا تعتقدُ أمّي... وأنا أردت ألاّ أفكر بذلك، أريد أن أكونَ سعيدةً. لماذا لا أستطيع أن أكون سعيدة؟

عشنا نحن في مدينة بريبيات، بالقرب من المحطة الذريّة، ولدتُ وترعرعت هناك. في بيت رائعٍ كبيرٍ، على الطابق الخامس. النوافذ تطلُّ ـ على المحطة. في السادسَ والعشرين من نيسان (أبريل)... حدثنا الكثيرون فيما بعد، بأنهم سمعوا بالتأكيد صوت انفجار... لا أعرف، لم يلاحظه أحدٌ في أسرتنا. استيقظتُ صباحاً، كالعادة ـ إلى المدرسة. سمعت هديراً. وشاهدت من النافذة، كيف تعلَّقت فوق سطح بنايتنا، طائرةٌ حوّامةٌ. هيا، هيا! سيكون لدينا ما نتحدث عنهُ في الصف! هل عرفتُ... أنّه بقي يومان فقط... من حياتنا السابقة... بقي يومان فقط ـ آخر يومين في مدينتنا. لم تعد المدينة موجودة، ما بقي، ليسَ مدينتنا. أتذكر كيف كان جارنا يجلس على الشرفة ويراقب الحريق بالمنظار. المسافة على ما أعتقد ثلاثة كيلومترات، بخط مستقيم. أمّا نحن ـ الفتيات والفتيان... فقد انطلقنا نهاراً على الدراجات الهوائية إلى المحطة، من لم يكن يملكُ دراجة هوائية، حسدنا. لم يؤنبنا أحد. لا أحد. لا والدانا، ولا المعلم. لم يبقَ حتى موعد الغداء أي صيّاد سمك قرب ضفّة النهر، عادوا ووجوههم سوداء، خلال شهر كاملٍ في سوتشي[1] لن تصلَ إلى تلك الدرجة من السُمرة. حمامٌ شمسيٌّ نووي! ارتفع الدخان فوق المحطة ليس أسود، ولا أصفر، بل أزرق سماوي. لم يؤنبنا أحد... التربية على ما يبدو هكذا، الخطر يمكن أن يكون حربيّاً فقط: انفجارٌ من اليمين، وانفجار من اليسار... أمّا هنا ـ فحريق عاديّ،

---

(١) مدينة ساحليّة روسيّة/ . المترجمان./

يطفئه رجال إطفاء عاديين... كنّا نحن الصغار نلعب: "اصطفوا طوابير طويلة في المقبرة. الأطول ـ هو الذي يموت أولا". أنا ـ صغيرة. لا أذكر الخوف، لكن أذكر أشياء غريبة كثيرة. ليست عادية... حدثتني صديقتي، كيف أنَّها وأمّها دفنتا في فناء البيت نقوداً وقطعاً ذهبية، وخافتا نسيان المكان. عندما تقاعدت من العمل أهداها زملاؤها سموفر، لا أدري لماذا أكثر ما كان يقلقها هذا السموفر وميداليات جدّي، وآلة الخياطة القديمة ماركة "سنجر". أين نخفيها؟ قريباً سيتم ترحيلنا... أحضر بابا كلمة "إخلاء" من العمل: "سنغادر في عملية إخلاء". كما في الكتب العسكرية... جلسنا في الحافلة، يتذكر بابا، بأنه نسي شيئاً ـ ما. يسرع إلى البيت. يعود ومعه قميصاه الجديدين... على علاّقة ثياب... كان ذلك غريباً... لا يشبه تصرفات بابا... جلس الجميع في الحافلة صامتين، نظروا في النافذة. منظر الجنود بدا وكأنّهم من عالم آخر، ساروا في الشوارع في مريلاتٍ بيضاء وكمامات مموّهة. سار الناس نحوهم يسألون: "ماذا سيحصل لنا؟". غضبوا قائلين: "لماذا تسألوننا نحن، اسألوا هناك، حيث سيارة "الفولغا" البيضاء، هناك القيادة".

نغادر... والسماء زرقاء ـ زرقاء. إلى أين نحن ذاهبون؟ في الأكياس التي نحملها ـ كعك عيد الفصح، والبيض المنقّش. إذا كانت هذه هي الحرب، فأنا تصورتها وفق الكتب غير ذلك. انفجار إلى يمينك وانفجار إلى يسارك... قصف... تحرّكنا ببطء، كان القطيع يعيقنا. كانوا يسوقون الأبقار في الطريق، والخيول... كنتَ تشمُّ رائحة الغبار والحليب... السائقون يشتمون، ويصرخون على الرعاة: "تقودونها في الطريق يا...؟! تثيرون الغبار المشع! بإمكانكم سوقها في الحقول، وفي الأرض المحروثة". الرعاةُ ردّوا لهم الشتائم، وتذرّعوا بعدم رغبتهم في أن

تدوس البهائم الذرة الخضراء، والزروع. ما كان أحدٌ يتوقع، بأننا لن نعود. لم يكن مطروحاً أبداً، أن لا تعود الناس إلى بيوتها. شعرت بدوارٍ خفيف في رأسي، وحكّة في الحنجرة. لم تبكِ النساء العجائز، بكت الصبايا. بكت أمي...

وصلنا إلى مينسك... وكنا قد اشترينا التذاكر في القطار، من إحدى المرافقات بثلاثة أضعاف سعرها. أحضرتِ الشاي للجميع، وقالت لنا نحن: "أحضروا كؤوسكم أو فناجينكم، هيّا". لم نستوعب الأمر مباشرة... ألا تكفي الكؤوس في القطار؟ لا! إنّهم يخافوننا... "مِن أين؟" - "من تشرنوبل". ويسير الشخص ملازماً الجدار وهو يعبر من جانب الكوبيه، لم يسمحوا للأطفال أن يخرجوا ويعدوا بالقرب منّا. وصلنا إلى مينسك، إلى صديقة ماما. تخجل ماما حتى الآن، أننا تمدّدنا بثيابنا "القذرة" وأحذيتنا، في شقة أناس آخرين. لكنهم استقبلونا، وأطعمونا. أسفوا لوضعنا. عرّج الجيران: "عندكم ضيوف؟ من أين؟" - "من تشرنوبل". وهم أيضاً ابتعدوا حذرا...

سمحوا لأهلي، بعد شهر الذهاب إلى المنطقة وتفقد الشقة. أحضروا معهم بطانيّة شتوية، ومعطفي الخريفي والمجموعة الكاملة لرسائل تشيخوف، أكثر ما تحبه ماما. أعتقدُ أنها في سبعة أجزاء. جدتي... جدتنا... لم تستطيع فهم، لماذا لم يحضروا علبتين معبأتين بمربّى الفريز (الفراولة) التي أحبها أنا. إنّها محكمة الإغلاق... بأغطية معدنية... اكتشفنا على البطانية "بقعة"... غسلتها ماما، ونظفتها بالمكنسة الكهربائية، دون نتيجة. أخذتها إلى المغسل الكيميائي... مع ذلك بقيت تضيء... تلك "البقعة"... اضطررنا لقطعها بالسكين. أنا اعتدت على المعطف والبطانية، وأعرفهما جيداً... ومع ذلك لم أستطع النوم تحت تلك البطّانيّة... أو ارتداء ذلك المعطف... لم تكن لدينا نقود

لشراء بدائل لهما، لكنني لم أستطعْ... لقد كرهت هذه الأشياء! وهذا المعطف، لم أخفْ، افهموني، كرهتها! كل ذلك يمكن أن يقتلني! ويقتل أمّي! شعور بالعداء.... لم أستطع استيعاب الأمر... تحدثوا في كل مكان عن الكارثة: في البيت، وفي المدرسة، وفي الباص، وفي الشارع. قارنوا ما حدث بهيروشيما. لكن لم يصدّق أحد. كيف تصدّق إذا لم تفهم؟ مهما حاولت أن تستوعب ومهما جرّبت ذلك فلن تفلح. أتذكر: نغادر مدينتنا ـ السماء زرقاء ـ زرقاء...

الجدة... لم تعش طويلا في المكان الجديد. كانت تحنُّ إلى الديار وتشتاقها. طلبت قبل الموت: "أريد حمّيضاً!" لم يسمحوا لها في السنوات الأخيرة أن تأكل الحمّيض، فهو ماصٌ للأشعة. نقلناها للدفن في مسقط رأسها، قرية دوبروفنيكا... هناك في المنطقة الملوثة، المسيّجة بالشريط الشائك. وقف الجنود يحملون رشاشات، لم يسمحوا بالدخول إلى ما وراء الشريط الشائك، إلاّ لكبار السن... بابا، وماما... والأقرباء... منعوني: "يمنع دخول الأطفال". فهمت أنني لن أستطيع زيارة جدتي أبداً... فهمت... أين يمكن القراءة عن ذلك؟ أين كان ذلك وفي أي زمن؟ اعترفت ماما: "تعرفين، أنا أكره الورود والأشجار". قالت ذلك وخشيتْ نفسَها، لأنها ترعرعت في قرية وتعرف كل ذلك وتحبُّه... في السابق... حينَ كنّا نتنزَّهُ خارج المدينة، كانت تُسمّي كل وردة، وكل نوع من أنواع العشب. الأم ـ زوجة الأب... زوبروفكا... وضعوا في المقبرة.... وعلى العشب... مفرش المائدة، ووضعوا عليه الفودكا، والمقبلات... فحص الجنود بمقياس الأشعة... فرموا كل شيء. ودفنوه في الأرض. العشب، والورود ـ كل ذلك "ارتفع مؤشّرُ الجهاز إلى الأعلى". إلى أين أحضرنا جدتي؟.

أرغبُ بالحب... لكنني أخاف... أخاف أن أحب... لديَّ خطيب، وقد قدمنا أوراق الزواج إلى المحكمة. هل سمعتم يوماً ـ ما عن "هيباكوسي" الهيروشيميين؟. إنهم من ظلّوا أحياءً بعد هيروشيما... هَؤلاء يمكن أن يعوّلوا على الزواج بعضهم من بعض. لا يكتبون عن ذلك عندنا، ولا يتحدثون. بينما نحن... فـ" هيباكوسي" تشرنوبل. اصطحبني إلى بيته، وعرفني إلى أمّه... والدة جيّدة... تعمل اقتصاديّة في المصنع. ناشطة اجتماعية. تشارك في التجمعات المعادية للشيوعيّة، وتقرأ كتب سولجينيتسن. وهذه الأم الجيدة، عندما عرفت بأنني من أسرة تشرنوبوليّة، من النازحين، فوجِئتْ وقالت: "عزيزتي، وهل بإمكانك الانجاب؟". لدينا ـ طلب في المحكمة... توسّل قائلاً: سأترك البيت. ونستأجر شقة"، ـ لكن في أُذنيَّ ما زلت ترنُّ عبارة: "عزيزتي، يوجد لدى البعض خطيئة إنجاب الأطفال". نعم خطيئة أن تُحِب...

قبله كان لي صبيٌّ آخر. رسّام. أردنا الزواج أيضاً. كانت الأمورُ على ما يرام حتى حصلت حادثة. مررت به في المرسم وسمعت، كيف كان يصرخ في الهاتف: "كم أنت سعيد الحظ!، لا تتصوّر، كم أنت سعيد الحظ!". عادة، هو هادئ، وحتى بارد، لا إشارة تعجّب في حديثه.... وفجأة!!. ماذا تبيّن؟ صديقُهُ يعيش في سكن طلابي. ينظر في الغرفة المجاورة، فيجدُ فتاةً مشنوقةً، تعلّقت في نافذة التهوية... وبالجوارب... ينزلها... ويستدعي سيارة "الإسعاف"... وهذا يختنقُ وهو يرتجف: "لا يمكنك أن تتصوّري، ماذا شاهد! ماذا عانى! لقد حملها على يديه... وكان الزبد على شفتيها...". لم يذكر الفتاة الميتة، لم يأسف لها. المهم بالنسبة له أن يشاهدها ويتذكرها فقط... كي يرسمها فيما بعد... تذكرت ساعتها كيف كان يستجوبني، ما لون الحريق في المحطة، وهل

شاهدتُ القططَ والكلابَ المقتولة بالرصاص، كيف كانت ممدَّدةً في الشوارع؟ كيف بكى الناس؟ وهل شاهدتُ كيف كانوا يموتون؟.

بعد تلك الحادثة.. لم أستطيع البقاء معه أكثر...... والإجابة عن أسئلته... (*بعد الصمت*) لا أدري، أريد أن ألتقيكِ مرة أخرى؟ أتصوّر، أنك تنظرين إليّ، مثله. تراقبين فحسب. وتتذكرين. تُجرى تجربةٌ ما علينا. الجميع مهتم. لا أستطيع التحرر من هذا الشعور... ولا تعرفين، لأيّ سبب تنزَّلُ هذه الخطيئة؟ خطيئة ولادة الأطفال... أنا لست مذنبة بشيء.

وهل أكونُ مذنبة، لأنني أريدُ أن أكونَ سعيدة...".

كاتيا ب.

مونولوج عن أن القديس فرانسيس وعظ الطيور

"هذا ـ هو سريّ. لا أحد يعرفُ عن ذلك. حدّثت بالأمر صديقي فقط...

أنا ـ مصوّر سينمائي. سافرت إلى هناك، مُتذكراً ما علمونا إياه: الحرب تجعلك كاتباً حقيقياً، وما إلى ذلك. الكاتب المحبَّب ـ همنغوي، والكتاب المفضّل ـ "وداعا، أيها السلاح!" وصلت إلى المكان. الناس يقلبون تراب حدائق المنازل، وفي السهول ـ الجرارات، وآلات البذار. ماذا أصوّر، ـ غير مفهوم. لا شيء ينفجر في أي مكان...

التصوير الأول. علّقوا تلفزيوناً على الجدار، في النادي الزراعي، وجمعوا الناس. استمعوا إلى غورباتشوف: كل شيء على ما يرام، وكل شيء تحت السيطرة. كانت تجري في هذه القرية التي صوّرنا فيها، عمليةُ إبطال مفعولِ الأشعة. غسلوا السقوف، استقدموا تراباً نظيفاً. كيف يمكن غسل الأسقف، إذا كان السقف عند امرأة يسرّبُ الماء؟. كان يجب جرف الأرض تماماً بالمجرفة. جرف الطبقة الخصبة كلّها. أسفل هذه الطبقة رمل أصفر. امرأة تنفّذ تعليمات المجلس الزراعي، تجرف الأرض بالمجرفة وترمي التراب، أمّا السماد فتجرفه عن الأرض. أمرٌ مؤسف، لم أصوّر ذلك... أينما اتجهت: "آ، مصوّرو السينما. الآن سنجد لكم أبطالا". الأبطال ـ عجوزٌ وحفيده، اقتادا أبقار الكولخوز من حول تشرنوبل نفسه لمدة يومين. بعد التصوير ناداني الفني الزراعي إلى

خندق ضخم، هناك يدفن البلدوزر البقر. لم أصوّر رؤوسها. وقفت وظهري للخندق، والتقطت مقطعاً، كما في أفضل الأفلام الوثائقية الوطنية: سائقو البلدوزارات يقرؤون جريدة "البرافدا"، عنوان بأحرف كبيرة: "البلد لا تترك أحداً في محنة". وحالفني الحظ كذلك: أنظرُ ـ لقلقٌ يحطّ على الأرض. رمز! سننتصر مهما كانت المحن! الحياة مستمرّة...

الطرق زراعية. غبار. لقد أدركت، بأنّ ذلك ليس غباراً عادياً، بل غبار مشعٌّ. سترتُ آلة التصوير السينمائية، كي لا تتغبّر، هي والعدسات. كان شهر أيّار (مايو) جافاً ـ جافاً. كم من الإشعاعات ابتلعنا، لا أدري. التهبت بعد أسبوع غُددي اللمفاوية. لكنّني وفّرتُ بالفيلم، مثل الطلقات، فالسكرتير الأول للجنة المركزية للحزب سلونكوف سيحضرُ. إلى أي مكان بالتحديد، لم يعلن عن ذلك أحدٌ، لكننا توقعنا.. يوم أمس، على سبيل المثال، كنّا نسير في الطريق وكان الغبار كالأعمدة، اليوم يفرشون الإسفلت، طبقتين ـ ثلاث طبقات! واضح: أين ينتظرون القيادة العليا! صّورت هذه القيادة فيما بعد، لقد ساروا على إسفلت جديد متسوٍ ـ متسوٍ. لم يخرجوا عنه جانبا ولو سنتمتراً واحداً! هذا موثّق عندي في الفيلم، لكن لم أدخل ذلك في النص...

لم يفهم أحدٌ شيئاً، وهذا ما كان مخيفاً جداً. اختصاصيو قياس الأشعة يطلقون أرقاماً، ونقرأ في الصحف أرقاما أخرى. حسناً، بدأت تتوضح الصورة ببطء. أها. أها... تركتُ في البيت طفلاً صغيراً، وزوجتي الحبيبة... كم ينبغي أن أكون غبياً، لأجد نفسي هنا! سيقدمون لي ميدالية... ولكن زوجتي ستهجرني... النجاة ـ بالفكاهة. لقد أفسدونا بالنُكت. سكن مشرّدٌ في قرية مهجورة، وهناك بقيت أربع نساء. يسألونهن: "كيف رجُلكُم هناك؟" ـ "يتردد هذا الكلب أيضاً إلى قرية

أخرى". وإذا جرّبتُ أن أكون صريحاً حتى النهاية... أنت ـ هنا الآن. وأصبحت تعرف ـ تشرنوبل... الطريق مفروشة... والجداولُ تعدو، تعدو الجداول ببساطة. وهذا ما حصل... الفراشات تطير... امرأة جميلة تقف عند النهر... وهذا قد حصل... لقد شعرتُ بشيء يشبه ذلك، عندما مات إنسان قريبٌ إليَّ. شمس... وموسيقى خلف الجدار عند أحدهم... السنونو تغرد تحت المظلة... وهو قد مات... هطل مطر... وهو قد مات... هل تفهمون؟ أريد أن ألتقط بالكلمات أحاسيسي، وأنقلها، كما كانت عندي في تلك الفترة. أن أجد نفسي في أبعادٍ أُخرى...

شاهدت شجرة تفاح مزهرة وبدأت أصوّر... النحل يطنُّ، أبيض، لون العرس... الناس تعمل ـ من جديد، الحدائق تزهر... أثبّتُ الكاميرا بيديَّ، لكن لا أستطيع أن أفهم... ليس الأمرُ طبيعياً! العرضُ لا بأس به، الصورةُ جميلة، لكن الأمرَ ليس طبيعياً. وفجأة أكتشِفُ: لا أشمّ رائحة. الحديقة تزهر، لكن لا توجد رائحة! عرفت فيما بعد، بأنّ ردَ فعلٍ يصدرُ عن الأجسام عند وجود إشعاعات عالية، تتعطل بعض أجهزتها. أمي في الرابعة والسبعين من عمرها، وهي كما أذكر، شكتْ بأنّها لا تشمُّ الرائحة. واعتقدتُ، أن ذلك يحصلُ لي الآن. أسأل زملائي في المجموعة، كنّا ثلاثة: "كيف رائحةُ شجرةِ التفاح؟" ـ "لا تنبعث منها أية رائحة". حصل لنا كربٌ ما... الليلك لا رائحة له... الليلك! ظهر شعور لدي: أن كل ما حولي ليس حقيقة. أنا ـ وسط ديكور... وأنّ وعيي غير قادر على استيعاب ذلك، لا يوجد شيء يستند إليه. المخطط غير موجود!.

من الطفولة... جارتنا، التي كانت واحدة من الأنصار، حدثتنا، كيف استطاع فصيلهم أثناء الحرب أن يفلتَ من الحصار. كان على يدها طفل صغير، عمره شهر، ساروا في المستنقع، دوريّاتٌ من حولهم...

بكى الطفل... كان يمكن أن يدلَّ عليهم، ولكانوا اكتشفوهم، اكتشفوا الفصيل بأكمله. خنقته. تحدثت عن ذلك من بعيد، وكأنّها لم تكن هي، بل امرأة أخرى فعلت ذلك. والطفل غريب. لماذا تذكَّرَتْ ذلك، لقد نسيتُ. لكنني أتذكر بوضوح شيئاً آخر، خوفي: ما الذي فعلتْهُ؟ وكيف استطاعت؟ تراءى لي أن فصيل الأنصار كلّه، خرج من الحصار من أجل ذلك الطفل، كي يتم إنقاذه. وهنا أسمعُ أنهم كي يظلّوا أحياء معافين ورجالاً أقوياء، خنقوا الصغير. بماذا يكمُنُ معنى الحياة عندئذٍ؟ لم أكن أرغب بعد ذلك أن أعيش. كان يصعب عليّ وأنا طفل النظر إلى تلك المرأة، بعد أن عرفت عنها ذلك... وعن الإنسان، بشكلٍ عام، أمراً يثير الرعب. وكيف نظرت هي إليّ حينها؟ *(صمت لبعض الوقت)*. لهذا السبب لا أريد أن أتذكر... عن تلك الأيام في المنطقة... أخترع لنفسي تفسيرات مختلفة. ليس لدي الرغبة في فتح ذلك الباب... هناك أردت إدراك، أين أنا الحقيقي، وأين غير الحقيقي. كنتُ حينها قد أصبحتُ أباً. طفلي الأول ـ صبي. عندما أصبح لديّ ولد، لم أعدْ أشعرُ بالخوف من الموت. معنى حياتي انبسط أمامي..

ليلاً في الفندق... أستيقظ ـ ضجيج رتيب خلف النافذة، ومضات زرقاء غريبة. أفتح الستائر: تسير في الشارع عشرات سيارات الجيب بشارات الصليب الأحمر والأضواء القويّة الوامضة. بهدوء تام. أصبت بما يشبه الصدمة النفسية. سبحتْ في ذاكرتي لقطاتٌ من فيلم... وانتقلت مباشرة إلى الطفولة... أحببنا، نحن أطفال ما بعد الحرب، الأفلام الحربية. والمقاطع الصعبة... ورعبُ الطفولة... كل من حولك خرج من المدينة، وبقيت وحيداً، وعليك حتى أن تتخذ قراراً. ما هو القرار الأصح؟ تتصنّعُ الموت؟ أو كيف؟ وإذا توجّب عليك القيام بعمل ما، فماذا أنت فاعل؟

علّقت في مركز مدينة خوينيك لوحة شرف. أفضل أناس المنطقة. ذهبتُ إلى المنطقة الملوثة وأخرجت الأطفال من الروضة، السائق ـ ثمل، أليس اسمه في لوحة الشرف. أصبح الجميعُ يهتمون بأنفسهم فحسب. وجاء الإخلاء ـ الإخلاء. أول ما ينقلُ من المكان هم الأطفال. أقلوهم في حافلات كبيرة. أجد نفسي، أصوّر كما شاهدت في الأفلام الحربية. وألاحظ في الوقت نفسه، بأنني لست وحدي، الناس الذين يشاركون في كل هذه العملية، يتصرفون التصرفات نفسها. إنهم يتصرّفون بتلك الطريقة، إذا ما كنتم تذكرون، كما في الفيلم المفضل "وتطير اللقالق" : دمعة نادرة في العيون، كلمات وداع مختصرة... التلويح بالأيدي. تبيّن أننا حاولنا أن نجد طريقة للتصرف، معروفة بالنسبة لنا. حاولنا التوافق مع شيء ـ ما. طفلة تلوّح بيدها لأمّها، وكأن كل شيء على ما يرام، إنّها شجاعة. نحن سننتصر! نحن... نحن ـ هكذا...

فكرت، أنني سأصل إلى مينسك، لأجدَ الإخلاء أمامي. كيف سأودع أسرتي ـ زوجتي، وابني؟ تصورت بما في ذلك هذه الإيماءة: سننتصر! نحن ـ محاربون. أذكر أن والدي، كان يلبس الثياب العسكرية مع أنّه لم يكن عسكرياً. التفكير بالنقود ـ بقية عادات قديمة، التفكير بحياتنا ـ انعدام للوطنية. الحالة العادية ـ الجوع. إنّهم أهلي، تحملوا ونجوا من الدمار، ويجب أن نتحمل وننجو. بطريقة أخرى، لن تصبح رجلاً حقيقياً. علمونا أن نحارب ونتعايش مع أية ظروف. أنا نفسي، بدتْ لي الحياة المدنيّة، بعد الخدمة العسكرية، عذبة. خرجنا ليلاً مجموعات نتجول في الشوارع بحثاً عن الإثارة. قرأت في طفولتي كتاباً رائعاً: "المنظّفون"، نسيت اسم الكاتب، هناك اصطادوا المخربين والعملاء، إثارة! صيد! هكذا تربينا نحن، إذا كان هناك كل يوم عمل وغذاء جيد ـ لا يمكن التحمل، وليس ذلك مريحا!

سكنّا في سكن جماعي تابع لمعهد متوسط مع العاملين على إزالة آثار الكارثة. إنهم فتيان. أعطوهم حقيبة فودكا - ليخرجوا الأشعة. تبيّن فجأة، بأنّ فريقاً طبيّاً يقطن في السكن نفسه. وجميع أفراده من الفتيات. قال الرجال "سنمضي وقتاً ممتعاً!". ذهب شابان، وعادا بسرعة وعيونهما مفتوحة ودَهشة... ينادوننا... الصورة: الفتيات يسرن في الممر... تحت القمصان العسكريّة الفضفاضة يقدّمن سراويلاً طويلة واسعة تجرّ خلفهن على الأرض وتُبدي من تحتها كلاسين ذات ربطات. لا أحد يخجل. إنّها قديمة مستعملة من قبل، وليست مقاساتها وأطوالها مناسبة، يتدلين وكأنهنّ على علاّقات ثياب. بعضهن ينتعل صنادل، وبعضهنّ جزمات عسكريّة فضفاضة. ومن الأعلى فوق القمصان العسكريّة بلوزات خاصة مطاطيّة مشرّبة بمحلول كيميائي - ما... رااااائحة... بعضهن ينمن فيها ليلاً. مقرفٌ النظر إليهن... ولا يشبهن الممرضات، أحضروهنَّ من المعهد، من قسم التربية العسكرية. وعدوهُنَّ بالعودة بعد يومين، وعندما وصلنا نحن، كان قد مضى على وجودهن هنا شهر. قلن أنهم أخذوهم إلى المفاعل، وهناك نظروا بما فيه الكفاية إلى الحروق، أنا سمعت عن الحروق فحسب.. لكني الآن أراها - تتسكّعُ في السكن الجماعي، كما في الحلم...

لقد كتبوا في الصحف، بأنّه من حسن الحظ، إنّ الريح هبّت باتجاه آخر... ليس لجهة المدينة... ليس باتجاه كييف... ما كان أحد يعرف... أو يتوقع، بأنّها كانت تهب باتجاه بيلاروسيا... عليّ وعلى يوري ابني. نحن في ذلك اليوم تجوّلنا في الغابة، كنا نجمع بعض الخضار. يا إلهي لم يحذّرني أحد!.

عدت من الرحلة الاستكشافية إلى مينسك... أركب بالباص الكهربائي إلى العمل. سمعت مقاطع من حديث: لقد صوّروا فيلماً في

تشرنوبل، ومات أحد المصوّرين هناك. لقد احترق. وفكرت: "من يكون هذا؟" أسمع لاحقا: شابٌ، ولديه طفلان. ذكروا الاسم، فيتيا غوربيفتش. ألدينا مثل هذا المصور، الشاب ذي الولدين، أين يختبيء إذاً؟ نقتربُ من الاستوديو السينمائي، أحدهم يدقق الاسم: ليس غوربيفتش، بل غورين، واسمه سيرغي. يا إلهي، إنّه أنا! أصبح الأمرُمضحكاً الآن، سرتُ من المترو إلى الاستوديو وخفت، بأن أفتح الباب و... فكرة سخيفة خطرت: "من أين جاؤوا بصورتي؟ من قسم الموظفين؟". من أين ولدت هذه الإشاعة؟". لا يوجد توافق بين ما يحصل وعدد الضحايا. معركة كورسك على سبيل المثال. آلاف الشهداء... ذلك مفهوم. أمّا هنا ـ استشهد في الأيام الأولى سبعة رجال إطفاء... ثم ـ عدد من الأشخاص أيضاً... ثم كانت تحديدات مجرّدة لوعينا: "بعد عدة أجيال"، "للأبد"، "لا شيء". وبدأت الإشاعات: تطير طيورٌ بثلاثة رؤوس، الدجاج ينقرُ الثعالب، وقنافذ الغابة...

لكن لاحقاً... يجب أن يسافر أحدُهم إلى المنطقة من جديد. أحضر أحد المصوّرين تقريراً: بأن لديه قرحة في المعدة، الثاني ـ سافر في إجازة... يستدعونني. "ضروري" ـ "لقد عدت لتوّي". ـ "تعرف، أنت كنت هناك. سيّان بالنسبة لك. ثم: لديك أطفال. أمّا هم ـ ما زالوا فتياناً". تبّاً للشيطان، قد أرغبُ، بإنجاب خمسة... ستة أطفال!! ما هذا، ويبدؤون بالضغط، ويلمِّحون أنّه قريباً ستجري إعادة تقييم الرواتب، وسيكون لديك ورقة رابحة. ويرفعون مرتبك الشهري... قصة مضحكة وحزينة. انحشرت على حافة الوعي...

كنت أصوّر الناس، الذين كانوا في معسكرات الاعتقال. عادة يتجنب هؤلاء اللقاء. هناك شيءٌ ـ غير طبيعي في أن يجتمعوا ويتذكروا الحرب. ويتذكرون كيف كانوا يَقتلونَ ويُقتلونَ، إن الناس الذين عرفوا

الذل وعانوا منه معاً... هؤلاء الناس يهربون بعضهم من بعض. يهربون من أنفسهم. يهربون، لأنّهم عرفوا هناك عن الإنسان... وماذا ظهر منه في تلك الظروف. من تحت الجلد. ومن هذا القبيل.. لا أدري لماذا... في تشرنوبل أنا أيضاً عرفت.. شعرت.. بما لا أريد الحديث عنه. على سبيل المثال، عن أن تصوّراتنا الإنسانية نسبيّة... إنّ الإنسان، في الحالات القصوى الطارئة، هو ليس ذلك الإنسان، الذي يكتبون عنه الكتب. ذلك الإنسان، الذي في الكتب، لم أعثر عليه، ولم ألتقيه. الأمر معكوسٌ تماماً. الإنسان ليس بطلاً. نحن جميعاً ـ بائعو رؤيا اليوم العظيم. صغاراً وكباراً. تومض في ذهني مقاطع... صور... يريد رئيس الكولخوز، أن ينقل أسرته مع حاجياتها والأثاث في سيارتين ومسؤول المنظمة الحزبية يريد سيارة واحدة لنفسه. يطالبون بالعدالة. وأنا كنتُ شاهداً أياماً عدّة، لم يستطيعوا نقل الأطفال، مجموعة حضانة. لا تكفي سيارات النقل. وهنا سيارتان لا تتسعان لتحميل الحاجيات المنزلية كلّها، حتى الأوعية ذات الليترات الثلاث، والمعبأة بالمربّى والمخلّلات. شاهدتُ كيف شحنوها في اليوم التالي. لم أصوّر ذلك أيضاً.. *(ضحك فجأة)* .ابتاعوا في المحل التجاري مرتديلا، ومعلبات، أكلها مخيف. حملوا هذه الأشياء معهم. كان رميها مؤسفاً. *(أصبح جديّا)* .إنّ آليّة الشر ستعمل وحتى في اليوم العظيم. لقد أدركت ذلك. إنّهم كذلك سيستمرون في القيل والقال، والتملّق أمام رؤسائهم، وإنقاذ التلفزيون ومعطف الفرو. وسيبقى الإنسان قبيل نهاية العالم، هو نفسه، كما هو الآن. دائماً.

أشعر بالحرج نوعاً ـ ما، فأنا لم أسعَ للحصول على فوائد لمجموعتي من العاملين. كان زميلنا بحاجة إلى شقة، ذهبت إلى المنظمة النقابية: "ساعدونا، نحن بقينا ستة أشهر في المنطقة. وتشملنا

الفوائد". ـ قالوا: "حسناً، أحضروا وثائق ثبوتية، الوثائق يجب أن تكون مختومة". ذهبنا إلى لجنة المنطقة، تسير في الممر امرأة عجوز اسمها ناستيا تحمل ممسحة. ذهب الجميع. أوه لكن لدينا هنا مُخْرِجاً، معهُ رزمة من الوثائق: أين كان، ماذا صوّر. إنّه بطل!

لديّ في ذاكرتي فيلم طويلٌ جداً وضخم، لم أصوّره. فيه الكثير من الحلقات... (يصمت) .نحن جميعاً بائعو رؤيا اليوم العظيم...

ندخل إلى أحد البيوت مع الجنود، تعيش هناك امرأة.

ـ هيا، يا امرأة، سنغادر.

ـ سنغادر، يا أبنائي.

ـ إذا، استعدي للمغادرة.

انتظرنا في الشارع. ندخّن. وها هي تخرج: تحمل في يديها ـ أيقونة، وقطاً وصرّة. هذا كل، ما حملته معها.

ـ يمنع نقل القطط، يا امرأة. وبرُها مشعّ.

ـ لا، يا أبنائي، من دون القط لن أغادر. كيف أتركه؟ أتركه وحده. إنّه أسرتي.

من هنا، من هذه المرأة... ومن التفاحة المزهرة... منهم جميعا بدأ كل شيء... أنا أصوّر الآن الوحوش فقط... لقد قلت لكم: انبسط معنى حياتي أمامي...

عرضتُ للأطفال ذات مرّة ما صوّرته في تشرنوبل. انتقدوني: من أجل ماذا؟ ممنوع. لا داعٍ لذلك. هم من دونها يعيشون في هذا الخوف، وسط هذه الأحاديث، لديهم تغيّر في الدم، وخلل في جهاز المناعة. أمِلتُ أن يحضر خمسة ـ عشرة أشخاص. امتلأت القاعة

بأكملها. طرحوا أسئلة مختلفة، لكن أحد الأسئلة حفر في ذاكرتي عميقاً. طفل، احمرّ وتلعثم، إنّه على ما يبدو من أولئك.. قليلي الكلام، سأل: "لماذا كان ممنوعاً تقديم المساعدة للحيوانات، التي بقيت هناك؟ ". قلّ لي لماذا؟ لم يخطر هذا السؤال ببالي أنا نفسي. ولم أستطع الإجابة عنه... إنّ فنّنا هو فقط عن معاناة الإنسان وحبه، وليس عن كل ما هو حيّ. الإنسان فقط! نحن لا ننزل إليها: إلى الحيوانات والنباتات... إلى عالم آخر... يمكن للإنسان أن يقضي على كل شيء. ويقتل الجميع. الآن ذلك لم يعد خيالاً... لقد حدّثوني، أنّه في الأيام الأولى بعد الحادثة، وعندما ناقشوا فكرة إعادة توطين الناس، ظهر مشروع إعادة توطين الحيوانات أيضاً. لكن كيف؟ كيف يمكن إعادة توطين الجميع؟ يمكننا بشكل ـ ما جمع تلك، التي على الأرض، لكن تلك التي في الأرض ـ الجنادب، والديدان؟ وتلك التي في الأعلى؟ في السماء؟ كيف يمكن إجلاء العصافيرأو الحمائم؟ وكيف التعامل معها؟ ليس لدينا الوسائل، لنقل المعلومات المطلوبة لها.

أريد تصوير فيلم... سأسمّيه "رهائن"... عن الحيوانات... تتذكرون أغنية "سبحت في المحيط جزيرة شقراء". باخرة تغرق، جلس الناس في القوارب. أما الخيول فلم تعرف، بأنّ لا مكان لها في القوارب...

حكاية معاصرة... تدور أحداثها على كوكب بعيد. رائد فضاء في بزّته الخاصة. يسمعُ ضجيجاً من خلال سمّاعاته. يرى بأن شيئاً ـ ما ضخماً يتحرّك نحوه. ديناصورٌ هائل؟! قبل أن يعرف ما هذا الكائن، يطلق النار عليه. وبعد لحظة ـ يقترب منه شيء ـ ما من جديد. فيقضي عليه أيضاً وبعد لحظة ـ قطيع. فيرتكب مجزرة. يظهرُ بعد قليل، أن حريقاً نشب فحاولت الحيوانات إنقاذ نفسها، هربت بالطريق المرصوص، الذي وقف عليه رائد الفضاء. الإنسان! لقد حدث لي...

سأقول لكم... أمر غير عادي. وعلى إثر ذلك، بدأتُ أنظر إلى الحيوانات بعيون أخرى... وإلى الشجر... وإلى الطيور... أسافر إلى المنطقة... يخرج خنزير برّي... من بيت بشريّ منهوب ومهجور... منذ أعوام طويلة... تخرج أنثى أيّل... لقد صوّرت ذلك. هذا ـ ما أبحث عنه... أريد أن أجهّز فيلماً جديداً... وأرى كل شيء بعيون الوحوش... يقولون لي: "عن ماذا تصوّر؟ انظر من حولك... في الشيشان ـ حرب". حسناً.. القديس فرنسيس وعظ الطيور. تكلّم إليها، كأندادٍ للناس. وإذا كانت تلك الطيور قد تحدثت إليه بلغة الطيور، وليس هو من نزل إليها. فيعني أن لغتها السريّة كانت مفهومة بالنسبة له.

تذكرون... عند دوستويفسكي... كيف ضرب الإنسان الحصان بنظرة لطيفة. إنسان مجنون! لم يضربه على ردفه، بل بنظرة لطيفة...".

سيرغي غورين، مصوّر سينمائي

مونولوج بدون اسم ـ صراخ

أيها الناس الطيّبون... لا تلمسونا! توقفوا!... أنتم تتحدثون وتسافرون، ونحن هنا سنعيش...

تتوضع هنا بطاقات صحيّة... أمسكها بيدي كل يوم وأقرؤها...

آنيا بوداي ـ سنة الولادة ١٩٨٥ ـ ٣٨٠ بيري

فيتيا غرينكيفيتش ـ سنة الولادة ١٩٨٦ ـ ٧٨٥ بيري

ناستيا شابلوفسكايا ـ سنة الولادة ١٩٨٦ ـ ٥٧٠ بيري

أليوشا بلينين ـ سنة الولادة ١٩٨٥ ـ ٥٧٠ بيري

أندري كوتشينكو ـ سنة الولادة ١٩٨٧ ـ ٤٥٠ بيري تحضِرُ إحدى الأمهات ابنتها للفحص.

ـ ماذا يؤلمك؟.

ـ كل شيء يؤلمني، كما كان لدى جدتي ـ قلبي، ظهري، رأسي يدور.

يعرفون منذ الصغر كلمة "صلع"، لأن الكثيرون هم صلعاء. من دون شعر. لا توجد حواجب، ولا رموش. اعتاد الجميع ذلك. لكن في قريتنا لا يوجد سوى مدرسة ابتدائية، لذلك ينقلون تلاميذ الصف الخامس في الباص لمسافة عشرة كيلومترات. التلاميذ يبكون ـ لا يريدون الذهاب إلى تلك المدرسة. هناك سيسخر الأطفال منّا.

شاهدتم بأعينكم... الممر عندي يَغَصُّ بالمرضى. ينتظرون. أنا أسمع ذلك كل يوم، كل ما تقولونه في التلفزيون هو خردة وكلام فارغ. انقلوا للمسؤولين في العاصمة. ذلك خردة، زبالة!

حداثة... ما بعد الحداثة... أيقظوني ليلاً في استدعاء عاجل. أجيءُ... الأم تقف على ركبتيها أمام السرير - الطفل يموت. أسمَعُ نواحها: "أريد، يا ابني، إذا كان سيحدث ذلك، أن يحدُثَ في الصيف. الصيف دافئٌ، أزهار، الأرضُ ناعمة. أمّا الآن فشتاء... انتظر ولو للربيع... "هل ستكتبون ذلك؟

لا أؤيد أن أتاجر بسعادتهم. أو أن أتفلسف. ولذلك يجب أن أبتعد جانباً. ولا أستطيع... أسمعُ كل يوم ماذا يقولون... كيف يشتكون ويبكون... ناسٌ طيّبون... تريدين معرفة الحقيقة؟ اجلسوا بالقرب منّي واكتبوا... ولن يقرأ أحدٌ هذا الكتاب أبداً...

الأفضل أن تتركونا بحالنا... نحن الذين سنعيش هنا...".

أركادي بافلوفيتش بوغدانكيفيتش

مسعف في المناطق الريفية

مونولوج صوتين ـ رجّالي ونسائي

المعلمان نينا كونستنتينوفا ونيقولاي برخوروفيتش جاركوف. هو معلم دروس العمل، وهي معلمةُ لغة وأدب.

هي:

ـ غالبا ما أفكر بالموت، لذلك لا أذهب لرؤيته. وأنتم هل سمعتم ذات يوم أحاديث الأطفال عن الموت؟

هنا عندي... في الصف السابع يناقشون ويتجادلون: هل هو مخيف أم لا؟ إذا كان ما يهم الأطفال الصغار فيما مضى: من أين هم؟ ومن أين يأتي الأطفال؟ فإن ما يقلقهم اليوم هو ماذا سيكون بعد الحرب النووية؟ توقفوا عن حب الكلاسيك، أنا أقرأ لهم بوشكين غيباً ـ وعيونهم تنظر جانباً باردة... فارغة... عالم جديد من حولهم... يقرؤون كتب الخيال العلمي، هذا ما يجذبهم، هناك، حيث الإنسان ينفصل عن الأرض، شاهرين الزمن الفضائي، والعوالم المختلفة. لا يستطيعون الخوف من الموت، كما يخاف منه الكبار، أنا، على سبيل المثال، يقلقهم الموت، كشيء ما يشبه الخيال... الانتقال إلى مكان ـ ما...

أتأمّلُ... أفكر بهذا الأمر... الموت من حولنا يدفع إلى التفكير كثيراً. أنا أعلّم الأطفال الأدب الروسي، الأطفال الذين لا يشبهون من كانوا قبل عشر سنوات. عند هؤلاء الأطفال الآن، طوال الوقت، يُدفَنُ أحدٌ ـ

ما أو شيءٌ ما أمام أعينهم. يُطمَرُ عميقاً تحت الأرض... أناسٌ يعرفونهم... بيوت وقُرى... يدفَنُ كلُّ شيء.. يصابون بالإغماء من المسطرة، وعندما يقفون خمسَ عشرة ـ عشرين دقيقة، يسيل الدم من أنوفهم. لا يدهشهم أي أمر، ولا يفرحون لأي شيء. دائماً تجدهم نعاسا، متعبين. وجوههم صفراء، ورمادية. لا يلعبون ولا يتحامقون. وإذا تشاجروا، يحطمون النافذة عن غير قصد ـ وحتى أنهم يفرحون بالمعلم. لا يشتمون لأنّهم لا يشبهون الأطفال. وينمون ببطء. تطلب منهم في الدرس، أن يكرروا فكرة ـ ما، لا يستطيع الطفل، يصل الأمر إلى درجة أن تقرأ عليه جملة ليرددها خلفك ـ فلا يتذكر. تعاتبه: "لكن أين أنت؟ أين؟". تغضبه. أفكر... أفكر كثيراً... وكأنني أرسم بالماء على الزجاج، أنا وحدي فقط أعرف، ماذا أرسم، لا أحد يرى، ولا أحد يتوقع... ولا أحد يتصور...

حياتنا تدور حول شيء واحد... حول تشرنوبل... أين كان حينها؟ وهل كان يعيش بعيداً عن المفاعل؟ ماذا شاهد؟ من مات؟ من سافر؟ إلى أين؟. أتذكر في الأشهر الأولى، ضجَّتِ المطاعمُ من جديد، اصطخبت الأمسيات... "نعيش مرّة واحدة...". "إذا متنا، فلنمت مع الموسيقا...". هجم الجنود، الضباط... لن يتركنا تشرنوبل بعد الآن... فجأة ماتت امرأة شابة حامل. بدون كشفٍ طبي، وحتى اختصاصي الأمراض النووية لم يضع تشخيصاً. فتاة صغيرة شنقت نفسها... في الصف الخامس... من دون أي سبب. جنّ الوالدان. تشخيصٌ واحدٌ للجميع ـ تشرنوبل، أياً كان ما يحدُث يقول الجميع ـ تشرنوبل، ينتقدوننا: "تمرضون، لأنّكم تخافون. تمرضون من الخوف. رهاب الإشعاع". لماذا إذاً يمرض الأطفال الصغار ويموتون؟ إنّهم لا يعرفون الخوف، ولا يفهمونه.

أتذكر تلك الأيام... حرقة في الحنجرة، ثقل، ثقل - ما في كل أنحاء جسمي. قالت الطبيبة: "أنت موسوسة، الجميع الآن أصبح موسوساً"، لأن تشرنوبل قد حصل" - "أي تشرنوبل؟ كل شيء يؤلمني. لا قوةَ لديّ". خجلنا، أنا وزوجي، من الاعتراف أحدنا للآخر، لكن بدأنا نحسُّ أنَّ أرجلنا تخرج من مكانها. اشتكى الجميع من حولنا، أصدقاؤنا، الناسُ كلُّهم، أينما ذهبنا وفي الطريق، تشعر وكأنك تريد أن تنبطح على الأرض وتغفو. التلاميذ ينحنون على المقاعد، وأحيانا ينامون أثناء الدروس. والمرعب، أن الجميع أصبحوا كئيبين، ومتجهمين، لا تلتقي طوال اليوم وجهاً بشوشاً وفرحاً. تمَّ إبقاء الأطفال في المدرسة من الثامنة صباحاً حتى التاسعة مساءً، مُنعوا منعاً باتاً، من اللعب والركض في الشارع. قَدّموا لهم الثياب: تنانير وبلوزات - للفتيات، وبذلات - للفتيان؛ ذهبوا بهذه الثياب إلى البيت، وإلى أين أيضاً، لم نعرف. وفق التعليمات، يجب على الأمهات غسل هذه الثياب يومياً، كي يأتي التلاميذ إلى المدرسة بثيابٍ نظيفة. أولا، أعطوا، على سبيل المثال، بلوزة واحدة وتنورة واحدة، ولم يقدِّموا بدلاً. ثانياً، لدى الأم أعمال منزلية كثيرة - الدجاج، والبقرة، والخنزير، ولا يستوعبون، أن هذه الملابس يجب أن تُغسل كل يوم. الوسخ بالنسبة لهم - هو الحبر، التراب، بقع الدسم، وليس تأثير النظائر قصيرة الأجل. عندما حاولت توضيح الأمور لأهل تلاميذي، أعتقد أنهم فهموني، ليس أكثر من فهمهم لعرّافِ ساحرٍ قادمٍ من إحدى القبائل الأفريقية. "ما هي الإشعاعات؟ لم نسمع ولم نرَ... آآآآ... النقود عندي لا تكفي حتى آخر الشهر. نعيش في الأيام الثلاث الأخيرة على البطاطا والحليب.. آآآ... "- تلوّح الأم بيدها. الحليب ممنوع... والبطاطا ممنوعة. أحضروا إلى المتجر معلبات لحمة مطبوخة صينية وحنطة سوداء، بماذا نشتريها؟.

يعطوننا تعويضات... للدَّفن... لأننا نعيش هنا.. قروش... تكفي لشراء علبتين من المُعلّبات الغذائية.. التعليمات مكتوبة عليها لإنسان متعلّم، لوسط ثقافي محدد. ليس عندنا هذا الوسط! وليس لدينا ذلك الشعب الذي أُعدّت له تلك التعليمات. عدا عن ذلك، ليس من السهل أن توضح لكل شخص، بما يختلف "بيري" عن "الرينجين"... أو نظرية الجرعات الصغيرة...

من وجهة نظري... كنت سأتحدّثُ عن قدريّتنا، وهي نوعٌ من القدرية السهلة. على سبيل المثال، مُنع استهلاك أي مُنتج من الحقول المنزلية في العام الأول، وبالرغم من ذلك، أكلوا، واحتفظوا منها، لاستهلاكها لاحقا. وقد تشوهت بشكل واضح! وجرّب حينها أن تقول لهم لا تأكلوا الخيار أو البندورة... ماذا يعني... ممنوع؟ طعمها جيد... وقد أكلوها، ولم يشعروا بآلام البطن... ولم "يضيء" أحدٌ في العتمة... جهّز جيراننا أرضية البيت في ذلك العام من الغابة المحلية، قاسوا مستوى الإشعاعات فيها ـ كانت أعلى بمئة مرّة من المستوى المسموح به. لم يفكك الأرضية أحد، وعاشوا كما كانوا يعيشون. وهكذا كل شيء سيتشكل، بطريقة ـ ما، لكنّه سيتشكل من دونهم ومن دون مشاركتهم. في الفترة الأولى للانفجار أخذوا المواد لفحصها ـ أعلى من المستوى المسموح به بعشرة أضعاف، ثمَّ تركوا ذلك فيما بعد. وقالوا: "لم نشمَّ أية رائحة، ولم نرَ شيئاً. آآآآ يكذب هؤلاء العلماء!". ثم سارت الأمور كما كانت: فلحوا، وزرعوا، وجَنوا المحصول... حدث ما لا يمكن تصوّره، والناس عاشوا، كما كانوا يعيشون. التخلّي عن الخيار الذي يجنونه من حدائقهم، كان أهمّ من تشرنوبل. أبقوا الأطفالَ طوال الصيف في المدرسة، غسلها الجنود بمنظفات الغسيل، وجرفوا طبقة الأرض من حولها... أمّا في الخريف؟ في الخريف أرسلوا التلاميذ

لتنظيف المهاجع. وأحضروا طلاب المعاهد المتوسطة إلى الحقول. لقد وجدوا عملاً للجميع. تشرنوبل ـ ليس مخيفاً إلى تلك الدرجة، فكيف نترك البطاطا مدفونة في الأرض....

من المذنب؟ من المذنب عدانا نحن أنفسنا!

لم نلاحظ من قبل هذا العالم من حولنا، لقد كان، كالسماء، كالهواء، وكأن احداً أعطانا إيّاه للأبد، وهو غير مرتبط بنا. وسيظلُّ أبداً. كنت أحب من قبل الاستلقاء في الغابة على العشب والتمتع بمنظر السماء، كنت أشعر بالراحة، لدرجة أنني أنسى اسمي. أمّا الآن؟ الغابة جميلة، ممتلئة بالعنب البريّ، لكن أحداً لا يجمعه. نادراً ما تسمع صوتَ بشريٍّ فيها فصلَ الخريف. الخوف في الأحاسيس، على مستوى اللاوعي... بقي لدينا التلفزيون والكتب فقط... الخيال... يترعرع الأطفالُ في البيوت... بلا أنهار وغابات... ينظرون من النوافذ. إنّهم أطفال آخرون تماماً. أدخل إليهم: "زمن حزين. عيون دهشة...". وحتى مع بوشكين، الذي هُيأ لي أنه أبدي. تظهر أحيانا فكرة كافرة: قد تكون ثقافتنا ـ صندوق مخطوطات قديمة. وكل، ما أحبّه...

هو:

ـ لقد ظهر عدوّ آخر... وقف أمامنا عدوّ في هيئة جديدة...

كانت لدينا تربية عسكرية. تفكير عسكري. وجّهونا لصدِّ الهجوم النووي وإبطاله. كان يجب علينا التصدي للحروب الكيميائية والبيولوجية والنووية. لكن ليس إخراج النويدات المشعة من الجسم... وإحصاءَها... مراقبة السيزيوم والسترونتيوم... لا يمكن مقارنة ذلك بالحرب، ليس دقيقاً، لكن الجميع يقارن. عشتُ حصار لينينغراد طفلاً. لا يمكن المقارنة. هناك عشنا، كما على الجبهة، تحت قصف لا نهائي. وجوع،

عدة سنوات من الجوع، عندما انحط الإنسان إلى مستوى الغريزة الحيوانية. إلى مستوى الوحش في داخله. أمّا هنا تفضّل، تخرجُ ـ كل نباتٍ ينمو في الحديقة! وعلى الأرض لم يتغيّر شيء، وفي الغابة.. لا يمكن المقارنة. لكنني أردتُ أن أقول كلاماً آخر... أضعتُ الخيط... أفلتَ... آ ـ آآ... عندما يبدأ إطلاق النار، لا سامح الله! يمكنك أن تموت ليس في وقت ـ ما بل الآن، في هذه الدقيقة. في الشتاء ـ جوع. أشعلنا الأثاث، أشعلنا كل ما هو خشبي في شقتنا، الكتب كُلُّها، أعتقد، حتى قطع قماش القديمة. شخص يمشي في الشارع مرهقاً.. ويجلس، تسير في اليوم التالي، إنّهُ ما زال يجلس، لقد تجمّد، يجلس مكانه أسبوعاً أو حتى فصل الربيع يجلس.. حتى يصبح الجو دافئاً. لا قوّةَ عند أحد لاستخراجه من الجليد، هي حالات نادرة، تلك التي سقط أحدهم فيها على بلاط الشارع، واقترب منه الناس وقدموا له المساعدة. الجميع يزحفون أحدهم بجوار الآخر. أذكرُ، أن الناس ما مشوا بل زحفوا، انتقلوا ببطء شديد. يمكنك مقارنة ذلك بأي شيء!

عندما حصل انفجار المفاعل، كانت والدتي ما تزال حيّة، والدتي كرّرت: "الأكثرُ إخافةً يا بني، قد اجتزناه أنا وإياك. لقد عايشنا الحصار. لا يمكن لشيء أن يكون أكثر رُعباً". هكذا كانت تعتقد...

نحن استعدينا للحرب، الحرب النووية، بنينا ملاجئ نووية. أردنا الاختباء من الذرة، كما نختبئ من شظايا قذيفة. وها هي في كل مكان... في الخبز، وفي الملح... نتنفس الإشعاعات، نأكل الإشعاعات... فإذا ما وجدت خبزاً وملحاً، فيمكن أكلُ أي شيء، حتى لو وصل الأمر، لأن نغلي في الماء الحزام الجلدي، من أجل الرائحة، نشبع من الرائحة ـ هذا أمرٌ يمكنني فهمه. أمّا ما يحدث الآن فلا... كل شيء ملوّث... المهم اليوم أن نفهم، كيف سنعيش؟ كان هناك خوف

في الأشهر الأولى، وبخاصّة عند الأطباء، والمعلمين، وباختصار عند المثقفين، الناس الأكثر تعلّماً، وقد تركوا كل شيء وغادروا. وبالرغم من تخويفهم. وعدم السماح لهم. الانضباط في حالة الحرب... البطاقة الحزبية على الطاولة... لكنني أريد أن أفهم... من المذنب؟ كي يجيب عن سؤال، كيف لنا أن نعيش هنا، يجب أن نعرف: من المذنب؟ من هو؟ العلماء، موظفو المحطة؟ أم نحن أنفسنا، في كيفية نظرتنا إلى العالم. لا يمكننا في رغباتنا أن نتوقف عن أن نملك... نستهلك... وجدوا المذنبين ـ المدير، والمشرفين المناوبين. العلم. لكن لماذا، قولوا لي، لماذا لا نحارب السيارات، كصنيعة للعقل البشري، بل نحارب المفاعل؟ ونطلب إقفالَ المحطات الذرية كلّها، وتقديم علماء الذرة إلى المحكمة؟! نشتم! أنا أعشق المعرفة البشرية، وكل ما صنعته المعرفة البشرية... لا توجدُ معرفةٌ مجرمةٌ... العلماءُ اليوم هم أيضاً ضحايا تشرنوبل. أريد أن أعيش بعد تشرنوبل، لا أن أموت بعد تشرنوبل. أريد أن أفهم، لأجل ماذا أتمسّكُ بإيماني. ما الذي يعطيني القوّة؟...

الجميع عندنا يفكرون بذلك... رد الفعل عند الناس مختلف، لقد مرّت عشر سنوات، وهم ما زالوا يقارنون ما حدث بالحرب. استمرت الحرب أربع سنوات... احسبوا ـ حربين... سأعدد لكم، ردودَ الفعل: "كل شيء أصبح من الماضي"، "سنتجاوزها كيفما كان"، "عشر سنوات مرّت. لم يعد الأمر مخيفاً"، "سنموت جميعاً"، "سنموت كلّنا قريباً"، "أريدُ أن أسافر إلى الخارج"، "يجب عليهم مساعدتنا"، "الأمرُ سيّان! يجب أن نعيش". أتصور أني شملتها جميعاً؟ هذا ما نسمعُهُ كل يوم... ويتكرّر... نحن من وجهة نظري ـ مادة للدراسات العلمية. مختبر دولي... في مركز أوروبا... عددنا نحن البيلاروسيين

عشرة ملايين، أكثر من مليونين منهم يعيشون على الأرض الملوّثة. مختبر طبيعي... دوّن المعلومات وجرّب. يأتون إلينا من كل مكان، من كل أنحاء العالم. يدافعون عن أطروحات الدكتوراه، يكتبون كتباً متسلسلة. يأتون من موسكو وبطرسبورغ... من اليابان، وألمانيا، والنمسا... يأتون، لأنهم يخافون المستقبل.. *(توقفٌ طويلٌ في الحديث)*.

بماذا فكرت؟ لقد عدتُ للمقارنة مرّةً أخرى... فكرت بأني أستطيع التحدث عن تشرنوبل، أمّا عن الحصار فلا. تلقيت رسالة من لينينغراد. عفوا، لكن كلمة بيتربورغ لم تعش في وعيي، فأنا قد متّ أنا في لينينغراد... وهنا... في الرسالة ـ دعوة إلى لقاء "أطفال لينينغراد المحاصرة". سافرت إلى هناك... لم أستطع هناك أن أتفوّه بكلمة. أتحدث ببساطة عن الخوف؟ هذا قليل... ببساطة عن الخوف.. وما الذي فعلهُ بي؟ لا أعرف حتى الآن... في البيت ما تذكرنا الحصار أبداً، لم ترغب ماما، بأن نتذكر الحصار. أمّا عن تشرنوبل، فنحن نتحدّث... لا... (يتوقف) فيما بيننا لا نتحدث. يظهر هذا الحديث، عندما يزورنا أحد: أجانب، صحافيون، أقارب لا يعيشون هنا. لماذا لا نتحدث عن تشرنوبل؟. لا هذا الموضوع ليس مطروحاً عندنا... في المدرسة... مع التلاميذ... وفي البيت... موضوعٌ مقفل. مغلق. يتحدثون إليهم عن ذلك في النمسا، وفرنسا، وألمانيا، إلى حيث يذهبون للعلاج. أسأل التلاميذ، عن ماذا أرادوا أن يعرفوا، بماذا يهتمون؟. وهم غالباً لا يذكرون لا المدن ولا القرى ولا أسماء عائلات الناس الذين استقبلوهم. يعددون الهدايا فحسب، والطعام اللذيذ الذي أكلوه. لمن أهدوا آلة تسجيل، ومن لم يُهدَ. يأتون بثياب، لم يعملوا لقاءها، وكذلك أهلُهم. وكأنّهم كانوا في معرض ما. في محل تجاري كبير... في محل تجاري

راقٍ... ينتظرون طوال الوقت. بأن ينقلونهم مرّة أخرى إلى هناك. يجولون بهم، يُهدونهم... اعتادوا على ذلك.. أصبح أسلوب حياتهم، وتصوّرهم عنها. يجب بعد هذا المحل التجاري الكبير، الذي يسمّونه الخارج، بعد هذا المعرض الثمين الدخول عليهم في الصف. إلى الدرس. أدخل وأرى أنهم أصبحوا مراقِبين... يراقبون ولا يعيشون. واجبي مساعدتهم... وواجبي أن أوضحَ لهم بأن العالم ليس محلاً تجارياً. إنّه شيءٌ آخر. أكثر صعوبة وأكثر روعة. أصطحبهم إلى مشغلي، هناك تقف تماثيل خشبية. تعجبهم تلك التماثيل. أقول لهم: "كل ذلك يمكن إبداعهُ من قطعة خشب عادية. جرّب بنفسك". اوقِظُهم! ساعَدَني ذلك في الخروج من الحصار، احتجت أعواماً كي أخرج...

انقسم العالم: نحن ـ التشرنوبليّون، وأنتم ـ الآخرون. هل لاحظتم؟ الناس عندنا، لا يحددون: أنا ـ بيلاروسي، وأنا ـ أوكراني، وأنا ـ روسي... جميعهم يسمون أنفسهم التشرنوبوليين. "نحن ـ من تشرنوبل"، "أنا شخص ـ تشرنوبلي". لكأننا شعبٌ منفصل... أمّة جديدة...

مونولوج: شيء مجهول يزحف، ويتسلق إليك

"نمل... نمل صغير يزحف على جذع الشجرة... تضج الآليات العسكرية في المحيط. جنود، وصراخ، وشتائم. الطائرات الحوّامة تقرقع. أمّا هي فتزحف... عدت من المنطقة، ومن بين كل ما شاهدته خلال اليوم، بقيت واضحة في ذاكرتي صورة واحدة... تلك اللحظة... توقفنا في الغابة، أشعلتُ سيجارة بالقرب من شجرة بتولا. أصبحت مُلاصقاً لها، استندت إليها. زحفت النمالُ أمام وجهي مباشرة على الجذع، دون أن تسمعنا، ودون أن تعيرنا أي اهتمام... تتابع طريقها مثابرة... نختفي، وهي لا تلاحظ ذلك. خاطرٌ ما ومض في فكري. في مقاطع الأفكار. كانت الانطباعات كثيرة، بحيث لم أستطع التركيز. نظرت إليها... أنا... أنا لم ألاحِظها من قبل قريبةً إلى هذه الدرجة... من مسافة قصيرة...

قال الجميع في البداية "كارثة"، ثم "حرب نووية". لقد قرأت عن هيروشيما وناغازاكي، شاهدت أفلاماً وثائقية. شيء مخيف، لكنّه مفهوم: حرب نووية، قطر الانفجار... استطعت تصوّر ذلك. لكن ما حصل لنا... لم تكفني لذلك... لم تكفني معارفي العلمية، كل الكتب التي قرأتها طوال حياتي. أعود من المهمّة وأنظر في ارتباك إلى رفوف الكتب في مكتبي... قرأتُ... وكان من الممكن ألاّ أقرأ... شيء ـ ما مجهول هدّم عالمي السابق كلّه. هذا هو يزحف، يتسلّق إليك... خارج

عن إرادتك... أتذكر حديثاً مع أحد العلماء: "هذا لآلاف الأعوام، ـ يشرح لي ـ خمود اليورانيوم ـ مئتان وثمانية وثلاثون نصف خمود. نحوّل ذلك إلى الزمن: مليار سنة. أمّا عند الثورانيوم ـ فأربعة عشر مليار سنة". خمسون... مئة... مئتا عام... ماذا بعد؟ ماذا ـ مصدّ، صدمة نفسية!. لم أعد أفهم ما هو ـ الزمن؟ وأين أنا؟.

تكتب عن ذلك الآن، وما مر بعد سوى عشر سنوات... إنّها لحظة... تكتب؟ أعتقد أن ذلك مجازفة! وغير مفيد. لأننا وفي جميع الأحوال، سوف نخترع شيئاً ـ ما يشبه حياتنا. نشفُّها على ورق كالك[1] كما هي. لقد

جرّبت... لم أحصل على نتيجة... بقيت أسطورة عن تشرنوبل، بعد تشرنوبل. تتسابق الصحف والمجلات، من يكتب مواضيع أكثر إخافة، وبخاصّة إن الإنسان الذي لم يكن في المنطقة، تغريه المواضيع المخيفة: الجميع قرأ عن الفطور ذات الرؤوس البشرية، لكن لم يجد هذه الفطور أحد، وعن الطيور ذات المنقارين... لذلك يجب أن لا نكتب، بل نسجّل. ونوثّق. أعطوني رواية خيالية عن تشرنوبل... لا توجد! ولن تكون! أؤكد لكم! لن تكون...

لديّ دفتر ملاحظات منفصل... بدأت أُدوّن فيه من الأيام الأولى... كتبتُ الأحاديث، والإشاعات، والنكت. إنّه ممتع جداً وموثوق. أثر دقيق. ماذا بقي من اليونان القديمة؟ أساطير اليونان القديمة...

سأقدّم لكم هذا الدفتر... إنّه متروك بين الأوراق، وقد أطلع الأطفال عليه، ذات يوم عندما يكبرون. إنّه تاريخ على جميع الأحوال...

---

(١) ورق شفّاف خاص يستخدمه المهندسون لنقل المخططات الهندسيّة المختلفة عن اللوحة الكرتونيّة الأساس/ . المترجمان./

من الأحاديث:

"يبثون بالراديو للشهر الثالث على التوالي: الوضع يتجه نحو الاستقرار... الوضع يتجه نحو الاستقرار، الوضع يتج...".

انبعثت بلحظة واحدة المفردات الستالينية: "عملاء الاستخبارات الغربية"، "أعداء الاشتراكية اللدودون"، "اختراقات تجسّسية"، "عمل تخريبي"، "طعنة في الظهر"، "تقويض اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتي الذي لن يتفكك". الجميع يؤكد من حولنا على وجود الجواسيس والمخربين المرسلين إلينا، وليس على الوقاية باليود. أيّة معلومات غير رسمية تُفهم، كأيديولوجيا غريبة.

حذف رئيس التحرير من ريبورتاج أعددتُه حديثُ أم أحد رجال الإطفاء، الذي شاركوا في إخماد الحريق في تلك الليلة... الحرق النووي. فقد مات بسبب مرض أشعة حاد. وبعد أن دفنوا ابنهم في موسكو، عاد الوالدان إلى قريتهما، التي رحّلوهما منها بعد فترة قصيرة. لكنهما في الربيع تسللا عبر الغابة سرّا إلى بيتهما، وجمعا من حديقة المنزل، كيساً من البندورة والخيار. قالت الأم فرحة: "لقد ملأت عشرين وعاء مخللاً". الثقة بالأرض... هي خبرة فلاّحيّة أبدية... وحتى موت الابن لم يغيّر العالم المألوف...

استدعاني رئيس التحرير قائلاً: "أتسمع راديو" الحريّة"؟". ـ لم أجبْ ـ "لا أحتاجُ مثيري الرعب في الصحيفة. اكتبْ عن الأبطال... الجنود الذين تسلّقوا سطح المفاعل...".

بطل... أبطال... من هم اليوم؟ بالنسبة لي هو الطبيب، الذي، وبغض النظر عن أوامر القيادة، يقول للناس الحقيقة. والصحفي، والعالم. لكن وكما قال رئيس التحرير في الاجتماع الصباحي:

"تذكروا! ليس لدينا لا أطباء، ولا معلّمين، ولا علماء، ولا صحفيين، عندنا جميعاً الآن مهنة واحدة - الإنسان السوفييتي".

أكان هو نفسُه يثق بكلامه؟ هل يعقل أنّه ليس خائفاً؟ إيماني يشحذني كل يوم".

"وصل مرشدون من اللجنة المركزية. خطُّ سيرهم بالسيارة من الفندق - إلى لجنة المنطقة الحزبية، ويعودون أيضاً بالسيارة. يدرسون الوضع من خلال أرشيف الصحف المحلية. ويملؤون حويصلاتهم من سندويتش مينسك. يغلون الشاي باستخدام المياه المعدنية. المَجلوبة أيضاً من الخارج. حدّثت بذلك العاملة المناوبة في الفندق، حيث ينزلون. الناس لا يثقون بالجرائد، والتلفزيون، والراديو، يبحثون عن المعلومات في سلوك القيادة. فهي أكثر صحّة.

ماذا أفعل مع الطفل؟ لدي رغبة في أن أحتضنه وأهرب. لكن بطاقتي الحزبية في جيبي. لا أستطيع!".

"القصة الأكثر انتشارا في المنطقة: أفضل ما يساعد على التخلّص من السترونتيوم والسيزيوم - هو فودكا "ستاليتشنايا".

ظهرت فجأة في المتاجر القروية البضائع النادرة. سمعت كيف خطب سكرتير لجنة المنطقة الحزبية: "سنُوفّر لكم حياةً كالجنة. ابقوا فقط واعملوا. سنملأُ المحلات بالمرتديلا والحنطة السوداء. سيكون عندكم كل شيء كما في المحلات التجارية المخصَّصة". أي كما في محلّات لجنة المنطقة الحزبية. العلاقة بالشعب تُختَصَرُ: بأن تكون كميات الفودكا والمرتديلا كافية.

فليذهبوا إلى الجحيم!. لم أشاهد أبداً، أن يحوي محلٌ تجاريٌ في

الريف ثلاثة أنواعٍ من المرتديلا. حتى أنني اشتريت لزوجتي جوارب نسائية مستوردة...".

"بِيعتْ أجهزةُ قياس الإشعاعات في المحلات لمدة شهر، ثم اختفت. لا يُسمح بالكتابة عن ذلك. كم وأية نويدات إشعاعية سقطت ـ أيضاً ممنوع. يمنع الكتابة أيضاً، أنّ لم يبقَ في القرى سوى الرجال وحدهم. تم نقل النساء والأطفال. غسلَ الرجال طوال الصيف ثيابهم بأنفسهم، وحلبوا البقرات، وفلحوا الحدائق. وشربوا طبعاً، وتشاجروا. العالم من دون نساء... مؤسف أني لست كاتب سيناريو. هذه حبكة فيلم... أين سبيلبيرغ؟. وأين المفضل عِندي الكسي غيرمان؟ كي يكتبوا عن ذلك... وهنا يبزُغُ خط رئاسة التحرير الأحمر الذي لا يرحم: "لا تنسوا أن لدينا أعداء. أعداء كثر وراء المحيطات". لذلك لا يوجد عندنا سوى الجيدين، أمّا السيئون فلا وجود لهم. وليس هناك ما هو غير مفهوم.

ولكن في مكان ـ ما ترفعُ الأجهزةُ المختصّة ما مفادُه أن أحداً ما شاهد القيادة تحمل الحقائب...".

"أوقفتني امرأة عجوز، قرب محرس للشرطة قائلة: "القِ نظرة على بيتي هناك، لقد حان وقت قلع البصل، والجنودُ لا يسمحون لي بالعبور". لقد نقلوهم من بيوتهم. وكذبوا، قالوا لمدة ثلاثة أيام فحسب، لو عرف هؤلاء المزارعون الحقيقة ما غادروا. إنسانٌ في فراغ، إنسان بدون أي شيء. يتسلّلون إلى قراهم عبر الحواجز العسكرية... وممرات الغابة. ومن خلال المستنقعات... ليلاً.... يلاحقونهم بالسيارات والحوّامات، ويمسكون بهم. (كما في الحرب زمن الألمان)؛ يقارنُ كبار السن....".

"شاهدت لأول مرّة لصاً. شاباً فتيّاً، يرتدي سُترتين من الفرو. أثبت للدورية العسكرية، أنّه بهذه الطريقة يعالج نفسه من الديسك في الظهر. وعندما ضغطوا عليه اعترف: "خفتُ المرّةَ الأولى، لكن فِيما بعد، اعتدتُ. أجرعُ كأساً ـ وأنطلق" تحرّكت غريزة حماية الذات. في الظروف الطبيعيّة ما كان لهذا الأمر أن يحدث. هكذا ينطلقُ إنساننا إلى المآثر[1]. وهكذا أيضاً ـ لتنفيذ الجريمة".

"عَرّجنا على بيت فارغ ـ فوق شرشفٍ أبيض تتوضعُ أيقونةٌ.. "هذا لله" ـ قال أحدهم... "وفي بيت آخر ـ طاولةٌ مفروشة بالأطايب فوق شرشفٍ أبيض..." .. "هذا للناس" ـ قال آخر..".

"سافرنا إلى قريتنا الأم بعد عام. الكلابُ شَردت. وجدت كلبي، ناديته، لم يقترب. لم يعرفني؟ أو لعلّهُ لا يريد أن يتعرف إليّ؟ لقد غضب".

"هدأ كل شيء في الأسابيع والأشهر الأولى. صمت الجميع. حالةُ خشوع. علينا المغادرة. حتى اليوم الأخير: لا. الوعيُ مُقفل. لا أتذكّرُ أنني سمعتُ أحاديث جديّة، أتذكر طرائف: "أصبح الآن في كل المحلات التجارية بضائع إشعاعيّة" "ينقسم الرجالُ العاجزون جنسياً إلى نشطين إشعاعياً ومستقبلي إشعاعات" ثم اختفت الطرائف...".

"تحدث طفلة صغيرة أمّها في المستشفى:

ـ مات الصبيُّ.. ضيفني حلوى يوم أمس".

---

(١) إشارة إلى ما كان يحدُث في الحرب الوطنيّة العظمى؛ حين يجرعُ المقاتل كأساً من الفودكا ويقفزُ من الخندق لمنازلة الألمان، في حين ها هو الآن يفعلُ ذلك وينطلق ليسرق/ . المترجمان ./

"في طابور على السكر:

ـ هي، أيها الناس، كم هي كثيرة الفطور هذا العام. الفطر والثمار، تفترش الأرض.

ـ إنّها ملوّثة...

ـ شخصٌ عجيبٌ... من يجبرك على أكلها ـ اجمعها، ونشّفها تحت الشمس وخذها إلى البازار في مينسك. ستصبح مليونيراً".

"هل يمكن مساعدتنا؟ وكيف؟ نقل الشعب إلى أستراليا أو كندا؟ يقولون تدور مثل هذه الأحاديث من وقت إلى وقت في القيادات العليا".

"اختاروا للكنائس مكاناً وكأنه من السماء. كانت هناك ظواهر لأشخاصٍ كنسيين. قاموا بطقوس سرّية مقدسة سبقت البناء. أما المحطة فقد بُنيت مثل أي مصنع أو حظيرة خنازير عادية. سكبوا فوق السطح إسفلتاً، وبيتوناً. وعندما احترقت، ذابت تلك المواد واختفت...".

"هل قرأت؟ قبضوا على جندي هارب بالقرب من تشرنوبل. أكل توتاً برياً وعاش عاماً إلى جوار المفاعل. كان يقتات من قبل على الشكل التالي، يتجول في البيوت المهجورة، يجد هنا شحم خنزير، وهناك علبة خيار مخلل. نصب الفخاخ للوحوش. ثمّ هرب لأن الرجال كبار السن أشبعوه ضربا حتى الموت. نجا والتجأ إلى تشرنوبل...".

"نحن ـ قدريّون. نحن لا نتخذ أية إجراءات، لأننا نؤمن: كلّ شيء سيكون، كما قدر له أن يكون. نؤمن بالمصير. عندنا هذا الإرث... كُتِبتْ لكل جيل حرب... دماء... فكيف لنا أن نغدو آخرين؟ نحن ـ قدريوّن...".

"ظهرت الكلاب الذئبية الأولى التي وضعتها الذئباتُ من سفادها مع الكلاب، الهاربة إلى الغابة. هي أكبر من الذئاب، لا تعير اهتماما للأعلام، ولا تخاف النور والإنسان، لا تجذبها الأصوات المقلّدة التي يصطنعُها الصيادون. ولا القطط الضالة ولا تتجمعُ في قطعان ولا تخافُ الناس. اختفت ذاكرتها عن مرحلة إطاعتها الإنسان. انمحت الحدود بين الواقعي وغير الواقعي...".

"أكمل والدي يوم أمس عامه الثمانين... اجتمعت إلى المائدة الأسرة بأكملها. نظرتُ إليه وفكرت، كم استوعبتْ حياتُه ـ معسكرات الغولاغ[1] الستالينية، والحرب، وتشرنوبل الآن. كل ذلك حدث في عمرِ جيله. جيلٌ واحد. وهو يحب صيد السمك... والاعتناء بالحديقة... عندما كان فتياً، غضبت منه أمّه، لحادثةٍ ما: "ما نجتْ منك ولو تنورة واحدة في المنطقة". وقد لاحظتُ كيف يُحدّقُ إلى الأسفل، عندما تُقبلُ نحوهُ امرأة جميلة، فتيّة...

ماذا نعرف عن الإنسان؟ وعمّا يستطيع أن يفعل... وكم يكفيه...".

---

(١) هي معسكرات ستالين للعمل القسري.

من الشائعات:

"يبنون خلف تشرنوبل معسكراً، سيضعون فيه أولئك، الذين تعرّضوا للإشعاعات. يبقونهم، يراقبونهم ويدفنونهم.

"ينقلون من القرى المجاورة للمحطة، الموتى بالباصات مباشرة إلى المقبرة، يدفنون الآلاف في مقابر الأخوة. كما كان الأمرُ أثناء حصار لينينغراد...".

"لقد شاهد عددٌ من الأشخاص، قبيل الانفجار ضوءً مجهولاً في السماء فوق المحطة. حتى أنّ أحدهم قد صوّر المشهد. اكتُشِفَ على شريط الفيلم، أن ذلك كان جسماً سماوياً يحوم...".

"يغسلون في مينسك القطارات وقطارات الشحن. سينقلون كل سكان العاصمة إلى سيبيريا. يجرون هناك الآن صيانة لمهاجع المعسكرات الستالينيّة. سيبدؤون بنقل النساء والأطفال. إنّهم ينقلون الأوكرانيين الآن...".

"تزداد الحالات، التي يجدُ فيها صيادو السمك أسماكاً ـ برمائيّة، يمكنها العيش في الماء وعلى الأرض. تمشي على الأرض على زعانف ـ أخفاف. وتصطاد الكراكي...، تسبح على بطونها...

سيبدأ قريباً حدوثُ شيء مشابهٍ للناس. سيتحوّل البيلاروسيون إلى نيودات إنسانية...".

"لم يكن ذلك حادثاً، بل هزة أرضية. حصل شيء ـ ما في نواة الأرض. انفجارٌ جيولوجي. شاركت فيه قوى جيوفيزيائية، وفيزيائية ـ فضائية. العسكريون كانوا على علم بذلك مقدماً، وكان باستطاعتهم التحذير، لكن ذلك كان سرّياً للغاية".

"مرض إشعاعي ـ لدى وحوش الغابة. إنها تهيمُ في الغابة على وجوهها حزينة، لها عيون حزينة. يخافُها الصيادون ويأسفون لإطلاق النار عليها. وهي بدورها لم تعد تخاف الإنسان. تدخلُ الثعالبُ والذئابُ القرية وتداعبُ الأطفال".

"يولد عند التشرنوبليين أطفال، لكن بدل الدم، يسيل في عروقهم سائل أصفر. هناك علماءُ قد أثبتوا: أن القرد أصبح متوقّدَ الذكاء، لدرجة، أنّه يعيشُ في الإشعاعات. والأطفال الذين سيولدون بعد ثلاثة ـ أربعة أجيال سيكونون مثل إنشتاين. كان ذلك تجربة فضائية أُجْرِيتْ علينا...".

أناتولي شيمانسكي، صحفي

مونولوج عن الفلسفة الديكارتيّة
وعن أكلِ سندويتش ملوّثٍ،
مع شخصٍ آخر، مخافة الخجل

"لقد عشت وسط الكتب... حاضرتُ في الجامعة عشرين عاماً...

العالم الأكاديمي... هو الإنسان، الذي اختار لنفسه الزمن المفضل في التاريخ، وهو يعيش هناك... مشغولاً تماماً بذلك، مُنغمساً في فضائه. في المثل الأعلى... المثل الأعلى، طبعاً... لأن الفلسفة كانت حينها عندنا الماركسية اللينينية، واقترِحتْ موضوعاتٌ للأطروحات العلميّة مثل: دور الماركسية اللينينية في تطوير الزراعة أو استصلاح الأرض البكر. دور زعيم البروليتاريا... وبشكل عام، ما كان هناك مجال للتفكير الديكارتي. لكن حالفني الحظ... فقد شاركَ بحثٌ علميٌ جامعيٌ لي في مسابقة في موسكو، فاتصلوا من هناك قائلين: "لا تتعرضوا لهذا الشاب. دعوه يكتب". وكتبت أنا عن الفيلسوف الفرنسي الديني مالبرانشن الذي حاول تفسير الإنجيل من موقع التفكير العقلاني. القرن الثامن عشر ـ عصر التنوير. الإيمان بالعقل. أي بأننا قادرون على تفسير العالم. وكما أفهم أنا الآن... فقد حالفني الحظ. لم أسقط في آلة كسر الأسنان... جَبّالة البيتون... معجزة!. قبل ذلك حذروني أكثر من مرّة: لحلقة بحث علمية جامعية مالبرانش ـ قد يكون مثيراً للاهتمام. لكن لأطروحة الدكتوراه يفترَضُ بك التفكيرمليّاً حول الموضوع. هذا أمرٌ

جديّ، نحن سنبقيك في الدكتوراه في قسم الماركسية ـ اللينينية... أنتم في الماضي هاجرتم... تدرك ذلك بنفسك...

بدأت بيريسترويكا غورباتشوف... الزمن الذي انتظرناه طويلا. أولا، ماذا لاحظت ـ أخذت تتبدل وجوه الناس، من أين ظهرت فجأة وجوه أخرى. وحتى الناس أصبحت تسير بطريقة أخرى، هناك تصحيح للحياة البلاستيكية، أصبحت الناس تبتسم لبعضها البعض أكثر. أخذت تشعر بطاقة أخرى في كل شيء. شيء ـ ما... نعم شيء ـ ما تغيّر تماما. دهشت أنا الآن، كيف حصل ذلك بسرعة. هزّتني أنا أيضاً من الحياة الديكارتية. بدل الكتب الفلسفية أقرأ أنا الآن الصحف والمجلات الطازجة، انتظرت على أحر من الجمر كل عدد من مجلة "أوغانيوك" التي أعادت بناء نفسها. اصطفت في الصباح طوابير على كوشكات الصحف، لم تقرأ الناس بهذا الشكل الصحف، لا "قبل"، ولا "بعد". لم تعد الناس تثق بهم، كما كانت من قبل. سارت فيضانات من المعلومات... لقد تم نشر وصايا لينين السياسية، التي تم حفظها نصف قرن في الأرشيفات الخاصّة. ظهرت أعمال سولجينتسن على رفوف محلات بيع الكتب، بعده شالاموف... بوخارين... قبل مدة قصيرة تم اعتقال وحاكمة الناس لاحتفاظهم بهذه الكتب. أعادوا الأكاديمي ساخاروف من المنفى. لأول مرّة يعرضون بالتلفزيون اجتماع مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفيتي. البلد كلّها جلست بفرغ الصبر أمام شاشات التلفاز... ونحن تحدثنا وتحدثنا... تحدثنا بصوت عال، عن مواضيع كنا نتحدث فيها همسا في المطابخ من قبل. كم جيل عندنا تحدث في المطابخ!. واختفت الأحاديث هناك!. وحلم!. أكثر من سبعين عاما.

كل التاريخ السوفييتي... الجميع يشارك الآن في الاجتماعات

الجماهيرية. وفي المظاهرات. يوقعون ـ بيانات ـ ما، ويصوتون ضد أحد ـ ما. أتذكر، كيف ظهر مؤرخٌ ـ ما على شاشة التلفزيون... وأحضر إلى الاستوديو خارطة معسكرات الاعتقال الستالينية... كل سيبيريا اشتعلت بالأعلام الحمر... عرفنا الحقيقة حول كورباتي... التي كانت بمثابة صدمة نفسية! خدر في المجتمع! كورباتي البيلاروسية ـ مقبرة أخوية في عام السابع والثلاثين. يرقد هناك مع البيلاروسين، روس، وبولونيون وليتوانيون... عشرات الآلاف... حفر رجال الأمن حفرة بعمق مترين، ووضعوا الناس هناك في طبقتين وثلاث طبقات. يوماً ـ ما كان هذا المكان بعيداً عن مينسك، ثم دخلت ضمن خارطة المدينة. وأصبحت مدينة. يمكن الوصول إليها بالقطار الكهربائي. غرسوها في الخمسينيات غابة فتية، ونما فيها السنديان، وتنزّه فيها سكان المدينة أيام عطل نهاية الأسبوع، دون أن يشكّوا بشيء. وتزلجوا على الثلج هناك. بدأت أعمال التنقيب... السلطة... السلطة الشيوعية كذبت. وأدارت ظهرها. ردمت الشرطة القبور المحفورة، وفي النهار أعادوا حفرها. لقد شاهدت لقطات وثائقية: صفوف الجماجم المنظفة من التراب... وفي كل جمجمة فتحة من الخلف...

طبعاً، عشنا بشعور، أننا نشارك في الثورة... في التاريخ الجديد...

أنا لم أبتعد عن موضوعنا... لا تقلقوا... أريد أن أتذكر، كيف كنّا نحن، عندما حصلت حادثة تشرنوبل. لأنهما سيبقيان في التاريخ معاً ـ انهيار الاشتراكية وكارثة تشرنوبل. لقد توافقا. تشرنوبل سَرّعَ من انحلال الاتحاد السوفيتي. وفجّر الإمبراطورية.

وجعل منّي سياسياً...

في الرابع من أيار... اليوم التاسع بعد الحادثة خطب غورباتشوف،

كان ذلكَ.. جبن بالطبع. ارتباك. مثلما كان الأمرُ في الأيام الأولى للحرب... عام واحد وأربعين... كتبوا في الجرائد عن المؤامرات المعادية والهيستيريا الغربية. عن التهويل المعادي للسوفييت، والشائعات الاستفزازية، التي يرسلها لنا الأعداء، من وراء التلال. أتذكر نفسي تلك الأيام... لم يكن هناك خوف لفترة طويلة، بقينا شهراً تقريبا في حالة انتظار، الآن، الآن سيعلنون: تحت قيادة الحزب الشيوعي علماؤنا... وجنودنا ورجال الإطفاء الأبطال... مرة أخرى انتصروا على الكارثة حققوا انتصارا غير مسبوق. حصرنا النار الفضائية في أنبوب اختبار. لم يظهر الخوفُ مباشرة، لم نسمح له بالدخول إلى نفوسنا فترة طويلة. إطلاقا... نعم... نعم! كما أذكر الآن... لم يستطع الخوفُ أن يتوحد في إدراكنا مع الذرة السلمية. مِنْ خلال كتب المدرسة التعليمية، ومن الكتب المقروءة... بدت خريطة العالم في تصوراتنا على الشكل التالي: الذرة الحربية ـ فطر ـ مشؤوم يصل إلى السماء، كما في هيروشيما وناغازاكي، تحوّل الناس في لحظة إلى رماد، لكن الذرة السلمية ـ مصباح كهربائي مسكين. كان لدينا صورة طفولية للعالم. عشنا بكتاب "ألف باء"... ليس نحن فحسب، بل البشرية جمعاء أصبحت أكثر ذكاء بعد تشرنوبل. وأصبحت أكثر نضوجاً. دخلت مرحلة جديدة من العمر.

أحاديث الأيام الأولى:

ـ تحترق المحطة الذريّة. لكن هناك بعيداً تحترق. في أوكرانيا.

ـ قرأت في الجرائد: أينما تذهب التقنيات العسكرية. والجيش. سننتصر!

ـ ليس في بيلاروسيا أية محطة ذريّة. نحن هادئون.

رحلتي الأولى إلى المنطقة...

سافرت في الطريق وفكّرتُ بأن كل شيء هناك مغطى برماد رصاصي اللون. سخام أسود. لوحة برولوف "اليوم الأخير لبومبي".... تصل إلى المنطقة ـ الجمال. الروعة! المروج المزهرة، الاخضرار الربيعي الناعم للغابات. أنا أحب هذا الوقت من السنة... كل شيء حيّ... ينمو ويغنّي... ما يثير دهشتي أكثر من سواه ـ هذا المزيج من الجمال والخوف. لم يعد ينفصل الخوف عن الجمال.، والجمال عن الخوف. كله معكوس... كما أذكر الآن... متداخل... شعور بالموت... غير معروف.

وصلنا مجموعة... لم يرسلنا أحد. مجموعة نوابٍ بيلاروسيين من المعارضة. يا لهذا الزمن! السلطة الشيوعيّة تتراجع... أُصبحت ضعيفة، غير واثقة. كل شيء كان يهتز. لكن القيادة المحلية استقبلتنا بشكل غير ودّي: "هل لديكم إذن بالدخول؟ هل تملكون الحق بإثارة الناس؟ وطرح الأسئلة؟ من كلفكم بهذه المهمّة؟ استندوا إلى تعليمات الجهات العليا: "لا داعي للذعر. انتظروا التعليمات". لكأنّهم يقولون لنا أنتم الآن ستحرضون وتخيفون الناس، ونحن نريد تنفيذ الخطة. في الحبوب واللحم. لا تخافون على صحة الناس، بل على الخطط. الجمهورية، والاتحادية... تخافون القيادة العليا. وهي تخاف من هو أعلى منها، وهكذا بالتسلسل وصولا إلى الأمين العام. شخص واحد يقرر، هناك في أعلى المرتفعات الصينية. هكذا هرم السلطة مبني. على رأسها ـ القيصر. في تلك اللحظة القيصر الشيوعي. وضحنا لهم: "كل شيء ملوّث هنا. كل ما تنتجونه، لا يجوز استخدامه في الطعام". ـ "أنتم ـ محرّضون. أوقفوا هذه الدعاية المعادية. سنتصل... وسنخبر الجهات العليا بالأمر...". واتصلوا. وقدّموا تقريرهم للجهات اللازمة...

قرية مالينوفكا... تسعة وخمسون كيوري للمتر المربع الواحد...

مررنا على المدرسة:

- كيف تعيشون؟

- خاف الجميع بالطبع. لكنهم هدأونا: نحتاج إلى غسل السطح فقط، إغلاقُ فتحة البئر بغطاء بلاستيكي، تعبيد الطريق بالإسفلت. ويمكننا العيش! صحيح. لماذا هذه القطط مصابة بالحكة، والحصان يسيل المخاط من أنفه حتى الأرض.

دعتنا مديرة المدرسة إلى بيتها. لتناول طعام الغداء. البيت جديد احتفلوا بالانتقال إليه منذ شهرين.. باللغة البيلاروسيّة يسمى هؤلاء - "فخودينني" أي الذين دخلوا البيت للتو للتو. إلى جانب البيت إسطبل كبير، وقبو. كان يسمى في زمن ما بيت الفلاحين الأغنياء، مثله تمت مصادرته. كان يعجب الناس ويثير حسدهم.

- ستضطرون لمغادرة المكان قريباً.

- لن نفعل بأي شكلٍ من الأشكال! كم بذلنا من جهدٍ في بناء البيت.

- انظروا إلى جهاز القياس...

- يزوروننا هنا... علماء، فليذهبوا إلى الجحيم! لا يسمحون للناس أن يعيشوا بهدوء!! - صاحب البيت لوّح بيده وذهب للحراثة على الحصان. لم يودعنا.

قرية تشوديانا... مئة وخمسون كيوري للمتر المربع الواحد...

النساء ينقبن الحدائق، الأطفال يلعبون في الشوارع. الرجال في نهاية القرية، يعالجون الخشب في إطار جديد. وقفوا جانب السيارة. تحلّقوا حولنا. طلبوا التدخين.

- كيف الوضع هناك في العاصمة؟ يبيعون الفودكا؟ لدينا - بين فترة

وأخرى، يساعدنا أننا نصنع السماغون. غورباتشوف لا يشرب، ولا يسمح لنا بالشرب.

ـ آها، آها يعني نواب... ونادراً ما يبيعون السجائر هنا.

ـ نبدأ التوضيح لهم: أيها الرجال لابدَّ أن تغادروا قريباً. إليكم الجهاز... انظروا: الإشعاعات في المكان الذي نقف فيه، أعلى بمئة مرّة من المعدل المسموح به.

ـ دعه جانبا... من يحتاج جهازك! أنت ستسافر ونحن الذين سنبقى هنا.

شاهدت أكثر من مرّة فيلماً حول غرق السفينة "تيتانيك": لقد ذكرني، بما رأيته بنفسي. كان ذلك أمام عيني... أنا نفسي عانيت في الأيام الأولى لتشرنوبل... وكان الأمرُ، كما على "التيتانيك"، تصرف الناس بما يشبه تصرفهم هنا. نفسيّة واحدة. لقد عرفت... وحتى أنني قارنت... ها هو قعر السفينة مكسور، وكمياتٌ ضخمة من الماء تندفعُ تحت السجن السفلي، يرمون البراميل، والصناديق... يزحفون... يتجاوزون العوائق... وفي الأعلى تشع الأنوار. تصدح الموسيقا. ويقدمون الشمبانيا. تستمر الجدالات الأسرية، وتبدأ قصص الحب. المياه تتدفق... ترتفع على السلالم... وفي الغرف...

تشع الأنوار. وتعزف الموسيقا. يقدمون الشمبانيا...

عقليتنا... حديث خاص... عندنا الإحساس في المقام الأول. وهذا يعطي مجالاً، يعطي علياء لحياتنا وفي الوقت نفسه مهلك. والخيار المنطقي بالنسبة لنا مهين. نتأكد من تصرفاتنا بالقلب، وليس العقل. تمر على قرية تدخلُ فناءً ـ فأنت إذاً ضيف. أنت فرحة... يهزّون رؤوسهم قائلين: "آخ، أسماك طازجة لا توجد، ليس هناك ما نعطيه" أو

"تريدون حليبا؟ سأسكب لكم الآن كأسا". لا يتركونك. ويدعونك إلى البيت. البعض خاف، أما أنا فقبلت الدعوة. دخلت. جلست إلى الطاولة. وأكلت شطيرةً ملوّثة، لأن الجميع يأكلون. شربت كأساً. وتملّكني شعور بالفخر، بأنني هكذا ـ أستطيع، قادر! نعم... نعم!. لقد قلت لنفسي: ما دمت غير قادر على تغيير شيء في حياة هذا الإنسان، فليكن أن بإمكاني، تناول شطيرة ملوّثة معه، حتى لا يشعر بالخجل. تقاسم المصير. هذه هي علاقتنا بحياتنا الخاصّة. لدي زوجة وطفلان، أتحمّل مسؤوليتهم. لدي جهاز قياسٍ في جيبي.. وكما أفهم الآن... هذا هو عالمنا، هؤلاء ـ نحن. شعرت بالفخر قبل عشر سنوات، أنني على هذا الشكل، أمّا اليوم فأشعر بالخجل، لأنني على هذا الشكل. ومع ذلك سأجلس إلى الطاولة وأتناول هذه الشطيرة الملعونة. لقد فكرت... لقد فكرت أي أناس نحن؟ لم تخرج هذه الشطيرة من رأسي. يجب أن تأكلها بقلبك، وليس بعقلك. أحدهم كتب بشكل جيد، بأننا في القرن العشرين... وها نحن في القرن الواحد والعشرين، نعيش كما علمنا أدب القرن التاسع عشر. يا إلهي! غالبا ما تعذبني الشكوك... وقد ناقشت ذلك مع الكثيرين... من نحن؟ من؟

لقد كان لي حديث ممتع مع زوجتي، هي أرملة أحد طياري الحوامات الذين استشهدوا. امرأة ذكيّة. جلست طويلاً معها. وقد أرادت أيضاً... أن تفهم... أن تفهم موت زوجها.. وأن تدرك معناه. وتتصالح معه. لم تستطيع. قرأت أكثر من مرّة في الصُحف، كيف كان عمل طياري الحوّامات فوق المفاعل. رموا بداية صفائح الرصاص، لكنها اختفت دون أثر في الفتحة، حينها تذكر شخصٌ ـ ما، بأن الرصاص يتحوّل إلى بخار في حرارة سبعمئة درجة، وهناك كانت الحرارة ألفي درجة. فطاروا على مستوى أدنى ورموا الدينوميت مع الرمل. هناك في

الأعلى كان ليل بسبب الغبار. ظلام. وأعمدة غبار. وكي يتمكنوا من رمي المواد بشكل أدق، اضطروا لفتح نوافذ غرف القيادة والنظر إلى الأسفل، لتحديد ما هي الاستدارة اللازمة: من اليمين إلى اليسار، ومن الأعلى للأسفل. الجرعاتُ جنونية!. أتذكر اسم المقالة: "بطل في السماء"، "صقور تشرنوبل". وها هي هذه المرأة... اعترفت لي بشكوكها: "يكتبون الآن أن زوجي ـ بطل. نعم، إنّه بطل. لكن ماذا يعني بطل؟ أعرف، أنّ زوجي كان ضابطاً صادقاً ومنفّذاً. ومُنَظّمَاً. عاد من تشرنوبل ليمرض بعد بضعة أشهر. قلّدوهُ وساماً في الكرملين، التقى هناك أصدقاءه، كانوا مرضى. نعم فرحوا، باللقيا. وصل إلى البيت سعيدا... ويحملُ وساماً... سألته حينها: "هل كان بإمكانك أن لا تؤذي نفسك إلى هذه الدرجة؟ وتحافظ على صحتك؟" ـ أجابني: "كان بإمكاني على الأرجح، لو فكرت أكثر، كنّا نحتاج إلى بذلة واقية، ونظارات خاصّة، وقناع. لكن لم تكن لدينا لا الأولى، ولا الثانية، ولا الثالث. ونحن أيضاً لم نراعِ قواعد السلامة الشخصية. لم نفكر"... "جميعنا حينها لم نفكر جيداً... للأسف، أننا لم نفكر جيداً من قبل...". أنا أوافقها الرأي... فمن وجهة نظر ثقافتنا، أن تفكر بنفسك ـ أنانيّة. ضعف في الروح. تجد دائماً ما هو أكبر منك. حياتك.

عام تسعةٍ وثمانين... السادس والعشرين من نيسان(أبريل) ـ الذكرى الثالثة. ثلاثة أعوام مرّت بعد الكارثة... تم نقل الناس من منطقة الثلاثين كيلومتراً، لكن أكثر من مليوني بيلاروسي ما زالوا يعيشون في الأماكن الملوّثة. نسوهم. حددت المعرضة البيلاروسية مظاهرة في هذا اليوم، لكنّ السلطة رداً على ذلك، أعلنت عن يوم عمل تطوعي. عُلّقت في المدينة الأعلام الحمر، افتتِحت البوفيهات المتنقلة وفيها المأكولات النادرة في ذلك الوقت: السجق، وقطع الشوكولا، زجاجات القهوة

المذابة. تسارعت في كل مكان سيارات الشرطة. عمل شباب بالثياب المدنية... التقطوا الصور التذكارية... إنّه عيد جديد! لم يعرهم أحدٌ أي اهتمام، لم يخشاهم الناس، كما من قبل. بل بدؤوا بالتجمّع عند حديقة تشيلوسكينتسوف... توافدوا وتوافدوا. أصبح عددهم حتى الساعة العاشرة: عشرين ـ ثلاثين ألفاً (استخدم إحصائيات الشرطة، أذاعوهم فيما بعد على شاشة التلفزيون)، وازدادت الجمهرة كل دقيقة. نحن لم نتوقع هذا العدد... هيا ـ نتحرّك... من يستطيع إعاقة هذا البحر من الناس؟ وفي الساعة العاشرة تماماً، كما خططنا، تحرّك التجمّعُ في شارع لينين إلى مركز المدينة، حيث يجب أن يعقد هذا الاجتماع الجماهيري. انضمت إلينا على طول الطريق مجموعات جديدة، كانت تنتظرنا في الشوارع والأزقة الموازية. وفي مداخل البنايات. انتشرت إشاعة: إنّ دوريات الشرطة والجيش أقفلت الطرق المؤدية إلى المدينة، يوقفون الباصات والسيارات التي تنقل المتظاهرين من الأماكن الأخرى، ويردونهم على أعقابهم، لكن لم يَستجيبْ ولم يُصبْ أحد بالذعر. تركت الناس وسائل المواصلات، ومشت نحونا سيراً على الأقدام. أعلنوا عن ذلك من خلال مكبّر الصوت. صدح فوق الجموع هتاف ضخم "أور ـ را ـ ا ـ ا ـ ا!"

امتلأت الشرفات... الجميع ـ متحفِّزون... الشرفات تغصُّ بالناس، وقد فتحوا نوافذهم على مصراعيها، تسلّقوا عتبات النوافذ. لوّحوا لنا بأيديهم، حيّونا بمناديلهم، وبقبعات الأطفال. لاحظتُ هنا... والجميع من حولنا تحدّث عن ذلك... أن الشرطة اختفت في مكان ما، والفتيان بالثياب المدنية وآلات التصوير... كما أذكر الآن... تلقوا تعليمات فدخلوا إلى أفنية البيوت، جلسوا وأقفلوا على أنفسهم السيارات وتحت القماش المشمع. السلطة تتربص.... وتتوقع... خافت... سار الناس

وبكوا، شبكوا أياديهم بعضهم ببعض. بكوا، أنهم انتصروا على خوفهم. وتحرروا من الرعب...

بدأ الاجتماع... ومع أننا حضرنا له طويلاً، وناقشنا قائمة المتحدثين، ما تذكّر أحد القائمة. توجهوا من أنفسهم إلى المنصّة التي شيّدت على عجل وتكلّم الناس البسطاء الذين قدموا من أماكن تشرنوبل ارتجالاً من دون أية أوراق،. وتشكل طابورٌ حيّ. سمعنا كلمات الشهود... قدّمَ الشهود إفاداتهم... من الأشخاص المعروفين خطب الأكاديمي فيليخوف، أحد القادة السابقين للقضاء على آثار الكارثة، لكنني لا أتذكر خطابه. أتذكّر كلمات آخرين...

أمٌّ مع طفلين... صبي وبنت...

امرأة تأخذ الطفلين إلى المنصّة: "إنهما لا يضحكان. لا يتحدّثان. لا يلعبان في الفناء. لا توجد لديهما طاقة. إنهما ككبار السن".

امرأة ـ من الذين عملوا على محو آثار الكارثة...

عندما شمّرت عن ساعديها، وعرضتهما للناس، الجميع شاهد القرحات عليهما، وحدثت قائلة: "غسلتُ ثياب رجالنا الذين عملوا قرب المفاعل. غسلنا معظم الثياب بأيدينا، لأنّ عدد الغسالات الآلية التي أحضروها كان قليلاً. وتعطلت بسبب ضغط العمل عليها".

طبيب شاب...

بدأ كلمته بتلاوة قسم غيبوقراط... قال أقفلوا على المعلومات كلها، التي تتعلق بالأمراض تحت شيفرة "سرّي" و"سريّ للغاية". يجرّون الطِّبَ نحو السياسة...

كان ذلك محكمة تشرنوبيل الميدانية.

أنا أعترف... لا أخفي: إنّه أكبر يوم في حياتي. لقد كنّا سعداء... أنا أعترف...

استدعونا، نحن منظمي المظاهرة، في اليوم التالي إلى قسم الشرطة وعنَّفونا، ذلك أن التجمهر أقفل الشارع، وعرقل حركة المواصلات العامة، ورُفِعت شعارات غير مصرّح بها. وعاقبوا كلاً منا بخمسة عشر يوماً في السجن، حسب المادة القانونية "الشغب المتعمّد". كان الجميع: القاضي الذي أصدر الحكم، والشرطة التي رافقتنا إلى السجن، خجولين. شعر الجميع بالحرج. أما نحن ضحكنا... نعم... نعم! لأننا كنا سعداء...

السؤال الذي انتصب أمامنا: ماذا يمكننا أن نفعل؟ ما العمل لاحقا؟.

في إحدى قرى تشرنوبل، وعندما عرفت امرأة أننا من مينسك، جثت أمامنا على ركبتيها قائلة: "أنقذوا ابني! خذوه معكم!! أطباؤنا لا يستطيعون معرفة مرضه. وهو يختنق، ويزرق. إنّه يموت". *(تصمت)*.

وصلت إلى المستشفى... عمر الصبي سبع سنوات. سرطان الغدة الدرقية. أردت أن أروّح عن نفسه، بدأت أمازحه. أما هو فقد استدار نحو الجدار: "لا تقلْ لي فقط أنني لن أموت. أعرف أنني سأموت".

لقد عرضوا أمامي في أكاديمية العلوم... أعتقدُ هناك... صورة شعاعية لرئتي رجل، محترقتان "بجزيئات ساخنة". كانت الرئتان تشبهان السماء المنجمة. "الجزيئات الساخنة" - هي جزيئات صغيرة جداً مجهرية، وقد تلقاها الرجل عندما سكبوا على المفاعل الساخن الرصاص والرمل. اتحدت ذرات الرصاص، والرمل والغرافيت ولشدة الضربات، ارتفعت عالياً في الهواء. وطارت إلى مسافاتٍ بعيدة... لمئات الكيلومترات... ومن خلال التنفس عبر الرئتين تصل الآن في جسم

الإنسان. غالبا ما يموت سائقو الجرارات وأولئك السائقين ـ الذين يقودون ويسافرون على الطرقات. أي جسمٍ تصل إليه هذه الجزيئات، يضيءُ في الصورة الشعاعية. مئات الثقوبِ، كما في رقعة المنخل. والإنسان يموت... يحترق... وإذا كان الإنسان يموت، فإن هذه الجزيئات أبديّة. الإنسان يموت وبعد ألف عام يتحول إلى تراب، إلى غبار، أمّا "الجزيئات الساخنة" فستعيش. وهي قادرة على القتل من جديد... (*يصمت*).

عدت من جولاتي... كنت ممتلئاً. حدَّثتُ... زوجتي، تخصُّصُها لغويّات، لم تمارس السياسة من قبل، ولا الرياضة، ولكنها هذه الأيام تسألني دائماً، السؤال نفسه: "ماذا بإمكاننا أن نفعل، وما الذي سيحدثُ لاحقاً؟". وبدأنا القيام بعمل، عملٍ من وجهة نظر التفكير السليم غير ممكن. الإنسان قادر أن يتخذ قراراً بهذا الشأن فقط في لحظة الهزة، في لحظة التحرر الداخلي الكامل. وحينها كان زمن... زمن غورباتشوف... زمن الآمال! الإيمان! لقد قررنا إنقاذ الأطفال. وفتح العالم، وأن نوضّح، في أي خطر يعيش أطفال بيلاروسيا. وأن نطلب لهم المساعدة. وأن نصرخ. ونقرع النواقيس كلّها!! السلطة صامتة، إنّها تخون شعبها، لن نصمت... وبسرعة... وبسرعة كبيرة... اجتمع جمع من المساعدين الموثوقين وذوي الفكر الواحد. يجب أن نتحرّك: "ماذا تقرأ؟ سولجينيتسن، بلاتونوف... إلينا...". عملنا لمدة عشرين ساعة في اليوم. يجب التفكير باسم منظمتنا... الاحتمالات والأسماء كانت كثيرة، توقفنا عند الأسهل والأبسط ـ صندوق "أطفال تشرنوبل". من الصعب توضيح وتصور شكوكنا... جدالاتنا... مخاوفنا... مثل هذه الصناديق، أصبحت لا تعد، لكن منذ عشر سنوات كنا أول من بدأ. أول مبادرة مدنية... من دون إذن من أحد في الأعلى... ردة الفعل عند الموظفين

جميعاً، كانت واحدة: "صندوق؟ أي صندوق؟ لدينا من أجل ذلك وزارة الصحة".

كيف أفهم ذلك الآن... لقد حررنا تشرنوبل... تعلمنا أن نكون أحرارا...

أمام عيني... *(يضحك)* .مازالت الصورة ماثلة أمام عينيّ دائماً... دخلت أولى الشاحنات المبردة المحملة بالمساعدات الإنسانية إلى فناء بيتنا. على عنوان المنزل.

نظرت إليهم من نافذة شقتي ولم أكن أتصوّر: كيف سأفرغ الحمولة، وأين أحفظها؟ أذكر جيدا، بأن السيارات من مولدافيا. سبعة عشر ـ عشرون طناً، من عصير الفواكه، وطعام الأطفال. ومن حينها انتشرت إشاعة: لكي تخرج الإشعاعات، يجب تناول الفواكه بكميات أكبر، إذاً يجب تناول هذه العصائر مع الطعام. اتصلت بالأصدقاء كلهم ـ منهم من كان في العزبة، ومنهم من كان في العمل. بدأنا بتنزيل البضائع وحدنا أنا وزوجتي، لكن بدأ تدريجيا ينضم إلينا واحد تلو الآخر، خرج الناس من بيتنا (وهو يتكون من تسعة طوابق)، وتوقف المارون مصادفة: "ما هذه السيارات؟". ـ "مساعدة لأطفال تشرنوبل". تركوا أعمالهم وانضموا إلينا. أنهينا حتى المساء، تفريغ حمولة السيارات. ووزّعناها في الطوابق السفلية والكراجات، واتفقنا أيضاً مع إحدى المدارس. ضحكنا فيما بعد على أنفسنا... وعندما نقلنا هذه المساعدة إلى المناطق الملوّثة... أخذنا بتوزيعها... عادة ما يتجمع الناس في المدرسة أو في دار الثقافة.

عندما كنا في منطقة فيتكوفسك... إليكم ما تذكرته الآن... حادثة مثيرة للاهتمام... أسرة فتيّة... استلموا مثل الآخرين، علب غذاء

للأطفال، وأكياس فيها عصائر. جلس الرجل وبكى. لم تستطع هذه العلب وهذه الأكياس إنقاذ أطفاله، كان بإمكانه أن يلوّح بيده ويقول ـ هذا هراء!. لكنّه بكى، لأنه عرف أننا لم ننسه. أحد ـ ما يفكر بهم. هذا يعني هناك أمل.

استجاب العالم بأكمله... لقد وافقوا على استقبال أطفالنا للعلاج في إيطاليا، وفرنسا، وألمانيا... نقلتهم شركة طيران "لوفتهانزا" الألمانية، إلى ألمانية على نفقتها الخاصة. أجروا مسابقة وسط الطيارين الألمان، انتقوهم لفترة طويلة. وقام بالمهمة أفضلهم. وعندما سار الأطفال نحو الطائرة، لفت نظرالناس أنهم كانوا شاحبين ـ شاحبين جميعاً. وهادئين ـ هادئين. وبالطبع.. لم تمر الأمور بدون أحداث طريفة... *(يضحك)*. دخل إليّ في المكتب على عجل والد أحد الأطفال وطلب إعادة وثائق ابنه قائلاً: "سيأخذون هناك من أطفالنا عينات من الدم. وسيجرون عليهم اختبارات". طبعا، لم تمت الذاكرة عن تلك الحرب المخيفة... الشعب ما زال يذكر... ما أريد أن أقوله هو شيء آخر: لقد عشنا لفترة طويلة خلف أسلاك شائكة. في المعسكر الاشتراكي. كنا نخاف العالم الآخر... لم نعرفه... الآباء والأمهات التشرنوبليات ـ هذا موضوع آخر. لمتابعة الحديث عن عقليتنا... عن العقلية السوفيتية ـ انهار الاتحاد السوفييتي... وما زالوا ينتظرون المساعدة من الدولة الكبيرة والقويّة، التي لم تعد موجودة. تشخيصي أنا... هل تريدون معرفته؟ خليط من السجن ورياض الأطفال ـ هذه هي الاشتراكية. اشتراكية الاتحاد السوفييتي. أعطى الإنسان الدولة روحه، وضميره، وقلبه، وتلقى في المقابل وجبة غذاء. فمن حالفه الحظ ـ حصل على وجبة كبيرة، والآخرون على وجبات صغيرة. شيء واحد تساوى الجميعُ فيه ـ لقد أعطوا مقابل ذلك أرواحهم. إن أكثر ما كنّا نخشاه، هو أن ينشغلَ

صندوقنا بتوزيع هذه الوجبات فحسب. وجبات تشرنوبل. وقد اعتاد الناسُ الانتظار والشكوى: "أنا ـ من تشرنوبل، ولدي مخصصات لأنني من تشرنوبل". كما أفهم ذلك الآن... تشرنوبل ـ هو تجربة كبيرة لروحنا أيضاً. ولثقافتنا.

العام الأول أرسلنا للعلاج في الخارج خمسة آلاف طفل، والعام الثاني ـ عشرة.. والثالث ـ خمسة عشر ألفا...

هل تحدثتم مع الأطفال عن تشرنوبل؟ ليس مع البالغين، بل مع الأطفال؟ تجد عندهم أحيانا محاكمات عقلية غير متوقعة. بالنسبة لي كفيلسوف دائماً تثير اهتمامي. مثال... حدثتني فتاة، كيف أرسلوا تلاميذ صفها في المدرسة عام ستة وثمانين إلى الحقل... لجني الشوندر والجزر. شاهدوا يومها في كل مكان فئراناً ميتة، وضحكوا: ها هي الفئران والجنادب، والديدان تموت، ثم تبدأ تموت الأرانب، والذئاب. نتبعها ـ نحن. الناس هم آخر من يموت. ثم سرحوا بخيالهم، كيفَ سيصبح العالم من دون وحوش وطيور. ومن دون فئران. سيعيشُ الناس وحدهم لمدة من الزمن. من دون الكائنات. وحتى الذباب سيتوقف عن الطيران. أعمار أولئكَ التلاميذ كانت من الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة. هكذا تصوروا المستقبلَ لأنفسهم.

حديث فتاة أخرى... ذهبتُ إلى معسكر الطلائع، وهناك تعرفت إلى صبي: "إنّه صبيّ جيد ـ تذكّرتْ قائلةً ـ أمضينا الوقت سويّة". ثم قال له أصدقاؤه، إنّها من تشرنوبل ـ بعدها لم يعد يقترب منها، أبداً. تراسلت مع هذه الفتاة. كتبت لي تقول: "الآن، وعندما أفكر بمستقبلي، أحلم، بأنني سأنهي المدرسة، وأسافر إلى مكان ـ ما بعيد، بعيد، حيث لا يعرف أحد من أين أنا. وهناك سيحبني شخصٌ ما. وسأنسى كل شيء...".

سجلوا، سجلوا... نعم... نعم!. سينمحي كل شيء من الذاكرة، ويخرج. أنا أشكو، بأنني لم أسجّل... وهاكُم قصة أخرى... وصلنا إلى قرية ملوّثة. يلعب الأطفال بالكرة بجوار المدرسة. تد حرجت الكرة إلى حوض مزروع بالورود، التفَّ الأطفال حوله، وراحوا يدورون في المكان، لكنهم خافوا أن يلتقطوا الكرة. لم أفهم في البداية، ما المشكلة، عرفت نظريا، لكنني لا أرى ما يُخشى هنا، لا أتقيدُ بالحذر على الأغلب، أنا أتيت من العالم الطبيعي. خطوت نحو الحوض. صرخ الأطفال قائلين: "ممنوع! ممنوع! أيها العم، ممنوع!". اعتادوا لمدة ثلاث سنوات (كان ذلك عام تسعة وثمانين)، على فكرة: لا تجلسوا على العشب، لا تقطفوا الورود. لا تتسلقوا الشجرة. عندما نقلناهم إلى الخارج وطلبنا إليهم: "اذهبوا إلى الغابة، اذهبوا إلى النهر. اسبحوا، تشمّسوا"، كان يجب مشاهدتهم، كيف بدوا غير واثقين من النزول إلى ماء... وكيف داعبوا العشب... لكن بعد ذلك... بعد ذلك... كم كانوا سعداء! يمكننا مرة أخرى الغطس، والاستلقاء على الرمل... تجولوا طوال الوقت بباقات الورد، وجدلوا أكاليل من الأزهار البرية. بماذا أفكر؟ بماذا... كيف أفهم ذلك الآن... نعم، نستطيع نقلهم ومعالجتهم، لكن كيف يمكن إعادة العالم السابق إليهم. كيف يمكن إعادة الماضي. والمستقبل.

ويبرز السؤال الآن: من نحن؟ بدون الإجابة لن يحدث شيء ولن يتغيّر. ما هي الحياة بالنسبة لنا؟ وما هي الحرية بالنسبة لنا؟ نحن نستطيع أن نحلم بالحرية. وكان بإمكاننا أن نكون أحراراً، لكن لم نصبح. أخفقنا مرّة أخرى. سبعين عاماً بنينا الشيوعية، اليوم نبني الرأسمالية. صلينا لماركس من قبل، والآن نصلّي للدولار. نحن ضعنا في التاريخ. عندما تفكّر بتشرنوبل، فإنّك تعود إلى هنا، إلى هذه النقطة: من نحن؟ ماذا

فهمنا عن أنفسنا؟ عن عالمنا؟ تحفظ في متاحفنا الحربية، وهي عندنا أكثر من المتاحف الفنيّة، الرشاشات القديمة، حربات، قنابل، وتقف في الفناء الدبابات ومدافع الهاون. يصطحبون الأطفال إلى هناك في رحلة ويطلعونهم: هذه هي الحرب. هكذا هي الحرب... أما الحرب التي تدور الآن فهي أخرى... في السادس والعشرين من نيسان (أبريل) عام ألف وتسعمئة وستة وثمانين عشنا حرباً جديدةَ لم تنته بعد.... ونحن... من نحن؟".

غينادي غروشيف، نائب في البرلمان البيلاروسي،
رئيس صندوق "من أجل أطفال تشرنوبل"

مونولوج عن، أننا نزلنا منذ زمن عن الشجرة وما فكرنا بطريقة، نجعلُها تنمو عَجلةً في الحال

"اجلسوا... هيّا أقرب... لكن سأكون صريحاً: لا أحب الصحفيين، أما هم فلا يشكون منّي.

- ولماذا هذا؟

- لا تعرفون؟ لم يسعفهم الوقت لتحذيركم؟ هكذافهمتُ، لماذا أنتم هنا. أنا - شخصيّة بغيضة. هكذا يرفعُ من شأني أخوك الصحفي. يصرخُ الجميعُ من حولنا: يجب ألا نعيش على هذه الأرض. وأنا أجيبهم - بل ممكن. يجب أن نتعلم العيش عليها. ونمتلك الشجاعة. هيأ لنقفل المساحات الملوّثة، ونطوّقها بشريط شائك (ثلث البلد)، نترك كل شيء ونهرب. توجد لدينا أراض كثيرة بعد. لا! فمن جهة حضارتنا معادية للبيولوجيا، والإنسان هو العدوّ اللدود للطبيعة، لكن من جهة أخرى هو - مبدع. ويستطيع تغيير العالم. برج إيفل على سبيل المثال، المركبة الفضائية... لكن التقدم يتطلب تضحيات، وكلما سرنا إلى الأمام نحتاج إلى تضحيات أكبر. لا تقلُ عن حرب، أصبح ذلك واضحاً الآن. تلوّث الهواء، تسممت الأرض، ثقوب الأوزون... مناخ الأرض يتغيّر. وهذا ما يرعبنا. لكن المعرفة بنفسها، لا يمكن أن تكون ذنباً أو جريمةً. تشرنوبل... من المذنب - المفاعل أم الإنسان؟ ومن دون نقاش - إنّه الإنسان، لقد خدمه بشكل سيء، لقد ارتكب أخطاء عجيبة. جملةً من

الأخطاء. لن أتعمّق في الجانب التقني... فالأمرُ أصبح حقيقة... عملت مئات اللجان والخبراء. إنّها أكبر كارثة تكنولوجيّة في تاريخ البشرية، خسائرنا المادية خيالية، ولكن يمكن بشكل ـ ما حسابها. فماذا عن الخسائر غير المادية؟. لقد ضرب تشرنوبل تصوراتنا. مستقبلنا... لقد خفنا من المستقبل... حينها ما كان يجب النزول عن الشجرة، أو كان علينا التفكير بطريقة ـ ما، كي تنمو الشجرةُ مباشرةً عجلةً. وفق عدد الضحايا، ليست كارثة تشرنوبل، بل حوادث السيارات هي من يحتل المركز الأول في العالم، لماذا لا أحد يمنع إنتاج السيارات؟ واستعمال الدراجة الهوائية أو الحمار عوضاً عنها فذلك أقل خطراً... أو العربة الصغيرة...

يصمت الجميع هنا... خصومي يصمتون.

يتهمونني... ويسألون: "كيف تنظر إلى، أنّ الأطفال يشربون حليبا ملوّثا؟ ويأكلون ثمارا ملوّثة". أنظر إلى ذلك بشكل سيء. سيء جدا!! لكنني أعتبر أن لدى الأطفال بابا وماما، وتوجد حكومة، التي يجب عليها التفكير بذلك. أنا ضد شيءٍ واحدٍ... أن ضد ذلك، كي يتعلم الناس الذين لا يعرفون، أو نسوا جدول مندليييف، كيف يعيشون. أخافونا. هكذا عاش شعبنا دائماً في حالة خوف ـ ثورة، حرب. هذا الغول الدموي... الشيطان! ستالين... والآن ـ تشرنوبل... ثم نستغرب، لماذا الناس عندنا هكذا؟ لماذا ليسوا أحرارا، ويخافون الحرية؟ لقد اعتادوا أكثر أن يعيشوا تحت سلطة القيصر. تحت سلطة القيصر ـ الكاهن. يمكن تسميته الأمين العام أو الرئيس، لا يوجد فرق. ولا أي فرق. لكن أنا لست سياسياً، أنا ـ عالم. أفكر طوال حياتي بالأرض، أدرس الأرض. الأرض هي مادة محيّرة، مثلها مثل الدم. نعتقد أننا نعرف كل شيء عنها، لكن سرّاً ـ ما يبقى دون معرفة. لقد انقسمنا ـ

ليس من مع أن نعيش هنا، ومن ضد، بل لعلماء وغير علماء. إذا حصلت لك نوبة الزائدة الدودية ويجب إجراء عملية جراحية، فإلى أين تذهب؟ تذهب طبعاً، إلى الجرّاح، وليس إلى ناشط اجتماعي متحمّس. ستستمعون إلى تخصصيٍّ. أنا ـ لست سياسياً. لنرَ... ماذا يوجد في بيلاروسيا، عدا الأرض، والماء، والغابات؟ هل لدينا نفط؟ أو ألماس؟ لا يوجد شيء من هذا. لذلك يحب الحفاظ على ما هو موجود. إعادة تأهيله. نعم... طبعاً... يأسفُ لوضعنا، الكثيرُ من الناس في العالم يرغبون بمساعدتنا، لكننا لا يمكن أن نعيش للأبد على عطايا الغربيون. والاعتماد على نقود الآخرين. من أراد أن يغادر، قد غادر، وبقي فقط الذين يرغبون في العيش هنا، وليس بالموت بعد تشرنوبل. هنا وطنهم.

ـ ماذا تقترحون؟ كيف سيعيش الإنسان هنا؟

ـ الإنسان يعالج... والأرض الوسخة تعالج أيضاً...

يجب العمل. يجب التفكير. وعلينا أن نصعد لو بخطوات صغيرة، إلى ـ مكان ما. نمشي إلى الأمام. أمّا نحن... كيف نتعاملُ مع الأمور؟ حسب كسلنا السلافي العجيب نحن على الأرجح نؤمن بالمعجزة، أكثر من إيماننا بقدرتنا على إبداعِ شيء ـ ما بأيدينا. انظروا إلى الطبيعة... يجب التعلّم منها... الطبيعة تعمل، هي تنظف نفسها بنفسها، ستساعدنا. تتصرف بعقلانية أكثر من الإنسان. هي تسعى لتحقيق توازن بدائي. للأبدية.

يستدعوني إلى مقر لجنة المنطقة الحزبية...

ـ المسألة ليست عادية... افهمينا، سلافا كونستنتينوفا، لا نعرف بمن نثق. عشرات العلماء يؤكدون أمراً، وأنت ـ تؤكدين أمراً آخر. هل

سمعتِ عن الساحرة الشهيرة باراسكا؟ قررنا دعوتها إلينا، وهي تعمل طوال الصيف على تقليل كمية إشعاعات جمّا في الجو.

هذا مضحك بالنسبة لكم... لقد حدّثني في هذا الموضوع أناس جديّون، تم التوقيع مع باراسكا هذه الكثير من العقود لصالح عدد من المزارع. ودُفع لها أموال كثيرة. لقد شهدنا هذه النزوات... كسوف كليّ للعقول... هيستيريا عامّة... تذكرون؟ الآلاف... بل الملايين جلسوا أمام شاشات التلفزيون، أمام أولئك السحرة الذين سمّوا أنفسهم اختصاصيي الظواهر الخارقة، مثل تشوماك، ومن بعده كاشبيروفسكي "يشحنون" الماء بطاقة ـ ما. حتى زملائي، الذين يحملون درجات علمية عالية ملؤوا زجاجات تتسع لثلاث ليترات من الماء، ووضعوها أمام شاشات التلفزيون. ثم شربوا تلك المياه، واغتسلوا بها... أعتقدوا أن هذه المياه تشفي من الأمراض. أجرى هؤلاء السحرة طقوسهم في الملاعب الرياضية، حيث تجمعت أعداد كبيرة من الناس، لم تحلم بها ألاّ بوغاتشوفا[1]. انطلق الجمهورُ راجلاً وراكباً الآليات، وزاحفاً. بإيمان لا يُصدّق! نعالج بعصا سحرية من كل الأمراض! وما هذا؟ مشروع بلشفيّ جديد... الجمهور معبّأ بالحماس... رؤوسه ملأى بالطوباوية... فكرت: "ها هم السحرة الآن سينقذوننا من تشرنوبل".

سؤال لي:

ـ ما هو رأيك؟ طبعاً، نحن ملحدون، لكن يقولون ذلك... يكتبون في الصُحف... سننظم لكم لقاء؟

---

(١) مغنّية روسية سوفييتية شهيرة.

التقيت بباراسكا... من أين ظهرت، لا أعرف. ربما، من أوكرانيا. لقد تجوّلتْ عامين وانزلت مستوى أشعة جمّا.

سألتها:

ـ ما الذي تنوين فعله؟

ـ لديّ قوى داخلية... أشعر أن باستطاعتي تخفيض أشعة جمّا.

ـ ماذا تحتاجين من أجل ذلك؟

ـ أحتاج إلى طائرة حوّامة؟

غضبت من باراسكا، ومن مسؤولينا، الذين استمعوا إليها، وأقنتهم بدهائها، وفتحوا أفواههم ببلاهة.

قلت لها:

ـ لماذا طائرة حوّامة مباشرة. نحضر الآن تراباً ملوّثاً وننثره على الأرض. ولو لمساحة نصف متر مربع. وهيّا... اطردي الأشعة...

وهكذا فعلنا. أحضرنا تراباً... وبدأت طقوسها... تمتمت بكلامٍ ما، بصقت. أرواحا ـ ما طردت بيديها. وماذا؟ ما الذي حصل. لم يحصل شيء. تقبعُ باراسكا الآن في أحد السجون الأوكرانية. بتهمة الاحتيال. ساحرة أخرى... وعدت بتسريع خمود السترونتيوم والسيزيوم على مساحة مئة هكتار. من أين أتت أيضاً؟ أعتقد، ولدتها رغبتنا بالمعجزة. توقعاتنا. صورهم، ومقابلاتهم الصحفية. أحدهم قدّم لهم صفحات بأكملها في الصُحف، وأثمن أوقات في التلفزيون. إذا هاجر الإيمان بالعقل من رأس الإنسان، يستقرُ الخوف في روحه، كالإنسان البدائي. وتتسلق الوحوش الكاسرة...

يصمتون هنا... يصمتُ خصومي...

أذكر مسؤولاً كبيراً واحداً فقط، اتصل بي وطلب إليّ قائلاً: "سأحضر إليك في المعهد، وأريد أن توضّحي لي: ما هو كوري؟ وما هو المايكرورينجن؟ وكيف هذا المايكرورينتجن يتحوّل، ولنقل إلى نبض؟ أتجوّل في القرى، ويسألونني، وأنا كالأبله. وكتلميذ". وجد مسؤول واحد فقط. الكسي الكسيفيتش شاخوف... سجلوا اسمه... أمّا معظم المسؤولين الآخرين، فلم يرغبوا في معرفة أية فيزياء ورياضيات. أنهوا جميعهم المدرسة الحزبية العليا، وهناك درسوا بشكل جيد مادة واحدة ـ الماركسية. وإلهام وإثارة الجماهير. المحاكمة العقلية للكوميساريين... التي لم تتبدل منذ أيام خيّالة بوديوني... أنا أتذكر القول المأثور للقائد المفضل عند ستالين: "لا يهمّني رأس من أقطع. يعجبني تأرجح السيف في يدي".

فيما يخص التوصيات... كيف يمكننا العيش على هذه الأرض؟ أخشى أن تملّوا كما الجميع. لن تجدوا إثارة ألعاب المفرقعات. كم مرّة تحدثت أمام الصحفيين، وقلت شيئاً، وقرأت في اليوم التالي شيئاً آخر. كان يجب على القارئ أن يموت من الخوف. أحدهم رأى في المنطقة مزرعة للحشيشة ومستوطنة لمدمني المخدرات. وآخر رأى قطة بثلاثة ذيول... راية في السماء يوم الحادثة...

هذه هي البرامج التي أعدّها معهدنا، مذكرات مطبوعة لفلاحي الكولخوزات وللسكان. يمكنني تقديم نسخة منها إليكم... روّجوا لقراءتها....

مذكرة لفلاحي الكولخوزات... *(تقرأ)*

ماذا نقترح؟ تعلم التحكم بالإشعاعات، مثل الكهرباء، وتوجيهها. من أجل ذلك من الضروري إعادة بناء نموذجنا الاقتصادي...

تصحيحات... بدل الحليب واللحم العمل على إنتاج محاصيل تقنية، لا تدخل في الطعام. الشلجم مثلاً. يمكن عصر الزيت منه، بما في ذلك زيت السيارات. واستخدامه كوقود في المحرّك. يمكن زرع البذور والشتلات. يمكن تعريض الحبوب للإشعاعات بشكل خاص في الظروف المخبرية للحفاظ على نقاء صنفها. إنها آمنة بالنسبة لها. هذه إحدى الطرق. هناك طريقة ثانية... إذا كان ولابد من انتاج اللحوم.. وليس لدينا أساليب لتنقية الحبوب الجاهزة، نجد حلا ـ بأن نغذي بها المواشي، نمررها من خلال الحيوانات. نسميها طريقة إبطال مفعول الإشعاعات بالحيوانات. قبل الذبح بشهرين ـ ثلاثة نؤويها في الإسطبل، ونحضر لها علفاً "نقياً". إنّها تتطهّر...

أعتقد، أن ذلك كافٍ.. لن أقرأ عليكم محاضرة؟ نحن نتكلم عن أفكار علمية... يمكن أن أسمّي ذلك فلسفة البقاء على قيد الحياة...

ملاحظة للقطاع الخاص...

أصل إلى القرية إلى كبار السن... أقرأ لهم... يطبطبون بأقدامهم، يرفضون سماعي، يريدون أن يعيشوا كما عاش أجدادهم وأجداد أجدادهم. يردون شرب الحليب... والحليب يُمنَعُ شُربه. اشترِ فارزة واستخرج منه لبناً رائباً، واخفق الزبدة. اسكب المصل منه في التراب. تريدون تجفيف الفطور... اغسلها بداية ـ ضعها في الحفرة طوال الليل، ثم جففها. الأفضل طبعاً عدم أكلها. فرنسا كلّها تعيش على الفطور المنتجة في المزارع. إنّهم لا يزرعونها في الهواء الطلق، وإنما في البيوت البلاستيكية. أين بيوتنا البلاستيكية؟ البيوت في بيلاروسيا خشبية، يعيش البيلاروسيون منذ الأزل وسط الغابات، لذلك الأفضل أن نبني طبقة من القرميد على جدران المنزل من الخارج. لأن القرميد يبدد

الإشعاعات المؤيّنة (أكثر بعشرين مرّة من الخشب). يتطلّب تسميد الأرض حول المنزل مرة كل خمس سنوات. السترونتيوم والسيزيوم مواد شرّيرة. تنتظر ساعتها. يمنع تسميد الأرض بروث حيواناتكم، الأفضل شراء أسمدة طبيعية...

- نحتاج لتنفيذ خططكم بلداً آخر، وإنساناً آخر وموظفاً آخر. المرتب التقاعدي لا يكفي كبار السن لشراء الخبز والسكر، وأنتم تنصحون - بشراء الأسمدة الطبيعية. وشراء الفارزة...

- أستطيع الإجابة... أنا الآن أدافع عن العلم. أنا أثبت لكم، بأن العلم غير مذنب في تشرنوبل، بلِ الإنسان. وليس المفاعل، بل الإنسان. أمّا الأسئلة السياسية فليست موجهة إلي. ربما أخطأتم العنوان...

أو... لقد نسيت! خرجت من رأسي الحادثة، وكنت دونتها أمامي على ورقة كي لا أنساها. سأحدثكم... وصل إلينا من موسكو عالم شاب، حلمه المشاركة في مشروع تشرنوبل. اسمه يورى جوتشينكو... اصطحبَ زوجته الحامل... وهي في شهرها الخامس... فتح الجميع أيديهم - لماذا؟ ما هو السبب؟ مواطنونا يرحلون، والغرباء يأتون. لأنّه عالم حقيقي، يريد أن يثبت: أن الإنسان المتعلم بإمكانه العيش هنا. المتعلّم والمنضبط، وهاتان الصفتان، اللتان تقيّمان عندنا في الدرك الأسفل من الصفات. نحن نريد أن نستلقي أما المدفع بصدور عارية. ونحمل المشعل وننطلق بسرعة... وذاك العالم.. يغسل الفطر، ويفرغ المياه الأولى بعد سلق البطاطا... يتناول الفيتامينات باستمرار، يحضر الثمار لفحصها في المخبر. يدفن الرماد في الأرض... كنت في ألمانيا وشاهدت، هناك، كيف أنَّ كل ألماني يصنّف بعناية القمامة في الشارع -

في هذه الحاوية الزجاج الأبيض، وفي الأخرى الأحمر... أغطية علب الحليب منفصلة ـ وهناك حيث البلاستيك يتم رمي الكيس، والورق. والبطاريات الصغيرة المنزوعة من آلات التصوير في مكان ـ ما. الفضلات البيولوجية منفصلة... الإنسانَ يعمل... لا أتصور الإنسان عندنا يعمل بهذه الطريقة، إنّه يعدُّها مُملّة ومُذلّة. يا للشيطان. أسهل عليه أن يعيد توجيه الأنهار السيبيريّة في الاتجاه المعاكس... من أن يُقدم على عمل مشابه... افعلوا ما شئتم... لكن لكي تبقوا على قيد الحياة، يجب عليكم أن تتغيّروا.

تلك ليست أسئلتي.. إنها أسئلتكم... هي أسئلة الثقافة.. والعقلانية... وكل حياتنا.

صمتوا هنا... خصومي أيضاً يصمتون... (شردت).

أريد أن أحلم... بأنّه في وقت قريب، سيغقلون محطة تشرنوبل. وينقلونها من مكانها. وتتحول المساحة مكانها إلى حديقة خضراء...".

سلافا كونستانتينوفنا فيرساكوفا

دكتور في العلوم الزراعية

مونولوج البئر المغلق

وصلت بصعوبة إلى مزرعة قديمة، عبر الطين المتشكل بعد ذوبان الثلج في الربيع. تعطلت فجأة سيارة الجيب التي تبدو وكأنها سيارة للشرطة ـ لكن لحسن الحظ بجانب بيت ريفيّ، مغروس بشجر السنديان والقيقب الواسعة. وصلت إلى القاصّة وكاتبة الشعر الغنائي المشهورة في بوليس ـ ماريا فيدوتوفنا فيليشكو.

التقيتُ أبناءها في فناء البيت. تعارفنا: الأكبر ماتفي ـ معلم مدرسة، الأصغر أندري ـ مهندس. بدؤوا الحديث بمرح، وكما توضّح، فقد كانوا متوترين بسبب استعدادهم لمغادرة المنطقة.

ـ ضيف ـ إلى الفناء، وصاحبة البيت تقبلُ من الفناء. نصطحب الأم إلى المدينة. ننتظر السيارة... وأنتم أي كتاب تكتبون؟

ـ عن تشرنوبل؟

ـ تذكّرُ تشرنوبل اليوم مثير للاهتمام... أنا أتابع ما يكتبون في الصحف حول هذا الموضوع. الكتب ما زالت قليلة. يجب عليّ أنا كمعلم أن أعرف، لم يعلمنا أحد، كيف نتحدّث عن ذلك إلى أطفالنا. ما يقلقني ليس الفيزياء... أنا أعلّمُ الأدب، وما يقلقني مثل هذه الأسئلة: لماذا انتحر الأكاديمي ليغاسوف، أحد أولئك، الذين قادوا الأعمال لإزالة آثار الحادثة. عاد إلى موسكو وأطلق النار على نفسه. وكبير مهندسي المحطة لماذا فقد عقله... جسيمات ـ بيتا.. جسيمات ـ ألفا...

السيزيوم، السترونتيوم... ستتحلل، وتغسل، وتنقل... فماذا عن الإنسان؟

ـ وأنا مع التقدم! مع العلم! لن يتخلّى أحدٌ منّا عن المصباح الكهربائي... أصبحوا يتاجرون بالخوف... يبيعون خوف تشرنوبل، فليس لدينا ما نستطيع بيعه في السوق العالمية. بضاعة جديدة ـ نبيع معاناتنا.

ـ لقد هجّروا مئات القرى... عشرات آلاف من الناس.... أتلنتيدا العظيمة... لقد توزعوا على مساحة الاتحاد السوفييتي، تصعب إعادتهم. لا يمكن أن ننجو. فقدنا عالماً بأكمله... مثل ذلك العالم لن يكون، ولن يتكرر. استمعي لأمي...

حديث غير متوقع، ابتدأ بجديّة، وللأسف، لم يستمر. انتظرني عمل عاجل. لقد أدركت: إنّهم يتركون بيتهم الأم للأبد.

ظهرت صاحبة البيت عند العتبة. عانقتني كأخت، وقبلتني.

ـ دونيشكا، لقد أمضيت هنا شتاءين. الناسُ لا يأتون... الوحوش تتجوّل... قفز أمامي ثعلب، شاهدني ودهش. إنّه الشتاء النهار طويل، والليل أيضاً، كالحياة، لكنت غنيّت لك، وحكايات أسمعتك. الإنسان المتقدم في السن يمل العيش، والحديث ـ هو عمله. في وقت ما كان الطلاب يأتون من العاصمة، يسجلون لي على آلة التسجيل. كان ذلك منذ زمن طويل... قبل تشرنوبل...

ماذا أحدثك؟ وهل يسعفني الوقت... "بَصّرتْ" لي ساحرة على المياه منذ فترة ودلتني على الطريق... جذرُنا يُقتلع من الأرض. أجدادنا وأجداد أجدادنا عاشوا هنا. ظهروا هنا في الغابات وتلا بعضهم بعضاً، قرناً وراء قرن، أمّا الآن فقد حلّ هذا الزمن، المصيبة تطردنا من أرضنا. لم تكن مثل هذه المصيبة حتى في الحكايات، لا أدري.

أتذكرك دونيشكا، كيف بصرّنا ونحن فتيات... ذكريات جميلة... مرحة... كيف بدأت حياتي هنا... مع أمي وجدتي كانت الحياة مرحة في هذا المكان قبل عام ١٩١٧. حينها كنا ننتظر الزواج. كانوا يسمّونه ذا الملابس ـ الضيقة، وعندنا يسمونه الغراب. في الصيف كنا "نبصّر" على الماء، أما في الشتاء فعلى الدخان، إلى حيثُ يتجه الدخان، تتزوجين. كنت أحب "التبصير" على الماء... على النهر... الماء هو أول ما ظهر على الأرض، إنهُ يعرفُ كلَّ شيء. يمكن أن ينبئك بما سيحدث. يضعون الشمعة في الماء، ويسكبون الشمع فإذا طفت الشمعة، هذا يعني الحب قريب، وإذا غرقت ـ ستبقين ذلك العام بنتاً عزباء. ستبقين بنتاً. أين حصّتي؟ أين سعادتي؟ "بصّرنا" بكل الطرق... أخذنا المرآة وذهبنا إلى الحمّام، جلسنا هناك ليلة، فإذا ظهر أحد، يجب دعوته مباشرة إلى الطاولة، وأحيانا يقفز الشيطان. يحب الشيطانُ العبور من خلال المرآة... من هناك... "بصرنا" على الظل... أشعلنا أوراقاً فوق الكأس ونظرنا إلى الظل على الجدار. إذا ارتسم صليب ـ إلى الموت، وإذا ارتسمت قبة كنيسة ـ إلى الزواج. منا من بكى ومن ضحك... كل واحد حسب نصيبه... كنا ننزع الحذاء ليلاً ونضع إحدى فردتيه تحت المخدة. فإذا ضاقت خلال الليل فذلك يعني إن أحدهم سيبدل لك الحذاء، تنظرين إليه جيداً، وتحفظين ملامح وجهه. أنا جاءني شخصٌ آخر، ليس زوجي أندريه، كان طويلاً وجهه أبيض، أمّا أندريه فلم يكن طويلاً، وحاجباه أسودان وكان يضحك ويخاطبني باسماً: "آخ، مالكتي ـ سيدتي... سيّدتي أنت..." *(تضحك)* .عشنا سوية ستين عاماً... أطلقنا إلى الدنيا ثلاثة أطفال... توفي.. نقله أولادي إلى المقبرة... قبّلني قبيل الموت لآخر مرّة قائلاً: "آخ، مالكتي ـ مولاتي، ستبقين وحدك...". ماذا أعرف؟ عندما تعمّر طويلاً تنسى الحياة، وتنسى الحب. أو. و. ولو

يعيدنا الله بناتا ندسّ المشط تحت الوسادة. أسرّح شعري وأنام هكذا. يأتي ذو الملابس ـ الضيّقة في المنام. يطلب إرواءَه بالماء أو يسقي حصانه...

كيف كنا ننثر الخشخاش حول البئر... دائرة... ونجتمع مساءً، ونصرخ في البئر: "نصيبي أو. و. و. نصيبي غو. غو. غو!" يذهب الصدى، ونقرأ حسب الصوت نصيبَ كلٍ منّا. أرغبُ الآن بالذهاب إلى البئر... أسأل نصيبي.. مع أنَّ ما تبقى منه قليل. فتات. بذار جافة. والجنود أقفلوا الآبار كلّها. وسمّروها بالألواح الخشبية. آبار ميّتة... مقفلة... بقي بئر واحد بجانب مكتب الكولخوز. كان في القرية بصّارة، قد "بصّرت" للنصيب، ذهبت إلى ابنتها في المدينة. أكياس... أخذت كيسين من الأعشاب الدوائية معها. لو يعيدنا الله! وهكذا... وأخذت قطعاً قديمة، غلت النقيع فيها... قماش أبيض... من يحتاج لها في المدينة؟ يجلسون في المدينة أمام شاشات التلفزيون ويبدلون المحطات أو يقرؤون الكتب. أما نحن هنا... كالطيور... على التراب وعلى الأعشاب، وعلى الشجر قرأنا. إذا تفتحت الأرض طويلاً في الربيع، ولم يذوب الثلج، انتظر صيفاً جافاً. وإذا كان ضوء القمر خافتاً، ومظلماً، فالقطيع لن يلد. وإذاهاجرت اللقالق باكراً ـ سيكون صقيع... *(تحدّث وتهز رأسها على وقع كلماتها).*

لديّ أولاد فتيان جيدون، وزوجاتهم لطيفات. وعندي أحفاد. لكن في المدينة مع من ستتحدثين في الشارع؟ ـ مكان غريب. مكان فارغ للقلب. ماذا ستتذكرين مع أناس غرباء؟ أحببتُ التجول في الغابة، عشنا فيها هناك دائماً مجموعات، ومع الناس. الآن لا يسمحون لنا بدخول الغابة... تقف الشرطة هناك، تحذّر من الإشعاعات....

عامان... رجاني أبنائي عامين: "ماما، اجمعي حاجياتك وتعالي إلى المدينة". وأخيراً تمكنوا من إقناعي. وفي النهاية... أماكن جميلة لدينا هنا، الغابات من حولنا، والبحيرات. بحيرات نقية، فيها حوريات. لقد حدَّثَ كبار السن، بأن الفتيات اللواتي متن مبكراً أصبحن حوريات. تركوا لهنَّ ثياباً على الشجيرات ـ قمصاناً نسائية، على الشجيرات وعلى حبل علقوه على نبات الذرة. يخرجن من المياه ويركضن في حقول الذرة. تصدّقين كلامي أم لا؟ الناس هنا اعتقدوا بذلك فيما مضى... واستمعوا للحكايات... لم يكن تلفزيونات حينها، لم تكن مصنوعة بعد. *(تضحك)* .انظري... أرض جميلة عندنا! لقد عشنا هنا، لكن أبناءنا لا يريدون العيش هنا. أحب هذا الوقت من السنة... الشمس تسلقت عالياً في السماء، والطيور عادت. ضجرٌ في الشتاء. لا يمكنك الخروج من البيت. تتجول الخنازير البرية في القرية، كما في الغابة. وتأكل البصل... أردت زرع البصل... يجب القيام بعمل ـ ما، لا يمكنك الجلوس، باسطةً يديك تنتظرين الموت. حينها لن يأتيك أبداً.

أتذكَّر يا عزيزتي... الجنيّ الصغير[١]... الذي يعيش منذ زمن معي، لا أعرف بالضبط ـ أين، لكن يخرج من تحت الموقد. في ثياب سوداء. وقبّعة جلدية سوداء، والأزرار تلمَعُ على بِزّته، تلمع. من دون جسد، لكنّه يمشي. اعتقدت لفترة، إنّه صاحب بيتي أتى ليراني.. لا، ليس هو... بل جنيّ صغير... أعيش وحدي، لا يوجد أحد أتبادل الحديث

---

(١) هناك اعتقادٌ راسخ عند كبار السن من الفلاحين والمزارعين في روسيا وأكرانيا وروسيا البيضاء بوجود ما يسمّونه "دوموفوي" ـ أي جنّي البيت أو عفريت البيت، وهو على الأغلب مسالم وطيب ولا يؤذي أصحاب البيت، لكن قد يكون أحياناً خبيثاً أو شريراً.. فيتصرّف تصرفات مشاكسة وما شابه/ المترجمان./

معه، أشرح له ليلاً، ما جرى لي في النهار: "خرجتُ في العادة باكراً...... وقفت وتحرّكت في أرض الدار. فرحت. وكان قلبي سعيداً...". وهكذا يجب المغادرة... وترك منطقتي.. في أحد الشعانين أقطفُ الصفصاف، لا يوجد كاهن هنا، أذهب إلى النهر وأُشعلُ الشموع بنفسي. وأضع من أغصانه على البوابة. وأحضر منه إلى البيت، وأنظّف المكان بشكل جيد. أغرس منه في الجدران، وعلى الأبواب، والسقف، وتحت الشرفة. أمشي وأُردّدُ: "كي تنقذي أيتها الصفصافة بقرتي. وكي تنتج الذرة ويحمل التفاح. ويفرّخ الدجاج والإوز". يجب عليكِ أن تمشي وتكرري الطلب طويلاً.

كنّا نستقبل الربيع من قبل بفرح... لعبنا وأنشدنا الأغاني. بدأنا من ذلك اليوم، عندما أطلقت ربّات البيوت الأبقار في المرج لأول مرّة. يجب طرد الساحرات... كي لا يُسئن للبقر، ويأخُذن حليبها، لأنها كانت تعودُ إلى البيوت محلوبةً وخائفةً. تذكّري، يمكن أن يعود كلُ شيءٍ كما كان. وقد كتب عن ذلك في الكتب الكنسيّة. عندما كان عندنا كاهن، قرأَ لنا. الحياة يمكن أن تنتهي، ثم تبدأ من جديد. اسمعي ماذا بعد... قلائل من يتذكرون، وقلائل من سيحدثونك. أمام أول قطيع... يجب فرش شرشفٍ أبيض على الطريق، دعي المواشي تمر فوقه، وخلفها فليمر الرعاة. يمرون وهم يقولون: "أيتها الساحرة الشريرة، اقضمي الآن الحجر... اقضمي الأرض... وأنتن أيتها البقرات، ستسرن في المروج والمستنقعات بهدوء. ولن تخفن أحداً ـ لا الناس الدهاة، ولا الوحوش الكاسرة". في الربيع لا يخرجُ العشب وحده، بل تزحف كائنات نجسة. تختبئ في مكان مظلم، في زوايا البيت. في الحظيرة حيث الدفء. وتزحف من البحيرة إلى الفناء، وفي الصباح تصعدُ على الندى. يجب على الإنسان أن يدافع عن نفسه. أن يقلب التربة جيداً

ويطرد النمل إلى جانب الخوخة، وكي يكون الوضعُ أكثر أماناً ـ عليك دفن القفل القديم عند البوابة. فتسكر بذلك أسنان القذرين كلهم. وتغلق شفاههم. أمّا الأرض؟ فلا تحتاج المحراث والشوكة فقط، بل تحتاج الحماية أيضاً من الأرواح الشريرة. يجب أن تذرع أرضك مرتين، تمشي وتقول: "أزرعُ.. أزرعُ، وأبذرُ... وأنتظرُ محصولاً جيداً. ولتمتنع الفئران عن أكل الكثير من الحبوب...".

ماذا أتذكر لك أيضاً؟ عن اللقلق، يجب أن ننحني له ونلقي عليه التحية في الربيع. ونقول له: شكراً، لأنكَ عُدتَ إلى المكان القديم. إنّه يحمي الأرض من الحريق، ويمشطها، ويجب إحضار أطفال صغار. ينادونه: "كلي ـ كلي ـ كلي... أيها اللقلق، إلينا! إلينا!". أمّا الأزواج الفتيان الذين تزوّجوا حديثاً، فيخاطبون اللقلق منفردين: "كلي ـ كلي... فليكن الحب والود بيننا، ولينمو أطفالُنا لطفاء، مثل الصفصاف".

يصبغُ الجميع في عيد الفصح البيض... بيوض حمراء وزرقاء وصفراء، وإذا كان البيت قد شهد موت أحد، فيلوّنون بيضة واحدة بالأسود. للأسى والحزن. البيض الأحمر ـ للحب، الأزرق للحياة المديدة.... أووو... كما أعيشُ أنا... أعيش وأعيش. أعرف كل شيء: ماذا سيكون في الربيع، وماذا في الصيف... الخريف والشتاء... لماذا أعيش؟ أنظر النور... ولا أقول إنني لست فرحة. دونيشكا... اسمعي هذا أيضاً... ضعي في عيد الفصح بيضة حمراء في الماء، إذا استقرت، اذهبي واغسلي وجهك. يصبح وجهك أجمل. ونظيفاً. وإذا أردت بأن يزورك أحدٌ من أقربائك الذين ماتوا، في الحلم، اذهبي إلى القبر، ودحرجي البيضة على الأرض وقولي: "أمي، تعالي إلي أريد أن تواسيني". وقولي لها كل شيء. حياتك. وإذا كان زوجك يغضبك، فستقدم لك نصيحة. قبل أن تُدحرجي البيضة، ثبتيها في راحتيكِ.

اغمضي عينيك وفكري... لا تخافي القبور، يخافونها عادة عندما يحملون المتوفى، يقفلون النوافذ، والأبواب، كي لا يدخل الموت. إنه دائماً بلباسٍ أبيض، كلّه أبيض ويحملُ منجلاً. أنا نفسي لم أشاهده، لكن الناس ذكروا ذلك لي... ومن يلتقيه... الأفضل أن لا يقع تحت نظره. *(تضحك)*: "ها. ها. ها..".

أذهب إلى المقابر، وأحمل بيضتين: حمراء وسوداء. واحدة بلون الأسى. أجلس بجانب زوجي، هناك صورته على الشاهدة، ليست في فتوّته ولا في شيخوخته، صورة جيدة، وأقول له: "لقد أتيتُ، أندريه. هيا نتحدث". أطلعه على الأخبار كلها. ويناديني أحدهم... ها هو الصوتُ يطير من مكان ـ ما: "آه، سيدتي ـ مالكتي...". انتهيتُ من زيارة أندريه، أذهب إلى ابنتي... ابنتي ماتت في الأربعين من عمرها، السرطان تسلل إليها، لم يساعدها شيء، لم نترك مكاناً لم نأخذها إليه، صبيّةً رقدت في الأرض... جميلة... يطلبون في العالم الآخر الأعمار كلّها: كبار في السن، وشباب. جميلين وبشعين. وحتى الصغار. من يناديهم إلى هناك؟ وبماذا يستطيعون أن يتحدثوا عن هذا العالم؟ لا أفهم... أنا لا أفهم. ولكن الناس الأذكياء لا يفهمون أيضاً. عدد كبير من البروفيسورات في المدينة. قد يعرف الكاهن في الكنيسة. عندما ألتقيه ـ سأسألُه. أووو أتحدث إلى ابنتي هكذا: "ابنتي! زينتي أنت! مع أية طيور ستصلين من المكان البعيد؟ مع طيور العندليب أم مع طيور الوقواق. من أية جهة أنتظرك...". وهكذا أغني لها وأنتظر. قد تظهر فجأة... وتعطيني إشارة... لكن لا ينبغي البقاء في المقابر حتى الليل، يجب الخروج في الساعة الخامسة... بعد الغداء... الشمس لم تزل تقف عالياً في السماء، لكن ما إن تبدأ بالانحدار إلى الأسفل... إلى الأسفل... ودّع... وغادر.. إنّهم يريدون البقاء وحدهم هناك... هكذا

نحن. متشابهون... للموتى حياتهم، كما لدينا. أنا لا أعرف، لكن أتوقع. أعتقد هكذا. وقد أضيف لك... عندما يموت الإنسان وقد تعذَّبَ طويلاً، وفي البيت كثيرٌ من الناس، على الجميع أن يخرج إلى الفناء، كي يبقى وحده. وحتى أمّه وجدته والأطفال يجب أن يخرجوا.

أتجوّل منذ الفجر في الفناء وفي حديقة المنزل. أبنائي جيّدون، نمو كالسنديان. كانت سعادة، ولكن ليس دائماً، لقد عملت طوال حياتي. كم نَقبت يداي من البصل وحده؟ وكم نقلت. وحرثت. وزرعت... (تكرّر) .وحرثت، وزرعت... والآن... أحمل البذور بالمنخل. بقي لدي بذور: فاصولياء وعباد شمس... سأبذُرها هكذا، على الأرض العارية. فلتعِش. والورودُ سأغرسها في الفناء... هل تعرفين كيف تفوح رائحة الكوسمي الخريفيّة ليلاً؟ وبخاصّة قبيل المطر، إنها تصدر رائحة قويّة. والبازيلاء الحلوة... لكن حلّ زمن، لا تستطيعُ لمس البذور فيه، ستبذرها عبثاً في التراب، لأنها ستنمو، وتستخلصُ طاقةً، ولكن ليس لأجل الإنسان. إنّه زمن آخر... الربُ أوحى لنا بإشارة... لقد حلمت في ذلك اليوم، عندما حصلت حادثة تشرنوبل الملعونة، بالنحل ـ أعداد كبيرة من النحل. تطير وتطير إلى مكان ـ ما. سرباً وراء سرب. والنحل في المنام هو حريق. الأرض ستحترق... الله أعطى إشارة، بأنه سيستضيفُ الإنسان على الأرض، هو ليس في بيته، إنه في ضيافة. نحن في ضيافة هنا... (بكت).

ناداها أحد الأبناء:

ـ ماما، ماما! لقد وصلت السيارة...

مونولوج عن الشوق للدور والحبكة

"لقد كتبوا عشرات الكتب... وصوّروا أفلاماً. كتبوا تعليقات. لكن الحدث بقي أعلى منّا. وأكبر من أية تعليقات..

قرأت ذات مرّة أو سمعت، بأن مسألة تشرنوبل تقف أمامنا وقبل كل شيء، كمسألة معرفة الذات. أيّدت ذلك، لأن الفكرة وافقت أحاسيسي. أنتظر طوال الوقت، بأن يأتي ذكيٌ ـ ما فيوضّح لي كل شيء... يكشف... كيف يفسرون، وينورونني فيما يخص ستالين، لينين، والبلشفية. أم أنّهم سيستمرون في الثرثرة إلى ما لا نهاية: "السوق! السوق! السوق الحرّة!". ونحن... ناس تربينا في عالم بدون تشرنوبل، ونعيش مع تشرنوبل.

أنا ـ بالمهنة رجل صواريخ، أخصائي بوقود الصواريخ. خدمت في بايكانور. في برامج: "الفضاء"، "الفضاء الدولي" ـ هذه قطعة من حياتي. زمن عجيب! تعطي السماء! تعطي القطب الشمالي! تعطي الأرض البكر! تعطي الفضاء! العالم السوفيتي كلّه طار مع غاغارين إلى الفضاء، وانفصل عن الأرض... ونحن جميعاً! أنا ما زلت معجب به! إنسان روسي رائع! ابتسامة رائعة! وحتى موته كان مدبّراً بشكل ـ ما. أحلام بالرجولة، بالطيرن، بالحريّة... الرغبة في الهروب إلى مكان ـ ما... كان ذلك زمن عجيب! ولأسباب أسريّة، انتقلت إلى بيلاروسيا، وهنا أكملت خدمتي. عندما وصلت انغمست في فضاء تشرنوبل،

فصحح أحاسيسي. لم يكن ممكناً تصّور شيءٍ مشابه لما حصل، مع أنني كنت أتعامل دائماً مع أكثر التقنيات تطوراً، مع التقنية الفضائية... من الصعب التعبير... إنّه يتحدى الخيال... شيء... (يفكر) .هُيّأ لي منذ لحظة، أنني التقطت الفكرة... منذ ثانية... يجذبني التفلسف. ما تحدّثت مع شخصٍ عن تشرنوبل، إلا وجَنحَ إلى التفلسف.

الأفضل أن أحدثكم عن عملي. وهل من عملٍ لا نقوم به في العمل!؟ نبني كنيسة... كنيسة تشرنوبل، على شرف أيقونة والدة الرب "ثواب الشهداء". نجمع التبرعات، نزور المرضى والموتى. نوثق الوقائع. نبني المتاحف. فكرت في وقت من الأوقات، بأنني لا أستطيع أن أعمل من دون قلبي في هذا المكان. طلبوا مني تنفيذ المهمة الأولى: "هذه نقود وقسّمها على خمسٍ وثلاثين أرملة، من اللواتي مات أزواجهن". جميعهم كانوا من العاملين في درء آثار الكارثة. يجب أن تكون عادلاً. لكن كيف؟ لدى إحدى الأرامل ـ ابنة صغيرة، مريضة، ولدى أخرى ـ طفلان، والثالثة ـ هي نفسها مريضة، وتلك تستأجر شقة، وعند أخرى ـ أربعة أطفال. استيقظت ليلاً على هاجس: "كيف لي أن أعطي الجميع حقهم؟". فكرت وحسبت، حسبت وفكرت. تصوّروا... لم أستطع... وأخيراً وزعنا النقود بشكل متساو، وحسب القائمة. لكن طفلي ـ المتحف. متحف تشرنوبل (صمت) .يُهيأ لي أحيانا، بأنّه لن يكون متحفاً، بل مكتباً لدفنِ الموتى. أخدم في فريق دفنٍ! اليوم صباحاً، وقبل أن أتمكن من خلع معطفي، يُفتح الباب، وإذ بامرأة تبكي بشدة عند العتبة، لا تبكي بل تصرخ: "خذوا كل الميداليات! خذو كل شهادات التقدير! خذوا كل الفوائد! لكن اعطوني زوجي!". صرخت طويلاً. تركت الميدالية، وتركت الشهادات. سيتم وضعها في المتحف، تحت الزجاج... سوف ينظرُ الناسُ إليها... لكن

الصراخَ، صراخَها، لم يسمعه أحد سواي، أنا فقط، وعندما سأرتب هذه الشهادات، سأتذكر.

الآن العقيد ياروشوك على فراش الموت... كيميائي ـ مختصٌ بقياس الأشعة. كان رجلاً سليماً. يرقد مشلولاً. تقلِبُه زوجته من جنب إلى جنب، كما تقلّب الوسادة... تطعمه بالملعقة... ولديه أيضاً حصاً في الكلى، يجب تفتيت الحصى، لكن ليس لدينا المال، كي ندفع كلفة العملية. نحن فقراء، نعتاش على ما يُقدّمُ لنا. والحكومة تتصرّفُ كالنصاّب، لقد تركت هؤلاء الناس. فإن مات أحدُهم ـ يسمّون شارعاً باسمه، مدرسةً أو قطعةً عسكريةً، لكن ذلك يحدُثُ عندما يموت... العقيد ياروشوك... سار مشياً على قدميه في المنطقة، ووضع حدودَ النقاط القصوى للتلوّث، أي أنّهم استخدموا الإنسان كرجل آليّ بيولوجي، بكل ما في الكلمة من معنى. وقد أدرك هو ذلك، لكنّه مشى، ابتداءً من المحطة نفسها، ثم باتجاه القطر المتزايد، حسب الأقسام. سيراً على القدمين. يحمل جهاز قياس الأشعة بيديه. وجدَ "البقعة" وتحرّك بمحاذاة حدود هذه "البقعة"، كي يثبّتها على الخريطة...

ماذا عن الجنود الذين عملوا فوق سقف المفاعل؟ من أجل القضاء على آثار الحادثة، تم نشر مئتين وعشرة قطع عسكرية، وثلاثمئة وأربعين ألف عسكري. العمل الصعب كان لأولئك الذين نظّفوا السطح... أعطوهم معاطف من الرصاص، لكن الإشعاعات أتت من الأسفل، والإنسان هناك كان غير محميٍّ. انتعلوا جزمات عسكرية عادية... كل يوم دقيقة ونصف ـ دقيقتان على السطح... ثم سرّحوهم من الجيش، وأعطوهم شهادة تقدير ومكافأة مالية ـ مئة روبل. واختفى هؤلاء الجنود في مساحات وطننا الشاسعة. أزالوا عن السطح وقود

وغرافيت المفاعل، وقطع البيتون وحديد البناء... عشرين ـ ثلاثين ثانية لإنزال الحمّالة، والوقت نفسه لرمي البقايا عن السطح. الحمالة الخاصّة هذه، وحدها تزن أربعين كيلوغراماً. تصوّروا: معطفاً رصاصيّاً، وقناعاً، وهذه الحمّالات وسرعة قصوى... تصوّروا؟ يوجد مجسّم جمعي للغرافيت في المتحف بمدينة كييف، حجمه كحجم القبّعة، يقولون لو أنّه حقيقي، لكان وزنه حوالي ستة عشر كيلوغراماً، إنّه كثيف وثقيل. غالباً ما كانت أجهزة التحكم، ترفض تنفيذ الأوامر، أو كانت تنفذ أوامر أخرى، فالدارات الكهربائية، قد خُرّبت في المجالات الكهربائية العالية. أكثر "الأعمال" أهمية نفذها الجنود. سمّوها "الأعمال الخضراء "(حسب لون بزاتهم العسكرية). مشى على سقف المفاعل المهدّم ثلاثة آلاف وستمئة جندي. افترشوا الأرض، حدّثوا كيف أنهم في البداية، نشروا في الخيام قشّاً على الأرض. أخذوه من جانب المفاعل.

شباب فتيان... إنّهم يموتون الآن، لكنهم يدركون، أنّه لولاهم... إنّهم أناس لهم ثقافتهم الخاصّة. ثقافة المأثرة. ضحايا.

كانت لحظة، برز فيها خطر الانفجار النووي، وتطلّب الأمرُ إنزال مياه جوفية تحت المفاعل، كي لا يسقط هناك اليورانيوم والغرافيت المنصهر، ولو قدِّرَ لهذا المصهور أن يتفاعل مع الماء، لتكوّنت كتلة حرجة. إنّ انفجار ـ ثلاثة ـ خمسة ميغا طن، ما كان سيقضي على الحياة في كييف ومينسك فحسب، بل لجعل الحياة غير ممكنة في الجزء الأكبر من أوروبا. تصوّروا؟!. كارثة أوروبية. لذلك وضعوا مهمة: من يغطس في هذه المياه ويفتح مزلاج صمام التصريف؟ ووعدوا بتقديم سيارة، وشقة ومزرعة ومعيشة لأسرته حتى آخر أيام حياتهم. بحثوا عن متطوعين. وقد وجدوا! غطس الشباب، غطسوا أكثر من مرّة وفتحوا هذا المزلاج، وحسب الأوامر أُعطيَ كل واحد منهم سبعة آلاف روبل.

وتمَّ نسيان السيارات والشقق الموعودة. نعم ما غطس أولئك الشبان من أجل ذلك! ليس من أجل المكاسب المادية، كانت تلك المكاسب آخر ما يعنيهم. ليس إنساننا بسيطاً إلى هذه الدرجة... إنّه يستوعب... سطحياًعلى الأقل... (توتّر).

هؤلاء الشبان ما عادوا موجودين... بقيت وثائقهم في المتحف... لا يوجد بشرٌ مثلنا...

خضتُ جدالاً مع أحدهم.. أثبت لي، بأن ذلك مرتبط، بثمن الحياة الزهيد جدا عندنا. إنها الحماسة الآسيويّة. الإنسان الذي يضحي بنفسه، لا يشعر بأنّه شخصية فريدة غير قابلة للتكرار، ولن يوجد مثيل له. إنهُ الحنين أو الشوقُ إلى الدور. لقد كان من قبلُ شخصاً بدون نصّ، إضافياً. لم تكن لديه قصّة، شغل موضعاً خلفياً. وفجأة يصبحُ شخصيةً رئيسةً فاعلةً. إنه الحنين إلى المعنى. ما هي دعايتنا؟ أيديولوجيتنا؟ يعرضون عليك الموت، لكن للحصولِ على معنى. يرفعونك. يعطونك دوراً! قيمةً عاليةً للموت، لأنّ خلف الموت أبديّة. حاول أن يثبت لي. وأعطى أمثلة... لكنني لم أوافق! مطلقاً! نعم، نحن تربينا لأن نكون جنوداً. هكذا علّمونا. دائماً معبؤون، ومستعدون لأمرٍ مستحيلٍ. لقد صُدِمَ والدي، عندما قررت اختيار فرع جامعيٍ مدنيٍ بعد المدرسة: "أنا - كادر عسكري، وأنت سترتدي جاكيتا؟ الوطن بحاجة لمن يحميه!". لم يكلّمني لعدة أشهر، حتى قدّمتُ أوراقي إلى الكلية الحربية. والدي - شارك في الحرب[1]، وقد مات. لكنه لم يملك عملياً أي ثروة مادية، كما هي حال جيله. لم يبقَ بعده شيء: البيت، السيارات، والأرض... ماذا أملك؟ حقيبة ضابط ميدانيّة، تسلّمها قبيل الحملة الفنلندية، فيها

---

(١) المقصود الحرب الوطنيّة العظمى(العالمية الثانية)/ . المترجمان./

أوسمتهُ الحربية. وفيها أيضاً مغلّ بلاستيكي، يحتوي على ثلاثمئة رسالة أرسلها والدي من الجبهة، ابتداء من العام واحد وأربعين، احتفظت والدتي بها. هذا كل الذي تركه... لكنني أعدُّ ذلك ـ رأسمال لا يقدَّرُ بثمن!.

تدركون الآن كيف أنظرُ إلى المتحف؟ انظروا هناك، علبة زجاجية تحتوي على تراب من تشرنوبل... حفنة... وهناك خوذةُ عاملٍ منجم... أيضاً من هناك... أدواتٌ فلاّحية من المنطقة... يجبُ ألا نسمح لاختصاصيي قياس الأشعة بالدخول. توجد إشعاعات! لكن هنا ينبغي أن يكون كل شيء، حقيقياً ومشغولاً باليد! وليس دمىً! يجب أن يثقوا بنا. يثقون فقط بالأصليّ، لأن هناك الكثير من الكذب حول تشرنوبل. كان وما زال. الذرة ـ ظهرت كالمثل الشعبي؛ يمكن استخدامها ليس في المجال السلمي والعسكري فحسب، بل لأغراض خاصّة أيضاً. لقد ازداد عدد الصناديق الخيرية، والمؤسسات التجاريّة...

ما دمتم تكتبون مثل هذا الكتاب، يجب أن تشاهدوا صور الفيديو الفريدة التي نمتلكها. نجمعها مقاطع وأجزاءً. عدّوها وقائع تشرنوبل، لا!. لم يسمحوا لنا بالتصوير، رؤوها سرّية. وإذا ما تمكن أحد من تصوير مشهد ما، فإنّ الأجهزة المعنية تسارعُ إلى سحبها، وإعادتها تالفة. لا توجد لدينا وقائع، كيف أُجلِيتِ الناسُ، ونُقلت المواشي... مُنِعَ تصوير المأساة، صُوِّرت البطولة فقط! بالرغم من ذلك فقد صدرت ألبومات تشرنوبل، كم من مرّة كسّروا آلات التصوير للمصورين التلفزيونيين والسينمائيين. استدعوهم إلى الجهات المعنيّة... كي تتحدّث بصدق عن تشرنوبل، تحتاج إلى بطولة، وهي مطلوبة الآن. صدقوني! لكنكم يجب أن تشاهدوا... هذه المقاطع... السوداء، كالغرافيت، وجوه رجال الإطفاء الأوائل. كيف كانت أعينهم؟ كانت تلك عيون الناس

الذين عرفوا، بأنهم سيغادروننا. في أحد المقاطع ـ نرى رجلي امرأة، مضت في الصباح بعد الكارثة تحرثُ حديقتها بالقرب من المحطة الذرية. سارت على العشب المكسوِّ بالندى... الرجلان تذكِّران بالغربال، كانتا ممتلئتين بالثقوب حتى الركبتين... ينبغي مشاهدة ذلك، ما دمتم تؤلفون كتاباً في الموضوع...

أصل إلى البيت فلا أستطيع حمل ابني الصغير على يدي. يجب تناول خمسين ـ مئة غرام من الفودكا، كي أحمل الطفل على يدي...

قسم بأكمله في المتحف مخصص ـ لطياري الحوّامات.. العقيد فودولاجسكي... بطل روسيا مدفون على الأرض البيلاروسية، في قرية جوكوف لوغ. بعد أن تلقى جرعة محددة، كان عليه أن يخرج، أن يرحل بسرعة، لكنّه بقي ودرّب ثلاثة وثلاثين طاقماً من الطيارين. قام هو نفسه بمئة وعشرين طلعة، ورمى مئتين ـ ثلاثمئة طن من الحمولة. أربع ـ خمس طلعاتٍ في اليوم، على ارتفاع ثلاثمئة متر فوق المفاعل، درجة الحرارة في قمرة القيادة ـ حتى ستين درجة مئوية. ما الذي كان يحدث في الأسفل، عندما كانت ترمى أكياس الرمل؟ تصوّروا... حرارة حارقة... وصل النشاط الإشعاعي إلى ألف وثمانمئة رينجين في الساعة. الطيارون في الأعلى شعروا بتعب شديد. اضطروا كي يصوبوا بدقة إلى الهدف ـ الحفرة الناريّة، لإخراج رؤوسهم من قمرة القيادة... ونظروا إلى الأسفل... لم يكن هناك أسلوب آخر... في اجتماع اللجنة الحكومية... بكل بساطة، وبصورة اعتياديّة قال التقرير: "كان يجب تقديم حياة شخصين ـ ثلاثة لتلك الغاية. لكن خسرنا ـ حياةً واحدةً". هكذا بشكل بسيط واعتيادي...

مات العقيد فودولاجسكي. سجّلَ الأطباء في بطاقة إحصاء الجرعات التي تلقّاها... سبعة بيري. أما الحقيقة فهي ستمئة بيري!.

وماذا عن عمال المناجم الأربعمئة، الذين حفروا النفق تحت المفاعل ليل نهار؟ كان يجب حفر نفقٍ، يُسكَبُ فيه الآزوت السائل وتجميد المخدة الأرضية تحت المفاعل، هكذا وفق اللغة الهندسية، وإلاّ غار المفاعل في المياه الجوفية... عمال مناجم موسكو وكييف، ودنيبروبتروفسك... لم أقرأ في أي مكان عنهم. لقد دفعوا أمامهم وهم يزحفون على ركبهم عراة، العربات في ظل حرارة تزيدُ عن خمسين مئوية... وسط تلك المئات من الإشعاعات...

إنّهم الآن يموتون... لكن لو لم يفعلوا هم ذلك؟ أنا أعدّهم ـ أبطالاً، وليس ضحايا الحرب، التي وكأنها لم تكن موجودة. ويسمّونها حادثة، وكارثة. وقد كانت حرباً بالفعل... وتلك تماثيل تشرنوبل التذكارية، تشبه النصب الحربية...

هناك أمورٌ من غير المألوف أن نناقشها: الحياء السلافي. ينبغي أن تعرفوا... وأنتم تكتبون هذا الكتاب ما يأتي... يصاب الذين عملوا في المفاعل أو بالقرب منه كقاعدة... بأعراض مشابهة لتلك التي تظهرعند اختصاصيي الصواريخ، وهذه مسألة معروفة... يصاب كقاعدة، الجهاز البولي التناسلي. فيما يخص الرجال... لا يتكلمون عندنا عن ذلك بصوت عال... هذا غير مألوف... رافقتُ ذات مرّة صحفياً بريطانياً، لقد حضّر أسئلة مثيرة للاهتمام حول هذا الموضوع بالذات، كان يهمّه الجانب الإنساني للمشكلة. ماذا يحصل للشخص ـ في البيت، والمعيشة، وفي العلاقات الجنسية؟ لم يحصل أي حديث منفتح وشفّاف. طُلِب جمع، طياري الحوّامات ـ على سبيل المثال،... للتحدث في جلسة للرجال... حضروا، ومنهم من أصبح متقاعداً في الخامسة والثلاثين ـ والأربعين من عمره، أحضروا أحدهم وكانت رجله مكسورة، لديه تفتت في العظم، فتحت تأثير الإشعاعات يصبح العظم

هشّاً. أحضروه... سأل الإنكليزي: كيف أنتم الآن في الأسرة، مع زوجاتكم الصبايا؟ صمت الطيارون، لقد أتوا ليحدِّثوا، كيف قاموا بخمسِ طلعات في اليوم. وهنا... عن الزوجات؟ عن هذا الموضوع... يسأل كلاً منهم على حدا... يجيبون جميعاً: أصحاء عاديون، الحكومة تُثمّن، وفي الأسرة حب... ما من أحد... ما من أحد منهم تكلّم بصراحة... ثم خرجوا، شعرت أنّه مُحبط، وقال: "هل تعرف الآن، لماذا لا يثق بكم أحد؟ أنتم تكذبون على أنفسكم". اللقاء جرى في مقهى، خدمتنا فتاتان جميلتان من العاملات، أخذتا تنظفان الطاولات، سألهما: "هل باستطاعتكما الإجابة عن بعض الأسئلة؟". أجابته الفتاتان بكل صراحة. سأل: "تريدان الزواج؟". ـ "نعم، لكن ليس هنا بالتأكيد. تحلم كل واحدة منّا بالزواج من أجنبي، كي تلد طفلا معافى". ثم طرح سؤالاً أكثر جرأة: "هل لديكما أصدقاء مقربّون؟ كيف هم؟ هل يلبّون رغباتكما؟ تعرفون ماذا أقصد؟". ـ تضحكان ـ "لقد جلس معكم شباب، طيارون. أطوالهم متران. يعلقون ميداليات. إنهم جيدون للمنبر، لكن ليس للفراش". تصوّروا... التقطَ صوراً للفتاتين ثم كرر لي تلك الجملة نفسها: "تدرك الآن، لماذا لا يثق بكم أحد؟ إنكم تكذبون على أنفسكم".

سافرت معه إلى المنطقة. إحصاءٌ معروف: حول تشرنوبل ـ ثمانمئة مقبرة. لقد انتظر هياكل هندسية خيالية، أما هذه فحفر عادية. تحتوي على "غابة شقراء"، مقطوعة من حول المفاعل على مساحة مئة وخمسين هكتاراً (أصبح لون الصنوبر والسرو أحمر خلال يومين بعد الحادثة، ثم تحوّل إلى أشقر). وأطنان من المعادن والحديد، والأنابيب الصغيرة، والثياب الخاصة، وهياكل من البيتون مرمية في الحفرة... أراني صورة مأخوذة من مجلة إنكليزية. صورة بانورامية. من الأعلى... آلاف الجرارات، وتقنيات الطيران... وسيارات الإطفاء وسيارات

الإسعاف"... أكبر مقبرة بجانب المفاعل. أراد أن يصورها ـ الآن ـ بعد مرور عشر سنوات. لقد وعدوه بمبلغ كبير من المال، لقاء هذه الصورة.

وها نحن ندور معه، ندور ونبحث، أحد المسؤولين يرسلنا إلى مسؤول آخر ـ أحيانا لا توجد خريطة وأحيانا أخرى لا توجد موافقة. بحثنا طويلاً قبل أن أستوعب الأمر: لا توجد هكذا مقبرة، لم تعد موجودة في الواقع، بل في التقارير الكشفية، لقد سرقوها منذ زمن طويل، وباعوها في الأسواق، كقطع غيار للكولخوزات وأفنية بيوتها. سرقوها ونقلوها. لم يستطع الإنكليزي إدراك ذلك. لم يصدق!. وعندما قلت له الحقيقة كاملة، لم يصدق!. والآن لا أصدق حتى وأنا أقرأ، أكثر المقالات شجاعة، توجد دوماً في اللاوعي فكرة: "وقد يكون هذا أيضاً كذب أو حكاية ـ ما". تذكّر المأساة أصبح أمراً مألوفاً... نختلف بالقالب! وقصص الرعب! *(ينهي كلامه يائساً ويتوقف طويلاً)*.

أحمل كل شيء إلى المتحف... ثم أسحبه... لكن أفكر، في بعض الأحيان: "أترك! وأهرب!" لكن كيف أتحمّل؟!.

كان لي حديث مع كاهن شاب...

وقفنا عند قبر حديث العهد للعريف ساشا غونشاروف... من أولئك، الذين كانوا على سطح المفاعل... ثلج. وريح. طقس قاس. الكاهن رعى القداس الجنائزي. يقرأ صلاة. عاري الرأس، سألته بعد ذلك: "وكأنكم لم تشعروا بالبرد؟" أجابني: "لا، أنا قوي جداً في هذه اللحظات. ما من طقس من الطقوس الكنائسية يعطيني الطاقة، مثل الطقس الجنائزي". لقد حفظت كلمات الإنسان، الذي هو دائماً بالقرب من الموت. سألت أكثر من مرة الصحفيين الأجانب، الذين يأتون إلينا، وأغلبهم أتى أكثر من مرة، لماذا يأتون، وفي كل مرّة يطلبون الذهاب إلى المنطقة الملوّثة؟ من الغباء التفكير، بأنهم أتوا من أجل النقود، أو من أجل السمعة: "نرتاح عندكم ـ اعترفوا ـ ونتلقى جرعة طاقة قوية".

تصوّروا... إجابة غير متوقعة، صحيح؟ بالنسبة لهم، على ما يبدو، إن إنساننا، إحساسه، وعالمه ـ شيء ـ ما مجهول حتى الآن. الروح الروسية غامضة... نحن أنفسنا نحب أن نشرب ونتجادل حول ذلك في المطبخ... لقد قال أحد أصدقائي، ذات مرّة: "سنشبع ونتخلص من المعاناة. وحينها، هل نثير اهتمام أحد؟". لا يمكن أن أنسى هذه الكلمات... لكن لم أستوضح، ما الذي يعجب الآخرين فينا: نحن ـ أنفسنا؟ أو لأنه يمكن الكتابة عنّا؟ أو يعرفون ـ من خلالنا؟.

ها نحن ندور جميعنا حول الموت؟

تشرنوبل... لن يكون عندنا عالم آخر... بداية عندما سحبوا الأرض من تحت الأقدام، وقذفوا هذا الألم بشكل واضح، والآن عاد الوعي، بأن عالماً آخر لا يوجد وما من مكان نذهب إليه. شعور الإقامة المأساوية على أرض تشرنوبل هذه، شعور مختلف تماما. يعود من الحرب جيل "ضائع"... نتذكر ريمارك. ومع تشرنوبل يعيش جيل "ضائع"... لقد ارتبكنا... الذي بقي ولم يتغير هو المعاناة الإنسانية... رأسمالنا الوحيد. لا يتجزأ!.

... أعود إلى البيت... بعد كل شيء... تستمع زوجتي إلي... ثم تقول بصوت هادئ: "أنا أحبك، لكنني لن أعطيك ابننا... لن أعطيَه لأحد. لا تشرنوبل، ولا الشيشان... لا أحد!". لقد استقر فيها هذا الخوف...".

سيرغي فاسيليفيتش سوبوليف، نائب

رئيس إدارة الجمعية الجمهورية

"درع تشرنوبل"

الجوقة الشعبية

كلافديا غريغوريفيتش بارسوك/ زوجة أحد العاملين في درء آثار الكارثة، تامارا فاسيليفنا بيلووكايا/ طبيبة، يكاترينا فيدوروفنا بوبروفا/ نازحة من مدينة بريبيات، أندريه بورتيس/صحفي، إيفان ناوموفيتش فيرغيشيك/ طبيب أطفال، يلينا يلينيتشنا فورونكو/مواطنة من مدينة براغين، سفيتلانا غوفور/ زوجة أحد العاملين في درء آثار الكارثة، ناتاليا ماكسيموفنا غونتشارينكو/ نازحة، تامارا ايلينيتشينا دوبيكوفسكايا/ مواطنة من مدينة ناروفليا، ألبيرت نيقولايفيتش زاريتسكي/ طبيب، الكسندرا ايفانوفنا كروفتسوفا/ طبيب، ايليونارا ايفانوفنا لادوتينكو/ طبيبة قلبية، ايرينا يوريفنا لوكاشيفيتش/ قابلة، أنتونينا ماكسموفنا لاريفونتيك/ نازحة، أناتولي ايفانوفيتش بوليشوك/ اختصاصي قياس كثافة السوائل، ماريا ياكوفليفنا سافيليفا/ أم، نينا خانتسيفيتش/ زوجة أحد العاملين في درء آثار الكارثة.

"لم أرَ منذ زمن امرأة حامل سعيدة... أمهات سعيدات...

ها هي تلد لتوّها. استفاقت... تنادي: "دكتور أرني الطفل! احضروه!". تلمس الرأس، الجبهة، الجسم. تعدُ أصابع... رجليه، يديه... تتفحص. تريد أن تتأكد: "دكتور، هل ولد طفلي طبيعياً؟ كل

شيء على ما يرّام؟". يحضرونه كي تطعمه. تخاف: "أنا أعيش بالقرب من تشرنوبل... تساقط عليَّ (المطر الأسود)..."

الأحلام تقول: إحداهن ولدت عجلاً بثمانية قوائم، وأخرى جرواً برأس قنفذ... أحلامٌ غريبة. لم تكن النساء من قبل ترى مثلَ هذه الأحلام. لم أسمع عن ذلك من قبل.

لدي ثلاثون عاماً من الخبرة في مجال التوليد...".

"أعيش طوال حياتي في الكلمة... ومع الكلمة...

"أعلِّم اللغة والأدب الروسي في المدرسة. كان ذلك على ما أذكر في بداية حزيران (يونيو). تجري الامتحانات. يجمعنا مدير المدرسة فجأة ويعلن: "فليأتي الجميع غداً مع المجرفات". واتّضح أن: علينا أن نجرف الطبقة العليا من الأرض حول مبنى المدرسة، ثم سيأتي الجنود ويفرشون الإسفلت. أسئلة: "ما هي وسائل الوقاية التي سيقدمونها؟ هل سيحضرون بذلات خاصة، وكمامات؟". أجابونا، لا. "امسكوا المجرفات واجرفوا التربة". رفض معلمان شابان، أمّا الباقين فقد ذهبوا وجرفوا. كآبة، وفي الوقت نفسه شعور بتنفيذ الواجب، يعيش هذا بداخلنا: عليك أن تكون هناك، حيث المشاق، والخطر، وتدافع عن الوطن. وهل علّمتُ تلاميذي أمراً آخر غير هذا: اذهب وارمِ نفسك في النار، دافع، ضحّي. الأدب الذي كنت أعلّمه ليس عن الحياة بل عن الحرب. وعن الموت. شولوخوف، سيرافيموفيتش، فورمانوف، فادييف... بوريس بوليفوي... رفض معلمان شابان فقط. لكنهما من الجيل الجديد... إنّهما أناس آخرون...

حفرنا الأرض من الصباح حتى المساء. وعندما عدنا إلى البيت، استغربنا أن متاجر المدينة تعمل، والنساء يشترين الجوارب، والعطور. كانت قد تملّكتنا أحاسيس حربية. وأصبح الوضع أكثر وضوحاً عندما ظهرت فجأة الطوابير على الخبز، والملح، وأعواد الثقاب... وأنهمك الجميع بتجفيف الخبز... غسلوا الأرض خمس ـ ست مرات في اليوم. أنصتنا إلى الراديو طوال الوقت. هُيأ لي أن هذا السلوك معروف، مع أنني ولدت بعد الحرب. حاولت تحليل أحاسيسي وأدهشني كم كنتُ سريعاً في إعادة تأهيل نفسيتي، وبصورة غير مفهومة شعرتُ أن التجربة الحربية معروفة لي. استطعتُ أن أتصوّر، كيف سأترك البيت، وكيف نسافر أنا والأطفال، وما هي الحاجيّات التي نأخذها معنا، وماذا أكتب لأمي. بالرغم من أن الحياة السلمية العادية، كانت تسير من حولنا، ويعرضون على الشاشة فيلماً كوميدياً.

ذاكرتنا أنبأتنا... نحن دائماً عشنا في الرعب، نحن قادرون على العيش في الرعب، هذا ـ هو الوسط الذي نتغذى فيه.

لا يوجد من يساوي شعبنا في ذلك...".

"أنا لم أشارك في الحرب... لكن ذلك ذكرني...

دخل الجنود إلى القرى وهجّروا الناس. شوارع القرى كانت تعجُّ بالآليات العسكرية: المدرَّعات، وسيارات الشحن بلونها الأخضر، وحتى الدبابات. غادرت الناس بيوتها في ظل وجود الجنود، أثّر ذلك بطريقة ضاغطة، وبخاصّة على أولئك الذين عاشوا الحرب. بداية حمّلوا المسؤولية للروس ـ هم المذنبون، ومحطتهم... تبع ذلك: "الشيوعيون مذنبون...". خفق القلب من الرعب الكوني...

كذبوا علينا. وعدونا أن نعود بعد ثلاثة أيام. تركنا البيت، والبانيو،

والبئر المنقوش، والحديقة القديمة. خرجت ليلاً قبل الرحيل إلى الحديقة وشاهدت، كيف تتفتح الورود. لكنها سقطت في الصباح. لم تستطع ماما تحمّل النزوح. ماتت بعد عام. يتكرَّرُ حُلمان... الأول ـ أرى بيتنا الفارغ، والثاني ـ تقف ماما إلى جانب البوابة، وسط الدالية... حيّة وتبتسم...

يقارنون الوضع طوال الوقت بالحرب. لكن... الحرب يمكن فهمها. لقد حدَّثنا والدي عن الحرب، وقرأتُ الكتب عنها.... أمّا هنا؟ لقد بقي من قريتنا كلها ثلاث مقابر: يرقد الناس في إحداها، وهي قديمة، في الثانية ـ الكلاب والقطط المقتولة، التي تركناها، وفي الثالثة ـ بيوتنا.

دفنوا حتى بيوتنا..."

"كل يوم... أمشي كل يوم بذكرياتي...

في تلك الشوارع.. قرب تلك البيوت. كم كانت مدينتنا هادئة. لا توجد أية معامل، وحده معمل الحلويات. يوم الأحد... أستلقي، أتمتع بحمّام شمس. تهرع ماما: : يا ابنتي، انفجر تشرنوبل، الناس تختبئ في البيوت، وأنت تتشمَّسين". ضحكت ـ من تشرنوبل إلى نارفالي أربعون كيلومتراً.

توقفتْ مساءً إلى جانب بيتنا سيارة "جيغولي"، تدخل إحدى معارفي مع زوجها: هي ـ في الروب البيتي، وهو ـ في بذلة رياضية وحذاء قديم. قدما من بريبيات من خلال الغابة عبر الطرق القروية... هربا.. قطعت الطرقات دورياتُ الشرطة، والحواجز العسكرية، لم يسمحوا لأحد بالمرور. أوّل ما فعلته أنها صرخت بي قائلة: "يجب بالسرعة القصوى البحث عن الحليب والفودكا! بسرعة!" صرخت

وصرخت: "اشترينا منذ أيام فقط أثاثاً جديداً، ثلاجةً جديدةً. فصّلتُ معطفَ فرو لي. تركنا كل شيء، وحفظناه بالسوليفان... لم ننم طوال الليل... ما الذي سيحصل؟ ما الذي سيحصل؟". هدأها الزوج. وحدثنا، بأن الطائرات الحوّامة تطير فوق المدينة، وتسير في الشوارع الآليات العسكرية ويغسلون الشوارع برغوةٍ ـ ما. يأخذون الرجال إلى الجيش لمدة ستة أشهر، كما للحرب. جلسنا أياماً أمام التلفزيون ننتظر خطاب غورباتشوف. السلطات صامتة...

حينها فقط دوّت أعياد شهر أيار، قال غورباتشوف: لا تقلقوا، أيها الرفاق، الوضع تحت السيطرة... حريق، حريق فحسب. لا يوجد أي طارئ... الناس يعيشون هناك ويعملون...

وثقنا بما قيل".

"تلك هي اللوحة... لقد خفت النوم ليلاً... وغمض عيني...

قادوا القطعان.. كل القطعان من القرى المهجّرة، اقتادوها إلينا، إلى مركز المنطقة، إلى مراكز الاستقبال. ركضت الأبقار المجنونة، والأغنام، والخنازير في الشوارع... من أراد، استطاع الإمساك بإحداها... سارت سيارات المسلخ إلى محطة كالينوفيتش محمَّلة بجثث الحيوانات، ومن هناك شحنوها إلى موسكو. لم تتسلمها موسكو. وعربات القطارات هذه، والتي أصبحت مقابر عادت إلينا. قوافل بأكملها. وهنا دفنوها. رائحة اللحم الفاسد فاحت في الليالي... فكرت: "هل هذه، هي رائحة الحرب النووية حقا؟". الحرب تفوح منها رائحة الدخان...

نقلنا الأطفال ليلاً في الأيام الأولى، كي لا يشاهدوا جموع الناس،

أخفينا المصيبة. اكتشفوها. عرف الناس بما يحدث. أحضروا غالونات الحليب إلى الباصات، وطهوا المعجنات.

كما في الحرب... وهل يمكن المقارنة بغير الحرب؟".

"اجتماع في اللجنة التنفيذية للمنطقة... وضع عسكري...

الجميع ينتظر كلمة رئيس الدفاع المدني، لأن أحدنا إذا ما تذكر شيئاً عن الإشعاعات فإنّه يتذكر مقاطع من كتاب الفيزياء التعليمي للصف العاشر. يخرج الرجل إلى المنصّة ويتلو ما هو مكتوب في الكتب والتعليمية منها، عن الحرب النووية: يجب على الجندي الذي تلقى جرعة خمسين رينجين، أن يخرج من المعركة، وكيف تبني ملاذاً، وكيف تستخدم الأقنعة المضادة للغازات السامة، وحول قطر الانفجار... لكن هنا ليست هيروشيما أو ناغازاكي، هنا الوضع مختلف... نحن نتوقع...

طاروا بالحوّامات إلى المنطقة الملوّثة. معدات وتجهيزات وفقاً للتعليمات: لا ثياب داخلية، بذلة عمل من الشب، كما الطباخ، غطاء واقٍ وقفازات، وكمامة من الشاش. جميع الأجهزة معلّقة. نهبط من السماء بجوار القرية، وهناك يسبح الأطفال في الرمل، مثل العصافير. قطعة من حجر في أفواههم، وقطعة من غصن. صغار من دون سراويل. ومؤخرات عارية... وأوامرُنا تقول: لا تعاشروا الناس، ولا تثيروا الرعب...

وهكذا أعيش مع هذا...".

"فجأة على شاشة التلفزيون تلمحُ برامجَ تلفزيونية...

واحدة من تلك القصص: امرأة حلبت البقرة، وسكبت الحليب في إناء، يقترب مصوّر مع جهاز قياس أشعة عسكري، يتفحص الإناء... يبدأ التعليق، انظروا، المستوى المسموح به تماماً، ونبعد عن المفاعل عشرة كيلومترا. يصوّرُ نهر بريببيات... الناس تسبح وتتشمّس... يبدو المفاعل في الصورة من بعيد والدخان يتصاعد منه... تعليق: الأصوات الغربية تعمل على إثارة الرعب، وينشرون كذباً متعمّداً عن الحادثة. ومن جديد مع جهاز قياس الأشعة ـ يضعون أذن الجهاز أحياناً على الصحن، وأحياناً على قطعة الشوكولا، وأحيانا على العلب الزجاجية في الكشك المفتوح. وكان ذلك كذباً. أجهزة قياس الإشعاعات العسكرية، التي كانت في تلك الفترة في جيشنا، ليست معدّة لفحص المواد الغذائية، إنها تقيس مستوى الأشعة في الجو.

ذلك المقدار من الكذب، الذي يرتبط بتشرنوبل في وعينا، لم يكن موجوداً عام واحد وأربعين... ولا في ظل ستالين...".

"أردتُ أن أنجب طفلا بالحب...

انتظرنا الأول. زوجي أراد صبياً، وأنا ـ طفلةً. حاول الأطباء إقناعي: "يجب أن تجهضي. زوجك كان لفترة طويلة في تشرنوبل". هو ـ سائق، أرسلوهُ في الأيام الأولى. نقل الرمل والبيتون. لكنني لم أثق بأحد. ما أردتُ أن أثق. لقد قرأت في الكتب، إن الحب يمكن أن ينتصر على كل شيء. وحتى الموت.

ولد الطفل ميّتاً. ومن دون إصبعين. ابنة. بكيت. "لو كان لها أصابع فحسب. إنّها ـ طفلة..".

"لا أحد يعرف ما الذي يجري...

اتصلت بالقيادة العسكرية، نحن العاملون في الصحة، ملزمون عسكرياً، وعرضتُ المساعدة. لا أذكر اسم عائلته، لكنه برتبة رائد، أجابني: "نحتاج شباباً". حاولت إقناعه: "الأطباء الشباب، أولاً، خبرتهم محدودة، وثانياً، هم أكثر عُرضة للمخاطر، الجسم الفتي أكثر حساسية للإشعاعات". الجواب: "لدينا قرار ـ استدعاء الشباب".

أذكر... كانت الجروح تلتئم بشكل سيء عند المرضى. وأيضاً... ذلك المطر الأول المشع، الذي بعدهُ اصفرّت بقع الماء. أصبحت صفراء في الشمس. وأصبح هذا اللون يقلق دائماً. من جهة، اتّضحَ أن وعينا غير مستعد لمثل هذه الحالة، ومن جهة أخرى ـ فنحن الأفضل، ونحن غير عاديين، ولدينا أعظم دولة. زوجي شخص يحمل شهادة تعليم عليا، مهندس، أكد لي بشكل جديّ إنّها عملية إرهابية. عملية تخريب عدوانية. نحن هكذا اعتقدنا... هكذا تربينا... لكني تذكرت، حديث رجل أعمال زراعيّة رافقني يوم سافرت بالقطار عن بناء محطة سمولينسك الذرية: عن كميات الاسمنت، والألواح، والمسامير، والرمل، التي نُقلت من الموقع إلى القرية المجاورة. مقابل النقود وزجاجات الفودكا...

ألقى العاملون في لجنة المنطقة الحزبية الكلمات في القرى... وفي المصانع... سافروا، واحتكوا بالشعب. لم يكن أي واحد منهم قادراً على الإجابة عن الأسئلة، ما هو إبطال مفعول الإشعاعات، وكيف نحمي الأطفال، وأية عوامل تؤدي لانتقال النيكلودات المشعة إلى السلسلة الغذائية؟ حول ألفا ـ بيتا ـ جاما والجسيمات البيولوجيّة الإشعاعية، والإشعاعات المؤينة، ناهيك عن النظائر. بالنسبة لهم كانت

هذه الأشياء من عالم آخر. قرأوا على الناس محاضرات حول بطولة الناس السوفييت، ورموز البطولة العسكرية، وعن مؤامرات الاستخبارات الغربية...

طلبت الحديث في الاجتماع الحزبي وقلت لهم: أين المتخصصين؟ وعلماء الفيزياء؟ وعلماء الأشعة؟. هددوني حينها بسحب البطاقة الحزبية...".

"حدث الكثير من حالات الموت غير المفسّرة... وغير المتوقعة...

أختي كانت تعاني من مرض في القلب... عندما سمعت عن تشرنوبل، شعرت بما سيكون قائلة: "أنتم ستعانون من ذلك، أما أنا، ـ فلا". ماتت بعد بضعة أشهر... لم يوضح الأطباء شيئاً. لكن من خلال تشخيص مرضها، كان يمكن أن تبقى على قيد الحياة...

يقولون... لقد ظهر عند النساء من كبيرات السن حليب في الأثداء، كما عند من وضعن حديثاً. يسمّى المصطلح العلمي لهذه الظاهرة ـ إدرار الحليب. وهي بالنسبة للفلاحين؟ عقوبة إلهية... حدث ذلك لامرأةٍ عجوز تعيش وحدها. من دون زوج وأطفال. وبمشيئة الله. تسير في القرية وهي تهزّ لفافة في يدها، تأخذ قطعة خشب أو كرة أطفال وتلفها بمنديل... وتغني أغاني أطفال..."

"أخاف أن أعيش على هذه الأرض...

أعطوني جهازاً لقياس الأشعة، لكن ما حاجتي به؟ أغسل البياضات، فإذا بالجهاز عند البياضات ـ يصفر. أطهو الطعام، أحضر

الحلوى ـ يصفر. أرتب السرير ـ يصفر. ما حاجتي إليه؟ أطعم الأطفال ـ وأبكي. "ما بك ماما، تبكين؟".

ابنان ـ صبيان. كل وقتي معهما أتردد إلى المستشفيات وإلى الأطباء. الأكبر: هل هو بنت أم صبي. أصلع؟ أنا ـ أخذتهما إلى بروفيسورات، وإلى مُعالجاتٍ شعبيات. وإلى ساحرات.... الأصغر في الصف يمنع عليه الركض، واللعب، وإذا لطمه أحدهم مصادفة، يسيل الدم.. وقد يموت. مرض في الدم، لا أرغب بذكره. أرقد معه في المستشفى وأفكر: "سيموت". أدركت بعدها، بأن عليَّ الامتناع عن التفكير بهذه الطريقة، قد يسمع الموت ذلك. بكيت في المرحاض. الأمهات كلّهن لا يبكين في غرف المستشفى، بل في دورات المياه، وفي البانيو. أعود مرحة:

ـ وجنتاك توردتا. إنّك تتعافى.

ـ ماما، أخرجيني من المستشفى. سأموت هنا. الجميع يموتون هنا.

أين أبكي؟ في دورة المياه؟ هناك طابور... هناك الجميع مثلي...".

"في ذكرى يوم الوفاة...

يتركوننا نمر إلى المقبرة. إلى القبور... لكن أن تعرّج إلى فناء بيتك، فذلك ممنوع، لا تسمح الشرطة، يطيرون فوقنا في طائرات حوّامة. لو يسمحون لنا بإلقاء نظرة على بيوتنا من بعيد... نرسم عليها إشارة الصليب...

أحضرُ غصن ليلك من مسقط رأسنا، يبقى عندي في البيت لمدة عام...".

"أحدثكم، من هو إنساننا... السوفييتي...

في المناطق "الوسخة"... ملأوا في الأعوام الأولى المحلات التجارية بمعلبات اللحمة المطبوخة الصينية واليونانية، وفرحت الناس، ومدحتهم بأنهم لن يطردوننا من هنا. نحن مرتاحون هنا!. توسخت التربة بشكل غير متساو، في أحد الكولخوزات الأرض "نظيفة" في موضع و"متسخة" في غيره. يدفعون للذين يعملون في الأرض "الوسخة" أكثر، والجميع يطلب العمل فيها. ويرفضون الذهاب إلى الأرض "النظيفة"...

كان أخي القادم من الشرق الأقصى، في زيارة لي، منذ فترة قصيرة، قال: "أنتم هنا مثل "الصناديق السوداء"... بشر ـ "صناديق سوداء"... "الصناديق السوداء" توجد في كل طائرة، وتسجل المعلومات كلها عن الرحلة. وعندما تتعرّض الطائرة لحادثة ـ يبحثون عن تلك الصناديق.

نعتقد أننا نعيش، كالجميع... نمشي، ونعمل... ونحب... لا! نحن نسجل المعلومات للمستقبل...".

"أنا ـ طبيب أطفال...

كل ما عند الأطفال، مختلف عمّا هو عند الكبار. عندهم على سبيل المثال، لا يدركون بأن السرطان ـ هو الموت. هذا النمط لا يبرز لديهم. إنهم يعرفون كل شيء عن أنفسهم: التشخيص، وأسماء كل الجلسات، والأدوية. يعرفون أكثر، من أمهاتهم. أمّا ألعابهم؟ يركضون بعضهم وراء بعض ويصرخون: "أنا ـ الإشعاعات! أنا ـ الإشعاعات!". أتصوّر إنهم عندما يموتون، ستكون لديهم وجوه دهشة... إنّهم في حالة حيرة...

يستلقون بوجوه دهشة...".

"حذّرني الأطباء، بأن زوجي سيموت... لديه سرطان في الدم...

لقد مرض، عندما عاد من منطقة تشرنوبل. بعد شهرين. لقد أرسلوه من المصنع إلى هناك. عاد من الوردية الليلية:

- سأسافر في الصباح...

- ماذا ستفعل هناك؟

- سأعمل في الكولخوز

جرفوا القش في منطقة الخمسين كيلومتراً. جنوا الشوندر. اقتلعوا البطاطا.

عاد. سافرنا إلى أهله. ساعد والده في تجصيص الموقد. وهناك سقط أرضاً. استدعوا سيارة "الإسعاف"، ونقلوه إلى المستشفى - جرعة قاتلة من الكريات البيض. أرسلوه إلى موسكو.

عاد بفكرة واحدة: "سأموت". ازدادت فترات صمته. أقنعته. ورجوته. لم يثق بكلماتي. حينها ولدت له ابنة، كي يصدق. أنا لا أفسّر أحلامي... ينقلونني أحيانا على حمّالة، وأحيانا كلي باللون الأبيض... لا أقرأ الحلم... أصحو في الصباح، وأنظر إليه: كيف سأبقى وحدي؟. لو أنه يعيش لتكبر الطفلة وتذكره. إنّها صغيرة، بدأت بالمشي لتوّها. تركض إليه: "با - ا - ا...". أطرد هذه الأفكار...

لو كنت أعرف... لأقفلت الأبواب كلها، ووقفت في العتبة. لأقفلت عليه بعشرة أقفال..."..

"أعيش منذ سنتين مع ابني في المستشفى...

البنات الصغيرات في غرف المستشفى يلعبن "بالدمى". يغلقن أعينها... هكذا تموت الدمى...

ـ لماذا تموت الدمى؟

ـ لأنهم أطفالنا، وأطفالنا لن يعيشوا. إنهم يخلقون ويموتون.

عمر ابني أرتيمك سبع سنوات، أما مظهره فيوحي بخمس سنوات.

يغمض عينيه، أفكر، بأنّه غفا. أبكي إنّه لا يرى.

ويستجيب قائلاً:

ـ ماما، إنني أموت؟

يغفو ولا يتنفس تقريبا. أقف أمامه على ركبتي. أمام السرير.

ـ أرتيمك، افتح عينيك... قلْ أي شيء...

أفكر في نفسي ـ "أنت ما زلت دافئاً".

يفتح عينيه. ثم يغفو مرة أخرى. وهكذا بهدوء. حتى توفيَ.

ـ أرتيمك، افتح عيناك...

لا أسمحُ له أن يموت...".

"احتفلنا منذ فترة قصيرة برأس السنة... أعددنا طاولة جيدة. كل ما عليها بيتي: اللحمة المدخنَّة، شحم خنزير، لحمة، خيار مخلل. الخبز فقط من المحل التجاري. وحتى الفودكا بيتية، حُضّرت في البيت. كما يضحكون عندنا: تشرنوبليّة. مع قطع من السيزيوم، والسترونتيوم. من أين وماذا نشتري؟ المحلات التجارية في القرى رفوفها فارغة، وإذا ظهر شيء ـ ما، فإننا لا نستطيع الاقتراب، بمرتباتنا ومرتباتنا التقاعدية.

حضر ضيوف. جيراننا الجيدون. شباب. أحدهم معلم، الآخر ـ ميكانيكي في الكولخوز مع زوجته. شربنا وأكلنا. وبدأنا نغنّي. ودون أن نتفق، أخذنا نغنّي أغنيات ثورية. أغانيات عن الحرب. "الصباح لوّن جدران الكرملين القديمة بلون ناعم" ـ أغنيتي المفضلة. كانت سهرة جميلة. كما كانت السهرات في السابق.

كتبت عن ذلك لابني. إنّه يدرس في العاصمة. طالب. تلقيت جوابا: "ماما لقد تخيّلت بنفسي تلك الصورة ـ أرض تشرنوبل. بيتنا. تلمع شجرة الميلاد... والناس إلى الطاولة يغنون أغانيَ ثوريّة وحربيّة، وكأنْ ليس من خلفكم معسكرات الاعتقال الستالينية، ولا تشرنوبل...".

شعرت بالخوف ليس على نفسي، بل على ابني. لا يوجد مكان يعود إليه...".

الفصل الثالث

الإعجاب بالحزن

مونولوج، عما لا نعرفه:
الموت يمكن أن يكون جميلاً

"السؤال الرئيس في الأيام الأولى: من المذنب؟ كنا بحاجة إلى مذنب...

ثم، وعندما عرفنا أكثر، أصبحنا نفكر: ما العمل؟ كيف ننقذ أنفسنا؟ الآن، وبعد أن استسلمنا لفكرة أن ذلك، ليس لعام ولا عامين، بل لأجيال عدّة، أصبحنا نعود في أفكارنا إلى الخلف، نقلّب صفحة وراء أخرى...

حصل ذلك في ليلة الجمعة ـ صباح السبت... في الصباح لم يشك أحد بشيء. أرسلتُ ابني إلى المدرسة، وزوجي ذهب إلى صالون الحلاقة. أحضّر طعام الغداء. عاد زوجي بسرعة... عاد بكلمات: "حريق في المحطة. قرار: عدم إغلاق الراديو". نسيت أن أقول لكم، بأننا كنا نعيش في مدينة بريبيات، ليس بعيداً عن المفاعل. ما زال حتى الآن أمام عيني ـ توهج قرمُزي ساطع، أضاء المفاعل وكأن من داخله. لون عجيب. لقد كان حريقاً غير عادي، توهج. منظر جميل. وإذا نسينا الباقي، فإنه جميل جداً. لم أشاهد وحتى في السينما ما يشبه ذلك، ولا أية مقارنة. تجمّع الناس مساء على الشرفات، ومن لم تكن لديه شرفة، ذهب إلى أصدقائه، ومعارفه. كنا على الطابق التاسع، رؤية ممتازة. المسافة مباشرة ثلاثة كيلومترات. حملنا الأطفال على أيدينا: "انظر!

تذكّر!". وأولئك الناس، الذين عملوا على المفاعل... مهندسين، وعمال... وأيضاً معلمو فيزياء... وقفوا في الغبار الأسود... تحدثوا... تنفسوا... وقطع بعضهم عشرات الكيلومترات في السيارات، وعلى الدراجات الهوائية، كي يشاهدوا. نحن لم نعرف، بأنّه يمكن مشاهدة هذا الجمال. لكن لم أقل بأنّه، لم تكن لها رائحة. ليست رائحة ربيع أو خريف، بل رائحة أخرى، وليست رائحة الأرض... لا... عبقت في الحنجرة، وفي العيون ـ الدموع سالت من تلقاء نفسها. لم أنم طوال الليل وسمعت، كيف تحرك الجيران في الأعلى، هم أيضاً لم يناموا. أعادوا نقل متاع ما، وطرقوا، ربما كانوا قد وضبوا حاجياتهم. وألصقوا النوافذ. هدّأت الصداع بمزيلٍ للألم. صباحاً وعندما بزغ الفجر، نظرت حولنا، ما شعرته، لم أخترعه الآن، وليس فيما بعد، بل حينها شعرت: بأن الأمور ليست على ما يرام، شيءٌ ـ ما تغيّر. للأبد. بدأ الجنود في الثامنة صباحاً يسيرون وقد ارتدوا أقنعة مضادة للغاز. عندما شاهدنا في الشوارع الجنود والآليات العسكرية، لم نخف، بل على العكس، هدأنا. مادام الجيش حضر للمساعدة، سيكون كل شيء على ما يرام. لم يكن لدينا تصور، بأن الذرة السلمية يمكن أن تقتل... كان يمكن للمدينة كلّها، أن لا تنام في تلك الليلة... ضحك أحدهم تحت النوافذ، وعزفت الموسيقا.

بدؤوا بعد الظهر، يعلنون بالراديو، أن يستعد الناس للإخلاء: سينقلوننا لمدة ثلاثة أيام، كي يغسلوا، ويتأكدوا. وكما أنني أسمع الآن صوت المذيع: "الإخلاء إلى القرى المجاورة"، "عدم اصطحاب الحيوانات المنزلية"، "تجمّعوا عند مداخل البيوت". قالوا للأطفال، أن يأخذوا معهم الكتب المدرسية. وضع الزوج، على جميع الأحوال، الوثائق في حقيبة اليد وصور حفلة زواجنا. والشيء الوحيد الذي، أخذته، هو المنديل الغازي، في حال كان الطقس سيئاً...

شعرنا منذ اليوم الأول، أننا تشرنوبليون، وقد أصبحنا منبوذين. يخافنا الناس. توقف الباص الذي يقلنا، لليلة في إحدى القرى. نامَ الناس على الأرض في المدرسة، وفي النادي. ما من مكان ننزل فيه. دعتنا إحدى النساء إلى بيتها: "هيا تعالوا معي، سأوضب السرير. حزينة لأجل ابنكم". في حين سحبتها المرأة التي وقفت بجوارنا، أخذتها جانباً قائلة: "وهل جننت! إنهم - معدون". وعندما استقرّينا في موغيلوف، وذهب الابن إلى المدرسة، عاد في اليوم الأول مسرعاً إلى البيت باكياً... لقد أجلسوه مع طفلة على مقعد، لكنها رفضت، لأنّه مُشعّ، وإذا جلست إلى جواره، يمكن أن تموت. كان ابني في الصف الرابع، وهو الوحيد، من تشرنوبل في هذا الصف. خاف الجميع منه، وسمّوه" يراعة"... "قنفذ تشرنوبلي"... لقد خفت بأن تنتهي طفولته بسرعة.

عندما غادرنا بريبيات، سارت في مواجهتنا طوابير عسكرية. آليّات مصفحة. وهنا شعرنا بالخوف. حالة غير مفهومة ومخيفة. لم يتركني إحساس، بأن الذي يحصل، ليس معي، بل مع شخص آخر. شعور غريب. بكيت، وبحثت عن طعام، وعن مكان للمبيت، عانقت ابني وهدأته، لكن في أعماقي - ولم تكن مجرد فكرة، بل شعور دائم: أنا - مشاهدة. أنظر من خلال الزجاج... أشاهد شخصاً آخر... أعطونا في كييف فقط النقود الأولى، لكن ما كان بإمكاننا شراء أي شيء: مئات الآلاف من الناس كانوا في المكان، اشتروا وأكلوا كل شيء. أصيب الكثيرون بأزمات قلبية، وجلطات، مباشرة هناك - في محطات القطار وفي الباصات. أنقذتني أمّي. طوال حياتي. هي التي حُرِمت أكثر من مرّة من بيتها، وممتلكاتها المكتسبة. المرة الأولى التي اضطهدت فيها، في الثلاثينيات، أخذوا منها كل شيء: البقرة، الحصان، البيت. المرّة الثانية

ـ حريق، أنقذتني صغيرةً من النار بصعوبة، وهدأتني قائلة: "يجب التحمّل، ها نحن أحياء".

تذكرت... نجلس في الباص. نبكي. رجل يجلس في المقعد الأول يشتم زوجته بصوت عال: "يا لك من غبيّة! لكان الأفضل أن نأخذ معنا بعض الحاجيات، أما أنا وأنت فقد حمّلنا زجاجات تتسع لثلاث ليترات فارغة". لقد قررت المرأة، بأنهم ما داموا سيستقلون الباص، فستوصل في طريقها هذه الزجاجات الفارغة لأمها من أجل تعبئتها بالمربى. لقد تكوّمت بالقرب منهما، أكياس مشبّكة ضخمة ومنتفخة بتلك الزجاجات، تعثرنا بها طوال الطريق. إلى كييف مع هذه الزجاجات.

... أنا أغنّي في جوقة كنسيّة. أقرأُ الإنجيل. أذهب إلى الكنيسة، فهناك فقط، يتحدثون عن الحياة الأبدية. يُهدِّؤون الإنسان. لن تسمع هذه الكلمات في أي مكان آخر، كم أرغب بسماعها. عندما كنّا نسير ضمن قافلة الإخلاء كان الجميع يدخلون أيّة كنيسة نصادفها، وكان من الصعب أن تصل إلى الداخل لكثرة الناس. الملحدون والشيوعيون ـ دخلوا أيضاً.

غالبا ما أحلم، كيف كنت أسيرُمع ابني في بريبيات المشمسة. الآن أصبحت مدينة ـ أشباح. نمشي وننظر إلى الورود الجورية، كان في بريبيات الكثير منها، أحواض كثيرة للجوري. حلم... كل حياتنا أصبحت حلماً. كنت حينها ما أزال صبية. ابني صغير... وكنت أحب...

مضى زمن، وأصبح كل شيء ذكرى. وأنا مرة أخرى أشعر أنني مشاهدة...".

ناديجدا بتروفنا فيغوفسكايا

نازحة من مدينة بريبيات

مونولوج: كم من السهل أن تصبح ترابا

"لقد دوّنت مذكراتي...

وحاولت تذكر تلك الأيام... كان لدي الكثير من الأحاسيس الجديدة. والخوف أيضاً، طبعاً... اقتحمنا المجهول، وكأننا إلى المريخ... أنا من مواليد مدينة كورسك، بنوا عام تسعة وستين، ليس بعيداً عنّا، محطةً ذرّية. في مدينة كورتشاتوف. كنّا نأتي من كورسك إلى هناك لأجل شراء المواد الغذائية. لشراء المارتديلا. لقد وفروا للعاملين في مجال الذرة المواد على مستوى عال. أتذكر مستنقعاً كبيراً، كنّا نصطاد السمك فيه. بالقرب من المفاعل... أتذكر ذلك كثيراً بعد تشرنوبل... لم يعد الأمرُ ممكناً الآن...

وهكذا: سلّموني مذكرة استدعاء، وأنا كإنسان انضباطي، حضرت في اليوم المحدد إلى اللجنة العسكرية. المسؤول العسكري أخذ يتصفح "إضبارتي" قائلاً: "أنت لم تلتحق من قبل بالتدريبات العسكرية. وهنا بحاجة إلى كيميائيين. ألا ترغب بالذهاب إلى معسكر في ضواحي مينسك، لمدة خمسة وعشرين يوماً؟". فكرت: "لماذا لا أرتاح من أسرتي، ومن العمل؟ وأتجول في الهواء الطلق". وصلتُ الساعة الحادية عشرة صباحاً، يوم الثاني والعشرين من حزيران (يونيو) عام ألف وتسعمئة وستة وثمانين، مع حاجياتي، وقبعتي السوداء وفرشاة الأسنان، إلى نقطة التجمع. ما أدهشني، أن عددنا كان كبيراً جداً

للأوقات السلمية. ومضت في رأسي ذكريات. من الأفلام الحربية، ومصادفةً اليوم: الثاني والعشرين من حزيران (يونيو)... يوم بداية الحرب... أحياناً يطلبون الانتظام في الصف، وأحيانا التفرق، وهكذا حتى المساء. صعدنا إلى الباصات، وعندما أظلمت كانت البداية. تعليمات: "من أحضر معه مشروبات كحولية، فليشربها. سنستقل القطار مساء، وسنكون في القطعة العسكرية صباحاً. كي تخرجوا نشيطين كما يجب، وبدون أغراض زائدة". مسألة مفهومة. احتفلنا طوال الليل.

صباحاً وجدنا في الغابة قطعتنا العسكرية. اصطففننا من جديد واستدعونا بحسب تسلسل الأحرف الأبجدية، لاستلام الثياب العسكرية. أعطونا الحزمة الأولى، والثانية، والثالثة، آآآآ، أعتقد أن الأمر جدّي. وسيعطوننا أيضاً معطفاً، وقبّعة، وفراشاً، ووسادةً ـ الثياب الشتوية كلّها. لكن الطقس ـ صيف وقد وعدوا، بأنهم سيطلقوننا بعد خمسة وعشرين يوماً. يضحك الملازم الذي رافقنا قائلاً: "كيف ذلك أيها الشباب، خمسة وعشرون يوماً؟! لستة أشهر ستعملون في تشرنوبل". سوء فهم. وعدوان. وهنا دعونا نتفق: من سيعمل في منطقة ما وراء العشرين كيلومتراً ـ يقبض ضعفي الراتب، وما وراء العشرة ـ ثلاثة أضعاف، وعند المفاعل ـ ستة أضعاف. أحدهم أخذ يحسب، إنّه بعد ستة أشهر سيعود بالسيارة إلى بيتهم، وآخر أراد أن يهرب، لكن النظام العسكري صعب. ما هي الإشعاعات؟ لم يسمع بها أحد من قبل. وللمصادفة، فقد اجتزت قبل فترة، دورات في الدفاع المدني، قدموا لنا معلومات قديمة تعود لأكثر من ثلاثين سنة: خمسين رينجين ـ جرعة قاتلة. علّمونا كيف علينا أن ننبطح، كي تمر من فوقنا الموجة الضاربة، ولا تصيبنا. الإشعاعات، والتسخين الحراري... أما عن أنّ التلّوث الإشعاعي للمكان ـ هو العامل الأكثر تأثيراً ـ فلم يقولوا كلمة واحدة. وأولئك الضباط

الموظفون، الذين رافقونا إلى تشرنوبل، لم يستوعبوا كل شيء، عرفوا أمراً واحداً: يجب الإكثار من الفودكا، يساعد على صدّ الإشعاعات. بقينا ستة أيام في ضواحي مينسك، وستة أيام شربنا ثم نظرت، لقد انتشرت مشروبات غريبة، أغلبها منظفات زجاج مختلفة. وبصفتي كيميائي فقد أثارت اهتمامي. بعد أن تشربها ـ رجلاك مُبطّنتان، لكن رأسك صاحٍ، تعطي أمراً "بالوقوف!" لكنك تسقط.

الأمر على الشكل التالي: أنا ـ مهندس كيميائي، أحمل شهادة الدكتوراه في العلوم، استدعوني من وظيفة رئيس مخبر مؤسسة إنتاجية ضخمة. فكيف استخدموني؟ وضعوا في يدي مجرفة، وكانت هي عملياً وسيلتي الوحيدة. وهنا ولد المثل: إلى الذرة ـ بالمجرفة. وسائل الوقاية: أقنعة، وكمامات مضادة للغاز، لكن لم يستخدمها أحد، لأن الطقس كان حاراً، ووصلت درجة الحرارة حتى الثلاثين درجة مئوية، تسحبها ـ تموت مباشرة. وقعنا، وكأننا ذخيرة إضافية، ونسونا. مقطع آخر... نقلونا من الباصات إلى القطار، عدد الأماكن الشاغرة في العربة ـ خمسة وأربعون، وعددنا ـ سبعون. نمنا بالتناوب. تذكرت هذا الآن... لكن، ما هو ـ تشرنوبل؟ تقنية حربية وجنود. حواجز غسيل. حالة حربية. وزعونا على خيم، كل عشرة أشخاص في خيمة. بعضنا تركَ أطفالاً في البيت، وأحدهم زوجته تلد، ومنا من ليس لديه شقة سكنية. لكن أحداً لم يئنّ. واجب يعني واجب. الوطن ينادي، الوطن يقرر. هذا هو شعبنا...

حول الخيم تلال ضخمة من فوارغ المعلبات. التي كانت محفوظة في المستودعات العسكرية لاحتياطي الطوارئ. وحسب الملصقات، فقد حفظت عشرين ـ ثلاثين سنة... لحالة الحرب. معلبات اللحم المطبوخ، وثريدة الشعير... وسمك الاسبرط. وقطعان من القطط... مثل الذباب...

لقد أخليت القرى، وما من بشر. تصرّ بوابة بسبب الريح، تلتفت مباشرة: وقد توقّعتَ إنساناً. تخرج قطة ـ بدلاً عنه!

نزعنا الطبقة العليا الملوّثة من الأرض، شحنّاها بالسيارات ونقلناها إلى المقبرة. اعتقدت، بأن المقبرة ـ بناء هندسيٌّ معقّد، واتّضحَ أنّها تلة عادية. كنّا نرفع الأرض ونلفها لفافات كبيرة... مثل السجادة... طبقة خضراء مع العشب، والورود، والجذور... والعناكب والديدان... عمل للمجانين. كان يجب كشط الأرض، وأخذ كل ما هو حيّ منها. لو لم نشرب حتى الثمالة كلّ ليلة، لما كنّا استطعنا التحمّل. حالتنا النفسية ما كانت لتصمد. مئات الأمتار من الأرض المجروفة، لم تكن خصبة. البيوت، والمستودعات المنزلية، والقرى، والطرق الإسفلتية، وروضات الأطفال، والآبار ـ بقيت، وكأنها عارية... وسط الرمل، وفي الرمل. كان علينا في الصباح أن نحلق ذقوننا، كنا نخاف النظر في المرآة، ورؤية وجوهنا. لأن أفكاراً مختلفة... أفكاراً متنوعة.. قد ظهرت. من الصعب التصور، بأن يعود الناس إلى هناك، وتبدأ الحياة من جديد. لقد غيرنا اللوائح كل يوم، وغسلنا السطح. كان الجميع يدركون أن هذا العمل دون جدوى. آلاف الناس. يستيقظون كل صباح، وينفذون العمل نفسه من جديد. يا للسخف! يلتقينا جد أميّ: "اتركوا يا أبنائي هذا العمل السيء. واجلسوا إلى المائدة. وتناولوا طعام الغداء معنا". تهب الرياح. وتسبح الغيوم. المفاعل مفتوح... جرفنا طبقة، وعدنا بعد أسبوع، يمكن إعادة العمل من جديد. لكن لا يوجد ما تجرفه. تنثر الرمل... فهمت الفكرة ذات مرة، عندما رشوا من الحوّامة محلولاً خاصاً، لتشيكل طبقة، لا تسمح بتحرّك التراب وانتقاله من مكانه. هذا كان مفهوماً بالنسبة لي. لكن نحن حفرنا وحفرنا...

نزحت الناس، وبقي بعض كبار السن في عدد من القرى. لكن لو

تعرج إلى بيت عادي وتتناول طعام الغداء... إن الطقوس نفسها... ولو لنصف ساعة حياة إنسانية عادية... بالرغم من أنك لا يمكن أن تأكل شيئاً. تم منعه. لكنك ترغب أن تجلس إلى المائدة... في بيت قديم...

بقيت بعدنا تلال فقط. وسيتم فيما بعد وضع ألواح بيتون عليها، وتسييجها بالأسلاك الشائكة. تركنا هناك سيارات القلاب، وسيارات الجيب، والرافعات، التي استعملناها، ذلك أنَّ المعدن يملك خاصّية تجميع الإشعاعات، واحتوائها. يقولون بأن كل ذلك اختفى فيما بعد. سرقوه. أصدِّق، فعندنا يمكن أن يحدث أي شيء. دق ناقوس الخطر ذات مرة: فحص اختصاصيو قياس الأشعة المكان واتَّضحَ، بأن المطعم مبني على مكان، تزيد فيه الإشعاعات، عنها في الأماكن التي نذهب للعمل فيها. وكنّا قد عشنا هنا مدة شهرين. هذا هو شعبنا... أعمدة تصل إلى الصدر، ثُبّتت عليها ألواح ـ سمّي المكان مطعماً. تناولنا الطعام واقفين. اغتسلنا من البراميل... التواليت ـ خندق طويل في أرض نظيفة... في أيدينا ـ مجرفة... وبالقرب ـ مفاعل...

بدأنا بعد شهرين نفهم شيئاً ـ ما. هيّا نسأل: "نحن لسنا انتحاريين. عملنا شهرين، يكفي. حان الوقت لاستبدالنا". عقد الجنرال ـ الرائد جلسة معنا، واعترف: "ليس مجدياً من الناحية المادية استبدالنا. لقد أعطيناكم طقم ثياب، وثاني وثالث. لقد اكتسبتم مهارات. استبدالكم ـ مسألة مكلفة، ومزعجة". والتركيز على أننا ـ أبطال. قدموا مرة في الأسبوع، للذين حفروا بشكل جيد، شهادة تقدير. أفضل دفّان في الاتحاد السوفيتي. أليس هذا جنوناً؟.

قرى خالية... يعيش فيها الدجاج والقطط. تدخل أحدَ المستودعات، تجده ممتلئاً بالبيض. يقلي الجنود البيض ـ شباب شجعان. يمسكون

دجاجة. يشعلون موقداً. وعاء من السماغون (الفودكا البيتية). شربوا جماعةً كل يوم في الخيمة زجاجة سماغون سعة ثلاث ليترات. واحدٌ يصارع في الشطرنج، وآخر يعزف على القيثارة. الإنسان يعتاد كل شيء. أحدهم يثمل ـ إلى السرير، وآخر يصرخ إلى الصيد. شجار. اثنان جلسا خلف المقود ثملين. تحطّما. قصوا الحديد المطبق عليهما وسحبوهما. أنا نجوت، بكتابتي رسائل طويلة إلى البيت وبتدوين مذكراتي. اكتشفني رئيس قسم التوجيه السياسي، وأخذ يراقبني: أين أخبئه، وماذا أكتب؟ أقنع جاري بالتجسس عليّ. لقد حذرني: "ماذا تخط؟" ـ "دافعتُ عن أطرحة الدكتوراه. أكتب رسالة دكتوراه دولة". يضحك: "سأنقل للعقيد ما قلته. اخفِ هذا الدفتر". كانوا شباباً جيّدين. لقد قلت، لا أحد يتذمّر. أو يتجابن. صدقوني: لن يستطيع أحد أن ينتصر علينا. أبداً. لم يخرج الضباط من الخيم. تبختروا في الصنادل البيتية. شربوا. لا يهمّ! نحن حفرنا. ودعهم يضعون على أكتافهم نجوماً جديدة. لا يهم! هذا هو شعبنا...

اختصاصيو قياس الأشعة ـ آلهة. يتدافع الجميع نحوهم: "هيا بنيّ، ما هي الإشعاعات عندي؟". أدرك أحد الجنود الجريئين والمغامرين ذلك: أخذ عصا عادية، ولفها بسلك كهربائي. قرع الباب في أحد البيوت، وأخذ يمرر هذه العصا على الجدران. العجوز خلفه: "يا بنيّ، ماذا عندي هناك؟" ـ "سرّ عسكري، يا امرأة" ـ "قل لي يا بني. وأنا سأسكب لك كأساً من السماغون". ـ "حسناً.. هيّا!". شرب: "كل شيء عندك على ما يرام". ثم تابع إلى مكان آخر...

وزعوا علينا أخيراً، وفي منتصف المدة أجهزة قياس، علب صغيرة بداخلها كريستال. أصبح البعض يتخابث: يجب نقل الجهاز في الصباح ووضعه عند المقبرة وتركه هناك، وأخذه في نهاية اليوم. كلّما كانت

الإشعاعات أكثر، أعطونا إجازة بصورة أسرع. أو دفعوا لنا أكثر. ومنهم من ثبّته على الحذاء، علق الجهاز بالرباط، كي يكون أقرب إلى الأرض. مسرح السخافة! سخافة! هذه العدادات لم تكن مشحونة، كي تبدأ تسجيل الشحنات، كان يجب شحنها بالجرعة الأولية من الإشعاعات. أي أن هذه الحلي والخردوات أعطيت لرفع العتب. علاج نفسيّ. اتّضح في الواقع أن جهاز السيليكون هذا كان مرمياً في المستودعات منذ خمسين عاماً. كتبوا في نهاية الخدمة للأشخاص جميعاً على بطاقتهم العسكرية رقماً واحداً: الجرعة الوسطية للإشعاعات، مضروبة بعدد أيام البقاء في المنطقة. وقاسوا الجرعة الوسطية في الخيم التي كنّا سكناها.

لا أدري إن كانت نكتة، أم أنها حصلت في الواقع. تتصل فتاة بحبيبها الجندي. كانت قلقة عليه: "ماذا تفعل هناك؟". قرر أن يتفاخر: "أنا للتو خرجتُ من تحت المفاعل، وغسلت يدي". وهنا ـ انقطع الخط. وانقطع الحديث. الـ كي جي بي تتنصت.

ساعتان ـ للاستراحة. تتمدد تحت الشجيرة، الكرز قد نضج، حبة كبيرة، حلوة، تمسحها وتضعها في فمك. توت... للمرة الأولى أرى التوت...

عندما لم يكن لدينا عمل، كنا نتجوّل بالسيارات، في المنطقة الملوّثة... سخافة! يشاهدون الأفلام في الأمسيات. الأفلام الهندية. عن الحب. حتى الساعة الثالثة ـ الرابعة صباحاً. غطّ الطبّاخ في النوم، والكاشا[1] ما زالت نيّئة. أحضروا الجرائد. كتبوا هناك، بأننا ـ أبطال!

---

(١) نوع من الطبيخ شبيه كثيراً بالأكلة الشعبية في بلاد الشام "المجدّرة" أو سليق البرغل/. المترجمان./

متطوعون! أحفاد بافكا كورتشاغين!. طُبعت صور. آه، لو نلتقي نحن بذاك المصوّر...

نزلتْ ليس بعيداً عنّا، قطعٌ عسكرية أمميّة. تتار من قازان. شاهدت محكمتهم الذاتية. يقودون جندياً أمام الصف، كان قد توقف أو هرب جانباً، تسلل إلى البيوت، وسرقها، وجدوا لديه حقيبة مملوءة بما تيسّر، يركلونه بأرجلهم... وتموضع الليتوانيون في المنطقة منفصلين عن سواهم. احتجّوا بعد شهر وطلبوا إعادتهم إلى بيوتهم.

وصلنا طلبٌ خاصّ: غسلُ بيت في قرية خالية بالسرعة القصوى. سخافة!. "لماذا؟ - "يوم غد سيتم تمثيل عرس هناك". غسلنا السقف بخراطيم المياه، وغسلنا الشجر، كشطنا الأرض. جرفنا التربة مع البطاطا، والحديقة كلّها، والعشب في الفناء. أرض قاحلة من حولنا. أحضروا العروسين في اليوم التالي. وصلت حافلةٌ تنقل الضيوف. وموسيقا... حفلِ زفاف حقيقي، العريس والعروس ليسا ممثلين سينمائيين. عاشا في مكان آخر، نزحا مع من نزح، لكن أقنعوهم بالقدوم إلى المنطقة، كي يصوروا للتاريخ. اشتغلتِ الدعايةُ. مصنعُ الحلم... حافظت على أساطيرنا: نحن نستطيع العيش في أي مكان، وحتى على الأرض الميّتة...

استدعاني القائد قبيل السفر قائلاً: "ماذا كتبت؟". أجبته: "رسائل لزوجتي الشابّة" - "احذر...". - وتبع ذلك قرار.

ماذا بقي في ذاكرتي عن تلك الأيام؟ كيف حفرنا. حفرنا... ومدوَّنٌ في موضع من دفتر المذكرات، ما أدركت هناك. لقد أدركت من الأيام الأولى... كم من السهل أن تُصبح تراباً...".

إيفان نيقولايفيتش جميخوف،

مهندس ـ كيميائي

مونولوج عن رموز الدولة العظمى وأسرارها

"أتذكّر، كما أتذكر عن حرب...

بدأت تصلنا في نهاية شهر أيار (مايو)، أي بعد حوالي شهر من الحادثة، موادُّ غذائية للفحص من منطقة "الثلاثين كيلومتراً". عمل المعهد ليل نهار. وكأنّه معهد عسكري. لم تكن في الجمهورية كلها، أجهزة خاصّة ومهنية ساعتها إلا تلك الموجودة لدينا. جلبوا أعضاء داخلية للحيوانات المنزلية والبرية. فحصنا الحليب. اتضح من العيّنات الأولى، بأنّ ما يصلنا ليس لحمة، بل فضلات مشعّة. رعوا القطيع في المنطقة، بنظام الورديات. حضر الرعاة وغادروا، وأحضروا الحلابات. نفذوا خطط مصانع الحليب. وعندما فحصناه. لم نجد حليباً، بل فضلات إشعاعية. لقد استخدمنا بودرة الحليب الجاف وعلب الحليب المركّز، منتجات مصنع روغاتشيف، كمصدر مرجعي لفترة طويلة في محاضراتنا. كانت تباع هذه المُنتجات في المحلات التجارية... وجميع أكشاك المواد الغذائية في تلك الفترة... وعندما قرأ الناس على الملصقات، أن الحليب من مصنع روغاتشيف، تركوه ولم يشتروه، أخذت المنتجات تتكدس، وفجأة ظهرت علب بلا ملصقات تعريفية. أعتقد، أن السبب لم يكن في نقص الورق، ـ كذبوا على الناس. الدولة كذبت. أصبحت كل المعلومات سرّية خلف سبعة أقفال، كي "لا تثير الذعر". وكان ذلك في الأسابيع الأولى... في هذه الفترة بالذات، عندما

كانت العناصر التي تعيش لفترة قصيرة تُصدر إشعاعات صلبة (قاسية)، وكلها "تضيء". كتبنا دائماً ملاحظات وظيفية... دائماً... لكن أن تتحدّث علنا عن النتائج... فهذا يعني أن تُسحب درجتك العلمية، وأحياناً البطاقة الحزبية. *(بدأ يتوتر)* .لكن المسألة ليست في الخوف... السبب ليس في الخوف، بالرغم من أنّه كان موجوداً، طبعاً... بل لأننا كنّا أناس زمننا، بلدنا السوفييتي. وثقنا فيه، المسألة كلّها ـ في الثقة. في إيماننا... *(أخذ يدخّن بسبب التوتر)* .تأكدوا، ليس ـ بسبب الخوف... أو ذرّة منه... أنا أجيب بصدق. كي أحترم نفسي، يجب أن أكون صادقاً. أنا أريد ذلك...

الزيارة الأولى للمنطقة: الإشعاعات في جو الغابة أعلى بخمس ـ ست مرّات منها على الأرض، أو على الطريق. جرعات عالية في كل مكان. الجرّارات تعمل... الفلاحون يحرثون حدائقهم... قسنا في عدد من القرى حال الغدة الدرقية للكبار والصغار: مستوى الأشعة يفوق بمئتي ـ ثلاثمئة مرّة، الجرعةَ المسموح بها. أصيبت المرأةُ؛ طبيبة القلب المرافقة لنا بالهستيريا عندما شاهدت الأطفال، الذين جلسوا على الرمل ولعبوا. وأطلقوا بواخرهم البلاستيكية في البُرك. المحلات التجارية مفتوحة، كالمعتاد، عندنا في القرى، المواد الغذائية من المناطق المجاورة: البذلات، والفساتين، وبالقرب المارتديلا، والسمنة. موجودة بكثرة، وحتى أنّها ليست مغطاة بالسيلوفان. نأخذ المارتديلا، والبيض... نلتقط لها صوراً شعاعية: إنّها ليست مواد غذائية، بل فضلات مشعّة. تجلس امرأة في مقتبل العمر على المقعد بجوار البيت، ترضع الطفل من ثديها... فحصنا حليب الثدي ـ مشعّ. يا لها من مريم تشرنوبل العذراء...

سألنا ـ ماذا نفعل، في هذا الوضع؟ أجابونا: "أجروا القياسات.

وشاهدوا التلفزيون". في التلفزيون، غورباتشوف يُطمئن الناس: "اتُخذت إجراءات طارئة"... لقد وثقت بما يقول... مهندس بخبرة عشرين عاماً، ومطّلع جيد على قوانين الفيزياء. عرفت، أنّه يجب أن يخرج من هذه المنطقة كل ما هو حيّ. حتى ولو لفترة. أجرينا القياسات بكل مصداقية وشاهدنا التلفزيون. لقد تعودنا أن نثق. أنا ـ من جيل ما بعد الحرب، الذي نشأ في هذه الثقة. من أين جاءت الثقة؟ لقد انتصرنا في تلك الحرب المخيفة. انحنى لنا العالم كله حينها. لقد حصل ذلك! على السلاسل الجبلية وعلى الصخور حُفر اسم ـ ستالين!! ما كان ذلك؟ رمز! رمز الدولة العظمى.

إجابة على سؤالك: لماذا عرفنا وصمتنا؟ لماذا لم نخرج إلى الساحات، ولم نصرخ؟ نحن قدّمنا تقاريرنا... لقد قلت لكم، كتبنا ملاحظات وظيفية. لكن صمتنا والتزمنا بالأوامر دون تردد، إنّه انضباط حزبيّ، أنا ـ شيوعي. لا أذكر أن أحد موظفينا خاف على نفسه بالذات، ورفض مهمّة إلى المنطقة. وليس الأمرُ خوفَ نزع البطاقة الحزبية، لكن بسبب الإيمان. قبل كل شيء الثقة، بأننا نعيش بشكل جميل وعادل، وأنّ الإنسان عندنا أعلى من كل شيء، ومقياس كلِّ الأشياء. انهيار هذه الثقة انتهى فيما بعد بالنسبة لكثيرين بجلطة أو انتحار. طلقة في القلب مثلما حدث للأكاديمي ليغاسوف... لأنّك وعندما تفقد الثقة، وعندما تصبح من دون إيمان، أنت هنا لم تعد مشاركاً، بل شريكاً، لا يوجد لديك مبرر. أنا أفهمه على هذا النحو.

هناك رمز أو علامة... لكل محطة نووية في الاتحاد السوفييتي السابق خطة لمواجهة الطوارئ تحفظُ في خزنة خاصة لدى الجهات العليا. خطة موحّدة. سريّة. من دون وجود هذه الخطة لا يُسمح بتشغيل المحطة. أُعدّتْ خطة مشابهة لمحطة تشرنوبل قبل سنوات من الحادثة:

ماذا تفعل وكيف؟ من وعن ماذا هو مسؤول؟ مكان وجوده؟ مكتوب فيها حتى التفاصيل الصغيرة... وفجأة هناك وفي هذه المحطة تحصل الكارثة... ما هذا ـ توافق؟ انتقام؟ ليتني كنت إنساناً مؤمناً... عندما تريد إيجاد معنى، تشعر بنفسك إنسانا روحانياً. أمّا أنا ـ فمهندس. أنا إنسان بإيمان آخر. لدي رموز أخرى...

ماذا أفعل الآن بإيماني؟ ماذا الآن...".

مارات فيليبوفيتش كوخونوف

كبير مهندسي معهد الطاقة الذرية

أكاديمية العلوم في بيلاروسيا

مونولوج: المخيف في الحياة يحصل بهدوء وبشكل طبيعي

"من البداية...

في مكان ـ ما، حدث أمرٌ ـ ما. حتى أنني لم أسمع اسم المكان، هناك بعيداً عن قريتنا موغيليف... هرع أخي من المدرسة قائلاً: وزّعوا على التلاميذ حبوب دواء. على ما يبدو حصل أمرٌ طارئ. أيا يا ياي! هذا كل شيء. أمضينا يوم الأول من أيار بشكل رائع، طبعاً في الطبيعة. عدنا إلى البيت في وقت متأخر من المساء، الشباك مفتوح على مصراعيه بسبب الريح... هذا ما تذكرته لاحقا...

عملت أنا في مفتشية حماية الطبيعة. انتظرنا هناك تعليمات محددة، لكنها لم تصل... انتظرنا... لم يكن في إدارة المفتشية مهنيون تقريباً، وبخاصّة بين أعضاء الإدارة: عقداء متقاعدون، مسؤولون حزبيون سابقون، متقاعدون، وغير مرغوب بهم. شخصٌ شاكسَ في مكان آخر، يرسلونه إلينا. يجلس و"يشخبط" على الورق. ضجوا، وعلّقوا بعد خطاب كاتبنا البيلاروسي الكسي آداموفيتش في موسكو، وقد أخذ يقرع الأجراس كلها. كم حقدوا عليه! أمرٌ غير واقعي. يعيش هنا أطفالهم، وأحفادهم والكاتب يصرخ بالعالم: أنقذونا!! ليس هم. هُيّأ لي أن غريزة الدفاع عن النفس يجب أن تعمل. في الاجتماعات الحزبية، في أماكن التدخين ـ كل الأحاديث تدور حول ـ الاختراقات. وكيف يحشرُ البعضُ

أنفسهم في مسائل لا تعنيهم؟ لقد انحطّوا! توجد تعليمات! مرجعيات! ماذا يفهم؟ إنّه ليس فيزيائياً! هناك اللجنة المركزية، يوجد الأمين العام! أنا حينها، ربما لأول مرة أفهم، ما هو ـ عام سبعة وثلاثين. وكيف كان ذلك...

كان تصوّري في تلك الفترة عن المحطة الذرية مثالياً تماماً. لقد علمونا في المدرسة، وفي المعهد، بأن تلك المحطّات أسطوريّة "مصانع للطاقة من لا شيء"، حيث يجلس الناس في مريلات بيضاء، يضغطون على الأزرار. انفجر تشرنوبل على خلفية المعرفة غير المجهّزة، والثقة العمياء بالتقنية. تلا ذلك غياب أيّة معلومات. تلالٌ من الأوراق تحمل ختم: "سرّي للغاية"، "تُحفظ المعلومات عن الحادثة بسرّية"، "تُحفظ المعلومات عن نتائج العلاج بسرّية"، "تُحفظ بسرّية المعلومات عن درجة التلوّث الإشعاعي للطاقم المشارك في القضاء على آثار الحادثة". انتشرت إشاعات تقول: قرأ أحدهم في الصحف، إن شخصاً في مكان ـ ما سمع،... اختفت من المكتبات كل الكتب المُضحكة (وكما تبيّن فيما بعد) المهملة، من منشورات الدفاع المدني. أحدهم سمع أصواتاً غربية، تقول إنهم أرسلوا فقط في ذلك الوقت، أقراص دواء، ووصفوا كيفية استخدامها بشكل صحيح. لكن غالباً ما يكون ردّ الفعل على هذا النحو: الأعداء يشمتون بنا، وعندنا كل شيء على ما يرام. سيذهب المحاربون القدماء إلى العرض العسكري في التاسع من أيار (مايو)... ستعزف الأوركسترا النحاسية. وحتى أولئك الذين أطفأوا حريق المفاعل، كما اتضح فيما بعد، عاشوا أيضاً وسط الإشاعات. أتصوّر، إن مسك الغرافيت باليدين خطر... أتصوّر...

ظهرت في المدينة من مكان ـ ما امرأة مجنونة. تجوّلت في البازار وقالت: "أنا شاهدت هذه الإشعاعات. إنّها زرقاء ـ زرقاء، تسكب...".

فكفَّ الناس عن شراء الحليب، واللبن الرائب من السوق. تقف عجوز ومعها حليب لا أحد يشتريه منها. تقنع الناس: "لا تخافوا أنا لا أرعى البقرة في الحقل، أحضرُ لها العشب بنفسي". تخرج بالسيارة من المدينة، تشاهد فزاعات على جانب الطريق: ترعى البقرة ملفوفةً بالسيلوفان، وإلى جانبها عجوز مغطاةٌ أيضاً كلّها بالسيلوفان. ولكم أن تضحكوا، أو تبكوا. وبدأوا يرسلوننا للتفتيش. أرسلوني إلى مزرعة الغابات. لم تنقص كميات الخشب المورّدة، كما هي في الخطة، وبقيت على حالها. شغّلنا الجهاز في المستودع، الشيطان يعرف ماذا عرض الجهاز. كانت النتيجة عند الألواحِ الخشبية طبيعيّة، لكن بجوار المكانس المجهّزة يرتفع المؤشر كثيراً. "من أين المكانس؟" - "من كراسنوبول (وكما تبيّن فيما بعد، إنها أكثر المناطق تلوّثا في مقاطعة موغيلوف). بقيت آخر دفعة. وقد تم شحن الباقي". كيف ستبحث عنها الآن في مدن مختلفة؟

أمرٌ - ما خفت أن أنساه؟ جدير بالملاحظة... تذكرت.. تشرنوبل... وفجأة إحساس جديد غير مألوف، بأن لكل إنسان عندنا حياته، وهي قبل ذلك كما لو أنها لم تكن ضروريّة. وهنا أصبح الناس يفكرون ماذا يأكلون، وماذا يطعمون الأطفال. ما هو الخطِر على الصحة، وما هو غير خطِر؟ تنتقل إلى مكان آخر أو لا تنتقل؟ أصبح على كل واحد منا أن يتخذ قراراً بنفسه، وقد اعتدنا العيش - كيف؟ كل قرية، تضم مصنعاً، كولخوزاً. لقد كنّا أناساً سوفييت. أنا على سبيل المثال، كنت إنسانة سوفيتيّة. جداً!! درست في المعهد، سافرت كل صيف إلى معسكر الكومسومول. كانت هناكَ حركة شبابيّة - معسكرات شيوعيّة طلابيّة. نحن عملنا هناك، أمّا النقود فقد كانت تحوّلُ إلى أحد الأحزاب الشيوعيّة في أمريكا اللاتينية. معسكرنا بشكل خاص، حوّلت نقوده إلى الحزب الشيوعي في الأورغواي...

لقد تغيّرنا. تغيّر كل شيء. نحتاج إلى جهود كبيرة، كي نفهم. وننفصل عن المعتاد... أنا ـ بيولوجيّة. أطروحة دبلومي ـ سلوك الدبابير. عشتُ شهرين في جزيرة غير مأهولة. كان عندي عش للدبابير خاصّ بي. تقبلتني تلك الكائنات في أسرتها، بعد أن تفحصتني أسبوعين. لم تسمح لأحد بالاقتراب منها أكثر من ثلاث مترات، أمّا لي فقد سمحت بالاقتراب لمسافة عشرة سنتيمترات. أطعمتهم المربى في علبة الكبريت مباشرة في العش. وكما يقول المثل المفضل لمدرِّسنا: "لا تخرب عش النمل، إنّه شكل جيد لحياةٍ مختلفة". عش الدبابير مرتبط بالغابة كلّها، وأنا أصبحت تدريجياً جزءاً من المشهد. يهرع فأرٌ نحوي ويجلس على حافة حذائي الرياضي، إنّه بريّ، ويعيش في الغابة، لكنّه يتقبلني كجزء من المنظر الطبيعي، أمس جلست، واليوم أجلس، وغداً سأجلس...

بعد تشرنوبل... وفي معرض لرسومات الأطفال: يمشي لقلق على أرض سوداء ربيعيّة... وتحتها توقيع: "لم يقل أحدٌ للقلق شيئاً". هذا ـ إحساسي حينها. لقد كان هناك عمل. عمل يومي... تجوّلنا في المقاطعة، أخذنا عينات المياه، وعينات التربة ـ ونقلناها إلى مينسك. تذمرت فتياتنا: "ننقل معجنات ساخنة". لا حماية، ولا ثياب خاصّة. نجلس على المقعد الأول، وخلفنا نماذج ـ "تضيء". كتبنا تقارير من أجل دفن التربة المشعّة. دفنّا الأرض في الأرض... نشاط بشريّ جديد... لم يستطع فهمه أحد... حسب التعليمات تجري عملية الدفن بعد استطلاع جيولوجي، كي يكون عمق المياه الجوفية ليس أقرب من أربعة ـ ستة أمتار، عمق الدفن ـ ليس كبيراً، تغطى جدران المدفن والقاع بطبقة من البوليثيلين. لكن ذلك في التعليمات، أما كيف تمَّ الأمر على أرض الواقع، فمن الطبيعي أن يكون بشكل آخر. كما هي الحال دائما. من دون أي استطلاع جيولوجي. تغرز إصبعك: "احفر هنا".

الحفارة تحفر. "لأي عمقٍ حفروا؟". - "الشيطان يعرف! ظهرت المياه، اترك" حفروا مباشرة في المياه الجوفيّة...

يقولون هكذا: شعب مقدس، وحكومة مجرمة... سأقول لكم فيما بعد ماذا أفكر حول ذلك... عن شعبنا وعن نفسي...

أكبر مهمة كانت لي في مقاطعة كراسنوبل، لقد قلت من قبل، إنّها الأكثر تلوثاً. كي نمنع انتقال النيكلودات المشعّة من الأرض إلى الأنهر، كان علي مرة أخرى إتباع التعليمات: حفر أخاديد مزدوجة، وممر - ومرة أخرى أيضاً أخاديد مزدوجة، وهكذا على المنوال نفسه. كان يجب عليّ السير على طول ضفاف الأنهر الصغيرة. للتفتيش. كنت أستقل باص النقل العام إلى مركز المقاطعة، ومن الطبيعي بعد ذلك أن أحتاج إلى سيارة. أذهب إلى رئيس اللجنة التنفيذية للمقاطعة. يجلس الرئيس في مكتبه، يضغط رأسه بيديه: لم يُلغِ الخطةَ أحد، وجدول تناوب المحاصيل لم يغيِّره أحد، وكما زرعوا الحمّص من قبل، يزرعونه الآن، بالرغم من أنّهم يعرفون، أن الحمّص هو أكثر المزروعات امتصاصاً للإشعاعات، مثله مثل باقي أنواع البقول. وهناك في بعض الأماكن أربعون كوري وأكثر. تفكيره ليس معي. فرَّ الطهاةُ والممرضاتُ من رياض الأطفال. الأطفال جائعون. لإجراء عملية الزائدة الدودية لأحدهم، يجب نقله بسيارة "الإسعاف" إلى المنطقة المجاورة، تبعد ستين كيلومتراً على الطريق، والطريق مثل لوحِ الغسيل. الجراحون سافروا جميعاً. عن أية سيارة أتحدّث؟! وأية أخاديد مزدوجة؟ تفكيره ليس معي. حينها توجهت إلى العسكريين. شباب فتيان، خدموا لستة أشهر. وهم الآن مرضى يائسون. وضعوا تحت تصرّفي مصفحة ناقلة للجنود، لا ليست هذهِ سيارة، بل هي سيارة استطلاع تحمل مدفعاً. أشعرُ بالأسف أنني لم ألتقط صورة فوتوغرافية عليها. على الدرع.

رومانسية ـ مرّة أخرى. قائد المصفّحة كان على اتصال دائم مع القاعدة: "أيها الصقر! أيها الصقر! مستمرون في العمل". نمشي... الطرق طرقنا، والغابات غاباتنا، ونحن ـ في مصفحة حربية. تقف النساء عند الأسوار. تقف وتبكي. آخر مرة شاهدوا هذه التقنية أثناء الحرب الوطنية العظمى. والخوف يتملكهن، من أن تكون الحرب قد بدأت.

حسب التعليمات، يجب أن تكون قمرة قيادة الجرارات الذي ستحفر الأخاديد محمية، ومغلقة. الجرار يقف، أما السائق فقد تمدد على العشب، يرتاح. قلت له: "هل جننت؟ ألم يحذرونكم؟". يجيب: "ها أنا أغطي رأسي بسترة سميكة". لم يدرك الناس حقيقة الوضع. لقد أخافوهم طوال الوقت، وأعدّوهم للحرب النووية. لكن ليس لتشرنوبل...

الأماكن هناك جميلة للغاية. حافظت الغابة على نفسها غير مغروسة، بل حقيقية. قديمة. تلفها الجداول، مياهها بلون الشاي وشفافة ـ شفافة. والعشب أخضر. يتردد الناس إلى الغابة... بالنسبة لهم هذا طبيعي، كما تخرج صباحاً إلى حديقة منزلك... أما الآن فأنت تعرف أن كل شيء ملوث ـ الفطور، والثمار. والسناجب تركض على شجر البندق...

التقتنا امرأة عجوز:

ـ يا أبنائي، هل يمكن شرب حليب بقرتي؟

عيوننا في الأرض، لدينا أمر ـ جمع معلومات، لكن لا تعاشروا الناس عن قرب.

يسبقنا قائد المصفحة ويجيب:

ـ أيتها الجدة، كم عمرك؟

ـ حوالي الثمانين، بل أكثر. الوثائق احترقت أثناء الحرب.

ـ إذاً يمكنك الشرب.

يحزنك الناس القرويون أكثر من سواهم، لقد عانوا من دون أي ذنب، كالأطفال. ليس الفلاح من ابتدع تشرنوبل، فهو على علاقة خاصّة مع الطبيعة ـ علاقة ثقة، وليس احتلال، كما كان الأمرُ قبل مئة عام، وألف عام. وكما هو في المفهوم الإلهي... والقرويون لم يدركون ما حصل، أرادوا أن يثقوا بالعلماء، وبأي إنسان متعلّم، كالكاهن. ولقد أكدوا لهم: "كل شيء على ما يرام. لا شيء يدعو إلى الخوف. اغسلوا أيديكم قبل الطعام فقط". لقد أدركت، ليس مباشرة، بل بعد عدة أعوام، بأننا جميعا شاركنا في الجريمة... *(تصمت)*.

لا يمكنكم أن تتصوروا، ما هي الكميات التي نقلت بالسيارات من المنطقة، والتي كانت قد وصلت على شكل مساعدات، ومزايا لسكانها: القهوة، معلبات اللحم المطبوخ، معلبات لحم الخنزير، والبرتقال. بالصناديق والقاطرات. لم تكن حينها مثل هذه البضائع موجودة، في أي مكان. انتعش التجار المحليون، وكل مفتش، جميعهم من الموظفين الصغار والمتوسطين. واتّضح أن الإنسان، هو أسوأ بكثير مما كنت أتصور. وأنا نفسي... من أولئك السيئين أيضاً... أنا الآن أعرف ذلك عن نفسي... *(تفكر)* .أعترف أنا طبعاً... مهمٌ ذلك بالنسبة لي... وهذا مثال آخر... في كولخوز واحد لنقل، خمس قرى. ثلاث منها "نظيفة"، واثنتان "ملوّثتان"، المسافة من قرية إلى أخرى اثنان ـ ثلاثة كيلومترات. يدفعون لثلاثة منها "تعويضات دفن" ولاثنتين ـ لا. يبنون في "النظيفة" مجمّعاً لتربية الحيوان. بمعنى أننا سنحضر علفاً نظيفاً. لكن من أين نجلبه؟ الرياح تنقل الغبار من أرض إلى أخرى. الأرض واحدة. وكي يتم بناءُ مجمّع، يحتاجُ الأمر إلى أوراق. اللجنة توقعها، وأنا ـ في هذه اللجنة، وبالرغم من أن أحدَنا يعرف، بأنّ التوقيع ممنوع.

جريمةّ. فقد وجدتُ في النهاية لنفسي مبرراً: مسألة العلف النظيف ليست من اختصاص مفتشٍ في دائرة حماية الطبيعة. أنا ـ إنسان صغير. ماذا باستطاعتي؟ كل واحد وجد لنفسه مبرراً. تفسيراً. أنا أجريت تجربة على نفسي... وأدركت بشكل عام ـ ما هو مخيف يحصل في الحياة بهدوء وبشكل طبيعي...".

زويا دانيلوفنا بروك،

مفتش حماية الطبيعة

مونولوج: الإنسان الروسي
يرغب دائماً بالإيمان بشيء ـ ما

"وأنتم ألا تلاحظون أننا لا نتكلم عن ذلك فيما بيننا؟. بعد عشرات ومئات السنين ـ ستصبح هذه أعوام أسطورة. وستسكن هذه الأماكنُ القصصَ الخيالية والخرافات... والأساطير...

أنا أخاف المطر ـ هذا هو تشرنوبل. أخاف الثلج. والغابات. أخاف الغيوم. والرياح... نعم! من أين تهب؟ ماذا تحمل؟ هذه ليست فكرة مجردة، وليس استنتاجاً، هي شعور شخصيّ. تشرنوبل... هو في بيتي... في أغلى مخلوق لدي، في ابني، الذي ولد ربيع عام ستة وثمانين... إنّه مريض. إنّ الحيوانات، وحتى الصراصير، تعرف كم ومتى تلد. الناس لا يستطيعون، الخالق لم يعطهم موهبة التوقع المسبق. لقد نشروا في الصحف منذ فترة، أنّه في بيلاروسيا وحدها، أجرت النساء عام ثلاثة وتسعين مئتي ألف عملية إجهاض. السبب الرئيس ـ تشرنوبل. نحن نعيش في كل مكان مع هذا الخوف... الطبيعة كما لو أنها انقلبت، تنتظر، وتتوقع. لو كان حيّاً لصاح زارادشت: "يا لمصيبتي! أين اختفى الزمن؟".

لقد فكرت كثيراً. بحثت عن معنى... إجابة... تشرنوبل ـ هو كارثة العقلية الروسية. لم تفكروا أنتم بذلك؟ طبعاً، أنا موافق، عندما يكتبون، ليس المفاعل هو الذي انفجر، بل منظومة القيم السابقة كلها. لكن ينقصني شيء ـ ما في هذا التفسير...

أريد التحدث عما قاله تشادايف قبل غيره ـ عن عدائنا للتقدم. عن عدائنا للتكنولوجيا، وعن عدائنا لأدوات الإنتاج. انظروا إلى أوروبا. ابتداء من عصر النهضة، إنّها تعيش وفق القوانين المعقولة والمنطقية لعلاقة الوسيلة أو الأدوات بالعالم.. هذا احترام للإنسان الحرفي وللوسيلة التي بين يديه. توجد قصة رائعة عند ليسكوف ـ "الطبع الحديدي". ما الذي يعنيه هذا؟ الطبع الروسي ـ كيفما اتفق.. سيّان. هذه الفكرة المهيمنة في الموضوع الروسي. أما الطبع الألماني مثلاً ـ فالتركيز على الأداة، على الآلة. عندنا... عندنا؟ من جهة ـ محاولة تجاوز وتخطٍّ، ولجم الفوضى، ومن جهة أخرى ـ عفويتنا الأم. سافروا إلى حيث شئتم، على سبيل المثال، إلى كيجي فماذا ستسمعون من المرشد السياحي؟ إنّ هذا المعبد بُني بالفأس ومن دون أي مسمار! هذا بدل أن نبني، طريقاً جيداً. تغرق دواليب العربة في الطين، لكننا نثبّتُ حرارة الطير في أيدينا. ثانياً... أعتقد... نعم! ندفع ثمن عملية التصنيع السريع، بعد الثورة الاشتراكية، بعد أكتوبر... ثمن القفزة. وفي الغرب مرة أخرى ـ دوران قرن التصنيع... الآلة والإنسان تحرّكا، تغيّرا سوية. تشكّل الوعي التكنولوجي. أمّا عندنا؟ فماذا لدى الرجل الريفي عندنا في فناء بيته، غير يديه؟ حتى الآن! مطرقة، ومنجل كبير، وسكين ـ وهذا كل شيء. كل عالمه يستند إلى هذا. وهناك المجرفة أيضاً. كيف يخاطب الإنسان الروسي السيارة؟ بالشتائم فقط. أو بالمطرقة الكبيرة والركل. إنّه لا يحبها، إنّه يكره السيارة، ويحتقرها في الواقع، إنّه لا يدرك إطلاقاً، أن في يده قوة. لقد قرأت في مكان ـ ما، بأنّ الطاقم العامل في المحطات الذريّة غالبا ما يسمّي المفاعل ـ طنجرة، وسموفر وموقد الكيروسين والموقد الدائري. في هذا السياق لدينا ما نفتخر به: نقلي البيض بأشعة الشمس! من بين الذين عملوا في المحطة الكثير من الناس

القرويين. في النهار يعملون عند المفاعل، ومساء ـ في حدائقهم المنزلية أو عند أهلهم في القرية المجاورة، حيث ما زالوا يزرعون البطاطا بالمجرفة، وينثرون عليها روث البقر سماداً بالشوكة المعدنية... يقتلعون المحصول أيضاً يدوياً... معرفتهم تتأرجحُ بين تقويمين، في زمنين ـ الحجري والذرّي. في عصرين. الإنسان دائماً كان كرقاص الساعة يهتز. تصوروا لأنفسكم سكة القطار، التي مدَّها خيرةُ مهندسي السكك والطرق، يندفع القطار، لكن يقودهُ بدل سائقي القطار ـ سائقو العربات القديمة. هذا مصير روسيا.. السفر في ثقافتين. بين الذرة والمجرفة. وماذا عن الانضباط التكنولوجي؟ بالنسبة لشعبنا هو ـ جزء من العنف، والمنصات، والسلاسل. الشعب عفوي، وحر. يحلم دائماً ليس بالحرية ـ بل بالأحرار. الانضباط بالنسبة لنا ـ هو وسيلة اضطهاد. شيء ـ ما يوجد في جهلنا، شيء ـ ما قريب إلى الجهل الشرقي...

أنا ـ مؤرّخ... مارست كثيراً من قبل اللسانيات، وفلسفة اللغة. نحن لا نفكّر لغوياً فحسب، لكن اللغة أيضاً تفكر بنا. في الثامنة عشرة، وربما قبل ذلك وعندما بدأت أقرأ، اكتشفت لنفسي شالاموف، وسولجينيتسن، أدركت فجأة بأن طفولتي، وطفولة شارعي ـ وأنا قد نشأت في أسرة مثقفة (والد جدي كاهن، وأبي بروفيسور جامعة بطرسبورغ) ـ تغلغل فيها وعي المعسكرات. وكل قاموس طفولتي ـ لغة السجناء. بالنسبة لنا نحن اليافعين، كان ذلك طبيعيا تماماً، سمينا الأب ـ باخان[1]، والأم ـ باخانا. "على المؤخرة الخبيثة يوجد إ... له برغي" ـ هذا شيءٌ مما اكتسبته في التاسعة من عمري. نعم! ما من كلمة حضاريّة.

---

(١) كلمة شعبيّة أو محكيّة قادمة من عالم السجون لها صبغة جنائيّة، لعل المعادل الأقرب لها: زعيم اللصوص. أو رئيس العصابة.

وحتى الألعاب، والأمثال والفوازير كانت من لغة السجناء. لأن السجناء ـ ليسوا عالماً منفصلاً، يقبعُ في السجون بعيداً عنا، لقد كان قريباً منا. وكما كتبت أخماتوفا: "نصفُ البلد سجنَ الناس، ونصف البلد الآخر قبعَ في السجون". أعتقد، بأن ذلك هو وعي معسكرات الاعتقال الذي كان سيقود حتما للمواجهة مع الثقافة والحضارة...

لقد تربينا، بالطبع، ضمن وثنية سوفيتية خاصّة: الإنسان ـ سيّد، وقائد للإبداع، ومن حقه أن يفعلَ بالعالم كلَّ ما يرغب به. معادلة ميتشورين: "لا يمكننا انتظار الرحمة من الطبيعة، بل يجب أخذها منها ـ هذه هي مهمتنا". محاولة غرس خصائص في الشعب وصفات غير موجودة لديه. الحلم بالثورة العالمية ـ هو حلم بإعادة تشكيل الإنسان ومن حوله العالم. إعادة تشكيل كل شيء. نعم! شعار بلشفي مشهور: "سندفعُ بيد من حديد البشريةَ نحو السعادة!". إنها نفسية المغتصب. كهف الماديّة. تحدّ للتاريخ وتحدٍ للطبيعة. ولم ينته الأمرعند ذلك... تتهدّم يوتوبيا، وتأتي مكانها يوتوبيا أخرى. الجميع بدؤوا يتحدثون عن الله. عن الله والسوق في آن واحد. لماذا لم يبحثوا عنه في معسكرات الاعتقال، وفي زنازين عام سبعة وثلاثين، في الاجتماعات الحزبية عام ثمانية وأربعين، عندما عصفت الكوسموبوليتية في عهد خروشوف، وعندما هُدّمت المعابد؟ إنّ مضمون البحث عن الله الروسي المعاصر هو مكر وخداع. يقصفون البيوت الآمنة في الشيشان، ويقضون على الشعب الصغير المعتد بنفسه... ويقفون في الكنيسة يحملون الشموع... نحن قادرون على حمل السيوف، ورشاشات كلاشنيكوف بدل الكلمات. يُدفن سائقو الدبابات الروسية المحترقة في غروزني بالمجارف والشوك المعدنية... أو ما بقي منهم... وهنا الرئيس وجنرالاته يصلّون... وتشاهدهم البلاد كلّها على شاشات التلفزيون...

ماذا نحتاج؟ الإجابة على سؤال: هل الأمة الروسية قادرة على إعادة النظر بصورة شاملة بتاريخها كلّه؟ رأينا أن اليابانيين كانوا قادرين على ذلك بعد الحرب العالمية الثانية؟ والألمان؟ هل تكفينا الشجاعة العقلانيّة لتحقيق ذلك، يصمتون ولا يجيبون. يتحدثون عن السوق وعن القسائم والشيكات... نحن ولمرَّة أخرى سنبقى على قيد الحياة، وسنستهلك الطاقة كلّها على ذلك. أمّا الروح فهي مهملة... الإنسان وحيدٌ من جديد.. وحينها لماذا كل ذلك؟ وكتابكم؟ وسهري الليالي؟ وإذا كانت حياتنا، مثل انبثاق شعلة عود الثقاب؟ هنا يمكن أن تكمن إجابات عدّة. القدريّة البدائية. ويمكن أن تبرز أجوبة عظيمة. الإنسان الروسي يريد دائماً أن يؤمن بأمرٍ ـ ما: بالسكة الحديدية، بالضفدع (بازاروف عند تورغينييف)، بالبيزنطيّة، بالذرّة... والآن ـ بالسوق...

يقول بولغاكوف في "عصابة من المنافقين": "أذنبت طوال حياتي. كنت ممثلة". وعي خطيئة الفن، وفساد طبيعته. النظر إلى حياة غيرك. لكن ذلك كالمصل المصاب، يمكن أن يكون لقاحاً لتجربة غريبة. تشرنوبل ـ هو موضوع دوستويفسكي. محاولة تبرئة الإنسان. ويمكن أن يكون الأمر بكل بساطة: الدخول إلى العالم على رؤوس الأصابع والتوقف عند العتبة؟!.

أن تدهش بهذا العالم الإلهي... وتعيش على هذا النحو...".

الكسندر ريفالسكي، مؤرخ

مونولوج: حياة صغيرة غير محميّة في زمن عظيم

" لا تسألونني... لن أجيب... لا أريد التحدث عن ذلك... *(تصمتُ بانعزال)*.

لا. يمكنني التحدث إليكم، كي أفهم... إذا كنتم تستطيعون... فقط لا أريدكم أن ترثوا لحالي، أو أن تهدئوني. أرجوكم!! لا حاجة! لا... حاجة لأن تعاني هكذا دون معنى، من غير الممكن حتى التفكير إلى هذه الدرجة! من المستحيل!! *(تبدأ بالصراخ)* .نحن معزولون من جديد، ومرة أخرى نعيش في المعسكر... في معسكر تشرنوبل... يصرخون في اللقاءات الشعبيّة، يرفعون شعارات. ويكتبون في الصحف... تشرنوبل هدّم الإمبراطورية، وشفانا من الشيوعية... ومن المآثر، التي تشبه الانتحار... ومن الأفكار المخيفة... أدرك الآن أن المأثرة ـ هي الكلمة التي اخترعتها الحكومة... للذين مثلي... لكن ما بقي عندي شيء، ما من شيء آخر، لقد ترعرعت وسط هذه الكلمات وهؤلاء الناس. كل شيء اختفى، وتلك الحياة اختفت. بأي شيء نتمسك؟ وبماذا ننجو؟ يجب ألاّ نعاني هكذا من دون معنى*(تصمت)*. أعرف أمراً واحداً، لن أكون سعيدة أبداً...

لقد قدم من هناك... عاش عدة سنوات، كأنّه في حالة هذيان... حدّث وحدّث. وأنا حفظت ذلك...

وسط القرية ـ بقعة ماء حمراء. البط والإوز يحيدُ عنها.

يصيحُ الجنود ـ بالأطفال، وهم عراة ـ تجردوا من الثياب. يستلقون على العشب. يتشمّسون. "قفوا، أيها الشياطين، وإلاّ ستموتون!!". وهم: ها. ها. !

غادر الكثيرون القرى بسياراتهم. والسيارات ملوثة. الأوامر: "اخلي السيارة!"، ويرمونها في حفرة خاصّة. الناس واقفين يبكون. وفي الليل يخرجونها سرّاً...

"نينا، يا لحظنا الجيد، لدينا طفلان...".

قال الأطباء لي: القلب تضخم لمرة ونصف، وكذلك الكليتان والكبد.

سألني في ذات ليلة: "ألا تخافينني؟". كان قد أصبح يخشى الاقتراب منّي.

وأنا نفسي لم أسأل. فهمته، سمعته بروحي... أردت أن أسألكم... أردت أن أقول... غالبا ما أتصوّر... ليس في مقدرتي التحمّل مرة أخرى، لا أريد معرفة ذلك. أكره التذكّر! أكره! *(تأخذ بالصراخ من جديد)*. يوماً ـ ما... يوماً ـ ما حسدتُ الأبطال، وأولئك الذين شاركوا في أحداث عظيمة، وكانوا عند منعطف ما، عند ممر... كم تحدّثنا حينها، وكم غنّينا. كانت هناك أغنيات جميلة. *(تبدأ بالغناء)*. "أيها النسر... أيّها النسر...". لقد نسيت الكلمات الآن... طرْ أعلى مما تقدر الأجنحة... أتصوّر هكذا؟ كم كانت.. كم كانت كلمات الأغاني جميلة. لقد حلمت! وأسفت أنني ما ولدت عام سبعة عشر أو واحد وأربعين... أمّا الآن فأفكر بطريقة أخرى: لا أريد أن أعيش التاريخ، في الزمن التاريخي. حياتي الصغيرة ستصبح حينها من دون حماية. الأحداث

العظيمة ستدوسها، دون أن تلاحظ. أو تتوقف... لكن أين حياتي؟ أين حبي؟.

حدّث وحدّث. وأنا حفظت...

الحمائم والعصافير... اللقالق... اللقلق يركض ـ ويركض على الأرض، يريد الطيران، لكنّه لا يستطيع. والعصفور يقفز على الأرض، ويقفز، لكنه لا يستطيع الارتفاع أعلى من السياج.

الناس غادروا، وبقيت صورُهُم تعيشُ في البيوت...

يمشون في قرية مهجورة ويشاهدون منظراً كما في الحكايات: يجلسُ عجوزٌ وزوجتُه على سطح السقيفة، وحولهما تتجوّل القنافذ كالصيصان. عددها كبير. الوضع هادئ في القرية من دون الناس، وكأنها في الغابة، لم تعد القنافذ تخاف، تأتي طلباً للحليب. والثعالب كذلك، لقد حدثوهم إن الأيائلَ أيضاً باتت تدخل القرية. أحد الشباب لم يتحمّل: "إنني ـ صيّاد!" "ما بك! ما بك!! ـ لوّح العجائز بأيديهم ـ نمنعك من إيذاء الوحوش! بتنا أقرباء. وأصبحنا الآن ـ أسرة واحدة".

لقد عرف، أنّه سيموت... يموت... وأقسم ـ أن نعيش بصداقة وحب فقط. عملت في مكانين، راتبه التقاعدي لم يكفنا، ثمَّ طلب إليَّ: "هيا لنبع السيارة، هي ليست جديدة، لكن سيعطوننا مبلغاً ـ ما في المقابل. ابقي في البيت. سأراك عندها لفترة أطول". دعا أصدقاءه... وحضرَ أهله وعاشوا معنا لفترة طويلة... لقد أدرك أمراً... أدرك ما لم يدركه من قبل عن الحياة. كلماته تغيّرت...

"نينا، يا لحظِّنا الجميل، لدينا طفلان. بنت وصبيّ...".

سألته:

ـ هل فكرت فينا لحظة تفكيرك بالأطفال؟ بأي شيء كنت تفكر هناك؟

ـ لقد رأيت صبياً، ولداً بعد الانفجار بشهرين. سمّوه ـ أنطون. وناداه الجميع نوويّ.

ـ أنت فكرت...

ـ يأسى المرءُ لأجل الجميع هناك. وحتى لأجل البعوض والعصافير. فليعش الجميع!. دع الذباب يطير. والدبابير تلسع، والصراصير تزحف...

ـ أنت...

ـ الأطفال يرسمون تشرنوبل... الأشجار في الصور تنمو جذورها إلى الأعلى. المياه في الأنهار حمراء أو صفراء. يرسمون ويبكون هم أنفسهم.

أمّا صديقه... فقد حدّثني، بأنّ الجو كان مثيراً للاهتمام ومرحاً للغاية. قرأوا شعرا، غنوا مع أنغام القيثارة. حضر إلى المكان أفضل المهندسين، والعلماء. نخبة موسكو ولينينغراد. تناقشوا في الفلسفة... بوغاتشوفا غنّت أمامهم... في الهواء الطلق... سمَّتهم أبطالاً وقالت: "ما لم تشعروا بالنعاس، فسأغنّي لكم أيها الفتيان، حتى الصباح"... صديقه... وقد مات أوّلاً... رقص في عرس ابنته، أضحك الجميع بالطرائف. رفعَ كأساً، كي يقول نخباً، وسقط... و... رجالنا... يموتون، كما في الحرب، لكن وسط الناس المدنيين. لا أريد! لا أرغب في التذكر... *(تغمض عينيها وتهزُّ بهدوء)*. لا أريد أن أتكلم... لقد مات وكان موته مخيفاً، هذه هي الغابة السوداء...

"نينا، كم حظنا جيد، بأن لدينا طفلان. بنت وصبي. هما سيبقيان...".

(تتابع).

ماذا أريد أن أفهم؟ أنا نفسي لا أعرف... *(تبتسم دون أن تلاحظ)*. عرض عليّ صديقه الزواج...، كان يهتم بي عندما كنّا طلاباً وتعلمنا معاً، ثم تزوج من صديقتي، لكنهما افترقا بعد فترة قصيرة. أمر ما لم يتحقق. أتى إليَّ بباقة ورد: "ستعيشين ملكة". لديه محل تجاري، لديه شقة فاخرة في المدينة، وبيت في ضواحي المدينة. رفضت... وغضب منّي: "مرّت خمس سنوات... ولم تستطيعي نسيان بطلك!؟ ها. ها. ها... تعيشين مع نصب تذكاري...". *(تأخذ بالصراخ)* .طردته! طردته!! "غبية! عيشي على راتبك معلمة بائسة، على مئة دولار في الشهر". أعيش... *(هدأت)* .تشرنوبل ملأ حياتي، وروحي اتسعت... وهي تتألم... تلك القطعة الصغيرة المحببة... إنك تبدأ بعد الألم تتحدّث، تتحدّث بشكل جيد. أنا هكذا تكلمت... بتلك اللغة فقط عندما أحببت. والآن... لو لم أكن أثق، بأنّه في السماء، كيف يمكنني أن أتحمّل؟

هو يحدِّث... وأنا أحفظ... *(تقول وكأنها في غيبوبة)*.

غيوم غبار... الجرارات في الأرض. النساء تحمل المذاري المعدنية. جهاز الأشعة يعمل...

الناس غير موجودين، والزمن يتحرّك بشكل مختلف، يوم طويل - طويل كما في الطفولة...

لا تحرقوا الأوراق... حافظنا على الأوراق...

يجب ألاّ تعاني هكذا دون معنى. *(تبكي)* .بقينا نحن... من دون

كلمات معروفة وجميلة. حتى ومن دون ميداليات، تلك التي قدموها له. والتي بقيت في الخزانة في البيت...

لكني أعرف أمراً واحداً.. لن أكون أبداً سعيدة...".

نينا برخوروفنا ليتفينا

زوجة أحد العاملين في درء آثار الكارثة

مونولوج عن الفيزياء،
التي أحببناها جميعاً ذات يوم

"أنا ذلك الإنسان الذي تحتاجون إليه... لم تخطئوا...

منذ كنت يافعا اعتدت تسجيل كل صغيرة وكبيرة. على سبيل المثال، عندما مات ستالين ـ ما الذي حصل في الشارع، وعن ماذا كتبت الجرائد. وتشرنوبل، أنا أسجل منذ اليوم الأول، عرفت، أنه سيمضي وقت وينسى الكثيرون، وسيختفي دون رجعة. وهذا ما حدث. أصدقائي كانوا في مركز الأحداث، فيزيائيون ـ نوويّون، نسوا، ماذا شعروا حينها، وعمّا تحدثوا إلي. لكن عندي كل شيء مسجل...

في ذلك اليوم... أنا رئيس مخبر معهد الطاقة النووية التابع لأكاديمية العلوم البيلاروسية، وصلت إلى العمل، معهدنا كان في الغابة في ضواحي العاصمة. طقس رائع! إنّه الربيع. فتحت النافذة. الهواء نقي، ومنعش. استغربت: لماذا لم تأتي طيور سن المنجل، وكنت أطعمتها خلال فصل الشتاء، علّقت لها خلف النافذة قطع المارتديلا. هل وجدت ما هو ألذ؟

حصلتْ في هذا الوقت عند مفاعل المعهد حالة ذعر: أظهرت أجهزة قياس الإشعاعات ازدياد نشاط الأشعة، ارتفعت على فلاتر الهواء إلى مئتي ضعف. قوّة الجرعات جانب الباب الخارجي ـ حوالي ثلاثة

ميلي رينجين في الساعة. الأمر جديّ للغاية. يسمح بوجود هذه القوّة كحد أقصى في المساحات الخطرة إشعاعيا أثناء العمل ليس أكثر من ست ساعات. التوقع الأول ـ تسربت إلى المنطقة النشطة قشرة أحد عناصر قضبان الوقود. تأكدنا من ذلك ـ لا شيء. ربما أحضروا حاوية من المخبر الإشعاعي الكيميائي، واهتزت في الطريق، مما أدى إلى عطب القشرة الداخلية، فلوّثوا المكان؟ جرّب الآن غسل البقعة عن الإسفلت! ما الذي حصل؟ وهنا يعلنون أيضاً بالراديو الداخلي: لا ننصح الموظفين بالخروج من المبنى. وبالتنقّل بين المباني.. خلا المكان. ما من شخص واحد. رعب غير عاديّ.

فحص اختصاصيو قياس الأشعة مكتبي: الطاولةُ "تضيء"، الثيابُ "تضيء"، الجدران... أقف، وليس لي رغبة حتى في الجلوس على الكرسي. غسلت رأسي فوق المغسلة. نظرت إلى جهاز القياس ـ التأثير واضح. هل يكون ذلك فعلاً عندنا، وضع طارئ في معهدنا! تسريب؟ كيف يمكن الآن إزالة فعالية الأشعة من الباصات التي تنقلنا داخل المدينة؟ والموظفون؟ سيتعين علينا تحطيم رؤوسنا... أنا أفتخر جداً بمفاعلنا، لقد درسته حتى الميلليمتر...

اتصلنا بمحطة إيغناليم المجاورة. أجهزتهم تصرخ أيضاً. حالة ذعر أيضاً. اتصلنا بمحطة تشرنوبل... ما من هاتفٍ يجيب... يتَّضح الأمر عند الظهيرة. غيمةٌ مشعّة فوق مينسك كلّها. لقد حددنا ـ نشاط اليود. حادثة في أحد المفاعلات...

رد الفعل الأول: اتصلُ بزوجتي في البيت، وأحذرها. لكن كل هواتفنا في المعهد يتم التنصت عليها. أووو، خوفنا الأبدي الذي يجثم على نفوسنا لعشرات السنوات! لكن أسرتي هناك لا تعرفُ شيئاً... ابنتي

تتمشى بعد انتهاء الدروس في المعهد الموسيقي مع صديقاتها في المدينة. يأكلن البوظة. هل أتصل؟! قد يؤدي ذلك إلى مشكلة. لا يسمحون بالحديث عن الشؤون السرّيّة... ومهما يكن لم أستطع الصبر، أرفع السماعة:

ـ اسمعيني باهتمام.

تسأل زوجتي بصوت عال:

ـ عمّا تتحدّث؟

ـ اخفضي صوتك. اقفلي النوافذ، غلّفي كل المواد التموينية ـ بأكياس البوليبيتيلين. ضعي في يديك قفازات مطاطية، وامسحي بقطعة قماش رطبة كل شيء ممكن. ثم ضعي قطعة القماش في كيس، واخفها بعيداً. الثياب البيضاء الناشفة على الشرفة ـ اغسليها ثانية. لا تشتري الخبز. ولا تشتري بأي شكل من الأشكال المعجنات والحلوى في الشارع...

ـ ما الذي حصل؟

ـ اخفضي صوتك. ضعي نقطتي يود في كأس ماء. واغسلي رأسك...

ـ ماذا... ـ لم أفسح في المجال لزوجتي كي تنهي كلامها، وضعت السماعة. يجب عليها أن تفهم، هي نفسها موظفة في معهدنا. وإذا كان رجل أمن يتنصت على مكالمتي، فلا بد أن يسجل تلك النصائح المنقذة على الأرجح على ورقة لأجل نفسه وأسرته.

عرفنا في الساعة الخامسة عشرة وثلاثين دقيقة ـ حادثة في مفاعل تشرنوبل...

نعود مساء إلى مينسك في باص الخدمة. نصف الساعة التي سارها

بنا الباص، أمضيناها صامتين أو تحدثنا في موضوع آخر. خشينا التحدث بصوت عال بعضنا بعض عمّا حصل. ففي جيب كل واحدٍ منا ـ بطاقة حزبية...

أمام باب الشقة رُميتْ قطعة قماش رطبة. يعني أن زوجتي أدركت كل شيء. دخلت، ورميت عن نفسي البذلة والقميص، وأخلع ثيابي وصولا إلى الثياب الداخلية. حلّ الغضب بي بشكل مفاجئ... لتذهب كل هذه السرّية إلى الجحيمّ وهذا الخوف! أمسك بدليل هاتف المدينة... ودفتر أرقام هواتف ابنتي وزوجتي... وأبدأ الاتصال بالجميع دون استثناء، إنني موظف في معهد الطاقة النووية، فوق مدينة مينسك غيمة إشعاعية... وأتابع تعداد الخطوات المطلوب تنفيذها: غسل الرأس بصابون منزلي، إغلاق النوافذ... مسح الأرض كل ثلاث ـ أربع ساعات بقطعة قماش رطبة. الثياب على الشرفة ـ إعادة غسلها... شرب اليود. وكيف يمكن شربه بشكل صحيح... رد فعل الناس: شكراً. دون استفسارات ودون خوف. أعتقد أنهم لم يثقوا بكلامي أو لم تكن لديهم القوة لاستيعاب ضخامة الحدث. لم يخف أحد. ردة الفعل مدهشة ومذهلة!

اتصل مساءً صديقي. فيزيائي ـ نووي، دكتور في العلوم... يا للإهمال! بأي ثقة عشنا! أدركت الآن فقط... يتصل ومما قاله لي، إنّه يريد السفر إلى أهل زوجته في غوميلشينا في أعياد شهر أيار (مايو). وهناك مُدَّ يدك تطال تشرنوبل؟ سيسافر مع أطفاله الصغار. صرخت به: "قرار رائع، لقد جننت!" هذا عن المهنية. وعن إيماننا. لقد صرخت. لعلّه على ما يبدو، لا يذكر، بأنني أنقذت أطفاله... *(بعد أن أخذ نفسا)*.

نحن... أنا أتحدث عنا جميعاً... نحن لم ننسَ تشرنوبل، بل لم نفهمه. المتوحشون استطاعوا إدراك ذلك بلحظة البرق؟

في كتاب اليسيا أداموفيتش... حديثٌ مع أندريه ساخاروف حول القنبلة الذرية.... يقول ساخاروف "أب" القنبلة الهايدروجينية: "هل تعلمون، أية رائحة عطرة للأوزون تنبعث بعد الانفجار النووي؟". هناك رومانسية في هذه الكلمات. إنّ... إنّ جيلي... عفواً، أرى ردة الفعل في وجوهكم... يُهيّأ لكم أن ذلك هو ابتهاجٌ أمام الكابوس الكوني... وليس أمام العبقرية البشرية... لكن الآن الطاقة النووية مُذلّة، ومهانة.... عام خمسة وأربعين عندما فجّروا القنبلة النووية، كنت في السابعة عشرة من عمري. لقد أحببت الأشياء الخيالية، حلمت بالطيران إلى كواكب أخرى، وكنت واثقا أن الطاقة النووية يمكن أن ترفعنا إلى الفضاء. انتسبت إلى معهد موسكو للطاقة وعرفت هناك، بأنّه توجد كليّة سرّية للغاية: فيزياء ـ الطاقة. أعوام الخمسينيات ـ الستينيات... الفيزيائيون ـ النوويّون... كانوا نخبة... الجميع كان في دهشة أمام المستقبل... اختصاصيو العلوم الإنسانية هبطت أسهمهم... بثلاث كوبيكات، حدّثنا معلمنا في المدرسة، عن كمية الطاقة الكبيرة التي يمكن أن تنتجها المحطة الكهربائية. ذلك ملأ أرواحنا!. لقد قرأت لسميث الأمريكي، كتب كيف اخترعوا القنبلة النووية، وأجروا تجربة، ووصف تفاصيل الانفجار. كل ذلك عندنا كان محاطاً بالسرّية. لقد قرأت... تصوّرت... ظهر فيلم عن علماء الذرّة السوفييت "تسعة أيّام في عام واحد". لقد حقق شعبية كبيرة. الرواتب العالية، والسريّة وأضافوا الرومانسية. عبادة الفيزياء! زمن الفيزياء! وحتى عندما انفجر تشرنوبل... كيف ودّعنا ببطء تلك العبادة... استدعوا العلماء... حضروا إلى المفاعل بطائرة خاصّة، لكن الكثير منهم لم يحضر ماكينة الحلاقة، اعتقدوا، بأنّهم سيبقون لعدة ساعات. لعدة ساعات فقط. مع أنّهم علموا، بأن هناك انفجاراً في

المحطة النووية. لكنهم وثقوا بفيزيائهم، كانوا جميعاً من جيل هذه الثقة. زمن الفيزياء انتهى في تشرنوبل...

أصبحتم تنظرون بشكل مغاير إلى العالم... لقد قرأت فكرة عند فيلسوفي المفضل كونستانتين ليونتيف منذ فترة، عن أن نتائج الفسوق الكيميائي ـ الفيزيائي ستجبرُ ذات يوم العقل الفضائي على التدخل في أعمالنا الأرضية. ونحن قد تربينا في الزمن الستاليني، لم نكن نسمح بوجود قوى خارقة في أفكارنا. أو عوالم موازية... الإنجيل قرأته فيما بعد... وتزوجت من المرأة نفسها مرتين. خرجت ثم عدت. والتقينا مرة أخرى... من يشرح لي هذه المعجزة؟ إنّ الحياة شيء مدهش! غامضة! أنا واثق... بأي شيء أثق؟ بأن العالم ثلاثي الأبعاد أصبح ضيقاً على الإنسان المعاصر... لماذا هذا الاهتمام اليوم بالواقع الآخر؟ بالمعارف الجديدة... الإنسان ينفصل عن الأرض... إنّه يقبض على فرضيّات زمنيّة أخرى، ليس الأرضيّة وحدها، بل الخاصة بعوالم أخرى. نهاية العالم... الشتاء النووي... في الفن الغربي رسموا ذلك... وصوروه... لقد استعدوا للمستقبل... انفجار كمية كبيرة من الأسلحة النووية يؤدي إلى حرائق هائلة. يمتلئ الغلاف الجوّي بالدخان. أشعة الشمس لن تستطيع الوصول إلى الأرض، وهناك تنطلق سلسلة من ردود الأفعال ـ برد، أكثر برودة، ثم أكثر برودة. يدخلون في الوعي هذا السيناريو العلمي، منذ الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر. حتى القنابل النووية لن تختفي، حتى بعد القضاء على آخر رأس حربي. ذلك أن المعارف ستبقى...

أنتم صامتون... وأنا أجادلُكم طوال الوقت... إنه الحوارعندنا بين الأجيال... هل لاحظتم؟ تاريخ الذرة ـ ليس فقط سرّاً عسكرياً، هو سرّ. لعنة. هو ـ شبابنا، ووقتنا... هو ديننا... لكن الآن؟ أتصور الآن أيضاً، أن العالم يقوده أحد ـ ما آخر، ونحن بمدافعنا وسفننا الفضائية ـ

كالأطفال. ومع ذلك فأنا الآن غير متأكد... لست واثقاً حتى النهاية... إنّ الحياة شيء مدهش! لقد أحببت الفيزياء، وفكرت: لن أمارس شيئاً أبداً سوى الفيزياء، والآن أريد أن أكتب. مثلاً، عن أن الإنسان لا يناسب العلم، الإنسان ما زال غير جدير به، إنّه يزعجه. الإنسان صغير، مع مشاكله الصغيرة. أو: أكتب مثلاً كيف يمكن لعدد من الفيزيائيين، أن يغيروا العالم. وعن الدكتاتورية الجديدة. دكتاتورية الفيزياء والرياضيات... لقد انفتحت لي حياة جديدة...

... قبل العملية... عرفت أنني مصاب بالسرطان... فكرت، بقي لي أن أعيش أياماً، أياماً معدودة، لم أرغب أن أموت بشكل مخيف. وفجأة رأيت كل ورقة، الألوان الزاهية، والسماء الساطعة، والإسفلت الرمادي ـ اللامع بشقوقه، وفيها النمال تسرع إلى غاياتها. لا، فكرت، يجب أن ألتف حولها. أشفقت عليها. من أجل ماذا تموت؟ دار رأسي من رائحة الغابة... الرائحة أقوى من الألوان بالنسبة للإنسان. شجر البتولا الخفيف... شجر السرو الثقيل... وكل ذلك لن أراه؟ لو أعيش لثانية، لدقيقة أكثر! لماذا جلست كل ذلك الوقت، الساعات، والأيام أمام التلفزيون، وبين أكوام الجرائد؟ الحياة والموت ـ هما المهمان. لا يوجد شيء آخر. لن ترمي الأثقال على الفنجان...

لقد أدركت، بأن ما يمتلك معنى هو الوقت الحي فحسب... وقتنا الحي...».

فاليتنتين الكسيفيتش بوريسيفتش،

رئيس سابق لمخبر معهد الطاقة النووية

أكاديمية العلوم البيلاروسية

مونولوج عما بعد كوليما، أوسفينتسيم والهولوكست

"أحتاج أن أبوح لأحدهم.. الأحاسيس تملؤني...

في الأيام الأولى... كانت الأحاسيس مختلطة... أذكر أكثرها قوةً ـ إحساس بالخوف وإحساس بالاستياء. كل ذلك حصل وما من معلومات: السلطة صامتة، الأطباء لا يقولون شيئاً. وما ما من أجوبة. انتظروا في المنطقة تعليمات المقاطعة، والمقاطعة ـ من مينسك، وفي مينسك ـ من موسكو. سلسلة طويلة ـ طويلة... أمّا في الواقع فقد تبيّن أننا من دون حماية. هذا هو الإحساس الأهم في تلك الأيام. هناك في مكان بعيد... غورباتشوف... وعدد من الأشخاص الآخرين... شخصان ـ ثلاثة قرروا مصيرنا. قرروا عن الجميع. مصير ملايين الناس. وكذلك، عدد من الأشخاص فحسب كان باستطاعتهم أن يقتلونا... هم ليسوا مهووسين ولا مجرمين بمخططات إرهابية في رؤوسهم، بل مراقبين عاديين مناوبين في المحطة الذرية. وربما كانوا أشخاصاً غير سيئين. عندما فكرت بذلك، عانيت من هزّة قوية. لقد اكتشفت لنفسي فكرة على الصورة التالية... لقد أدركت أن تشرنوبل هو أبعد من كوليما وأوسفينتسيم... والهولوكست... هل عبّرت بشكل واضح؟ إن الإنسان الذي يحمل فأساً وقوساً أو الإنسان الذي يحمل القنابل وغرف الغاز لا

يمكنه قتل الجميع. لكن ـ الإنسان مع الذرة... هنا... يجعل الأرض كلها في خطر...

أنا ـ لست فيلسوفاً، ولن أتفلسف. سأشارككم ما أذكره...

ذعر الأيام الأولى: أحدهم هرع إلى الصيدلية يشتري اليود، وآخر امتنع عن الذهاب إلى السوق، وشراء الحليب، واللحم، وبخاصة لحم البقر. حاولوا في أسرتنا في هذا الوقت أن لا يوفروا مالاً، فاشتروا المارتديلا غالية الثمن، آملين أن تكون محضّرة من لحم جيد. لكن عرفوا سريعا، أنّ أحداً ما في تلك المارتديلا غالية الثمن خلط اللحمة الملوثة بغيرها، ظاناً أن الناس يشترونها بكميات أقل، ويستهلكون منها أقل بسبب سعرها المرتفع. تبيّن أننا بدون حماية. لكن ذلك فيما أظن معروف لكم. أريد أن أحدثكم عن أمرٍ آخر. عن أننا نحن كنّا جيلاً سوفييتياً.

أصدقائي ـ أطباء، ومعلمون. الفئة المثقفة المحلية. كانت لنا حلقتنا. اجتمعنا عندي في البيت. نحتسي القهوة. تجلس معنا صديقتان مُحيِّرتان، إحداهما طبيبة. لدى الاثنتين أطفال صغار.

الأولى:

ـ غدا سأسافر إلى أهلي. أصطحب الأطفال. قد يمرضون فجأة، فلا أسامح نفسي أبداً.

الثانية:

ـ يكتبون في الصحف بأن الوضع سيصبح مستقراً بعد عدة أيام. هناك جيوشنا. الطائرات الحوّامة والسيارات المصفّحة. كما أذاعوا بالراديو...

الأولى:

ـ أنصحك أيضاً: احضري الأطفال! انقليهم! خبئيهم! حصل... ما هو أخطر من الحرب... لا يمكننا حتى أن نتصور ماذا؟

انتقلتا فجأة إلى نبرة عالية وانتهتا بخلاف. واتهامات متبادلة:

ـ أين غريزة الأمومة؟ متعصِّبة!

ـ أنت ـ خائنة! ماذا كان سيحصل لنا، لو تصرف كل واحد منّا مثلك؟

هل كنا انتصرنا في الحرب؟

تجادلت امرأتان جميلتان شابتان، تحبّان أطفالهما حباً جمّا. شيء ـ ما يتكرر... والنتيجة مألوفة...

لدى الجميع، كل من كانوا في تلك الجلسة، إحساسٌ خاص: هناك ما يثير القلق. ويحرمنا من التوازن. الوثوق بكل ما اعتدنا أن نثق به. يجب الانتظار، ريثما يقولون. يعلنون. هي ـ طبيبة، تعرف أكثر: "إنهم غير قادرين على حماية أطفالهم! لا أحد يهدِّدكم؟ ومع ذلك أنتم تخافون!".

كيف احتقرناها جميعاً في تلك اللحظات، وحتى كرهناها، لقد عكرت علينا السهرة. هل أعبّر بشكل جيد؟ ليست السلطة فقط من كذب علينا. لكننا نحن أنفسنا لم نرغب في معرفة الحقيقة. في مكان ـ ما هناك... في أعماق اللاشعور... طبعاً، نحن لا نريد الآن الاعتراف، واستغربنا كثيراً تأنيب غورباتشوف... تأنيب الشيوعيين... إنهم هم المخطئون، أمّا نحن ـ فجيدون. نحن ـ الضحايا.

سافرت في اليوم التالي، ألبسنا أطفالنا وأخذناهم في مسيرة الأول من أيار (مايو). كان باستطاعتنا أن نذهب، أو لا نذهب. كان لدينا خيار. لم يجبرنا أحد، ولم يطلب منّا أحد. لكن نحن رأينا ذلك واجباً. وكيف

لا! في هذا الوقت، وفي هذا اليوم... الجميع يجب أن يكونوا معاً... هرعنا إلى الشارع، إلى الجمهرة...

وقف على المنصّة كل مسؤولي لجان المناطق الحزبية، إلى جانب السكرتير الأول ـ وابنته الصغيرة، وقفت بطريقة تجعل الجميع يرونها. ترتدي معطفاً واقياً من المطر وقبعة، بالرغم من أن الشمس كانت مشرقة، وعلى جسد السكرتير الأول خيمة ـ معطف عسكري. لكنهم وقفوا... هذا ما أذكره... "متسخة" ليست فقط الأرض عندنا، ولكن وعينا أيضاً. ولسنوات طويلة أيضاً.

لقد تغيّرتُ أنا في هذه السنوات، أكثر مما كان في حياتي السابقة كلها ـ أربعين عاماً. نحن في المنطقة مسجونون... توقفت إعادة التوطين. ونعيش كما في معسكرات الاعتقال... معسكرات الاعتقال التشرنوبلية... أعمل في مكتبة أطفال. ينتظر الأطفال الحديث: تشرنوبل في كل مكان، وهو حولنا، ليس لدينا خيار آخر ـ يجب تعلّم العيش معه. وبخاصة من قبل تلاميذ الصفوف العليا، لديهم أسئلة دوماً. لكن كيف؟ أين يمكن أن نعرف عن الأمر؟ نقرأ؟ لا توجد كتب. أفلام. وحتى حكايات لا توجد. وأساطير. أنا أعلّم الحب، أريد أن أنتصر على الخوف بالحب. أقف أمام الأطفال: أحب قريتي، أحب نهرنا الصغير، وغابتنا... إنها الأفضل ـ الأفضل... الأفضل! لا يوجد أفضل منها بالنسبة لي. أنا لا أكذب. أنا أُدرّس الحب. هل عبّرتُ بشكل واضح؟

تعيقني تجربتي التعليمية... أنا أتحدّث دائماً وأكتب بتنميق نوعاً ما، مع حماسة غير دارجة اليوم. لكن أجيبكم عن سؤالكم: لماذا نحن ضعفاء؟ أنا ضعيفة... توجد ثقافة قبل تشرنوبل وما من ثقافة بعده. نعيش وسط أفكار الحرب، وانهيار الاشتراكية ومستقبل غير محدد. نقص في

التصورات الجديدة، والأهداف، والأفكار. أين كتابنا، وفلاسفتنا؟ أنا لا أتكلّم عن أن فئتنا المثقفة التي انتظرت واستعدت للحرية، تركت اليوم جانبا. فقيرة وذليلة. اتضح أننا غير مطلوبين. لا يحتاجنا أحد. أنا لا أستطيع حتى شراء الكتب الضرورية، والكتب ـ هي حياتي. أنا... أنتم... بحاجة أكثر من أي وقت مضى للكتب الجديدة، لأن من حولنا حياة جديدة. لكن نحن غرباء فيها. لسنا قادرين على التعايش مع ذلك. سؤال دائم في داخلي ـ لماذا؟ من سيقوم بعملنا؟ التلفزيون لا يعلّم الأطفال، يجب أن يعلّم الأطفال معلّم. لكن ذلك ـ موضوع منفصل...

لقد تذكرت.. ـ من أجل الحقيقة ـ تلك الأيام وأحاسيسنا. كي لا ننسى، كيف تغيّرنا نحن... وحياتنا...".

لودميلا دميتربيفنا بوليانسكايا،

معلمة في الريف

مونولوج عن الحريّة والحلم بموت عادي

"تلك كانت حريّة... هناك شعرت أنني إنسان حر...

أنتم مستغربون؟ أرى... لقد استغربتم. يمكن أن يَفهمَ ذلك فقط، من شارك في الحرب. يشربُ أولئك المحاربون، ويتذكرون، لقد سمعتهم، إنّهم يشتاقون حتى الآن إلى تلك الحرية، إلى تلك الحماسة. لا خطوة إلى الوراء! ـ قرار ستالين. الفصائل المدافعة. الأمر واضح... أصبح ذلك تاريخاً... لكنك تطلق النار، تبقى على قيد الحياة، تتسلم المخصصات المقدمة مئة غرام، ولفافة تبغ... يمكنك أن تموت ألف مرة، وتتطاير إلى قطع، لكن إذا حاولت، وخدعت ـ إبليس، الشيطان، العريف، وقائد الفصيل، وذلك الذي في خوذة غريبة وحربة غريبة، وتحدّثت إلى الرب، ـ يمكنك أن تبقى على قيد الحياة! لقد كنت عند المفاعل... هناك وكأنك في الخندق على الخطوط الأمامية. الخوف والحرية! تعيش باستعداد تام... لا يمكن فهم ذلك في الحياة العادية. لا تستطيع النفاذ. تذكرون، أعدّونا دائماً للحرب: ستكون هناك حرب. لكن اتضح أن الوعي غير مستعد. لم أكن مستعداً... في ذلك اليوم... كنت أنوي الذهاب مع زوجتي إلى السينما... حضر إلى المصنع عسكريّان. استدعياني: "هل تميّز الكيروسين من البنزين؟". سألتهما: "إلى أين سترسلونني؟" ـ "إلى أين ـ إلى أين؟ متطوعاً إلى تشرنوبل". مهنتي العسكرية ـ اختصاصي بوقود الصواريخ. اختصاص سرّي. أخذاني مباشرة من المصنع، أرتدي قميصاً رياضياً، لم يسمحا لي بالمرور

بالبيت. طلبت إليهما: "يجب أن أعلم زوجتي" ـ نحن نخبرها بأنفسنا". اجتمعنا في الباص خمسة عشر شخصاً، من الضباط الاحتياط. راق لي هؤلاء الرجال. بحاجة لنا ـ نذهب، بحاجة لنا ـ نعمل... اقتادونا إلى المفاعل ـ تسلقنا إلى سطح المفاعل...

انتصبت إلى جانب القرى المهجّرة أبراجُ مراقبة عسكرية، فوق الأبراج جنودٌ يحملون السلاح. سلاح مع الذخيرة الحيّة. وحواجز. ولوحات: "المكان ملوّث. يمنع التوقف والمرور منعاً باتاً". أشجار بيضاء ـ رمادية، مرشوشة بسائل لإزالة التلوّث الإشعاعي. أبيض. كالثلج. العقول استعدت مباشرة! خشينا في الأيام الأولى الجلوس على الأرض، وعلى العشب، لم نمشِ، بل كنا نركض، ما أن تجتاز السيارة مسافة في المكان حتى نضع الكمّامات. جلسنا بعد الوردية في الخيم. ها. ها. بعد حوالي شهرين... أصبح الوضع نوعاً ـ ما طبيعياً، ـ هذه هي حياتك. قطفنا الخوخ، واصطدنا الأسماك، وجففنا بعضها لأكلها مع احتساء البيرة. أعتقد أنكم قد سمعتم عن ذلك؟ ولعبنا بالكرة، وسبحنا! ها. ها... (*يضحك من جديد*) .آمنّا بالمصير، نحن قدريون حتى أعماق روحنا، ولسنا صيادلة. نحن لسنا عقلانيين. عقليتنا سلافيّة... أنا آمنت بنجمتي! ها. ها! معاق من الدرجة الثانية... مرضت مباشرة. "الإشعاع" الملعون... الأمر واضح... حتى أنني لم أكن أملك بطاقة صحيّة في المركز الصحي من قبل. لتذهب إلى الجحيم! لست الوحيد... عقليّة...

أنا ـ جندي، لقد أقفلت بيتاً غريباً، ودخلت إلى سكن غريب. هذا الشعور... وكأنك تتجسّس على أحد ـ ما... أو تزرع الأرض التي لا يمكن زراعتها... البقرة مربوطة في الحضيرة ومهتاجة، والحضيرة مغلقة وباب الدار مغلقٌ بالقفل. الحليب يقطرُ على الأرض... يا له من شعور! وفي القرى التي لم تهجّر بعد، مارس الفلاحون إعداد السماغون(الفودكا البيتية)، هذا مصدر معيشتهم. باعونا إياه. ولم تكن

نقودنا قليلة: ثلاثة أضعاف الراتب الشهري، وثلاثة أضعاف المهمة الخارجية اليومية. ثم صدر قرار: من سيتعاطى الكحول، سيخدم مدةً إضافيةً. هل تساعد الفودكا في وضعنا أم لا؟، يكفي أنها قد تساعد نفسيّاً... اعتقدوا هناك بفعاليّة الوصفة... الأمر واضح... لقد سارت الحياة الفلاحية بكل بساطة: يزرع زرْعاً ما، يعتني به، ثم يجنيه، والباقي يجري من دونه. إنهم لا يهتمون لا بالقيصر، ولا بالسلطة... ولا بالسكرتير الأول للجنة المركزية أو الرئيس... ولا يهتمون بالمراكب الفضائية والمحطات النووية، ولا بالاجتماعات الجماهيرية في العاصمة. حتى الآن ما استطاعوا أن يثقوا، بأن العالم انقلب في يوم واحد، وإنّهم الآن يعيشون في عالم آخر... عالم تشرنوبل... لم يذهبوا إلى مكان. مرض الناس من الصدمات... لم يتأقلموا مع الواقع الجديد، أردوا العيش كما عاشوا دائماً. أخذوا الحطب سرّاً، قطفوا البندورة الخضراء، وعلّبوها. انفجرت الزجاجات، غلوها مرّة أخرى. كيف يمكنهم أن يتلفوها، وتدفن في الأرض، وتتحوّل إلى زبالة؟ ونحن هذا ما مارسناه بالضبط. منعنا عملهم، المعنى الأبدي لحياتهم. كنا في نظرهم أعداءً... أنا صعدت على سطح المفاعل نفسه. حذّروني: "لا تتعجل، في الشهر الأخير قبيل التسريح، سيأخذونكم جميعاً إلى سطح المفاعل". لقد خدمنا ستة أشهر. وهذا ما حصل بالضبط، بعد خمسة أشهر إعادة للانتشار، والآن تحت المفاعل. مزحات مختلفة وأحاديث جدّية، وحتى أننا سنعبر من خلال السقف... سنصمد ولو لخمس سنوات قادمة... سبع.. عشر... الأمر واضح... غالباً ما ذكروا الرقم "خمسة"، لماذا، من أين أتوا به؟ بدون ضجة، وبدون ذعر. "متطوّعون، خطوة إلى الأمام!". كل الفصيل ـ خطوة إلى الأمام. تقدّم. وأمام القائد ـ شاشة، يشغلها، سطح المفاعل واضحٌ على الشاشة: قطع من الغرافيت، وقارٌ منصهر. "انظروا، أيها الشباب، ترون، القطع على السطح. نظِّفوها. أما

هنا في هذا المربع، فاحفروا حفرة". الزمنُ خمسٌ وأربعون ثانية. حسب التعليمات. لكن ذلك غير ممكن ـ تطلّب الأمر دقائق عدّة. ذهاباً ـ إياباً، ركضاً ـ وقفزاً. أحدهم يملأ العربة، وآخرون يرمون. إلى هناك، إلى الحطام، في الهاوية. رميت، لكن لا تنظر إلى الأسفل، ممنوع. ومع ذلك نظرنا. كتبت الصحف: "الهواء فوق المفاعل نظيف". قرأنا وضحكنا. وشتمنا. الهواء نظيف، ونحن نلتقط مثل هذه الجرعات. وزّعوا أجهزة قياس الاشعاعات. أحدُها ـ يشيرإلى خمسة رينجين، ثمّ يقفز المؤشر في الدقيقة الأولى، والثاني يقفز كقلم الحبر إلى مئة رينجين، وارتفع المؤشر كذلك في أماكن أخرى. قالوا، يجب عدم إنجاب الأطفال مدة خمس سنوات... إذا لم نمت قبل خمس سنوات... ها. ها!... *(يضحك)* .فكاهات مختلفة. قدموا لنا شهادات تقدير. لدي اثنتين... بالإضافة إلى كل هذه اللوحات: ماركس، انجلس، لينين... والأعلام الحمر... أحد الشباب اختفى. وجدوه بعد يومين بين الشجيرات. شنق نفسه. الشعور نفسه عند الجميع، تفهمون ذلك بأنفسكم... خطب فينا حينها الموجه السياسي، قال إنّ زميلنا تلقى رسالة من البيت ـ زوجته خانته. من يدري؟ بعد أسبوع كان تسريحنا. وهو وجدوه بين الشجيرات.. كان يعمل طباخاً، ربما خاف، لأنه عاش ليس في الخيمة، بل في المستودع، حيث حفر لنفسه مكاناً تحت صناديق الزبدة ومعلبات اللحم المطبوخ. أخذ إلى هناك فراشا ووسادة... عاش تحت الأرض... ثمَّ أرسلوا قائمة بتوزيع الناس: تجهيز مجموعة جديدة.. والجميع إلى السطح. لكن الجميع كان هناك... يجب إيجاد أشخاص جدد! وهكذا ضمّوه إلى المجموعة. صعد مرة واحدة... عَجْزٌ من الدرجة الثانية... غالباً ما كان يتصل بي. لم ينقطع التواصل فيما بيننا، يسندُ بعضُنا بعضاً.. من أجل ذكراه، سيعيش في ذاكرتنا، طيلة فترة بقائنا على قيد الحياة. اكتبوا ما قلته...

الجرائد ممتلئة بالكذب... كذب كثير... لم أقرأ في أي مكان، كيف فصّلنا لأنفسنا الصدريات. وقمصان الرصاص. والملابس الداخلية. سلّمونا أردية مطاطية محبوكة بالرصاص. حتى مايوهات السباحة فصّلناها بأنفسنا من الرصاص... راقبونا خلال قيامنا بتلك الأعمال... الأمر واضح... أرشدونا إلى بيتين سرّيين للتلاقي... في إحدى القرى.. الرجال، المسحوبين من بيوتهم، منذ ستة أشهر، عاشوا من دون نساء، حالة استثنائية. الجميع حضر. وكانت الفتيات المحليّات يتجولن، ويبكين... يعرفنَ أنهنَ سيمتن قريباً. مايوهات السباحة من رصاص... لبسوها فوق السراويل... اكتبوا... سمّمونا بالنكت. إليكم، تفضلوا. رجل آلي أمريكي أرسلوه إلى سطح المفاعل، عمل خمسة دقائق ـ قف. الرجل الآلي الياباني عمل لمدة تسعة دقائق ـ قف. الرجل الآلي الروسي عمل لمدة ساعتين. أمر باللاسلكي: "الجندي إيفانوف، بإمكانك النزول، استراحة التدخين". ها. ها... *(يضحك)*.

قبل أن نخرج إلى المفاعل، يعطي القائد التعليمات... إلى الصف... امتنع عدد من الشبان: "لقد كنّا هناك، يجب أن ترسلونا إلى البيت". عملي، مثلا ـ الوقود، البنزين، وأرسلوني إلى السطح. لكنني صمت. أنا أردت ذلك بنفسي، كنت مهتماً. أمّا هؤلاء فقد أضربوا. القائد: "سيصعد إلى المفاعل متطوعون، الباقون.. خطوة من الصف، سيتحدث معكم المدعي العام". لكن هؤلاء الشبان وقفوا، تشاوروا ثم امتثلوا.. وافقوا. لقد أدى واحدهم القسم، يعني أنّ عليه الامتثال للأوامر، لقد قبّل الراية... ووقف على رجليه أمامها... أتصوّر، ما كان أحد يشك، أن بإمكانهم وضعك في السجن ويحكمونك بمدة زمنية. وانتشرت إشاعات، بأن السجن ليس أقل من سنتين ـ ثلاث. وإذا ما تلقى الجندي جرعة تزيد عن خمسة وعشرين رينجين، فيوضع القائد في السجن، بتهمة تلويث الموظفين بالإشعاعات. لم تزد النسبة عند أحد

عن خمسة وعشرين رينجين... عند الجميع كانت الجرعة أقل... هل تفهمون؟ وكان هناك من أثار إعجابي. مرض اثنان، أحدهم رمى بنفسه، لقد قال: "هيّا أنا". وهو في اليوم نفسه كان على السطح. احترموه. جائزة ـ خمسمئة روبل. والآخر عمل في الأعلى، حان وقت النزول ـ وهو يعمل. لوّحنا له بأيدينا من الأسفل: "إلى الأسفل!" ولكنه سقط على ركبتيه واستمر في العمل. كان يجب إحداث حفرة على السطح، لوضع حوض، تُرمى الزبالة فيه. لم يقف ـ حتى أنهى العمل. جائزة ـ ألف روبل. كان يمكن حينها شراء دراجتين ناريتين بذلك المبلغ. لديه الآن إعاقة من الدرجة الأولى... الأمر واضح... دفعوا مباشرة لقاء الخوف... وها هو الآن على فراش الموت... الآن يموت... يتعذّب بشكل مخيف... زرته في عطلة نهاية الأسبوع، هذه العطلة... "اسألني بماذا أحلم؟". ـ "بماذا؟" ـ "بموت طبيعي". عمره أربعونَ عاماً. أحبَّ النساء... زوجته جميلة...

التسريح. أخذنا أماكننا في السيارات. أبواق السيارات لم تتوقف طيلة المسافة التي قطعناها في المنطقة. أسترجع تلك الأيام... لقد كنت بجانب شيء ـ ما... شيء ـ ما خيالي. هل أقول "ضخم جداً"، "خياليّ"، ـ إنّها كلّها غير قادرة على نقل المعنى. كان لديَّ إحساس... ما هو؟ (يفكر).

لم أجرّب مثل ذلك الإحساس حتى في الحب...".

الكسندر كودرياغين،

أحد العاملين في درء آثار الحادثة

مونولوج عن المشوّه، الذي سيحبونه في جميع الأحوال

"لا تخجلوا... اسألوا... لقد كتبوا عنّا الكثير، لقد اعتدنا. سيرسلون الصحيفة مع توقيع المرسل أو الناشر مرّة أخرى. لكنني لا أقرأها. من يفهم. هنا يجب أن نحيا فحسب...

قالت ابنتي منذ فترة قصيرة: "ماما، إذا وضعت طفلاً مشوّها، سأحبّه في جميع الحالات". تصوّروا؟! إنّها في الصف العاشر، وتحملُ مثل هذه الأفكار. صديقاتها... يفكرّن بالأمر نفسه... ولد عند معارفنا صبيّ. لقد انتظروه، الطفل الأول. زوجان شابان جميلان. فم الطفل يمتدُّ حتى أذنيه، وأذن منهما غير موجودة... أنا لا أزورهم، كما كنت أفعلُ من قبل. ليس لدي القدرة... أمّا ابنتي: لا ـ لا، تذهب إليهم. شيء ما يجذبها لزيارتهم، وهي إمّا تستطلع، أو إنّها تقيس الأمر على نفسها... أنا لست قادرة...

كان باستطاعتنا أن نغادر المكان، لكن فكّرنا أنا وزوجي بالأمر ورفضنا. نخشى الناس الآخرين. أما هنا فنحن جميعاً تشرنوبليون. لا نخشى بعضنا بعضاً. فإذا ما ضيّفنا أحدهم تفاحاً أو خياراً من حديقته أو مزرعة بيته، نأخذها ونأكلها، ولا نخفيها في جيوبنا خجلين، أو في الحقيبة، ثم نرميها فيما بعد. نحن بذاكرة واحدة... وبمصير متساو واحد... لكننا في أي مكان آخر ـ غرباء. ينظرون إلينا بارتياب...

وبخوف... اعتاد الجميع على كلمات: "سكان تشرنوبل"، "أطفال تشرنوبل"، "نازحون من تشرنوبل"... تشرنوبل... الآن هو أل التعريف لكل حياتنا. لكنكم لا تعرفون شيئاً عنّا. إنّكم تخافوننا... قد تهربون... لو أنهم لم يسمحوا لنا بالعودة، لوضعتم حواجز بوليسية، *(تتوقف)* .لا تثبتوا لي أي شيء... لن تقنعوني! عرفت ذلك وعانيت منه منذ الأيام الأولى... أخذت ابنتي وأسرعت إلى مينسك... إلى أختي... أختي من أمّي وأبي لم تسمح لنا بالدخول لأن لديها طفلاً وترضعه من صدرها. لم أكن أتصوّر ذلك في كابوس غريب! لم أؤلف. لقد بتنا في محطة القطارات. أفكار جهنمية راودتني... إلى أين نهرب؟ أليس الأفضل هو الانتحار كي لا نتعذّب... ذلك كان في الأيام الأولى... تصوّر الجميع أمراضاً مخيفة. لا يمكن تخيلها. وأنا طبيبة. يمكنني توقع ماذا حصل مع الآخرين... الشائعات دائماً مخيفة أكثر من أية معلومات صحيحة. من أيّة معلومات!. أنظر إلى أطفالنا: أينما يولون وجوههم، يشعرون أنهم منبوذون. فزّاعات حية... أهداف للسخرية... في معسكر الطلائع، حيث أمضت ابنتي عطلة الصيف، خافوا لمسها: "مشعّ تشرنوبل. إنّها تضيء في العتمة". نادوها مساء إلى الفناء، كي يتأكدوا، ـ هل تضيء أم لا؟ ألا توجد فوق رأسها هالة مضيئة؟

ها هم يقولون ـ حرب... جيل الحرب... يقارنون... جيل الحرب؟ لكن جيل الحرب سعيد! عنده انتصار. لقد انتصروا! فأعطاهم ذلك طاقة كبيرة في الحياة، وإذا استخدمنا كلمات اليوم، حالة شديدة القوة للاستمرار على قيد الحياة. أولئك لم يخشوا شيئاً. أرادوا العيش والتعلّم، وإنجاب الأطفال. أمّا نحن؟ فإننا نخاف كل شيء... نخاف على أطفالنا... على أحفادنا، الذين لم يولدوا بعد... هم غير موجودين، ونحن نخاف منذ الآن... الناس نادراً ما يبتسمون لا يغنون، كما غنّوا

من قبل في الأعياد. ليس المشهد وحده ما سيتغيّر فحسب، عندما ترتفع الغابات من جديد، والشجيرات مكان الأراضي المحترقة، ولكن الطابع القومي. يسيطر الاكتئاب على الجميع... إحساس بالهلاك... إذا كان تشرنوبل بالنسبة للبعض ـ تعبير مجازي. وشعار. فهنا هو حياتنا. حياة بكل بساطة.

أفكر مرّة أخرى، كان من الأفضل لو لم تكتبوا عنّا. ولم تراقبوننا من بعيد... ولم تضعوا تشخيصاً: فوبيا الإشعاعات أو اسما آخر أيضاً، ولم تميّزوننا من سوانا. لكان الناس خافونا بنسبة أقل. لم يخبروا مريض السرطان في البيت عن مرضه الخطير. وفي غرفة السجن المؤبد، لا أحد يتكلّم عن المدة... *(تصمت)*. لقد تكلّمت كثيراً، لا أدري، هل نجهّز المائدة أم لا... *(تسأل)* .نجهّز المائدة... لتناول الغداء؟ أم تخافون؟ أجيبوني بصدق، نحن لم نعد نغضب. لقد شاهدنا الكثير. لقد دخل صحفي... رأيت أنه يريد أن يشرب الماء. فأحضرت له كأساً من الماء، لكنه أخرج من حقيبته زجاجة ماء. مياه معدنية. خجل... برّر... طبعاً، لم يتم الحوار بيننا، لم أستطيع أن أكون صادقة معه. أنا ـ لست رجلا آليّاً أو كومبيوتراً ولست معدناً! إنّه يشرب مياه معدنية، يخاف لمس كأسي، وأنا ـ أضع روحي أمامه على الطاولة... أعطيه روحي...

(نجلس إلى المائدة. نتناول الغداء. ونتكلّم عن أشياء مختلفة. و...)

بكيت ليلة أمس... تذكّر زوجي: "لقد كنت جميلة جداً". أنا أعرف، ما يقصد... أرى نفسي في المرآة... كل صباح... الناس هنا يبدو عليها القدم في السن، عمري أربعون عاماً، وأبدو في الستين. لذلك تتعجل الفتيات الزواج. يُؤسَفُ على المرحلة الشباب، إنها قصيرة لديهن

(تخرج عن طورها) .ماذا تعرفون عن تشرنوبل؟ ماذا يمكن أن يُكتب؟ عذراً... *(تصمت)*.

كيف يمكن تسجيل روحي؟ إذا كنت أنا نفسي لا أستطيع غالباً قراءتها...»

ناديجدا أفاناسيفنا بوراكوفا

مواطنة المدينة الريفية خوينيكا

مونولوج: يجب إضافة شيء إلى الحياة اليومية، كي تفهمها

"هل تحتاجون إلى وقائع، وتفاصيل تلك الأيام؟ أم إلى قصتي؟

أصبحتُ هناك مصوراً... لم أمارس التصوير من قبل، وهناك فجأة بدأتُ التقاط الصور، وجدت بين يدي مصادفة آلة تصوير. فكرت في نفسي. الآن هذه ـ هي مهنتي. لم أستطع التحرر من الأحاسيس الجديدة، التي عانيتها، ذلك إنّها لم تكن معاناة قصيرة، بل قصة روحية كاملة. لقد تغيّرت... أرى عالما آخر... ومعنى حياة جديد... تفهمونني.

(يتحدث وقد وضع على الطاولة، والكراسي، وعتبة النافذة صوراً: عربة عملاقة الحجم لها إطارات، عش لقلق في قرية مهجورة، مقبرة قرية وحيدة ولوحة كتب عليها: "إشعاعات عالية. يمنع دخول الناس والسيارات"، عربة أطفال في فناء بيت مقفلة نوافذه بألواح خشبية، يجلس غراب فيها، كما لو أنه يجلس في عشّه، وتد قديم والغرانيق فوق الحقول البرّية...).

يسألون. "لماذا لا تُصوّر على فيلم ملّون؟ بالألوان!". لكن تشرنوبل... غبار أسود... لا توجد ألون أخرى... قصتي؟ تعليق على ذلك... *(يؤشر على الصور)* .حسناً. سأجرب. ترون إن كل ذلك يوجد هنا.. *(يؤشر من جديد إلى الصور)*. عملت ذلك الوقت في المصنع،

ودرست في الجامعة من دون حضور المحاضرات، في كلية التاريخ. فنيّ من الدرجة الثانية. جمعونا في مجموعة وأرسلونا بالسرعة القصوى، كما إلى الحرب.

ـ إلى أين نحن ذاهبون؟

ـ إلى حيث يأمروننا.

ـ وماذا سنفعل؟

ـ ما يأمرون به.

ـ لكننا بنّاؤون.

ـ إذاً ستبنون. يتخلص من أسئلتنا.

بنينا أبنية مساعدة: مغاسل، ومستودعات، وأكواخ. كُلّفتُ بتفريغ الإسمنت. أي إسمنت، ومن أين، ـ لم يدقق أحد. فرّغنا وحمّلنا. يوم أضربُ بالراحة (الكريك)، يأتي المساء فلا تبدو مني إلا أسناني وحدها تلمع. إنسان من الإسمنت. رمادي اللون. أنا وبذلة العمل ممتلئان بالإسمنت. مساءً أنفضها، تفهمون، وألبسها في الصباح من جديد. جمعونا في جلسات سياسية: أبطال، مأثرة، وفي الخطوط الأمامية... جمل حربية... أمّا ما هو البيري؟ كيوري؟ وما هو ميلي رينجين؟ لماذا الأسئلة، القائد لا يستطيع الإجابة، لم يعلموه ذلك في المدرسة الحربية. ميلي، ميكرو... أحجية صينية. "لماذا يجب أن تعرفوا؟ نفّذوا، ما يأمرونكم به. أنتم هنا ـ جنود". نحن جنود، لكن ليس متهمين.

وصلت لجنة. تحاول تهدئتنا: "الوضع هنا على ما يرام. الجو طبيعي. نعم طبيعي، أما على بعد أربعة كيلومترات من هنا، فلا يمكن العيش، سيخلون الناس. عندكم الوضع مقبول وهادئ". يرافقهم موظف

القياس، وهو يشغل الصندوق، الذي عُلّق برقبته، وبشريط طويل يصلُ حتى الحذاء. لو ترونه كيف يقفز جانباً - حركة لا إرادية...

وهنا يبدأ أكثر ما يثير اهتمامكم وبخاصّة أنكم من الكتّاب. كم تعتقدون احتجنا من الوقت، لتذكر تلك اللحظة؟ في الحد الأقصى عدة أيام. ليس بمقدور إنساننا أن يفكر بنفسه فقط، وبحياته الخاصّة، وأن يكون منغلقاً ضمن هذه المنظومة. السياسيون غير قادرين على التفكير بقيم الحياة الغالية، والإنسان كذلك. تفهمون؟ لسنا مبنيين هكذا. نحن من طينة أخرى طبعا، لقد شربنا الكحول، هناك الكثيرَ منه. لم يبقَ أحد صاحياً حتى المساء، لكن شربنا ليس من أجل أن نثمل، بل كي نتحدّث. بعد كأسين.. ثلاثة، يبدأ أحدهم بالشوق، ويبدأ بالتحدث عن زوجته وأطفاله، عن عمله يحدِّث. يشتم القيادة بأقذع الشتائم. لكن بعد زجاجة - اثنتين... تدور الأحاديث عن مستقبل الوطن وعن بناء المعمورة. جدال حول غورباتشوف وليخاتشوف. عن ستالين. دولة عظمى نحن أم لا. هل سنسبق الأمريكان أم لا؟ عام ستةٍ وثمانين... أية طائرات هي الأفضل، وهل المركبات الفضائية آمنة؟ تشرنوبل انفجر، لكن إنساننا هو أول من صعد إلى الفضاء! تعلمون، تستمر السهرة، حتى تبح أصواتنا، حتى الصباح. لكن، أنّ لا أجهزة قياس إشعاعات لدينا، ولا يعطوننا أية منظفات لأسوأ الاحتمالات؟ ولا توجد غسالات، كي نغسل بذلة العمل كل يوم، وليس مرتين في الشهر؟ - هذا ما نناقشه في النهاية. هكذا نحن مبنيّون. لنذهب إلى الجحيم!.

كانت الفودكا تقيّم أغلى من الذهب. من الصعب شراؤها. شربوا في القرى التي حولنا كل شيء: الفودكا، والسماغون، والكولونيا، ووصل الأمر بهم أنهم شربوا ملمّع الخشب، ومزيل الرائحة... على الطاولة زجاجة سعة ثلاث ليترات سماغون أو كيس قماش مملوء بالكولونيا نوع

"شيبر"... وتمتد الأحاديث ـ الأحاديث. بيننا كان هناك معلّمون، ومهندسون... جو أممي تماماً: الروس، والبيلاروسيون، والكازاخستانيون، والأوكرانيون. أحاديث فلسفيّة... عن أننا ـ أسرى المادية، والمادية تقيدنا بالعالم المادي. تشرنوبل ـ مخرج إلى اللانهائية. أتذكر، كيف كان نقاشنا حول مستقبل الثقافة الروسية، وعن انجذابها إلى التراجيديا. من دون ظلال الموت لا يمكننا فهم شيء. وعلى أرضية الثقافة الروسية فحسب، يمكننا استيعاب الكارثة... هي فقط المستعدة لذلك... كانت تعيش حالة ترقب... خفتم القنابل، والفطور النووية، وها أنتم ترون كيف انقلبت الأمور... هيروشيما ـ مخيفة، لكنها مفهومة... ونعرف مثلاً كيف يحترق البيت بسبب أعواد الثقاب أو القذيفة، والذي حصل لا يشبه شيئاً من هذا. انتشرت إشاعات تقول، بأن النار لم يكن مصدرها الأرض، وحتى لم تكن ناراً، بل ضوء. وميض. لمعان. ليس أزرقَ، بل سماويٌ. وليس دخاناً. جلس العلماء من قبل مكان الآلهة، أمّا الآن ـ فالملائكة المتهاوون والشياطين. بقيت الطبيعة الإنسانية سراً، كما كانت بالنسبة لهم من قبل. أنا ـ روسي من بريانشين. يجلس عجوز عند العتبة، البيت متداع، وقريباً سينهار تماماً، وهو يتفلسف، أن العالم سيُبنى ويتحوّل. وسيجد بالتأكيد أرسطو الخاص به في غرفة التدخين في مصنع. في بار البيرة. وها نحن ـ تحت المفاعل نفسه...

وصل إلينا بالطائرة مصورو صحف. صوّروا. مواضيع مختلقة. صوروا نافذة بيت مهجور، ووضعوا أمامها كماناً... وسمّوها ـ سيمفونية تشرنوبل. وهناك لا تحتاج إلى شيء تخترعه. لدي رغبة بالاحتفاظ بكل شيء في الذاكرة: مجسّم كرة أرضية مرٌ فوقه جرار، في فناء المدرسة. وثياب بيضاء مغسولة ومنشورة على الشرفة منذ سنوات اسودّ لونها، ودمى أطفال أصبحت قديمة بسبب المطر... مقابر الأخوة المهملة...

والعشب الذي نما فوقها وأصبح بطول جنود الجبس، وأعشاش عصافير ـ على رشاشات الجبس، أبواب البيوت المنزوعة، التي سرقها اللصوص، والستائر المنزوعة عن النوافذ. الناس غادروا، وبقيت صورهم تعيش في البيوت. كأرواحهم. لم يبقَ شيء رخيص، أو صغير. أردت أن أحفظ في ذاكرتي كل شيء بدقة وبالتفصيل: آناء النهار التي شاهدت فيها ذلك، لون السماء، أحاسيسي. هل تفهمونني؟ الإنسان خرج من هناك للأبد. ماذا يعني ذلك؟ نحن ـ أوّل بشر عانوا ذلك "إلى الأبد". لا ينبغي أن نهمل حتى أصغر تفصيل... وجوه الفلاحين المعمرين، الأشبه بالأيقونات... وهم أقل الناس إدراكاً لما حصل. لم يغادروا أفنية بيتوهم أبداً، وأرضهم. ظهروا إلى الوجود، أحبوا، حصلوا على الخبز بعرق جبينهم، وسَّعوا شجرة أسلافهم... انتظروا الأحفاد... وعاشوا الحياة، وفارقوا هذه الأرض مطيعين، ثم تلاشوا فيها، ليصبحوا هي. البيت الريفي البيلاروسي! بالنسبة لنا، نحن سكان المدينة، بيت ـ هو آلة حياة. وبالنسبة لهم ـ عالم بأكمله. فضاء. تسير عبر القرى الفارغة... وترغب كثيراً في لقاء شخص... كنيسة منهوبة... مررنا بها: تنبعث منها رائحة الشمع. رغبنا بالصلاة...

أردت أن أتذكر كل شيء. أصبحت مصوّراً... هذه هي قصتي...

دفنت منذ فترة قصيرة أحد معارفي، كنا هناك معاً. لقد مات بسبب سرطان الدم. أحيينا ذكرى وفاته. وحسب التقاليد السلافيّة شربنا وأكلنا، تفهمون ما أقول. وبدأت الأحاديث، حتى منتصف الليل. بداية عنه، عن الذي فارقنا. أمّا فيما بعد؟ فيما بعد فعن مصير البلد، وعن بناء الكون. ستخرج القوات الروسية من الشيشان أم إنها لن تخرج؟ هل ستبدأ الحرب القوقازية الثانية أم تراها قد بدأت؟ ما هي حظوظ جيرينوفسكي في أن يصبح رئيساً؟ وما هي لدى يلتسن؟ عن الملكة البريطانية والأميرة

ديانا. عن النظام الملكي الروسي. عن تشرنوبل. توقعات مختلفة الآن... إحداها، أن سكان العوالم الأخرى عرفوا بالكارثة وساعدونا، الثانية ـ كان ذلك تجربة فضائية، وبعد فترة، ستبدأ ولادة أطفال بمقدرات عبقرية. توقعات غير عادية: يمكن أن يختفي البيلاروسيون، كما اختفت شعوب أخرى: السكيفيون والخزر... الخ. ؟ نحن ـ ميتافيزيقيون... نعيش ليس على الأرض، بل في الأحلام، وفي الأحاديث. في الكلمات... يجب أن نضيف شيئاً للحياة اليومية، كي نفهمها. حتى بجانب الموت...

هذه هي قصتي... لقد حدَّثت... لماذا أصبحت أصوّر، لأن الكلمات لم تكفني...".

فيكتور لاتون، مصوّر

مونولوج عن الجندي الأخرس

"لن أذهب إلى المنطقة نفسها أكثر، فمن قبل كانت تشدني. وإذا ما ذهبت لأرى ما يحدث، وأفكر به، فسأمرض وأموت... وستموت تخيلاتي...

تذكرون الفيلم الذي كان عن الحرب "اذهب وشاهد". لم أستطيع إكماله، لقد أغمي عليّ. ذبحوا هناك البقرة. فملأ بؤبؤ عينها الشاشة... بؤبؤ عينها فقط... كيف قتلوا الناس، لقد شاهدت ذلك... لا! الفن ـ هو الحب، أنا متأكدة من ذلك تماماً!. لا أريد تشغيل التلفزيون، وقراءة الصحف الحالية. يقتلون هناك، يقتلون... في الشيشان، في البوسنة... وفي افغانستان... أفقد صوابي، تتشوّه رؤيتي. رعب... لقد أصبح معتاداً، وحتى تافهاً. ونحن قد تغيرنا، إن الرعب الحالي على الشاشة، يجب أن يكون أكثر إخافة من رعب أمس. وإلاّ فلن يكون مخيفاً، وسنرسله إلى الشيطان.

ركبت الحافلة الكهربائيّة يوم أمس. وكان هذا المشهد: صبي لم يخلِ مكانه لرجل عجوز. فعاتبه العجوز قائلاً:

ـ ستصبح عجوزاً، ولن يخلي المكان لك أحد.

يجيب الصبي:

ـ لن أصبح عجوزاً.

ـ لماذا؟

ـ سنموت جميعنا قريباً.

الأحاديث من حولنا عن الموت. الأطفال يفكرون بالموت. لكن هذا ما يفكر الناس به في نهاية الحياة، وليس في بدايتها.

أنا أرى العالم في لوحات... الشارع بالنسبة لي هو ـ مسرح. البيت ـ مسرح. الإنسان ـ مسرح. لم أتذكر أبداً حدثاً بكامله. بل في التفاصيل والإيماءات...

الأمور كلّها تباينت في ذاكرتي، واختلطت. أهي من السينما، أم من الصحف... أم أنّي شاهدت ذلك في مكان ـ ما، أم سمعت... أم تجسست؟

أرى: يتسكع ثعلب مجنون في شارع قروي مهجور. هادئ، ولطيف. مثل الطفل... يتعامل بلطف مع القطط الشاردة، ومع الدجاجات...

هدوء تام... غير عادي! يختلف تماماً، عمّا هو هنا... وفجأة وسط هذا الهدوء حديث إنسانيّ غريب: "غوشا جيد، غوشا جيد". قفص صدئ بابه مفتوح يتأرجح أعلى شجرة تفاح قديمة. ببغاء منزلي يتحدّث إلى نفسه.

يبدأ الإخلاء... ختموا المدرسة، ودائرة الكولخوز، والمجلس الزراعي. ينقل الجنود الوثائق والخزائن. وفي الليل يسلبُ سكان القرى ما تبقى هناك. يسلبون الكتب من المكتبة، والمرايا، والكراسي، الأدوات الصحية والأنابيب، مجسّم الكرة الأرضية... شخص أخير... يسرع قبيل الصباح، يجد المكان خالياً. يجمع أنابيب الاختبار من المخبر الكيميائي.

بالرغم من أن الجميع يعرفون ـ أنّهم سينقلون هم أيضاً بعد ثلاثة أيام. وسيبقى كل شيء في مكانه!

لماذا أجمع كل ذلك، وأحتفظ به؟ أنا لن أُعدّ مسرحية عن تشرنوبل، كما لم أعد أية مسرحية عن الحرب. لن يكون عندي إنسان ميت على خشبة المسرح أبداً. وحتى وحش ميت أو طير. أقتربُ من صنوبرةٍ في الغابة، شيء ـ ما أبيض... اعتقدتُ: فطور، لكنها كانت عصافير ميتة وبطونها إلى الأعلى. هناك، في المنطقة... أنا لا أفهم ـ موت. أتوقف أمامه، كي لا أصاب بالجنون. لم أنتقل... إلى الجانب الآخر من الحياة... الحرب يجب أن تعرض مخيفة كما هي، كي يتقيّأ الإنسان. كي يمضي... هذا ليس مشهداً...

في الأيام الأولى... لم تكن قد عُرضت أيّة صورة، تخيّلت المشهد كالتالي: سقوف منهارة، وجدران مهدمة، ودخان، وزجاج مُحطّم. ينقلون الأطفال الصامتين إلى مكان ـ ما. طوابير من السيارات. الكبار يبكون، الأطفال لا. لم تطبع أية صورة حتى اللحظة... أعتقد، لو سألت الناس، لما كان لديهم نموذجاً آخر عن الرعب: انفجار، حريق، جثث، ذعر. وهذا ما أذكرهُ من الطفولة... (توقفت) .لكن عن ذلك سأحدّثكم فيما بعد... بشكلٍ منفصل... هنا... حصل شيء غير معروف... هذا خوف آخر... لم يُسمع، ولم يُشاهد، ولا رائحة له، ولا لون، لكننا نتغيّر نفسياً وفيزيائياً. تتغيّر صيغة الدم، وتتغيّر الشيفرة الجينية، يتغيّر المشهد الطبيعي... مهما فكّرنا.. ومهما عملنا... ها أنا أستيقظ صباحاً، أشرب الشاي. أذهب إلى البروفا، إلى الطلاب... وهذا عمل ينتظرني... كعلامة. وكسؤال. وهذا أمرٌ لا يمكنني أن أقارنه بأي شيء آخر. أتذكر من الطفولة أمراً مختلفاً..

لقد شاهدت فيلما واحدا جيداً عن الحرب. نسيت اسمه. فيلماً عن جندي أخرس. لقد صمت طوال الفيلم. نقل ألمانيّة حاملاً، حاملاً من جندي روسي. وولدت طفلاً، في الطريق، على النقالة. رفعه بين يديه وأمسك به، فبال الطفل على رشاشه وضحك الرجل... كانت ضحكاته كالكلام... نظر إلى الطفل وإلى بندقيّته الأتوماتيكيّة وراح يضحك.. نهاية الفيلم.

لا يوجد في الفيلم روس ولا ألمان. يوجد وحش هو ـ الحرب. ومعجزة هي ـ الحياة. لكن الآن وبعد تشرنوبل، تغيّر كل شيء. وهذا أيضاً. تغيّر العالم، ما عاد يبدو أبدياً، كما كان منذ فترة قريبة. وكأن الأرضَ تقلصت، وأصبحت صغيرة. ونحن خسرنا اللاموت ـ هذا ما حدث لنا. فُقد الإحساسُ بالخلود. وأرى على شاشة التلفزيون كل يوم كيف يقتلون. يطلقون الرصاص. اليوم يطلقون النار على أناس غير خالدين... أحد الأشخاص يقتل شخصاً آخر... بعد تشرنوبل...

شيء ـ ما مُبهم جداً، وكأنّه من بعيد... كان عمري ثلاث سنوات، عندما نقلوني مع أمّي إلى ألمانيا... إلى معسكر الاعتقال... أذكر أن كل شيء ـ كان جميلاً... قد يكونُ نظري مصمماً على هذا النحو. جبل عالٍ... هطل إمّا ثلج أو مطر. وقف الناس نصف دائرة سوداء ضخمة، يحمل الجميع أرقاماً. الأرقامُ على الأحذية... واضحة تاماً، لون أصفر ـ ساطع على الأحذية... وعلى الظهور... في كل مكان أرقام، أرقام... شريط شائك. يقف على البرج إنسان يرتدي على رأسه خوذة، وتتجول الكلاب، تعوي بصوت عال ـ عال. وما من خوف. ألمانيان اثنان، أحدهما كبير وسمين يلبس الأسود، والثاني صغير ـ في بذلة بنيّة. ذلك الذي في الأسود، يشيرُ بيده إلى مكان ـ ما... يخرج ظلّ من نصف الدائرة العاتمة ويصبح إنساناً. يبدأ الأماني في الأسود بضربه... يهطلُ إمّا ثلج أو مطر... ويهطل...

أتذكر إيطالياً جميلاً طويلاً... كان يغنّي طوال الوقت... بكت أمّي، وبكى الناس الآخرون. لم أستطيع أن أفهم، لماذا يبكون، في الوقت الذي كان غناؤه فيه جميلاً؟

كان لي محاولات رسم عن الحرب. لقد جرّبت. دون نتيجة. لن أُعُدَّ مسرحية عن الحرب. لن أتمكن من الحصول على نتيجة ناجحة.

أحضرنا إلى منطقة تشرنوبل مسرحية مرحة "أعطني الماء، يا صاحب البئر". حكاية. أتينا إلى مركز المنطقة خوتيمسك. هناك دار للأيتام، للأطفال ـ اليتامى. هؤلاء لم ينقلوهم إلى أي مكان.

استراحة. لم يصفقوا. لم يقفوا. يصمتون. الجزء الثاني. انتهت المسرحية. وأيضاً لا يصفّقون. ولم يقفوا. واستمروا في الصمت.

وجوه طلابي غارقة في الدموع. اجتمعوا في الكواليس: ما بهم؟ ثم أدركنا: لقد صدّقوا، وثقوا، بكل ما حصل على خشبة المسرح. المسرحية بأكملها شاهدوها ومازالوا ينتظرون المعجزة. الأطفال العاديون، والأطفال المنزليون، فهموا أن هذا ـ مسرح. أمّا هؤلاء فانتظروا المعجزة...

عندنا، نحن البيلاروسيين، لم يكن من شيء أبديّ. نحن لم نملك أرضاً أبدية، طيلة الزمن أخذها أحد ـ ما، ومحا آثارنا. ونحن لم نستطيع أن نعيش للأبد، كما هو مكتوب في العهد القديم: هذا أنجب ذاك، وذاك ـ أنجب ذلك... سلسلة، حلقات... أما نحن فلا نعرف، ماذا نفعل مع هذا الأبدي، لسنا مؤهلين للعيش معه. لسنا قادرين على تفهّمه. وهو في النهاية، مُهدىً لنا. أبديتنا ـ هي تشرنوبل. وها هو يظهر عندنا... ونحن؟ نحن نضحك... كما في الحكاية القديمة... أناس يواسون شخصاً، احترق بيته، ومستودعه... احترق كل شيء... أجابهم هو:

"لكن من ناحية أخرى، انظروا كم من فئران احترقت!". ـ ووضع القبعة بمرح على الأرض. هذا هو البيلاروسي بأكمله! ضحكٌ من خلال الدموع.

لكن آلهتنا لا يضحكون. آلهتنا ـ شهداء. تلك كانت آلهة الإغريق القدامى.. آلهة تضحك، وتمرح. وماذا عن الخيال، والرؤيا، والطرائف ـ إنّها نصوص أيضا؟ حول من نحن؟. لكننا لا نجيد القراءة... أسمع في كل مكان، اللحن نفسه... إنّه يمتد ـ يمتد... إنّه ليس لحناً، ولا أغنيةً، بل نواح. هو شيءٌ مبرمجٌ لشعبنا في حالات المصائب. ليس المصيبة المغادرة فحسب، بل بانتظار المصيبة القادمة. وماذا عن السعادة؟ السعادة ـ أمرٌ مؤقت، غير متوقع. الشعب يقول: "مصيبة واحدة ـ ليست مصيبة"، "لا يمكن أن تحمي نفسك بالثياب من المصيبة"، "أية أعياد ميلاد للمسيح، عندما يكون البيت ممتلئاً بالمصائب" وغيرها... لا يوجد لدينا شيء سوى المعاناة. لا يوجد تاريخ آخر، ولا توجد ثقافة أخرى...

أمّا طلابي فيحبون، وينجبون الأطفال. لكنّهم هادئون، ضعفاء. عدت بعد الحرب من معسكر الاعتقال... على قيد الحياة! كان يجب حينها أن أبقى على قيد الحياة. جيلي ما زال مندهشاً، بأنّه ما زال حيّاً. أكلت الثلج بدل شرب المياه، لم أخرج من الوادي في الصيف، أغوص مئة مرّة. أطفالهم لا يستطيعون أكل الثلج. وحتى الثلج النظيف، ناصع البياض... *(تغوص في نفسها).*

ما هي المسرحية التي أتخيّلها؟ إنني أفكر بها... طوال الوقت أفكر...

أحضروا نصا من المنطقة... أسطورة معاصرة...

بقي في القرية ـ عجوز مع زوجته. مات العجوز في الشتاء. دفنته

الجدة وحدها. استمرت في حفر حفرة للقبر مدة أسبوع. لفّته بغطاء دافئ، كي لا يتجمّد، وضعته على زلاجة أطفال ونقلته. طوال الطريق تذكَّرتْ حياتها كلّها معه...

قَلَتْ الدجاجةَ الأخيرةَ كطعام جنائزي على روح الزوج. الرائحة استجلبتْ جرواً جائعاً. فكان للمرأة العجوز من تحدِّثه وتبكي...

ذات مرّة رأيت في الحلم مسرحيتي المقبلة...

أرى: قرية فارغة، تزهر أشجار التفاح. تزهر الكرزة. رائعة. أنيقة. تزهر شجرة كمثرى بريّة في المقبرة...

تتجوّل القطط في الشوارع المُعشبة رافعةً ذيولها. لا أحد. القطط تمارس الحب. كل شيء يزهر. جمال وهدوء. وها هي القطط تسرع نحو الطريق، إنّها تنتظر أحداً ـ ما على ما يبدو، إنّها ما زالت تذكر الإنسان...

لا يوجد لدينا نحن البيلاروسيين، لا تولستوي، ولا بوشكين. يوجد يانكا كوبالا... ياكوب كولوس... لقد كتبوا عن الأرض... نحن أناس الأرض، وليس السماء. ثقافتنا أحادية ـ بطاطا، ندفنها في الأرض، ونبقى نتأمل الأرض طوال الوقت. إلى الأسفل! وإذا رفع الإنسان رأسه، لا يرفعه أعلى من عش اللقلق. إنّه مرتفع، وهو السماء بالنسبة له. والسماء، التي تسمى الفضاء، غير موجودة عندنا، وهي غير موجودة في وعينا. نأخذ حينها شيئاً من الأدب الروسي... والأدب البولوني... شأننا شأن النرويجيين الذين يحتاجون إلى غريغ، واليهود إلى شالوم أليخيم، كمركز للتبلور، يكون باستطاعتهم الاتحاد حوله وإدراك الذات. وعندنا نحن ـ تشرنوبل... إنّه يُشكّلُ منّا شيئاً ـ ما... يبدع... لقد أصبحنا

الآن شعباً... شعبَ تشرنوبل. وليس طريقاً ـ من روسيا إلى أوروبا أو من أوروبا إلى روسيا. الآن فقط...

الفن ـ هو الذكريات... الذكريات عمّن كنّا... أنا أخاف... أنا أخاف شيئاً واحداً، أن يشغلَ الخوفُ في حياتنا مكانَ الحب...".

ليليا ميخايلوفنا كوزمينكوفا

مُدرّسة في معهد التنوير الثقافي، مخرجة

مونولوج عن الأبدية واللعنة:
ما العمل ومن المذنب؟

"أنا ـ إنسان ابن زمني، أنا ـ شيوعي مقتنع...

لا يعطوننا الكلام... إنّها موظة... الموظة الآن انتقاد الشيوعيين... أصبحنا الآن ـ أعداء الشعب، ـ جميعنا مجرمون. الآن نحن مسؤولون عن كل شيء، وحتى عن قوانين الفيزياء. كنت حينها السكرتير الأول للجنة المنطقة الحزبية. يكتبون في الصحف... الشيوعيون هم المذنبون ـ بنوا محطات ذرّية رخيصة، وسيّئة، ولم يأخذوا بعين الاعتبار الأرواح البشرية. لم يفكروا بالإنسان، هو بالنسبة لهم ـ رمل، وبقايا التاريخ. وقذفوا تلك الأسئلة اللعينة: ما العمل ومن المذنب؟ أسئلة أبدية. لا تتغير في تاريخنا. الجميع على أحر من الجمر، في التعطش للانتقام والدم. ينتظرون الرؤوس المقطوعة... الخبز والمشهد...

الآخرون يصمتون، وأنا أقول لكم... اكتبوا أنتم... أنتم لم تكونوا دقيقين، ليس أنتم بالتحديد، ولكن هناك من يكتب في الصحف ـ الشيوعيون كذبوا على الشعب، أخفوا الحقيقة عنه. كان يجب علينا انتظارَ... برقيات من اللجنة المركزية، ومن لجنة المقاطعة الحزبية... وضعوا أمامنا مهمة: عدم السماح بانتشار حالة الذعر. وحالة الذعر، هي أمرٌ مخيف بالفعل. فقط أيام الحرب راقبوا الأخبار القادمة من الجبهة، مثلما فعلوا بالأخبار من تشرنوبل. الخوف والإشاعات. قتِلَ

الناسُ، ليس بسبب الإشعاعات، بل بسبب الحَدث. كان يجب علينا... واجبنا... ألاّ نتحدّث، ونكشف كل شيء مباشرة، في البداية، لم يدرك أحد حجم ما حصل. استرشدنا بأعلى الاعتبارات السياسيّة. لكن لو رمينا العاطفة، ورمينا السياسة... يجب الاعتراف، بأن لا أحد كان يصدق، ما حصل. العلماء بدورهم لم يستطيعوا التصديق! ما من مثال مشابه لما حدث... ليس عندنا فحسب، ولكن في العالم كلّه... العلماء درسوا الوضع على المحطة نفسها، واتخذوا هنا القرارات. لقد شاهدت منذ فترة قصيرة برنامج "لحظة حقيقة" مع الكسندر ياكوفلوف، عضو المكتب السياسي، والأيديولوجي الرئيس للحزب في ذلك الوقت، إلى جانب غورباتشوف... ماذا تذكر؟ هم أيضاً في الأعلى لم يتصوروا كل المشهد... لقد وضّح أحد الجنرالات في واحد من اجتماعات المكتب السياسي: "ما هي الإشعاعات؟ في موقع الاختبارات... وبعد الانفجار النووي... شرب كل منا زجاجة نبيذ أحمر، ولم نصب بأي مكروه". تكلّموا عن تشرنوبل، وكأنها حادثة، حادثة عادية...

قلت حينها، يجب ألا نسمح للناس بالخروج إلى الشارع. "ماذا. تريدون عرقلة عيد العمال؟". مسألة سياسية. البطاقة الحزبية على الطاولة.. *(يُهدئ نفسه قليلا)*. ليس نكتة، أعتقد، حقيقة. الغبار. حدَّثونا، إن رئيس اللجنة الحكومية تشيربين، الذي وصل إلى المحطة، في الأيام الأولى بعد الانفجار، طلب نقله مباشرة إلى مكان الحدث. شرحوا له: ركام الغرافيت، مجال إشعاعي مخيف، درجة حرارة عالية في المحطة ـ ممنوع السفر إلى هناك. صرخ على مرؤوسيه: "أية فيزياء أيضاً؟ يجب أن أرى بأم عيني، يجب أن أضع مساء المكتبَ السياسيَّ بصورة الوضع في المحطة". إنّه السلوك العسكري القديم. لم نعرف أمراً آخر... ولم نستوعب أنّ هناك بالفعل فيزياء... تفاعلات تسلسلية...

ولا يمكن أن تغيّرَ الفيزياءَ لا المراسيمُ، ولا القراراتُ الحكومية. العالم يقف عليها، وليس على أفكار ماركس. لكن هل كان بإمكاني أن أبوح برأيي حينها؟ جرّب أن تلغي مسيرة عيد العمل؟ *(يبدأُ يهتاج من جديد).* لقد كتبوا في الجرائد... وكأن الشعب كان في الشوارع، ونحن نلوذ بالمخابئ تحت الأرض؟! لقد وقفت على المنصة ساعتين تحت الشمس... من دون قبعة على الرأس، ومن دون معطف مطري. وفي التاسع من أيار في عيد النصر... مشيت مع المحاربين القدماء... عزف الأوكورديون. رقصنا. شربنا. نحن كنّا جزءاً من هذا النظام. وثقنا! وثقنا بالمُثل العليا. بانتصارنا! وسننتصر على تشرنوبل! ولو سقطنا ـ سننتصر. قرأنا بشراهة عن الكفاح البطولي في ترويض المفاعل، الذي خرج عن سيطرة الناس. أجرينا جلسات سياسية. إنساننا من دون أفكار؟ من دون حلم كبير؟ هذا أيضاً مخيف... انظروا ماذا يجري الآن؟ تفكّك. فوضى. رأسمال فوضوي... ومع ذلك.. يصدرون حكماً على الماضي... على حياتنا كلها... بقي ستالين فقط... ستالين... معسكرات الاعتقال... لكن أية أفلام أنتجت! وأيّة أغنيات سعيدة! أخبروني: لماذا؟ أجيبوني... فكروا ثم أجيبوني... لماذا لا توجد مثل هذه الأفلام الآن؟ ولا توجد مثل تلك الأغاني؟ يجب رفع الإنسان، إحياؤه. نحتاج إلى مُثل عليا... ستكون لدينا حينها دولة قويّة. المارتديلا لا يمكن أن تكون مثلاً. الثلاجة ممتلئة ـ ليست مثلاً. والمرسيدس ـ ليست مثلاً. نحن بحاجة إلى مُثلٍ مضيئةٍ! لقد كانت عندنا من قبل.

يصرخون في الصحف... والراديو والتلفزيون: الحقيقة، الحقيقة!! في الاحتجاجات الجماهيرية طالبوا: الحقيقة! هذا سيء، وسيء جدا! سنموت جميعا قريبا! وستختفي الأمة!! من يحتاج لهذه الحقيقة؟ عندما اقتحم الكونفينت رعاع من الناس، وطالبوا بإعدام روبيسبير، هل كانوا

محقين؟ أن تخضع للرعاع، وتصبح رعاعاً... كان علينا أن لا نسمح لحالة الذعر... وكان ذلك عملي... واجبي... *(صمت)* .إذا كنتُ ـ مجرماً، لماذا حفيدتي... طفلتي... هي أيضاً مريضة... ولدتها أمّها في ذلك الربيع، جلبتها إلينا في سلافغورود بالحفّاظات. بعربة الأطفال. وصلوا بعد عدة أسابيع من الانفجار. في المحطة... الطائرات الحوّامة تطير، والسيارات العسكرية على الطرقات... رجتني زوجتي: "يجب إرسالهما إلى أقاربهما. ونقلهما من هنا". أنا كنت السكرتير الأول للجنة المنطقة الحزبية... لقد منعتهما منعاً باتا: "ماذا سيفكر الناس، إذا نقلت ابنتي وطفلتها الصغيرة؟ وأبناؤهم ما زالوا هنا باقين". أولئك الذين هربوا، وأنقذوا أنفسهم... استدعيتهم إلى اللجنة الحزبية، إلى المكتب: "أنت شيوعي أم غير شيوعي؟". لقد دققنا على الناس. إذا كنت أنا مجرماً، لماذا قتلت ابني من لحمي ودمي؟ *(أكمل دون روابط)* .أنا نفسي... هي... في بيتي *(هدأ بعد فترة)*.

الأشهر الأولى... في أوكرانيا ـ حالة استنفار ومأساة، وعندنا في بيلاروسيا الوضع هادئ. زراعة الأرض في أوجها. أنا لم أختبئ، لم أركن للكسل والجلوس في المكاتب، بل تجولت في السهول، والأراضي المحروثة. حرثنا، وزرعنا. هل نسيتم أنتم، بأنهم سمّوا الذرة قبل تشرنوبل بالكادح السلمي: نعيش في عصر الذرة. لم يخطر ببالنا الخوف النووي... حينها كنّا نخاف المستقبل... من يكون ـ السكرتير الأول للجنة المنطقة الحزبية؟ إنسان عادي يحمل شهادة جامعية، غالباً ما يكون مهندساً أو مهندساً زراعياً. وقد يكون خريج المدرسة الحزبية العليا. لقد عرفت عن الإشعاعات، ما تمكنوا من قراءته علينا في دورات الدفاع المدني. هناك لم أسمع ولو كلمة واحدة عن التسيزيوم في الحليب، وعن السترونسيوم... نحن نقلنا الحليب بالتسيزيوم إلى معامل

الحليب. سلمنا لحوماً. حصدنا العشب ذا الأربعين كيوري. نفذنا الخطط السنوية... مع كامل المسؤولية... لقد لاحقتهم. لم يعفنا أحد من تنفيذ الخطط...

خطٌّ آخر... في البورتريه كما يقولون... شعر الناس في الأيام الأولى، ليس فقط بالخوف، بل وبالحماسة أيضاً. أنا ـ إنسان، تغيب عنده غريزة الحماية الذاتية. هذا طبيعي، لأن ذلك يعني، إن إحساس الشعور بالواجب متطور جداً لدي. أمثالي حينها كانوا كثيرين، وليس أنا وحدي... تكدست على طاولتي عشرات الطلبات: "أرجو إرسالي إلى تشرنوبل". بنداء القلب! الناس كانت مستعدة لأن تضحّي بأنفسها، دون أن تفكر ودون أن تطلب شيئاً بالمقابل. اكتبوا ما شئتم، لكن كان هناك الطابع السوفييتي. لقد كان أيضاً الإنسان السوفييتي. كيفما كتبتم، وكيفما تبرأتم... ستحزنون على هذا الإنسان... وستتذكرونه...

حضر إلينا علماء، جادلوا حتى الصراخ. وحتى بحّتْ أصواتهم. اقتربتُ من أحدهم: "أطفالنا يسبحون في الرمل الملوّث بالإشعاعات؟". أجابني: "مثيرو رعب! سطحيون! ماذا تعرفون عن الإشعاعات؟ أنا ـ نووي. حصل انفجار نووي. بعد ساعة ذهبت إلى مركز الانفجار بسيارة الجيب. على الأرض الذائبة. لماذا تثيرون الرعب؟". وثقت به. استدعيت الناس إليَّ، في المكتب: "يا إخوتي! لو هربت أنا، وهربتم أنتم. ماذا يقول الناس عنّا؟ يقولون: الشيوعيون رحلوا... هربوا؟". لو لم أقنعهم بالكلام، والأحاسيس، وتصرفت خلافا لذلك: "أنت وطني أم غير وطني؟ إذا لم تكن وطنياً ـ ضع بطاقتك الحزبية على الطاولة. ارمها!" لرماها بعضهم بالتأكيد...

بعد ذلك بدأتُ أشك... كانت هناك توقعات... وقعنا من قبل اتفاقية

مع معهد الفيزياء النووية لدراسة أراضينا. أخذوا العشب، وأخذوا طبقات من الأرض السوداء ونقلوها إلى هناك، إليهم في مينسك. أجروا عليها اختباراتهم والتحاليل اللازمة. ثم هاهم يتصلون بي قائلين: "نظموا لو سمحتم وسائل للنقل، كي تأخذوا تربتكم من هنا". ـ "هل تمزحون؟ المسافة إلى مينسك أربعمئة كيلومتراً... ـ كادت السماعة تسقط من يدي ـ نعيد التراب إلينا؟". يجيبني: "لا، لا نمزح، حسب التعليمات عندنا، يجب دفن هذه العينات في مقبرة، في مستودع من البيتون المسلّح تحت الأرض. يجلبون لنا عيّنات من كل أنحاء بيلاروسيا. الحجم الذي وصلنا خلال شهر ملأ المكان هنا". هل تسمعون؟ ونحن على هذه الأرض نفلح ونزرع. وعليها يلعب أطفالنا... يطلبون منّا تنفيذ خطط الحليب واللحوم. من الحبوب استخرجوا السبيرتو. والتفاح والكومثرة والكرز محاصيلُ أُرسلتْ للعصير...

الإخلاء... لو أن أحداً نظر من الأعلى، لكان قد اعتقد، أن الحرب العالمية الثالثة قد بدأت... ينقلون قرية، وينذرون الأخرى: سيتم الإخلاء بعد أسبوع!. ولكن الناس طوال ذلك الأسبوع يجمعون القش، ويقصوّن العشب، ويفلحون الحدائق المنزلية، ويحطّبون الحطب... الحياة كما هي. لم يدرك الناس ما يحصل. وبعد أسبوع ينقلونهم في السيارات العسكرية... اجتماعات، مهمات خارجية، ليالٍ من دون نوم. كم كان من متاعب. أذكر.. بجانب لجنة المدينة للحزب وقف شخص يرفع لافتة كتب عليها: "اعطوا الشعب اليود". كان الطقس حاراً. وكان يرتدي معطفاً مطرياً...

(يعود إلى بداية حديثنا).

لقد نسيتم... حينها... المحطات النووية ـ هي المستقبل... وأنا

خطبت أكثر من مرّة... نفذت دعاية لها... لقد كنت في إحدى المحطات النووية: هدوء، احتفال. نظافة. في الزاوية ـ رايات حمراء وشعارات "فائز بالمباراة الاشتراكية". مستقبلنا... عشنا في مجتمع سعيد. قالوا لنا، بأنكم سعداء، وكنّا سعداء. لقد كنت حراً، وحتى أنني لم أستطيع أن أفهم، ذلك الذي رأى أن حريتي، ليست حريّة. والآن حَذَفَنا التاريخُ من قوائِمه، وكأننا غير موجودين. أقرأ الآن سولجينيتسن[1]... أعتقد... (يصمت) .حفيدتي مريضة بسرطان الدم... دفعت ثمن ذلك... ثمناً غالياً...

أنا إنسان عصري... أنا ـ لست مجرماً...".

فلاديمير ماتفييفتش إيفانوف،

السكرتير الأول السابق للجنة سلافغورود الحزبية

(١) ألكسندر سولجينيتسن (١٩١٨ ـ ٢٠٠٨) روائي وكاتب مسرحي ومؤرّخ روسي سوفييتي. عارض النظام السوفييتي. طرد من الاتحاد السوفييتي عام ١٩٧٤. حصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٧٠، من أهم أعماله الروائيّة: "يوم في حياة إيفان دينيسوفيتش". و"أرخبيل غولاغ".

مونولوج مدافع عن السلطة السوفيتية

"أي ياي ياي أمكم على أم... أي ياي *(يطلقُ شتيمة للأم متعددة الطوابق)*. لم يعد ستالين موجوداً فوق رؤوسكم، ما من قبضةٍ حديدية...

ماذا تسجلون هنا؟ من أعطاكم الإذن؟ تصوّرون... أبعدوا آلتكم... وإلاّ كسرتها. تفهمين أنتِ، أتيتم... نحن نعيش. نعاني، وأنت ستكتبين. كتاب!!! تزعجون الشعب... تضربون. تثيرون مسائل لا لزوم لها. لا يوجد نظام الآن! لا يوجد نظام! تفهمين، أتيت... مع آلة تسجيل...

نعم أدافع! أنا أدافع عن السلطة السوفيتيّة. سلطتنا. الشعبيّة! في ظل السلطة السوفيتيّة كنا أقوياء. خشينا الجميعُ، العالم كلّه نظر إلينا! أحدهم كان يرتجف من الخوف، وآخر حسدنا. قحـ[1]، وماذا الآن؟ الآن؟ في ظل الديمقراطية... حلوى "السنيكرز" والسمنة المكدسة عندهم نقلوها إلينا، والأدوية منتهية الصلاحية وبناطيل الجينز المستعملة، فإذا نحن كأولئك الذين نزلوا عن الشجرة منذ وقت قصير، عن النخلة. وآ أسفاه على الدولة العظمى! تفهمين... أنت أتيت... كم كانت عظيمة! قحـ..

---

(١) شتيمة مقذعة. الروائيّة كعادتها تتجنّب الكلمات القاسية وتلجأ لوضع الحرف الأول من المفردة للدلالة عليها/ . المترجمان./

قبل أن يصعد غورباتشوف... إلى القيصريّة... ليذهب إلى الشيطان! غوربي... غوربي تصرف حسب مخططاتهم، مخططات المخابرات المركزية الأمريكية.... ماذا ستثبتين لي؟ تفهمين أنت... هم من فجر تشرنوبل... المخابرات الأمريكية والديمقراطيون... لقد قرأت في الصحف... لم يكن لينفجر تشرنوبل، وما كانت لتنهار الدولة العظمى... الدولة العظمى. *(يشتم أمهاتهم شيمة متعددة الطوابق)* .تفهمين أنت... بولكا الخبز(قطعة كبيرة) كانت عند الشيوعيين بعشرين كوبيكاً، أمّا الآن فبألفي روبل. أنا اشتريت زجاجة المشروب بثلاث روبلات، مع المازا... أما في ظل الديمقراطيين؟ للشهر الثاني لم أستطيع شراء بنطال. أسير في بنطال ممزّق. لقد باعوا كل شيء! لم يتركوا شيئاً لأحفادنا...

أنا ـ لست ثملاً، أنا مع الشيوعيين! وقد كانوا معنا. مع الناس البسطاء. لا أحتاج أساطير! ديمقراطية... ألغوا الرقابة، ماذا تريدين. اكتبي. إنسان حر... سيموت الإنسان الحر، ولا نقود لدفنه. ذات يوم ماتت عندنا جدة. وحيدة لا أبناء لها. بقيت يومين مُسجّاة في البيت... في كنزة قديمة... لم نستطيع شراء تابوت لها. كانت ستاخانية. لم نخرج للعمل في الروض لمدة يومين. أضربنا عن العمل حتى خرج رئيس الكولخوز وألقى كلمة... أمام الناس... ووعد، بأنّه ومنذ الآن، وعندما يموت شخص، سيصرف الكولخوز مجاناً: تابوتاً خشبياً، وعجلاً أو خنزيراً وصندوقين من الفودكا على روح المتوفى. في ظل الديمقراطيين... صندوقين من الفودكا... مجاناً! زجاجة للشخص ـ سكرة، نصف زجاجة ـ للعلاج. فلدينا إشعاعات...

لماذا لا تسجلون هذا؟ كلماتي. لكن تسجلون فقط، ما هو مفيد

لكم. تسيئون للشعب... تتظاهرون... بحاجة إلى رأسمال سياسي؟ وتملؤون جيوبكم بالدولارات؟ نحن نعيش هنا... نعاني... لا يوجد مذنبون! سمّوني مذنباً! أنا مع الشيوعيين! سيعودون وسيجدون المذنبين. تفهمين أنت، سيأتون... سجّلي...

أي ياي يا... أمكم على أم... (*شتائم متعددة الطوابق*).

(لم يذكر اسمه)

مونولوج: كيف التقى ملاكان الصغيرة أوليونكا

"يوجد عندي مادة... كل رفوف البيت مملوءة بالمجلدات الكبيرة. أعرف الكثير، ولا أستطيع الكتابة...

جمعتها على مدى سبع سنوات ـ مواضيع مقصوصة من الجرائد، تعليمات. منشورات... ملاحظاتي... لدي أرقام. سأعطيكم إياها... أستطيع أن أناضل: تنظيم مظاهرات، اعتصامات، والحصول على الدواء، وزيارة الأطفال المرضى ـ لكن ليس الكتابة. تعرفون... كم لدي من الأحاسيس، بحيث لا أستطيع التعامل معها، إنها تشلّني. تزعجني تشرنوبل له متابعوه... وكتّابه... لكنني لا أريد الدخول وسط أولئك الذين يستغلون هذا الموضوع. يجب الكتابة بصدق. كتابة كل شيء... (تفكر).

مطر أبريل الدافئ... سبع سنوات ولم أزل أتذكر ذلك المطر... تدحرجت قطراته كالزئبق. يقولون لا لون للإشعاعات؟ لكن بقع الماء كانت خضراء أو بنيّة ـ فاتحة اللون. أخبرتني جارتي همساً، بأن راديو "الحرية" أعلن عن حادثة في محطة تشرنوبل النووية. لم أُعر أي اهتمام لذلك. ثقتي المطلقة، بأنهم سيخبروننا فور حدوث أي شيء جدّي، هناك تقنية خاصّة، وأجهزة إنذار خاصة، وملجأ. يحذروننا لو حصل أمرٌ طارئ. لقد كنّا واثقين من ذلك! شارك الجميعُ في دورات الدفاع المدني. وأنا منهم... قدّمنا الامتحانات... لكن مساء أحضرت جارتي

بودرة ـ ما. أعطاها إياها قريب، وشرح طريقة استعمالها (كان يعمل في معهد الفيزياء النوويّة)، بعد أن تعهّدت بحفظ السر. مثل سمكة! مثل حجر! خشي الأحاديث والأسئلة عبر الهاتف...

عاش عندي في هذه الفترة حفيدي الصغير... وأنا؟ لم أصدق في جميع الأحوال. أعتقد، أن أحداً لم يشرب هذه البودرة. لقد كنّا نثق كثيراً... ليس فقط الجيل الأكبر بل الشباب أيضاً...

أتذكر الانطباعات الأولى، والإشاعات الأولى.. أنتقل من زمن إلى آخر، ومن حالة إلى أخرى... من هنا ـ إلى هناك... وكإنسان كاتب، فكرّت في هذا الانتقال، لقد أثار اهتمامي. وأصبح في داخلي شخصان بكل ما في هذه الكلمة من معنى ـ إنسان ما قبل تشرنوبل، وما بعد تشرنوبل. لكن هذا الـ"ما قبل" من الصعب الآن إعادته بكل يقين. نظرتي قد تغيّرت...

سافرت إلى المنطقة منذ الأيام الأولى.. أتذكّر، توقفنا في إحدى القرى، ما أدهشني ـ الهدوء! لا طيور، ما من شيء... تمشي في الشارع... هدوء. وإذاً! البيوت ماتت، الناس غير موجودين، غادروا، كل شيء من حولنا هادئ، ما من طير واحد. لأول مرّة أرى الأرض من دون طيور... من دون بعوض... لم يطير كائنٌ من حولنا...

وصلنا قرية تشوديانا ـ مئة وخمسون كيوري... وفي قرية مالينوفكا ـ تسعة وخمسون كيوري... لقد تلقى السكانُ جرعاتٍ تزيد مئات المرات، عن تلك التي يتلقاها الجنود الذين يحرسون مناطق اختبار القنابل النوويّة. للمرة المئة! الجهاز يهتز، يرتفع المؤشر... أما في دوائر الكولخوز، إعلانات معلّقة، وموقّعة من قبل اختصاصيي الإشعاعات في المنطقة، بأن بالإمكان أكل البصل، والسلطة، والبندورة، والخيار. كل شيء ينمو، والجميع يأكلونه.

ماذا يقول الآن إختصاصيو الأشعة في المنطقة؟ وسكرتاريو لجان الحزب في المنطقة؟ وكيف يبررون؟

لقد التقينا في القرى الكثير من الناس السكارى. ساروا تحت تأثير الخمر وحتى النساء، وبخاصّة الحلاّبات، ومربو الأبقار. غنّوا أغنية... كانت مشهورة ومنتشرة في ذلك الزمن: "سيّان عندنا... سيّان عندنا". وبكلمة واحدة، لم يعيروا اهتماماً لكل ما يحدث، كما في الفيلم السينمائي "اليدُ الماسية".

مررنا بروضة أطفال في قرية مالينوفكا (منطقة تشيريكوفسكي). الأطفال يلعبون في الفناء... صغار يزحفون على البقعة الرملية... توضّح المديرة، بأنّهم يبدلون الرمل مرّة في الشهر. من أين يأتون به. يمكنكم أن تتصوّروا من أين يحضرونه؟ منظر الأطفال محزن... نحن نمازحهم، وهم لا يبتسمون... بكت المربية وهي تقول: "لا تحاولوا.. أطفالنا لا يبتسمون. وفي نومهم يبكون". التقينا في الطريق امرأة تحمل طفلاً رضيعاً. "من الذي سمح لك بالولادة هنا؟ تسعة وخمسون كيوري... "- أتت طبيبة أشعّة. ونصحتني فقط أن لا أنشّف الحفّاظات في الهواء الطلق". لقد أقنعوا الناس أن لا تغادر، وأن تبقى. وكيف لا! قوى عاملة! وحتى عندما نقلوا سكان القرى... وأخلوها... للأبد. عادوا فجلبوهم لتنفيذ بعض الأعمال الزراعية. جمع البطاطا...

ماذا يقوله الآن مسؤولو اللجان الحزبية في المنطقة؟ كيف يبررون؟ من هو المذنب فيهم؟

لقد احتفظت بالكثير من التعليمات... سرّية للغاية. سأقدمها جميعها لك... تعليمات لمعالجة جثث الدجاج الملوثة النافقة... تطلب الأمرُ في قسم المعالجة أن يرتدي العمال، كما في المساحات الملوثة عند

التعامل مع العناصر المشعة: قفازات مطاطية، وأرواب مطاطية، وأحذية.. الخ.. وإذا كانت نسبة الكيوري "كذا"، تسلق هذه الجثث في مياه ملحيّة، ثم يسكب الماء في الصرف الصحي، واللحمة يمكن إضافتها إلى عجينة لحمية لصنع الفطائر، وإلى المارتديلا. وإذا كانت نسبة الكيوري "كذا" ـ فيمكن إضافتها إلى علف القطيع... هكذا نُفذت الخطط بالنسبة للحوم. لقد باعوا العجول من المناطق الملوّثة، في المناطق النظيفة بسعر رخيص. حدثنا السائقون الذين نقلوا هذه العجول، بأن العجول كانت مضحكة ـ وبرها يصل إلى الأرض، وجائعة لدرجة أنها أكلت كل شيء ـ قطع القماش والأوراق. كان يمكن إطعامها بسهولة! لقد باعوا العلف في الكولخوز، كان باستطاعة الجميع ممن يرغب في الحصول على العلف، شراؤه. لكنها قضية جنائية! جنائية!!

ألتقينا في الطريق بسيّارة... شاحنة تسير ببطء، وكأنها في جنازة... أوقفناها. خلف المقود ـ شاب يانع. أسأله: "هل تشعر بوعكة صحيّة، فأنت تقود ببطء؟" ـ "لا، أنقل تراباً ملوّثاً بالإشعاعات". لكن الطقس حار جداً! والغبار يتصاعد! "هل جننت! أمامك زواج، وإنجاب أطفال". ـ "وأين يمكنني الحصول على خمسين روبلاً للسفرة الواحدة؟". يمكنك بخمسين روبل، في ذلك الزمن شراء بذلة جيدة. تحدّثوا عن الأجور المرتفعة، أكثر ما فعلوا عن الإشعاعات. عن إضافات الأجور المزرية. المزرية من وجهة نظر قيمة الحياة...

أمورٌ مأساوية ومضحكة تتجاور، بعضها بجانب بعض...

تجلس جداتٌ على المقاعد أمام البيت. الأطفال يلعبون. قسنا الإشعاعات ـ.. سبعون كيوري...

ـ من أين الأطفال؟

ـ من مينسك أتوا لقضاء العطلة الصيفية.

ـ نسبة الإشعاعات مرتفعة عندكم!

ـ أنتم هناك تقيسون هذه الإشعاعات! نحن شاهدناها.

ـ الإشعاعات لا ترى بالعين!

ـ انظروا، إلى هناك: بيت غير مكتمل البناء، الناس تركوا كل شيء وغادروا. خافوا. ذهبنا مساء لنرى... نظرنا من الشباك... رأيناها تجلس تحت العصا، هذه الإشعاعات. إنّها شريرة ـ شريرة وعيناها تلمعان... سوداء ـ سوداء....

ـ هذا غير ممكن!

ـ نقسم لكم. نتعمّد!

يرسمون إشارة الصليب، يرسمونها بمرح. أيسخرون يا ترى من أنفسهم، أم يسخرون منا؟

اجتمعنا في إدارة التحرير بعد الجولة. سألنا بعضنا بعضاً: "كيف حالكم؟". "كل شيء على ما يرام!". "كل شيء على ما يرام؟ انظر إلى نفسك في المرآة، لقد أتيت مع الشيب في رأسك!". وظهرت نكت. نكت تشرنوبل. الأقصر فيها: "كانوا شعباً جيداً ـ البيلاروسيّون".

كُلِّفتُ بمّهمة ـ الكتابة عن الإخلاء... في بوليسيا يوجد اعتقاد: إذا كنت تريد العودة إلى البيت، ازرع شجرة أمام طريق بعيدة. عدت إلى هناك... أدخل إلى أول فناء، وإلى الثاني... الجميع يغرس الشجر. دخلت إلى الثالث، جلست وبكيت. أمّا صاحبة البيت فأشرت قائلة: "ابنتي وصهري زرعا شجرة خوخ، الابنة الثانية ـ غبيرّة حمراء، الابن الأكبر ـ كالينا، والأصغر ـ شجرة صفصاف. أنا وصاحب البيت سويّة ـ

شجرة تفاح واحدة". عند وداعنا طلبت مني: "لديّ الكثير من الفراولة ـ الفناء يغص بها. خذي من عندي فراولة". رغِبَتْ أن يبقى شيء ـ ما، أثر ـ ما من حياتها...

لم أتمكن من تسجيل الكثير. سجلت القليل... كنت أؤجل كل شيء: سأجلس في يوم ـ ما وأتذكر. سأذهب في إجازة...

إليكم... ما ومض في ذاكرتي... مقبرة قروية... لوحة عند المدخل كتب عليها: "إشعاعات عالية. يمنع دخول الأشخاص والآليات". وحتى إلى العالم الآخر، كما يقولون، لا يمكنك الوصول. *(تضحك بشكل غير متوقع. لأول مرة طوال الحديث الطويل).*

هل حدثوكم، بأنهم منعوا التصوير بجانب المفاعل منعاً باتا. سمح بذلك فقط بعد الحصول على إذن خاص. أخذوا آلات التصوير. يفتِّشون العسكري الذي يخدم هناك، قبيل المغادرة كما في أفغانستان، كي لا تخرج أية صورة، أو أي دليل لا سمحَ الله،. لقد سحبوا الأفلام من المصورين التلفزيونيين، وأعادوها من الـ كي جي بي متلفة. كم من الوثائق أُتلفت. والشهادات. لقد ضاعت بالنسبة للعلم. وللتاريخ. لو نستطيع إيجاد، الشخص الذي أعطى الأوامر بفعل هذا العمل...

كيفما برّروا؟ ومهما اختلقوا...

فلن أقبل تبريرهم أبداً... أبداً!!! من أجل طفلة واحدة... رقصت في المستشفى، رقصت لي رقصة "البولكا". أكملتْ في ذلك اليوم عامها التاسع. كم كان رقصها جميلاً... بعد شهرين اتصلت بي أمّها: "اولينكا تموت!". لم تكفني القوة كي أذهب في ذلك اليوم إلى المستشفى. ثم بعد ذلك أصبح الوقت متأخراً. كان لأولينكا أخت أصغر. استيقظتْ

صباحاً وقالت: "أنا شاهدت كيف طار إلينا اثنان من الملائكة وأخذوا أولينكا. قالوا، بأن أولينكا ستكون مرتاحة. ولن يؤلمها شيء. ماما، أولينكا أخذها ملاكان...".

لا أستطيع أن أبرر لأحد...".

إيرينا كيسيليوفا، صحفية

مونولوج عن سلطة هائلة
لشخص على شخص آخر

"أنا ـ لست متخصصاً في العلوم الإنسانية، أنا ـ فيزيائي. لذلك أنا مع الحقائق، والحقائق فقط...

سيأتي يومٌ يعرفُ فيه من يتحمّل مسؤولية تشرنوبل... سيأتي الوقت، ويتعيّن تحمّل المسؤولية، كما في عام سبعة وثلاثين. وليكن بعد سبعين عاماً! وبعد أن يصبح أولئك الناس كباراً في السن... أو قد ماتوا... سيتحملون المسؤولية، إنّهم مجرمون! (صمت). يجب وضع الحقائق... الحقائق! إنّها مطلوبة...

... في ذلك اليوم، السادس والعشرين من نيسان (أبريل)... كنت بمهمة في موسكو. عرفت هناك عن الحادثة.

اتصلت بمينسك، بالسكرتير الأول للجنة المركزية في بيلاروسيا سلونكوف، مرّة، اثنتين، ثلاثة أتصل لكن لم يصلني أحد به. أجد مساعده (ذاك يعرفني جيداً):

ـ أنا أتصل من موسكو. صِلني بـ سلونكوف، لديّ معلومات عاجلة. وطارئة!

أتصل بالخط الحكومي، ومع ذلك شفروا الاتصال. ما إن تبدأ الكلام عن الحادثة، حتى يفصلون الخط مباشرة. بالطبع يراقبون

الخطوط! يتنصّتون. الأجهزة المختصة... دولة ضمن دولة... مع أنني أتصل بالسكرتير الأول للجنة المركزية... وأنا؟ أنا ـ عميد معهد الطاقة النووية في أكاديمية العلوم البيلاروسية. برفيسور، عضو ـ مراسل... لكنّهم شفّروا علي الخط...

تطلّب الأمر ساعتين، كي يأخذ السماعة سلونكوف. وأبلغته:

ـ الحادثة جديّة. ووفقاً لحساباتي (وأنا كنت قد تحدثت، مع أخصائيين في موسكو)، العمود الإشعاعي يتجه نحونا. إلى بيلاروسيا. يجب بالسرعة الكلّية، إجراء وقاية باليود للسكان ونقل الجميع، كل من يعيش قرب المحطة. يجب إخلاء الناس والحيوانات الذين يقعون ضمن مسافة مئة كيلوميتر عن المحطة.

أجابني سلونكوف:

ـ لقد أبلغوني، كان هناك حريقٌ، لكنّهم أخمدوه.

لم أستطع التحمّل:

ـ هذا كذب! كذب واضح! أي فيزيائي يمكن أن يقول، بأن خمسة أطنان من الغرافيت يمكن أن تحترق، في ساعة!؟. تصوّروا، كم سيستمر الحريق!

سافرت مع أول قطار إلى مينسك. ليلة قلقة. في الصباح توجهت إلى البيت. قست الغدة الدرقية عند ابني ـ مئة وثمانين ميكرورينجين في الساعة! حينها كانت الغدة الدرقية هي المقياس المثالي. بحاجة إلى يود البوتاسيوم. هذا هو اليود العادي. لكل نصف كأس من عصير الفواكه مع النشاء، ثلاث نقط للأطفال، وللكبار ـ ثلاثة ـ أربعة نقاط. اشتعل المفاعل عشرة أيام، وعشرة أيام كان يجب شرب اليود. لكن لا حياة لمن تنادي! لا العلماء، ولا الأطباء. العلمُ خدم السياسة، والطبُ دخل

في السياسة. هذا ما كان ينقصنا! لا يجب أن ننسى على خلفية أي وعي حصل هذا الأمر، من كنّا نحن في هذه اللحظة، قبل عشر سنوات. كانت الـ كي جي بي تعمل، والتجسس الداخلي. أُسكتت "الأصوات الغربية". آلاف التابوات، والأسرار العسكرية والحزبية... والتعليمات... زد على ذلك، فقد تربينا على أنّ الذرة السلمية السوفيتية، ليست خطرة، مثلها مثل الفحم النباتي والفحم الحجري. كنّا بشراً مكبلين بالخوف والأحكام المسبقة. نؤمن بالخزعبلات... لكن نحن بحاجة إلى الحقائق، والحقائق فقط...

في ذلك اليوم... السابع والعشرين من نيسان (أبريل) قررت السفر إلى مقاطعة غوميل، المحاذية لأوكرانيا. إلى مركز مناطق براغين، خوينيكي، ناروفل، المسافة من هناك إلى المحطة بضعة عشرات من الكيلومترات فقط. كنت بحاجة إلى معلومات كاملة. أخذتُ الأجهزة، وأجريتُ قياس الإشعاعات في الجو. وكانت النتائجُ على النحو الآتي: في براغين - ثلاثون ألف ميكرورينجين في الساعة، وفي ناروفل - ثمانية وعشرون ألف... يزرعون، ويفلحون. يستعدون لعيد الفصح... يلوّنون البيض، يحضّرون الحلويات... أيّة إشعاعات؟ ماذا تكون؟ لم يتلقوا أية توجيهات. يسألون من الأعلى تقارير: كيف تجري أعمال الزراعة، وبأية وتائر؟ ينظرون إليّ كما إلى المجنون: "من أين؟ عن ماذا تتحدث أيّها البروفيسور؟". رينجين، ميكررينجين... لغة رجل من عالم آخر...

عدنا إلى مينسك. يتاجرون في الشارع وفي كل مكان بالمعجنات، والبوظة، وباللحم المفروم، والكعك. تحت الغيمة الشعاعية...

التاسع والعشرون من نيسان (أبريل). أذكر كل شيء بدقة... وبالتواريخ... في الساعة الثامنة صباحاً، كنت أجلس في غرفة استقبال

سلونكوف. أحاول أخذ موعد، وأحاول. لم يستقبلوني. وهكذا حتى الخامسة والنصف مساء. يخرج من مكتب سلونكوف شاعر معروف. توجد معرفة بيننا:

ـ لقد ناقشنا مسائل الثقافة البيلاروسية مع الرفيق سلونكوف.

انفجرت قائلاً:

ـ قريباً لن يكون هناك من يطور هذه الثقافة، ويقرأ كتبك، إذا لم نرحّل الآن الناس من تحت تشرنوبل! ولم ننقذهم!

ـ ماذا تقول؟ هناك قد أخمدوا كل شيء.

استطعت أخيراً الوصول إلى سلونكوف. أرسم له المشهد، الذي رأيته يوم أمس. يجب إنقاذ الناس! لقد بدأ الترحيل في أوكرانيا (كنت قد اتصلت إلى هناك)...

ـ إنّهم زملاؤك الاختصاصيون (من معهدي) بقياس الأشعة، يتجوّلون في المدينة، ويثيرون الرعب! لقد تشاورت مع موسكو، مع الأكاديمي إيلين. الوضع عندنا على ما يرام... لقد أرسلوا إلى هناك الجيش، والتقنيات العسكرية. تعمل في المحطة لجنة حكومية. والنيابة العامة. يستقصون الوضع هناك... يجب أن لا ننسى: تدور حرب باردة. نحن مطوقون بالأعداء...

لقد توضعت على أرضنا آلاف الأطنان من مادة السيزيوم واليود والرصاص والزركونيوم والكاديوم والبريليوم والبورون، وكميّة غير معروفة من البلوتونيوم ـ حوالي أربعمئة وخمسين نوعاً من النيكلودات المشعّة. كميتها تعادل ثلاثمئة وخمسين قنبلة، كالتي سقطت على هيروشيما. كان يجب التحدث عن الفيزياء. وعن قوانين الفيزياء. لكننا تكلمنا عن الأعداء. وبحثنا عن الأعداء.

سيتحملون المسؤولية عاجلاً أم آجلاً، عن ذلك. قلت لسلونكوف: "هل ستبرّرون ذات يوم ـ ماذا ستقولون ـ أنا صانع جرارات (مدير سابق لمصنع الجرارات)، ولا أعرف ما هي الإشعاعات. أما أنا ففيزيائي، ولديّ التصوّر عن آثارها". لكن ما هذا؟ أي بروفيسور وأي فيزيائيين يتجرؤون على تعليم اللجنة المركزية؟ لا، هم لم يكونوا عصابة قطاع طرق على الأرجح. هم على الأغلب ـ نتاج مؤامرة الجهل والفئة الخاصة. مبدأ حياتهم، تدريب الأجهزة: لا تحشر رأسك. استدعوا سلونكوف إلى موسكو لترقيته. انظروا ـ انظروا!! أعتقد أن اتصالاً من موسكو... من غورباتشوف...، أنتم البيلاروسيون هناك لا تجعلوا حالة من الذعر تنتشر، إنّ الغرب ومن دون ذلك يصدر الضجيج. وقانون اللعبة على هذا النحو، إذا لم تُطيعوا القيادة الأعلى وتُدلّسوا، فلن تحصلوا على الترقية في الوظيفة، ولن يعطوكم تلك التذكرة، ولا تلك العزبة... يجب أن تعجبوا القيادة... وكأننا كما كنا من قبل نظام مغلق، خلف ستار حديدي، ولعاش الناس حتى الآن قرب المحطة. ولأبقوها سرّاً!! تذكرون مدينة كيشتيم، وسيميبالاتينسك... الدولة الستالينية. وما زالت الدولة الستالينية....

جاء في التعليمات حول حالة الحرب النووية، عند التهديد بحادثة نووية، وهجوم نووي، يجب وبسرعة إجراء وقاية للسكان باستخدام اليود. عند وجود خطر؟ وهنا... ثلاثة آلاف ميكرورينجين في الساعة... لكنهم لا يخافون على الناس، بل على السلطة. دولة السلطة، وليس دولة الناس. أولوية السلطة لا جدال فيها. أما قيمة الحياة الإنسانية فتعادل الصفر. لقد وُجدت أساليب! نحن اقترحنا... من دون إعلانات، من دون هلع... بكل بساطة إضافة مادة اليود في خزانات المياه، التي يشربها الناس، وإضافتها في الحليب. وليشعروا بطعم ما في المياه...

وليصبح مذاق الحليب مختلفاً... لقد خزنوا في المدينة سبعمئة كيلوغرام من الأدوية على أهبة الاستعداد. وهكذا بقيت في المستودعات... احتياطية. لقد خافوا الغضب من الأعلى، أكثر مما خافوا الذرة. كل واحد منهم انتظر مكالمةً هاتفيةً، أمراً، ولم يبادر بالتصرف في اتخاذ أي إجراء. الخوف من المسؤولية الشخصية. لقد حملت جهاز قياس في حقيبتي.. لماذا؟ لم يسمحوا لي بالدخول، ملّوا مني في المكاتب الكبيرة... حينها أخرجت الجهاز ووضعته على الغدة الدرقية للسكريتيرات والسائقين الشخصيين، الجالسين في غرفة الاستقبال. خافوا، وهذا أحيانا ما ساعدني ـ أذنوا لي بالدخول. "ما بكم أيّها البروفيسور، تثيرون حالة من الهيستريا؟ هل أنتم الوحيدون الحريصون على الشعب البيلاروسي. الإنسان سيموت بسبب أي شيء، وفي جميع الأحوال: من التدخين، في حوادث السير، ينتحر". هزئوا من الأوكرانيين. أولئك زحفوا على ركبهم في الكرملين، يطلبون النقود، والأدوية، وأجهزة القياس (لم تكفِ هناك)، أمّا رجلنا (يقصد سلونكوف) وخلال خمسة عشرة دقيقة، قدّم تقريره عن الوضع: "كل شيء على ما يرام. نتدبّر الأمر بقوانا الخاصّة". أشادوا: "الأخوة ـ البيلاروسيون شجعان!".

كم من حياة بشرية، كانت ثمن تلك الإشادة؟!

وعندي معلومات، بأنهم (القيادة) أنفسهم كانوا يتعاطون اليود. عندما فحصهم موظفو معهدنا ـ وجدوا غددهم الدرقية نظيفة. وهذا غير ممكن بدون اليود. كما ونقلوا أطفالهم بهدوء، بعيداً عن الخطيئة. وعندما حضروا بأنفسهم إلى المنطقة في مهمة، كانت لديهم أقنعة واقية، وثياب خاصة، لم تكن موجودة مع الآخرين. ومنذ زمن، ولم يعد هذا سرّاً، احتفظوا بقطيع في ضواحي مينسك. حملت كل بقرة

رقماً خاصاً. شخصيّة. أرض خاصّة، وبيوت بلاستيكية خاصّة... ورقابة خاصّة... والأكثر قرفاً... (يصمت) .لم يُحاسب على ذلك أحد...

رفضوا استقبالي. والاستماع إلي. أخذت بإرسال الرسائل لهم. والملاحظات على شكل تقارير. أرسلت الخرائط والأرقام. إلى كل المحطات المختصة. لقد تجمعت عندي أربع ملفات، كل ملف يحتوي على مئتين وخمسين صفحة. حقائق، وحقائق فقط... صورتها على نسختين تحسُّباً لأسوأ الاحتمالات، ملف في مكتبي في العمل، والثاني أخفيته في البيت، أخفته زوجتي. لماذا صوّرت نسخة ثانية؟ لدينا ذاكرة... نحن نعيش في هذا البلد... المكتب أقفلته بنفسي. أعود من مهمة ـ تختفي الملفات... الملفات الأربعة جميعها... لكنني ترعرعت في أوكرانيا، وأجدادي قوزاق. طبيعة قوزاقيّة. تابعت الكتابة. وإلقاء الخطابات. يجب إنقاذ الناس! ونقلهم بالسرعة القصوى! نحن كنّا منهمكين في المهمات. رسم معهدنُا الخريطة الأولى للمناطق "الملوّثة". الجنوب كلّه باللون الأحمر... الجنوب كان ملتهباً.

أصبح ذلك تاريخاً. تاريخ الجريمة...

لقد سحبوا من المعهد كل أجهزة رقابة الاشعاعات. صادروها. دون توضيح. اتصالات تهديد إلى البيت: "توقف، أيّها البرفيسور، توقف عن إخافة الناس! وإلاّ سنرسلك إلى حيث لم يرعَ ماكار البقر. لا تتوقع؟ وانسوا؟ انسوا بسرعة!". بالإضافة للضغط على موظفي المعهد. وإخافتهم.

كتبتُ إلى موسكو...

استدعاني رئيس أكاديميتنا بلاتونوف:

ـ الشعب البيلاروسي سيتذكرك يوماً ـ ما، لقد فعلتَ الكثير لأجله،

لكنك أخطأت في مراسلة موسكو. أخطأت كثيراً! يطلبون أن نعزلك من الوظيفة. لماذا كتبت؟ ألا تدرك على من رفعت العصا؟

لدي ـ خرائط وأرقام. وماذا عندهم؟ باستطاعتهم وضعي في مشفى الأمراض النفسية... هددوني. يمكن أن أتعرّض لحادث سير... هددوني. باستطاعتهم رفع دعوى قضائية لمعاداة السوفييت. أو لسرقة صندوق مسامير، غير مسجل لدى سوفخوز المعهد...

رفعوا دعوى قضائية...

لقد حققوا مأربهم. أصبتُ بجلطة... (صمت).

كل شيء موجود في الملفات... أرقام وحقائق... أرقام إجرامية...

في العام الأول...

أعدوا مليون طن من الحبوب "الملوّثة" في مصنع العلف، أطعموها للقطيع (واللحم فيما بعد وصل إلى مائدة الإنسان). أطعموا الطيور والخنازير عظاماً مشبعة بالسيروستيوم...

لقد أخلوا القرى، والأرض زرعوها. وحسب إحصائيات معهدنا، فإنّ ثلث الكولخوزات والسوفخوزات، امتلكت أرضاً "ملوّثة" بالتسيزيوم ـ ١٣٧، وغالبا ما زادت كثافة "التلوّث" عن خمسين كيوري للمتر المربع الواحد. من غير الممكن الحديث عن استلام مواد غذائية نقية. في الكثير من الأراضي المأهولة تجد السترونتيوم ـ ٩٠...

يتغذى الناس في القرى من منتجات حدائقهم والحقول المخصصة لهم، من دون أي فحص لها. لم يشرح لهم أحد، ولم يعلّمهم أحد، كيف يمكنهم العيش. وما من برنامج يأخذ ذلك بعين الاعتبار. فحصوا فقط ما كان معداً للترحيل... الشحن الخاص إلى موسكو... وإلى روسيا...

نحن شاهدنا الأطفال المهملين في القرى... عدة آلاف من الصبيان والبنات. تلك الفتيات ما عدن قادرات على الانجاب. أصبحت عندهن سمات وراثية...

كم من الأعوام مرّت... وأنا لم أصحُ مرة واستطعت العودة إلى النوم...

الجرار يحرث... أسأل موظف اللجنة الحزبية، الذي يرافقنا:

ـ هل سائق الجرار محمي بكمامة؟

ـ لا، إنّهم يعملون من دون كمامات.

ـ ماذا، ألم يجلبوها لكم؟

ـ وكيف لا! لقد أحضروا كمية تكفي للعام ألفين. لكن نحن لا نعطيهم. كي لا تبدأ حالة الذعر. ويهرب الجميع! سيهربون!

ـ ما هذا العمل الغريب؟

ـ هذا سهل بالنسبة لكم أيّها البروفيسور! إذا طردوكم من العمل، ستجدون عملاً آخر. أما أنا فإلى أين باستطاعتي الذهاب؟

يا لها من سلطة! سلطة شخص مطلقة على شخص آخر. هذا ليس كذباً، إنّها حربٌ ضد أبرياء...

على طول مدينة بريبياتِ... تنصب خيم، الناس يقضون إجازاتهم أُسَراً، يسبحون، ويأخذون حمامات شمسية. إنّهم لا يعرفون، أنّهم ومنذ أسابيع، يفعلون ذلك تحت غيمة مشعّة. ويجب أن يمنع ذلك منعاً بتاتا، لنلتقِ بهم. لكن أرى أطفالاً... أقترب وأبدأ التوضيح... ذهول... سوء تفاهم: "لماذا يصمتون في الراديو والتلفزيون عن ذلك؟". المرافق... عادة ما يرافقنا شخص من السلطة المحلّية، من لجنة المنطقة

الحزبية ـ هذا هو النظام... يبقى صامتاً... أستطيع أن أدرك بمجرد مراقبة تقاسيم وجهه، ما هي الأحاسيس التي تتصارع في داخله: سيخبر أم لا يخبر؟ أحزن في الوقت نفسه على هؤلاء الناس! إنّه إنسان عاديّ... لكنّي لا أعرف أي تلك الأحاسيس سينتصر في داخله، عندما نعود؟ سيبوح أم لا يبوح؟ لكل تفصيل خياراته... *(يصمت لبضع الوقت)*.

نحن ما زلنا بلداً ستالينيّاً... وما زال ستالين حيّاً...

أذكر في مدينة كييف... في محطة القطارات... القطار تلو الآخر ينقل أطفالاً خائفيْن. النساء والرجال يبكون. فكرت لأول مرّة "من يحتاج هذه الفيزياء؟ وهذا العلم؟ إذا كان الثمن باهظاً... الآن أصبح الأمر معروفاً... لقد كتبوا... بأية وتائر سريعة بنوا محطة تشرنوبل الذريّة. بنوا ـ على الطريقة السوفيتية. اليابانيون بنوا مثل هذه المشاريع خلال اثني عشر عاماً، أما عندنا فقد أنجزوا العمل خلال سنتين ـ إلى ثلاث. لكن نوعية وأمان المشروع الخاص، لم يختلفا عنهما عند بناء مجمّع للتربية الحيوانيّة. مصنع للدجاج!! فإذا وجدوا أن شيئاً ما لم يكفِ، بصقوا على المشروع واستبدلوه بما هو في متناول اليد. وهكذا فإنّ سقف صالة الآلات مغطّى بالقار. لذلك أطفأهُ رجال الإطفاء. من أدار المحطة النووية؟ لم يكن في الإدارة أي فيزيائي ـ نووي. كان هناك اختصاصيو طاقة وأنابيب، وأناس حزبيّون، لكن لم يكن هناك اختصاصيّ واحد. ما من فيزيائي...

اخترع الإنسان التقنية، التي لم يكن مستعداً لها بعد. غير معادل لها. هل يمكن أن تضع بيدي الطفل مسدّساً؟ نحن أطفال ـ مجانين. هذه عواطف، وأنا أمنع نفسي من الاسترسال في العاطفة...

في الأرض... في الأرض، وفي المياه تتوضّع نيكلودات، عشرات

النيكلودات. نحن بحاجة إلى إيكيولوجي إشعاعات... لكن في بيلاروسيا لم يكن لدينا من يحمل هذا الاختصاص، طلبوا من موسكو. عملت ذات يوم في أكاديمية العلوم عندنا البروفيسورة تشيركاسوفا، مارست مسائل الجرعات الصغيرة، والإشعاعات الداخلية. أقفلوا المخبر قبل تشرنوبل بخمس سنوات ـ لا يمكن أن يكون عندنا أية كوارث. عن ماذا أنتم تتحدّثون؟ المحطات النووية السووفيتية ـ متقدمة وهي الأفضل في العالم. أية جرعات صغيرة؟ وأية إشعاعات داخلية؟ وأية مواد غذائية مشعّة... قلصوا المخبر، وأحالوا البروفيسورة إلى التقاعد. وهي تعمل حارسة مبنى في مكان ما، تقدِّم المعاطف للناس...

ولم يتحمل المسؤولية أحد...

بعد خمس سنوات... ازدادت نسبة مرضى سرطان الغدة الدرقية عند الأطفال ثلاثين ضعفاً. تم الإقرار بنمو مشاكل التطور الخلقية، وأمراض الكلى، والقلب، ومرض السكر عند الأطفال...

بعد عشر سنوات... تقلصت نسبة أعمار البيلاروسيين إلى خمسة وخمسين ـ ستين عاماً...

أنا أؤمن بالتاريخ... بمحكمة التاريخ... تشرنوبل لم ينته، لقد بدأ لتوّه...".

فاسيلي بوريسوفيتش نيسترينكو،

العميد السابق لمعهد الطاقة النووية

أكاديمية العلوم البيلاروسية

مونولوج عن الضحايا والكهنة

"يستيقظ الإنسان في الصباح الباكر... ويبدأ يومه...

وهو لا يفكر بالأبدي، تفكيره منصب على قوته اليومي، وأنتم تريدون إجباره على التفكير بالأبديّ. هذه هي خطيئة المختصّصين في العلوم الإنسانية...

ما هو ـ تشرنوبل؟

نصل إلى القرية... لدينا باص ألمانيّ صغير (مهدى إلى صندوقنا)، يلتف الأطفال حولنا: "يا عمّة! يا عم! نحن أطفال تشرنوبل. ماذا أحضرتم؟ اعطونا مما لديكم. اعطونا!!".

هذا هو ـ تشرنوبل...

نلتقي في الطريق إلى المنطقة جدّة تلبس تنّورة مفصّلة للأعياد، ومئزر معقود خلفها.

ـ إلى أين أيتها الجدّة؟ في زيارة؟

ـ ذاهبة إلى مارك... إلى فنائي...

وهناك مئة وأربعون كيوري! ستسيرُ خمسة وعشرين كيلومتراً. تحتاج إلى يوم كاملٍ ذهاباً، ويوم إيّاباً. وستُحضِر زجاجة تتسع لثلاث ليترات، عُلّقت سنتين عندها على السياج. لكن المهم أنّها كانت في فناء بيتها...

هذا هو ـ تشرنوبل.

ماذا أذكر منذ الأيام الأولى؟ كيف كان ذلك؟ عليّ أن أبدأ من هناك... كي أحدّث عن حياتي، يجب أن أبدأ من الطفولة. وهنا... لديّ نقطة مرجعية. أنا أتذكر أمراً آخر... أتذكر الذكرى الأربعين للنصر. حينها كانت أولى الألعاب الناريّة في سماء موغيلوف. بعد الاحتفال الرسمي لم يتفرق الناس كالعادة، أخذوا يرددون الأغاني. بشكل مفاجئ تماماً. أذكر ذلك الشعور العام. تكلّم الجميع بعد أربعين عاماً، وحان وقت إعادة التقييم. قبل ذلك بقينا على قيد الحياة، وأعدنا الإعمار، وأنجبنا أطفالاً. وهكذا مع تشرنوبل... سنعود إليه، سينفتح أمامنا بشكل أعمق. سيصبح مقدساً. وحائط مبكى. لكن حتى الآن لا توجد صيغة. الصيغة غير موجودة! لا توجد أفكار. كيوري، بيري، سيفيرت ـ هذه ليست مراجعة وإعادة تقييم. هذه ـ ليست فلسفة. وليست وجهة نظر. لدينا الإنسان ـ إمّا أنه يحمل بندقية، أو صليباً. طوال تاريخه... لم يكن عندنا إنسان آخر... حتى الآن...

... عملت ماما، في إدارة الدفاع المدني للمدينة، هي من الذين عرفوا قبل غيرهم. بدأت الأجهزة كلّها بالعمل. وحسب التعليمات، المعلّقة لديهم في كل مكتب، تطلّب الأمرُ إعلام السكان مباشرة، وتقديم الكمامات للتنفس وغيرها. فتحوا مستودعاتهم السرّية، المقفلة والمختومة، لكن كل شيء هناك كان في حالة مزرية، ولا يصلح، يمنع استخدامه. وكانت الأقنعة المضادة للغاز في المدارس، من نماذج ما قبل الحرب وحتى أن مقاساتها لم تكن توافق مقاسات الأطفال. ارتفعت المؤشّرات في الأجهزة، لكن لم يستطيع أحد فهم شيء، لم يحدث ذلك من قبل أبداً، ببساطة أقفلوا الأجهزة. تبرر ماما: "لو عصفت الحرب، لعرفنا ماذا نفعل. توجد تعليمات. لكن هنا؟ من كان على رأس الدفاع المدني؟ جنرلات وعقداء متقاعدون، والحرب بالنسبة لهم تبدأ

بهذا الشكل: يعلنون في الراديو بيانات حكومية، حالة طوارئ جويّة، قنابل وولاعات... لم يستوعبوا أن القرن تغيّر. كانوا بحاجة إلى انعطاف نفسي... وهو ما حدث... وقد حصل... نحن الآن نعرف: سنجلس، ونشرب الشاي حول مائدة العيد... وسنتحدّث، ونضحك، والحرب ستستمر... ونحن حتى لن نلاحظ، كيف سنختفي..

أما الدفاع المدني ـ هو مجرد لعبة، يلعبها الرجال كبار السن. هم كانوا المسؤولين عن العروض، والتدريبات العسكرية... التي كلفت الملايين... سحبونا من العمل لمدة ثلاثة أيام ـ من دون أيّة توضيحات ـ إلى التدريبات العسكرية. سمّيت هذه لعبة "في حال الحرب النووية". الرجال ـ جنود ورجال إطفاء، والنساء ـ منظمات طبيات. أعطوا بدلات عمل، وجزمات، وحقائب طبيّة، وكيس من الشاش، وبعض الأدوية. وكيف لا! الشعب السوفييتي يجب أن يلاقي الأعداء بكرامة. الخرائط السرّية، وخطط الإخلاء ـ كل ذلك تم الاحتفاظ به في خزن لا تحترق مختومة بالشمع الأحمر. وحسب هذه المخططات، يجب استنهاض الناس خلال دقائق معدودة ونقلهم إلى الغابة، ووضعهم في منطقة آمنة... وتدوّي صفارات الإنذار... انتباه! حرب...

سلّموا كؤوس جوائز، ورايات ووكانت مأدبة في الخيم. شرب الرجال نخب النصر القادم! وطبعاً بصحّة النساء!

منذ فترة قصيرة... إنّها الآن... أعلنوا في المدينة حالة طوارئ. انتباهٌ الدفاع المدني! كان ذلك منذ أسبوع... عند الناس ـ خوف، لكنّه خوف آخر. ليس الأمريكان من هجم، ولا الألمان، لكن ماذا هناك ـ في تشرنوبل؟ أيكون من جديد؟.

عام ستة وثمانين... من نحن؟ كيف كنّا عندما حلّت علينا هذه

الصيغة التكنولوجية لنهاية العالم؟ أنا؟ نحن؟ هذه الفئة المثقفة المحليّة، لدينا تجمّعنا الخاص بنا. عشنا حياة منفصلة، ابتعدنا عن كل شيء، من حولنا. لاحتجاجنا شكله. كانت لدينا قوانيننا: لم نقرأ صحيفة "برافدا"، لكننا تناقلنا مجلة "أوغونيوك" من يد إلى يد. إنّ ذلك ذريعة فقط لنرتاح، واستمتعنا بذلك. قرأنا الاصدار الذاتي، الذي وصلنا في النهاية، إلى مكاننا القصي. وقرأنا سولجينيتسين، وشالاموف... فينيشكا يروفييفا... زرنا بعضنا بعضاً، وأحاديث لانهائية في المطبخ. أعادنا الحنين والشوق إلى أشياء ـ ما. أية أشياء؟ يعيش الممثلون في مكان ـ ما، والنجوم السينمائية... أنا سأكون كارتين دينيف... ألبس عباءة غبية، أصفف شعري بطريقة غير عادية... شوق إلى الحرية... وهذا عالم مجهول... عالم غريب... كصيغة للحرية... لكن ذلك كان لعبة أيضاً. الهروب من الواقع. أحد أفراد تجمعنا سقط، أدمن الخمر، وآخر انتسب إلى الحزب، ليزحف على السلّم الوظيفي. لم يصدق أحد بأن جدار الكريملين هذا يمكن كسره. جربوا. وها هو يتهدم... ليس في حياتنا، بالضبط. وما دام الأمر على هذا النحو، لم يعد يهمني ماذا يحصل عندكم، سنعيش هنا... في عالمنا الخيالي...

تشرنوبل... في البداية كان رد الفعل نفسه. وما علاقتنا نحن؟ دع السلطة تقلق... هو عندهم ـ تشرنوبل... وهذا بعيد. حتى أننا لم ننظر إلى الخريطة. لا يهمنا. لم نعد بحاجة إلى الحقيقة... لكن عندما ظهرت ملصقات على زجاجات الحليب: "حليب للأطفال" و" حليب للكبار"... حينها بدأنا نشعر، شيءٌ ـ ما يقترب... نعم، أنا لست عضواً في الحزب، لكني سوفييتي في جميع الأحوال. ظهر الخوف: "وكأن أوراق الفجل في هذا العام، مثل أوراق الشوندر؟"، لكن نشغل التلفزيون في المساء: "لا تعيروا اهتماماً للتحريض". وتذوب كل

الشكوك... ومظاهرة الأول من أيار؟ لم يجبرنا أحد على الذهاب، لم يجبرني على سبيل المثال أحد. كان لدينا خيار. لكن لم نختره. لا أذكر ما يشبه مظاهرة الأول من أيار المرحة، من حيث الأعداد الكبيرة التي شاركت، كما في هذا العام. كان التوتر يخيّم، ورغبنا، طبعاً أن ننظم إلى القطيع... والشعور بمرافق الآخرين أننا مع الجميع. رغبت في أن أشتم أحداً ـ ما... الإدارة... والحكومة... والشيوعيين... والآن أفكر... أبحث ـ أبحث عن نقطة الانقطاع... أين انقطعت؟ الانقطاع في البداية نفسها... في انعدام حريتنا... أعلى حرية التفكير: "هل يمكن أكل الفجل أم لا؟" انعدام الحرية في داخلنا...

عملت في مصنع هندسي "خيمفولوكنو"، وكان هناك مجموعة من الاختصاصيين الألمان. ركّبوا معدات جديدة. وشاهدت كيف يتصرف الناس الآخرون، والشعب الآخر... ومن عالم آخر... عندما عرفوا عن الحادثة، طلبوا مباشرة، حضور الأطباء، وإعطاءهم أجهزة قياس الأشعة، ومراقبة الغذاء. لقد استمعوا إلى محطاتهم الإذاعية الألمانية، عرفوا، كيفية التصرف. طبعاً لم يعطوهم أي شيء. حينها جهّزوا أمتعتهم وعزموا على الرحيل. وطالبوا: اشتروا لنا التذاكر! أرسلونا إلى البيت! سنسافر، لأنكم غير قادرين على تأمين حمايتنا. أضربوا، أرسلوا برقيات إلى حكومتهم... وإلى الرئيس... صارعوا لأجل زوجاتهم وأطفالهم (لقد عاشوا عندنا مع أسرهم). هم ناضلوا من أجل حياتهم! ونحن؟ كيف تصرفنا نحن؟ آه، من هؤلاء الألمان ـ هيستيريون! جبناء! يقيسون الإشعاعات في الحساء، وفي الكفتا... لم يخرجوا إلى الشارع إلاّ عند الضرورة... لهو! وهاهم رجالنا ـ إنّهم رجال! رجال روس! يائسون! يصاعون المفاعل! لا يخافون على جلدهم! يصعدون على السقف الذائب بأيدي عارية، وقفازات مطاطية (شاهدنا ذلك في التلفزيون)!

وأطفالنا يسيرون وهم يحملون الرايات إلى المظاهرة! والمحاربون القدماء... الحرس القديم! (تفكر) .لكن هذا أيضاً نوع من البربرية ـ انعدام الخوف على النفس... إننا دائماً نقول "نحن" وليس" أنا" : "نحن نستعرض البطولة السوفيتية" ، "نحن معرض الطابع السوفييتي". لكل العالم! لكن هذه ـ أنا! لا أريد أن أموت... أنا أخاف...

إنّ متابعة نفسك ومراقبة أحاسيسك شيء يثير الاهتمام. كيف تغيّرت. وتحليل ذلك. لاحظت على نفسي منذ زمن، بأنني أصبحت أكثر اهتماماً بالعالم من حولنا. حول نفسي وداخل نفسي. الأمرُ يتم تلقائياً بعد تشرنوبل. أخذنا نتعلم أن نقول "أنا"... أنا لا أريد أن أموت! أنا أخاف... وحينها؟ أشغِّل التلفزيون بصوت أعلى: يهدون الراية الحمراء للحلاّبات، اللواتي ربحن في المباريات الاشتركية. لكن هذا عندنا؟ في ضواحي موغيلوف؟ في القرية التي وقعت في مركزها بقعة تسيزيوم؟ وها هم على وشك نقل الناس إلى مكان آخر... وها هو ـ ها هو... صوت المذيع: "إنّ الناس تعمل بتفان، مهما كانت الظروف"، "معجزات الشجاعة والبطولة". ولو كان طوفان! خطوة ثورية! نعم، نعم أنا لست عضواً في الحزب، ولكنني إنسان سوفييتي. "أيّها الرفاق، لا تستجيبوا للاستفزازت!" ـ التلفزيون يعمل ليل نهار. والشكوك تذوب...

(اتصال هاتفي، ونعود للحديث بعد نصف ساعة).

يثير اهتمامي كل إنسان جديد. وكل من يفكر بذلك...

ينتظرنا في الأمام فهم تشرنوبل، كفلسفة. حكومتان يفصلهما شريط شائك: إحداهما ـ المنطقة نفسها، الثانية ـ الباقي كلّه. تتدلّى على الأعمدة المتعفّنة حول المنطقة، كما على الصلبان قيود بيضاء... هذه

هي عاداتنا... الناس تأتي إلى هنا، كما إلى المقبرة... العالم بعد التكنولوجيا... الزمن يعود إلى الوراء... يدفن هنا ليس البيت فقط، وإنّما عصر كامل. عصر الإيمان! بالعلم! بفكرة العدالة الاجتماعية. الإمبراطورية العظمى تفككت قطبةً فقطبة. تهدّمت. بداية ـ أفغانستان، ومن ثم ـ تشرنوبل. وعندما تفتت الإمبراطورية بقينا لوحدنا. أخاف الافصاح، لكن نحن... نحن نحب تشرنوبل. أحببناه. إنّه أيضاً الفكرة التي وجدناها... معنى معاناتنا. كما الحرب. عرف العالم، عنّا نحن البيلاروسيين، بعد تشرنوبل. لقد كان نافذة إلى أوروبا. ونحن في الوقت نفسه ضحاياه، وكهنته. مخيف النطق بذلك... لقد أدركت الأمر منذ فترة قصيرة...

في المنطقة نفسها... هناك حتى الأصوات مختلفة... تدخل إلى البيت... الإحساس، كما إزاء الجميلة النائمة. إذا لم تُسرق بعد: الصور، والحاجيات، والأثاث... يجب أن يكون الناس في مكان ـ ما قريب. أحياناً نجدهم... إنّهم لا يتكلمون عن تشرنوبل، بل عن الكذب الذي مورِسَ عليهم. ما يقلقهم: هل سيستلمون كل ما هو مخصص لهم، أم هل سيستلّم الآخرون أكثر منهم؟ يوجد شعور عند شعبنا طوال الوقت، بأنهم يكذبون عليه. في كل مراحل الطريق الطويل. فمن جهة ـ العدميّة، الرفض، ومن جهة أخرى ـ القدرية. لا يثقون بالسلطة، ولا يثقون بالعلماء والأطباء، ولكنّهم هم أنفسهم لا يبادرون لفعل أي شيء. غير مخطئين وغير مشاركين. لقد وجد في المعاناة نفسها المعنى والتبرير، وكل ما تبقّى وكأن لا أهمية له. لوحات ـ على طول الطريق "إشعاعات مرتفعة"... الأرض تُحرَثُ... ثلاثون كيوري... خمسون... سائقو الجرارت يجلسون في قمرات قيادة مكشوفة (لقد مرّت عشر سنوات، ولكن لا توجد حتى الآن جرارات لها كابينات مقفلة)، تتنفّس

غباراً مشعّاً... مرّت عشر سنوات! من نكون نحن؟ نعيش على أرض ملوّثة، ونحرث، ونزرع. ننجب الأطفال. حينها ما هو معنى معاناتنا؟ لكن لماذا المعاناة؟ لماذا هي وفيرة؟ نتجادل كثيراً حول ذلك مع أصدقائنا. وغالباً ما نناقش الأوضاع. لأنّ المنطقة ـ ليست بيري وكيوري، وميكررورينجين. بل هي ـ الشعب... لقد "ساعد" تشرنوبل النظام الذي يموت... حالة طارئة من جديد... وتوزيع. سلّة غذائية. غرسوا في أدمغتنا، كما من قبل: "لو لم تحصل الحرب"، وهكذا الآن، ظهرت إمكانية، إلقاء كل وزر على تشرنوبل. "لو لم يكن تشرنوبل".

تشرنوبل ـ أصبح تاريخاً. لكنه عملي أيضاً... والعيش... أنا أتجوّل... أنظر... كانت القرية البيلاروسية أبويّة. البيت البيلاروسي. من دون تواليت ومياه دافئة، لكن مع أيقونة، وبئر خشبيّة، مُصنّع يدوياً، وسرائر. وكرم الضيافة. مررنا بأحد هذه البيوت لنشرب ماء، قدمته لنا ربة البيت في إناء قديم، قديم مثل ربة البيت نفسها، تمسكه من مقبضهِ وتناولني إيّاه: "هذا لك للذكرى عن فناء بيتي". كانت هناك غابة، وأرض. وتم الحفاظ على الجماعة وقطع من الحرية: الأرض بجانب البيت، والعزبة، وبقرتها. إخذوا ينقلونهم من تشرنوبل إلى "أوروبا" ـ إلى قرى وفق النماذج الأوروبية. يمكن بناء بيت أفضل، ومريح أكثر، لكن لا يمكن بناء هذا العالم الضخم في مكان جديد، هذا العالم الذي كانوا مرتبطين به. الحبل السريّ! ضربة قويّة جداً لنفسية الإنسان. انقطاع التقاليد، وكل ثقافة القرون. وعندما تقترب من القرى الجديدة، تبدو لك، كالسراب عند الأفق. ملونة. زرقاء سماوية، وزقاء، وصفراء ـ حمراء. وأسماؤها ـ مساكن أيار (مايو)، الشمسية. والبيوت الأوروبية مريحة أكثر بكثير، من البيوت الريفية. إنّها المستقبل الجاهز. لكن لا

يجب أن تنزل إلى المستقبل بالمظلة... تحوّل الناس إلى أثيوبيين... يجلسون على الأرض وينتظرون، متى ستصل الطائرة، ويصل الباص فيحضرون لهم المساعدات الإنسانية. وبدل أن يفرحوا بحظهم: أنا استطعت الإفلات من الجحيم، وأملك بيتاً، وأرضاً نظيفة ويجب عليّ انقاذ أطفالي، الذين دخل تشرنوبل إلى دمهم وجيناتهم. بدل ذلك ينتظرون المعجزة... يذهبون إلى الكنيسة. تعرفون ماذا يطلبون من الله؟ الشيء نفسه ـ المعجزة... ليس أن يعطيهم الصحة والقوة فيحققون هدفهم بأنفسهم. لا. اعتادوا أن يطلبوا... أحيانا من الخارج، وأحيانا من السماء...

يعيشون في هذه البيوت الأوروبية، كما يعيشون في الحجز. إنّها أماكن تتضعضع وتتهلهل. يعيش هناك، ليس الإنسان الحر. بل المحكوم عليه. يعيش في غضب وخوف، لا يستطيع ضرب مسمار. يريد الشيوعية. ينتظر... المنطقة بحاجة إلى الشيوعية... يصوّت في كل الإنتخابات لليد القوية، يحنّ إلى النظام الستاليني، العسكري. بالنسبة لهم هذا النظام ـ يوازي العدالة. يعيشون هناك في ظل وضع عسكري: حواجز شرطة، الناس بلباس عسكري، نظام دخول على البطاقة. موظفون، يوزعون المساعدات الإنسانية. مكتوب على العلب باللغة الألمانية، وبالروسية: "يمنع تبديلها. يمنع بيعها". كلام فارغ، يبيعونها بالقرب من المكان. وفي أي كوشك تجاريّ...

ومن جديد كلعبة... استعراض إعلانيّ.. أنقل قافلة مساعدات إنسانية. أناس غرباء... وأجانب... يأتون إلينا، باسم المسيح، وباسم غيره يأتون. في برك الماء، وفي الطين، يرتدون ستر مبطنة وأحذية بالية، تقف قبيلتي... وفي جزمات من الكاوتشوك... أقرأ في عيونهم الكلام الآتي: "لسنا بحاجة إلى أي شيء! سيسرقونه على كل حال!".

لكن بالقرب من هنا... رغبة في الاستيلاء على كرتونة، وعلى صندوق، وعلى أي شيء أجنبي. أصبحنا نعرف أية جدّة تعيش وأين.. كما في المحميّة... قرف، ورغبة جنونيّة... إهانة! أقول فجأة: "سنريكم الآن! سنجد شيئاً! لن تصادفوه في أفريقيا. لا يوجد في العالم مثل ذلك! مئتي كيوري ـ ثلاثمئة...". لاحظت، كيف تتغيّر الجدات أنفسهنّ، منهنّ من أصبحن "نجمات سينمائيات". لقد حفظن مونولوجات، وتُذرَفُ الدموعُ في الأماكن التي تحتاج لذلك. عندما وصل الأجانب الأوائل إلى المنطقة، كنَّ صامتات، بكين فقط. الآن تعلّمن الكلام. ربما علكة للأطفال، كرتونة ثياب لا لزوم لها... ممكن... هذا إلى جانب فلسفة عميقة، وعلاقة هنا خاصة مع الموت، ومع الزمن. وهم لا يتركون بيوتهم، ومقابر أقرباهم، مقابل شوكولا ألمانية ـ ما... أو علكة...

نعود... أطلعهم: "كم هي جميلة هذه الأرض!" الشمس انخفضت أسفل ـ أسفل، وأنارت الغابة، والأرض. في وداعنا. يجيب واحد من مجموعة الألمان الذين يتحدثون الروسية: "نعم، جميلة، لكنّها ملوّثة". يحمل في يده ـ جهاز قياس أشعة.

وأدرك، بأن هذا الغروب ثمين بالنسبة لي فقط. إنّها ـ أرضي".

ناتاليا أرسينيفنا روسلوفا،

رئيس اللجنة النسائية في موغيليف

"أطفال تشرنوبل"

جوقة الأطفال

أليوشا بيلسكس ـ ٩ سنوات، أنيا بوغوش ـ ١٠ سنوات، ناتاشا دفوريتسكايا ـ ١٦ سنة، لينا جودرو ـ ١٥ سنة، يورا جوك ـ ١٥ سنة، أوليا زفوناك ـ ١٠ سنوات، سنيجانا زينيفيتش ـ ١٦ سنة، إيرا كودرياتشيفا ـ ١٤ سنة، يوليا كاسكو ـ ١١ سنة، فانيا كوفاروف ـ ١٢ سنة، فاديم كراسنوسولنيشكو ـ ٩ سنوات، فاسيا موكوليتش ـ ١٥ سنة، أنتون ناشيفانكين ـ ١٤ سنة، مارات تامارتسوف ١٦ سنة، يوليل تاراسكينا ١٥ سنة، كاتيا شيفتشوك ١٤ سنة، بوريس شكيرمانكوف ١٦ سنة.

"رقدت في المستشفى...

كنت أتألم كثيراً... طلبت من ماما: "ماموشكا، لا أستطيع التحمّل. الأفضل أن تقتلوني!"

"غيمة سوداء... ومطر غزير...

بُقعُ الماء أصبحت صفراء... خضراء... وكأن دهاناً قد سكب فيها... قالوا هذا غبار من الزهور... نحن لم نلعب في هذه البُقع، نظرنا إليها فقط. أقفلت الجدة علينا في القبو. وركعت هي على ركبتيها وصلّت. وعلمتنا: "صلّوا!! هذه ـ هي نهاية العالم. عقوبة الله على خطايانا".

أخي كان عمره ثمانية أعوام، وعمري ستة. أخذنا نتذكر ذنوبنا: هو كان قد كسر زجاجة مربّى... وأنا لم أعترف لأمي بأنني عَلقتُ بالسياج ومزَّقت فستاني... أخفيته في الخزانة...

غالباً ما تلبس أمي ثياباً سوداء. ومنديلاً أسود. غالباً ما يدفنون في شارعنا أحداً ـ ما... يبكون. أسمع الموسيقى ـ أركض إلى البيت أصلّي، وأقرأ "الربانية" (الأبوية).

أصلّي لماما وبابا...".

"أتى من أجلنا جنودٌ في السيارات. فكرت أن الحرب قد بدأت...

عُلّقت على أكتاف الجنود رشاشات حقيقية. قالوا كلمات غير مفهومة: "إبطال مفعول الإشعاعات"، "نظائر مشعّة"... رأيت في الطريق حلماً: حصل انفجار! وأنا بقيت حيّاً! لا يوجد بيت، والداي غير موجودين، ولا يوجد حتى عصافير وغربان. استيقظت مرعوباً، قفزت... فتحت الستائر... نظرتُ من النافذة: هل يبدو في السماء ذلك الفطر الكابوسي؟

أذكر كيف كان الجندي يركض خلف القطة... لقد عمل الجهاز على القطة، مثل الرشاش: هيّا، هيّا. ركض الصبي والبنت ـ خلف القطة... إنّها قطتهم... الصبي لم يقل شيئاً، أمّا البنت فصرخت: "لن أعطيك إيّاها!!" ركضت وهي تصرخ: "عزيزتي اهربي! اهربي عزيزتي!".

وكان العسكري ـ يحمل كيساً بلاستيكياً كبيراً..".

"أقفلنا البيت على فأري الهامستر. الأبيض. وتركنا له طعاماً لمدة يومين. وغادرنا إلى الأبد"...

"لأوّل مرّة أركب في القطار...

القطار ممتلئ بالأطفال، والصغار يبكون بكاءً شديداً، لوّثوا أنفسهم. مربية واحدة لعشرين طفلاً، والجميع يبكي: "ماما! أين ماما؟ أريد الذهاب إلى البيت!" عمري ـ عشر سنوات، ساعدت مع فتيات مثلي في تهدئة الأطفال. النساءُ لقيننا على أرصفة المحطات، وعمّدوا القطار، وأحضروا حلويات بيتية، وحليباً، وبطاطا ساخنة...

نقلونا إلى منطقة لينينغراد. هناك وعندما كنّا نقترب من المحطات، كانت الناس ترسمُ إشارة الصليب، نظروا إلينا من بعيد. خافوا من قطارنا، غسلوا القطار طويلا في كل محطة. وعندما خرجنا في إحدى المحطات وركضنا إلى البوفيه، لم يسمحوا لأحد بعدنا أن يدخل، قالت عاملة البوفيه لشخصٍ على الهاتف: "هنا أطفال تشرنوبل يأكلون البوظة، وعندما ينصرفون، سنغسل الأرض بالكلور، وسنغلي الكؤوس". نحن سمعنا ذلك...

استقبلنا الأطباء. كانوا يرتدون كمامات ضد الغاز وقفازات مطاطية... أخذوا منّا الثياب، وكل الأشياء، وحتى الظروف الورقية، وأقلام الرصاص والأقلام الأخرى، وضعوها في أكياس بلاستيكية ودفنوها في الغابة.

لقد خفنا كثيراً... انتظرنا طويلاً، لنبدأ نموت...".

"ماما وبابا تبادلا القبل، فولدت أنا.

اعتقدت من قبل، بأنني لن أموت أبداً. والآن أعرف، بأنني سأموت. رقد صبيّ معي في المستشفى... فاديك كورينكوف... رسم عصافير لي. وبيوتاً. مات. ليس الموت مخيفاً. ستنام طويلاً طويلاً ولن تستيقظ. لقد

قال لي فاديك، إنّه عندما يموت، سيعيش طويلاً في مكان آخر. لقد قال له أحد الصبيان الكبار ذلك. لم يخفْ.

لقد حلمت، إنني قد متُّ. وسمعت في الحلم، كيف بكت أمّي. واستيقظت...".

"لقد غادرنا...

أريد أن أحدثكم، كيف ودَّعتْ جدتي بيتنا. طلبت من والدي أن يحضر لها كيس القمح من المستودع ونثرته في الحديقة: "إلى طيور الله". جمعت البيض في السلة ووزعته في الفناء: "إلى قطنا والكلب". وقطّعت لهما شحم الخنزير. نفّضت ما في الأكياس الأخرى من بذور في الحديقة: الجزر، واليقطين، والخيار، والبصل... وورود مختلفة: "دعها تعش في الأرض". ثم انحنت للبيت... وانحنت للمستودع... جالت وانحنت لكل لشجرة تفاح...

أمّا جدي، فقد رفع قبعته، عندما غادرنا البيت...".

"لقد كنت صغيراً...

ستة، لا، ثمانية أعوام أعتقد. بالضبط، ثمانية. حسبتها الآن. أتذكر الكثير من الخوف. خفت أن ألعب حافياً على العشب. أخافتني ماما بأني سأموت لو فعلت. السباحة.. الغطس ـ خفت من كل هذا. ومن قطف الجوز في الغابة. ومن أن أمسك جندباً بيدي... فهو يزحف على الأرض، والأرض ملوّثة. النمل، والفراشات، والنحل الطنّان ـ كلّها ملوّثة. تتذكر ماما، بأنّهم نصحوها في الصيدلية أن تعطيني ملعقة شاي من اليود ثلاث مرات في اليوم. لكنها خافت...

انتظرنا الربيع: هل يعقل أن ينمو البابونج من جديد؟ كما في السابق؟ الجميع تحدّث أن العالم يتغيّر... وفي الراديو والتلفزيون... البابونج سيتحول... لأيّ شيء سيتحوّل؟ إلى شيء ما آخر... وللثعالب سينمو... ذيلٌ آخر، وستولد القنافذ بدون إبر، الورد الجوري من دون أوراق للوردة. سيظهر أناس يشبهون الكائنات الخرافية التي تشبه البشر، ستكون بشرتم صفراء، من دون شعر، ومن دون رموش. عينان وحدهما. والغروب سيصبح لونه ليس أحمر، بل أخضر.

لقد كنت صغيراً... عمري ثمانية أعوام...

الربيع... نبتت أوراق كالعادة من الأحواض في الربيع، خضراء. وأزهر شجر التفاح. أبيض. ورائحة الكرز. وتفتح البابونج. كانت كلها كالعادة. حينها ركضنا إلى النهر حيث صيادو الأسماك: للسمكة كما في السابق رأس وذيل؟ والأنواع الأخرى من السمك أيضا؟ فحصنا الأعشاش اليدوية الخشبية: حطّ زرزور؟ سيكون له أفراخ؟

كان لدينا أعمال كثيرة... لقد فحصنا وتفقّدنا كل شيء...".

"كان الكبار يتهامسون... وأنا سمعت...

لا يوجد في قريتنا لا صبيان ولا فتيات ـ من سنة ميلادي (ستة وثمانين). أنا وحدي. لم يسمح الأطباء... أخافوا ماما... لا أعرف بماذا... لكن ماما هربت من المستشفى واختبأت عند جدتي. وها أنا... ولدت... يعني ولدت. كل ذلك استمعت إليه...

لا يوجد لدي لا أخت ولا أخ. وأنا أرغب كثيراً.. من أين يأتون بالأطفال؟ لكنت ذهبت وبحثت عن أخ.

أجابتني جدتي أجوبة مختلفة:

ـ اللقلق يجلب الأطفال بمنقاره. ويحدث، بأن الفتاة تنمو من الأرض. والصبيان يجدونهم في الثمار، إذا رمتها الطيور.

ماما تقول كلاماً مختلفاً:

ـ أنتَ سقطت لي من السماء.

ـ كيف؟

ـ هطل المطر، وأنت سقطت في يديَّ مباشرة.

عمتي، أنت كاتبة؟ كيف يمكن أن لا أكون أنا؟ أين يمكن أن أكون الآن؟ في مكان ـ ما عالياً في السماء؟ ويمكن، على كوكب آخر...".

"كنت أحب الذهاب إلى المعارض من قبل... أنظر إلى اللوحات...

أحضروا إلى مدينتنا معرضاً عن تشرنوبل... يركض في الغابة حصان، كان له أرجل كثيرة.. ثمان ـ عشر، عجلٌ بثلاثة رؤوس، تجلس في القفص أرانب صلعاء، وكأنّها بلاستيكيّة... الناس تتجول في المرج بثياب رجال الفضاء... الشجر أعلى من الكنائس، والورود كالشجر... لم أشاهد المعرض إلى نهايته. واجهت لوحة: صبي يمد يده... ربما إلى نبتة هندباء، أو إلى الشمس، وعند هذا الصبي بدل الأنف... جذع. رغبت في البكاء، والصراخ: "لا نحتاج مثل هذه المعارض! لا تنقلوا إلينا! وهكذا يتكلّم الجميع من حولنا عن الموت. وعن الطفرات. لا أريد!!". حضر الناس إلى المعرض في اليوم الأول، لكن لم يحضر أحد فيما بعد. لقد كتبوا في الجرائد إن الناس حضرت جموعاً إلى هذا المعرض في موسكو ولينينغراد. أمّا عندنا ـ الصالة فارغة.

سافرت إلى النمسا للعلاج، هناك أناس يمكنهم أن يعلّقوا في بيوتهم

لوحة: صبي له جذع... أو بدل الأيدي عنده زعانف... وينظرون كل يوم إليها، كي لا ينسون أولئك الذين يعانون. لكن عندما تعيش هنا... فليس هذا خيالياً وليس فنّاً، بل هي الحياة... وإذا كان الخيار لي، الأفضل أن أعلّق في الغرفة منظراً طبيعياً جميلاً، كي يكون كل شيء على ما يرام: شجر، وطيور. شيء عادي. ومرح...

أريد التفكير بالجمال...".

"في العام الأول بعد الحادثة...

اختفت العصافير من قريتنا... تناثرت ميتة في كل مكان: في الحدائق، على الإسفلت. جمعوها ونقلوها في حاويات مع أوراق الشجر. لم يسمحوا في ذلك العام بحرق الأوراق، لأنّها كانت مشعّة. لقد دفنوها.

ظهرت العصافير بعد عامين. فسررنا، وصرخنا ننادي بعضنا بعضاً: "شاهدت يوم أمس العصافير... لقد عادت...".

اختفت جنادب أيّار (مايو). لم تعد حتى الآن. قد تعود بعد مئة أو ألف عام، كما يقول معلّمنا. لن أستطيع أن أراها... لأنّ عمري تسع سنوات...

فكيف جدتي؟ إنّها عجوز...".

"الأول من أيلول (سبتمبر)... الاجتماع الصباحي في المدرسة...

وليس هناك بوكيه ورد واحد. يوجد كما عرفنا، إشعاعات كثيرة في الورد. قبيل بداية العام الدراسي، عمل في المدرسة ليس الرسامون

والنجارون، كما من قبل، بل الجنود. قصّوا الورود، أزاحوا ونقلوا التراب في سيارات لها مقطورات، إلى مكان ـ ما. قطعوا شجر حديقة كبيرة وقديمة. والزيزفون القديم. الجدة ناديا... كانوا دائماً يدعونها إلى البيت، عندما يموت أحد. لإجراء الطقوس، وقراءة الصلوات: "كي لا تضربك الصاعقة... ولا يحل بك الجفاف... ولا يغمرك البحر... ـ عندما رأت ما فعلوا بكت على الشجر المسجّى كالتوابيت السود، كما تبكي على الميت ـ وأنت يا سنديانتي.. ويا تفاحتي...".

أخلوا القرية منا جميعاً بعد عام، ودفنوها. والدي ـ سائق، ذهب إلى المنطقة وحدّث. يحفرون في البداية حفرة... عمقها ثلاثة أمتار... ثم يأتي رجال الإطفاء... يغسلون بالخراطيم البيت من الأعلى حتى القواعد، كي لا يتصاعد الغبار الإشعاعي. يغسلون النوافذ، والسقف، والعتبات. ثم ترفعُ الرافعة البيت من مكانه وتضعه في الحفرة... تتناثر الدمى، والكتب، والزجاجات... الحفّارة تحفر... يطمرون كل شيء بالرمل، ويحشونه بالصلصال. أصبح هناك بدل القرية ـ أرض مستوية. وهناك يرقد بيتنا. والمدرسة، والمجلس الزراعي.. وهناك معشبتي واثنان من ألبومات الطوابع، حلمت بأخذهما.

كان لديّ دراجة هوائية... اشتروها لي لتوّهم...".

"عمري ـ اثنا عشر عاماً...

أجلس في البيت طوال الوقت، أنا ـ معاقة. ساعي بريد يحضر إلى بيتنا المعاش التقاعدي لي ولجدي. وعندما عرفت الفتيات في الصف، أني مريضة بسرطان الدم، خفن الجلوس معي. ولمسي. وأنا نظرت إلى

يدي... إلى حقيبتي المدرسية ودفاتري... لم يتغيّر شيء. لماذا يخافون منّي؟

قال الأطباء: إني مرضت لأن أبي عمل في تشرنوبل. وبعد ذلك ولدت أنا.

أنا أحب بابا...".

"لم أرَفي حياتي هذا العدد من الجنود...

غسل الجنود الشجر، والبيوت، والأسقف... غسلوا أبقار الكولخوز... فكّرت: "مسكينة الوحوش في الغابة!" لا يغسلها أحد. سيموت الجميع. والغابة لا أحد يغسلها. هي ستموت أيضاً".

قالت المعلمة: "ارسموا الإشعاعات". أنا رسمت، كيف يهطل المطر الأصفر... ويجري النهر الأحمر...".

"لقد أحببت التقنيّة منذ الطفولة... وكان حلمي... أكبرُ ـ وأصبحُ تقنياً مثل أبي، كان يعشق التقنيّة. كنّا معاً طوال الوقت نصمم شيئاً ـ ما. ونبني.

سافر بابا... لم أسمع، عندما استعد للسفر. كنت نائماً. رأيت في الصباح أمّي باكية: "بابا سافر ـ إلى تشرنوبل".

انتظرنا بابا، وكأنّه من الحرب...

عاد وبدأ يذهب إلى المصنع من جديد. لم يحدّثنا بشيء. وأنا افتخرت أمام الجميع، بأن والدي عاد من تشرنوبل، وهو ـ من العاملين على إزالة آثار الكارثة، وهؤلاء هم أبطال! حسدني الصبيان.

بعد عام مَرِضَ والدي...

كنا نمشي على رصيف المستشفى... كان ذلك بعد العملية الجراحية الثانية... ولأوّل مرّة حدّثني عن تشرنوبل...

عملوا ليس بعيداً عن المفاعل. بسلم - وهدوء، تذكر، بشكل جميل. وكان في ذلك الوقت يحصل شيءٌ ما: الحدائق تزهر. لكن من أجل من؟ الناس خرجت من قراها. سافروا من خلال مدينة بريبيات: الثياب البيضاء منشورة على الشرفات، وأحواض الورد... تقف تحت الشجيرة دراجة هوائية عليها حقيبة مطاطية لساعي البريد، مملوءة بالصحف والرسائل. وعليها عش طيور. كما شاهدتُ ذلك في السينما...

كانوا "ينظفون" الأشياء، التي يجب رميها. أزالوا التربة الملوّثة بالتسيزيوم والسترنتسيوم. وفي اليوم التالي - ارتفع سهم المؤشر من جديد.

"شدوا على أيدينا عند الوداع وأعطونا شهادات الشكر على التفاني في العمل"... تذكر والدي وتذكر. قال لنا في آخر مرّة يعود فيها من المستشفى: "إذا بقيت حيّاً، لا كيمياء، ولا فيزياء. سأترك المصنع... وأعمل راعياً فقط...".

بقينا أنا وأمي وحدنا. لن أذهب إلى المعهد التقني، مثلما تحلم أمّي. في ذلك المعهد درس أبي...".

"لديّ أخ صغير...

يحب أن يلعب لعبة "تشرنوبل". يبني ملجأ، ويسكب الرمل على المفاعل... أو يرتدي فزاعة، ويركض خلف الجميع لإخافتهم: "أو - وو! - إشعاعات! أو - وو! - إشعاعات!".

لم يكن موجوداً، عندما حصل ذلك".

"أنا أطير في الليالي...

أطير وسط نور ساطع... هذا ليس واقعياً، ولا عالماً آخر. هو هذا، وذاك، وثالث. أعرف في الحلم أنني أستطيع الدخول إلى ذلك العالم، والمكوث فيه... أو البقاء هناك؟ لغتي خارقة، تنفسي غير طبيعي، لكن لست بحاجة هناك لأن أتكلّم إلى أحد. حالة مشابهة حصلت لي في يوم من الأيام. لكن ـ متى؟ لا أذكر... تنفجر داخلي رغبة في السيلان والاندغام بـ.. لكن لا أرى أحداً... الضوء فقط... إحساس وكأنني أستطيع أن ألمس... ما هذا ـ إنني ضخم! أنا مع الجميع، لكني جانباً عنهم، منفصل. لوحدي. لقد شاهدت في طفولتي المبكرة عدداً من الصور الملوّنة هكذا، كما أراها الآن. في هذا الحلم... تحصل لحظة، عندما لا أستطيع أن أفكر بأمر آخر. فقط... وفجأة تُفتَحُ نافذة... اندفاعة ريح غير متوقعة. ما هذا؟ ومن أين؟ يحدث اتصال بيني وبين أحد ـ ما... تواصل... لكن كم تعيقني جدران المستشفى الرمادية. إنني ما زلت ضعيفاً... ضوء وأغطي رأسي، لأنه يعيقني أن أرى... تمددت، تمددت... وأخذت أنظر إلى الأعلى...

وأتت أمّي. علقت يوم أمس في غرفة المستشفى أيقونة. تمس شيئاً ـ ما في الزاوية، تجلس على ركبتيها. جميعهم صامتون: البروفيسور، والطبيب، والممرضات. يعتقدون أني لا أشك... ولا أعرف أني سأموت قريباً... وأنا أتعلّم الطيران في الليل...

من قال إن الطيران سهل؟

لقد كتبت الشعر ذات يوم... أحببت فتاة، في الصف الخامس... في الصف السابع اكتشفتُ أن هناك موت... شاعري المفضل غارسيا لوركا. قرأت له: "جذرُ الصراخِ المظلمُ". في الليل للشعر رنينٌ مختلف.

بطريقة أخرى... بدأت أتعلّم الطيران... لا تعجبني هذه اللعبة، لكن ما العمل؟

اسم صديقي المفضّل أندريه... أجروا له عمليتين جراحيتين وأسلوه إلى البيت. انتظرَتْهُ بعد نصف عام عملية ثالثة... شنق نفسه بحزامه الخاص... في غرفة الصف الفارغة، عندما خرج الجميع إلى درس التربية البدنيّة. منعه الأطباء من الركض، والقفز، كان أفضل لاعب كرة قدم في المدرسة.. قبل... قبل العملية...

كان لدي هنا الكثير من الأصدقاء... يوليا، وكاتيا، وفاديم، وأوكسانا، وأوليغ... والآن ـ أندريه... لقد قال أندريه: "سنموت، ونصبح عِلماً"، وفكّرت كاتيا: "سنموت، وينسوننا"، وطلبت أوكسانا: "عندما أموت، لا تدفنوني في المقبرة، أخاف المقابر، هناك فقط الموتى والغربان. ادفنوني في الحقل". بكت يوليا قائلة: "سنموت...".

بالنسبة لي الآن السماء حيّة، عندما أنظر إليها... إنّهم هناك...".

صوت إنسان وحيد

"كنت منذ فترة قصيرة سعيدة. لماذا؟ نسيت...

كل شيء بقي في مكان ـ ما في حياة أخرى... أنا لا أفهم... لا عرف، كيف استطعت العيش من جديد. أردت أن أحيا. ها أنا ـ أضحك، أتحدّث. كم اشتقت... لقد كنت مشلولة... أردت أن أتحدث إلى أحدهم، مع أي كان لكن ليس من الناس. أعرّج على الكنيسة، هناك هدوء ـ هدوء، كما في الجبال. هدوء ـ هدوء. هناك يمكن أن تنسى حياتك. وفي الصباح أستيقظ... أبحث بيدي... أين هو؟ وسادته، ورائحته... يلعب عصفور صغير لا أعرفه على عتبة النافذة بمنقار صغير ويوقظني، لم أسمع أبداً من قبل مثل هذا، مثل ذلك الصوت. أين هو؟ لا أستطيع أن أعبّر، لا أتمكّن من نقل كل شيء. لا أدري، كيف بقيت حيّة. تقترب ابنتي مساء: "ماما، لقد حفظت دروسي". وهنا أتذكر بأن لدي أولاد. لكن أين هو؟ "ماما انقطع الزر. أخيطيه". كيف لي أن ألحق به؟ ونلتقي. أغمض عينيَّ وأفكر به، حتى أغفو. يأتيني في الحلم، لكن للحظة وبسرعة. يختفي مباشرة. اسمع حتى خطواته... لكن إلى أين يختفي؟ أين؟ كم كان لا يرغب بالموت. ينظر في النافذة وينظر. إلى السماء... احضر له وسادة وأضعها خلفه، والثانية والثالثة... كي يرتفع عالياً. لقد مات طويلاً... عاماً كاملاً... لم نتستطع الافتراق... (*صمتت طويلاً*).

لا ـ لا، لا تخافوا، أنا لا أبكي... لم أعد أعرف البكاء. أريد التحدث... سيكون صعباً ولا يطاق، في مرة أخرى ـ أريد محادثة نفسي، وإقناعها، بأنني لا أذكر شيئاً. كما هي حال صديقتي. كي لا أصاب بالجنون... هي... زوجانا ماتا في العام نفسه، كانا معاً في تشرنوبل. هي تستعد للزواج، تريد أن تنسى، وتريد أن تغلق ذلك الباب. الباب إلى هناك... خلفه... لا ـ لا، أنا أتفهَّمها. أنا أعرف... يجب البقاء على قيد الحياة... لديها أطفال... نحن وجدنا في مكان ـ ما، حيث لم يكن أحد هناك، وشاهدنا أموراً لم يرها أحد. أصمت ـ أصمت، وذات مرّة في القطار بدأت أحدث أناس مجهولين. لماذا؟ أخاف لوحدي...

سافر إلى تشرنوبل يوم عيد ميلادي... الضيوف ما زالوا يجلسون على المائدة، اعتذر منهم. قبّلني. السيارة كانت تنتظره تحت النافذة. التاسع عشر من تشرين أول (أكتوبر) ألف وتسعمئة وستة وثمانون. يوم ميلادي... هو ـ فني تركيب وتجميع، سافر إلى كل أنحاء الاتحاد السوفييتي وأنا انتظرته. وهكذا مرّت السنوات. لقد عشنا، كما يعيش العشاق ـ ودعوا والتقوا. وحينها الخوف تملّك أمّهاتنا، أمّه وأمي، نحن لم نعرف الخوف. الآن أفكر: لماذا؟ كنّا نعرف إلى أين هو ذاهب؟ لو أخذنا كتاب الفيزياء للصف العاشر من جارنا الصبي، وتصفحناه. لقد كان يسير هناك دون قبعة على رأسه. تساقط شعر الشباب الآخرين بعد عام واحد، أمّا عنده فعلى العكس تماماً، شعره أصبح أكثر كثافة. لم يعد أحدٌ منهم حيّاً، سبعة أشخاص، مات الجميع. شباب... أحدهم وراء الآخر... الأول مات بعد ثلاث سنوات... اعتقدنا أن ذلك مصادفة. قدره. بعد الثاني، والثالث، والرابع... انتظر كل منهم دوره... هكذا عاشوا! زوجي مات آخرهم... عمال تسلق الأبراج الكهربائية ـ

والتركيب... كانوا يطفئون الأنوار في القرى المهجرة، تسلقوا الأعمدة. تجوّلوا في البيوت والشوارع الميّتة. طوال الوقت على ارتفاعات، في الأعلى. طوله حوالي المترين، ووزنه ـ تسعون كيلوغراماً، ـ من يستطيع قتل شخص كهذا؟ لفترة طويلة لم نعرف الخوف... *(ابتسمت فجأة)*.

آه، كم كنت سعيدة! عاد... رأيته... في البيت ـ عيد، دائماً وعند عودته كان في البيت عيد. لدي قميص نوم طويل طويل، وجميل جميل، ارتديته. أنا أحب الثياب الداخلية غالية الثمن، إنّها عندي جيدة، لكن هذا القميص له خصوصيته. احتفالي. من أجل يومنا الأول... والليلة الأولى... لقد عرفت جسده كلّه، بالتفصيل، قبلت كل شيء. حدث أحياناً، أن حلمت وكأنني جزء من جسده، ـ هكذا كنّا لا ننفصل. شعرت بالملل الشديد من دونه، كنت أشعر فيزيائياً بالألم من دونه. عندما كنّا نفترق، أبقى فترة من الزمن تائهة لا أعرف التوجّه ـ أين أنا، وفي أي شارع، وكم الساعة... خرجت من الزمن... لقد عاد مباشرة والعقد اللمفاوية على رقبته، لقد سمعتها بشفاهي، هي ليست كبيرة، لكن سألته: "ستزور الطبيب؟". هدأني: "ستزول". ـ "كيف الوضع هناك في تشرنوبل؟" ـ "عمل عادي". لا تبجح، ولا أي ذعر. خلاصة واحدة: "هناك، كما هنا". في المطعم، حيث أطعمونا، في الطابق الأول: "شوربة الملفوف، والمعلبات، وعلى الطابق الثاني عند القيادة والجنرالات العسكريين ـ فواكه، ونبيذ أحمر، ومياه معدنية. شراشف نظيفة. وكل واحد لديه ـ جهاز قياس. أمّا هم، وللمجموعة كلها، فلم يُعطوهم حتى جهازاً واحداً.

أتذكّر البحر... ذهبنا معاً إليه، تذكرت، بأن البحر كبير، كالسماء. صديقتي مع زوجها... رافقانا... وهي تتذكر: "البحر متسخ. الجميع خاف أن يصاب بمرض الكوليرا". ماذا كتبت الصحف... أنا أتذكر شيئاً

آخر... في الضوء الساطع... أتذكر أن البحر كان في كل مكان، كما هي السماء. أزرق ـ أزرق. وهو إلى جانبي. أنا وُلدت للحب... للحب السعيد... لقد حلمت الفتيات في المدرسة: من سيسجّل في المعهد، ومن سيسافر إلى معسكر البناء الكومسومولي، وأنا أردت الزواج، وأن أحب بقوّة، مثل ناتاشا روستوفا[1]. الحب فقط! لكن لم أستطيع الاعتراف بذلك لأحد، في ذلك الوقت، وهذا ما يجب أن تذكروه، كان الحلم مسموحاً بمعسكر البناء الكومسومولي فقط. هذا ما شجّعوا عليه. الجميع أراد الاندفاع نحو سيبيريا، إلى التايغا المجهولة، تذكرون الأغنية: "إلى الضباب وإلى رائحة التايغا". لم أستطيع التسجيل في المعهد من السنة الأولى، لم أحصل على العلامات اللازمة، ذهبتُ للعمل في محطة الهاتف. وهناك تعرّفت إليه... كنت في المناوبة... وأنا من زوّجته نفسي، لقد طلبت منه: "تزوجني. أنا أحبك كثيراً!". أحببته حباً جمّاً. إنّه شاب جميل... أنا... أنا طرت في السماوات. أنا نفسي طلبت منه: تزوجني". (تبتسم).

أفكر أحيانا فأبحث لنفسي عن الراحة والهدوء: ربما الموت ـ ليس النهاية، وهو تغيّر من حال إلى حال فقط.. يعيش في مكان ـ ما من العالم. في مكان ـ ما قريب؟ أعمل في مكتبة، وأقرأ كثيراً من الكتب، وألتقي أشخاصاً مختلفين. أرغب في الحديث عن الحب. أن أفهم. أبحث عن الراحة. أقرأ في الصحف والكتب... أذهب إلى المسرح، إذا كان الموضوع عن ذلك، عن الموت... فيزيائياً بدونه أتألم، لا أستطيع البقاء وحدي...

لم يرغب في الذهاب إلى الطبيب: "أنا لا أسمع شيئاً. لا يوجد

---

(١) واحدة من شخصيات رواية تولستوي: "الحرب والسلام". (المترجمان).

ألم". والغدد اللمفاوية أصبح حجم الواحدة بحجم البيضة. وضعته بالقوة في السيارة وذهبنا إلى المستشفى. أرسلونا إلى الطبيب المختص بأمراض السرطان. عاينه طبيب، واستدعى آخر: "هنا أيضاً واحد من تشرنوبل". لم يسمحوا له بالخروج إلى البيت. أجروا له عملية جراحية بعد أسبوع: استأصلوا بشكل كامل الغدة الدرقية، وبدلوا الحنجرة بأنابيب ـ ما. نعم... نعم... (*تتوقف*) .نعم... الآن أعرفُ بأن تلك أيضاً ما زالت أوقاتاً سعيدة. يا إلهي! أية أشياء فارغة مارستها: تجولت في المحلات التجارية، اشتريت هدايا للأطباء ـ علب حلوى، وليكيور مستورد. الشوكولا للمستخدمين. وهم أخذوا. أمّا هو فقد سخر منّي قائلاً: "افهمي، إنّهم ـ ليسوا آلهة. والكيمياء والأشعة متوفرة هنا بشكل كاف. يعطونها من دون حلوى". لكنني تنقّلتُ حتى نهاية المدينة طلباً للكاتو "لبن العصفور" أو مقابل عطر فرنسي، ـ كل ذلك، كان يمكن الحصول عليه حينها عن يطرق المعارف، أو من تحت الطاولة. قبيل التوجه إلى البيت... نحن... نحن ذاهبون إلى البيت!، أعطوني حقنة خاصة، علّموني طريقة استخدامها. كان عليّ إطعامه من خلال هذه الحقنة. تعلّمت كل شيء. سلقت له أربع مرات في اليوم طعاماً طازجاً، طازجاً بالضرورة، طحنته بفرامة اللحمة، وفركته على مصفاة ثم عبأته في الحقنة. ودفعت الطعام من خلال أحد الأنابيب، الأكبر منها، وكان يصل إلى المعدة... لقد فقد الإحساس بالرائحة، وتمييزها. أسأله: "لذيذ؟" لا يعرف.

ومع كل ذلك ذهبنا أكثر من مرّة أيضاً إلى السينما. وهناك تبادلنا القبل. تعلّقنا بخيط رفيع، وهُيّأ لنا، بأننا تعلقنا بالحياة من جديد. حاولنا عدم التحدّث عن تشرنوبل. لم نتذكر. موضوع ممنوع... لم أسمح له أن يرد على الهاتف. سحبته من يده. الشباب كانوا يموتون واحداً تلو

الآخر... موضوع ممنوع... أيقظته يوماً في الصباح، وأعطيته الروب، لم يستطيع الوقوف. ولم يستطع التفوّه بكلمة... توقف عن الكلام... عيناه كبرتا أكثر ـ فأكثر... حينها تملكه الخوف... نعم... *(تتوقف من جديد)*. بقي لدينا عام... لقد مات طيلة هذا العام... ازداد تدهور وضعه الصحي يوماً بعد يوم، وقد عرف، بأن زملاءه يموتون... ونحن ما زلنا نعيش مع ذلك... مع هذا الانتظار... يتحدثون عن ـ تشرنوبل، يكتبون ـ تشرنوبل. لكن لا أحد يعرف، ما هو بالضبط... أصبح كل شيء الآن مختلفاً: نولد بطريقة أخرى، ونموت ليس كما في السابق. ليس كما عند الجميع. قد تسألونني، كيف يموتون بعد تشرنوبل؟ الإنسان، الذي أحببته، احببته لدرجة، أنني لم أستطيع أن أحب أكثر، وكأنني ولدته بنفسي، وتحوّل أمام عيني.. إلى وحش غريب... استأصلوا العقد اللمفوية، وهي غير موجودة وحدث خلل في التروية الدموية، وأنفه تحرّك، وتضخم لثلاثة أضعاف، وعيناه أصبحتا مختلفتين ـ تباعدتا باتجاهين مختلفين، وظهر فيهما نور، وتعبير غير معروفين، وكأنّه ليس هو، بل شخص آخر يطل من مكان ـ ما. ثم انغلقت احدى عينيه تماماً... وأنا كل ما أخشاه أن يرى نفسه... أن يتذكر هذا المنظر. لكنّه بدأ يطلب مني، يؤشر بيديه، بأن أحضر المرآة. أهرع إلى المطبخ، وكأنني نسيت شيئاً، لم أسمع، وأفكر بشيء آخر. يومين وأنا أكذب عليه، كتب لي في اليوم الثالث في الدفتر، وبأحرف كبيرة وثلاث إشارات تعجّب: "أعطني المرآة!!!". كان لدينا دفتر وقلم، قلم رصاص، أصبحنا نتواصل بهذه الطريقة، ما عاد يستطيع الكلام، حتى الهمس لم يتمكن من نطقه. خرسٌ تام. هرعت بسرعة إلى المطبخ، أطرق بالصحون. لم أقرأ، ولم أسمع. يكتب لي مرّة أخرى: "أعطني المرآة!!!". ـ مع هذه الإشارات... أحضرت له المرآة، أصغر مرآة. نظر

إلى نفسه، ومسك رأسه بيديه وأخذ يتقلب ويتقلّب على السرير... أنا ـ إلى جانبه، أهدئُه وأقول له... "ما إن تتحسن صحتك قليلاً، حتى نذهب معاً إلى قرية ـ ما مهجورة. نشتري بيتاً ونعيش هناك، إذا لم ترغب البقاء في المدينة، حيث الناس كثر. وسنعيش وحدنا". لم أكذب عليه، لكنت سافرت معه إلى أي مكان، المهم أن يكون هو في وضع أفضل. هو ـ فقط. أنا لم أكذب عليه...

لا أتذكر شيئاً، كنت أرغب لو أكتمه. وكان كل شيء... لقد نظرت بعيداً، حتى إلى ما هو أبعد من الموت... *(تتوقف)*.

كنت قد بلغت السادسة عشرة عندما تعرفت إليه، هو يكبرني بسبع سنوات. التقينا عامين. أحبُ كثيراً منطقة عندنا في مينسك بجانب إدارة البريد، شارع فولودارسكي، هناك وتحت الساعة حدد لي مكان اللقاء. كنت أسكن بجانب معمل كامفولني، ركبت الحافلة الكهربائية رقم خمسة، والتي لا تتوقف قرب إدارة البريد، بل بعدها قليلاً إلى الأمام، عند متجر "ثياب الأطفال". الحافلة سارت قبيل المنعطف ببطء، وهذا ما كنت أريده.. أن أتأخر عن الموعد قليلاً جداً، كي أراه من النافذة وأتنفس الصعداء: "يا له من شاب جميل.. ينتظرني!" لم ألحظ شيئاً، لمدة عامين، لا الشتاء ولا الصيف. اصطحبني إلى الحفلات الموسيقية... إلى حفلات مطربتي المفضلة إيديتا بييخا[1]... لم نتردد إلى ساحات الرقص، لأنه كان لا يجيد الرقص. تبادلنا القبل، القبل فقط... لقد أسماني: "صغيرتي". عيد ميلادي، عيد ميلادي من جديد... غريب، لكن الأحداث المهمة في حياتي حصلت في هذا اليوم بالذات، وهكذا، لن تصدقوا وبعد ذلك إلى مصيري. أقف تحت الساعة:

---

(١) مطربة سوفيتية وروسية شهيرة. (المترجمان).

الموعد ـ في الخامسة، لم يأت. في السادسة ـ انزعجت، مشيت إلى موقفي ودموعي تسيل، أعبر الشارع، وألتفت، وأُحسُّ كما لو أنه يركض خلفي، على ضوء الإشارة الحمراء، في ثياب العمل الخاصّة، وفي الجزمة... لم يسمحوا له بالخروج من العمل مبكراً... هكذا كنت أحبّه أكثر من أي شيء: في بدلة الصيد، والسترة الشتوية المبطّنة ـ كانت تليق به. ذهبنا إلى بيته، بدّل ثيابه، وقررنا الاحتفال بعيد ميلادي في المطعم. لكننا لم نتمكن من دخول المطعم، فالوقت كان متأخراً، ولم تبقَ أماكن شاغرة، لا أنا ولا هو كنا كالآخرين، لم نستطع دفع خمسة أو عشرة روبلات (وفق العملة القديم) للحارس كي يدخلنا. أشرق محياه فجأة: "هيّا نشتري الشامبانيا وبعض الكيك، ونذهب إلى الحديقة، وهناك نحتفل". تحت السماء وتحت النجوم! هكذا كان هو... جلسنا عل مقعد في حديقة غوركي حتى الصباح. لم يكن كعيد ميلادي ذاك أي عيد ميلاد آخر في حياتي، وحينها قلت له: "تزوجني، كم أحبك!!". ضحك قائلاً: "أنت ما زلت صغيرة". وفي اليوم التالي قدمنا طلب زواج في المحكمة...

آه، كم كنت سعيدة! لم أكن لأبدل شيئاً في حياتي، وحتى الانذار الذي أتى من كائن ما في الأعلى، من النجوم... وأعطى إشارة... لم يعثر في يوم الزواج على جواز سفره الداخلي[1]، وقلبنا البيت راساً على عقب ولم نعثر عليه. سجّلونا على أساس ورقة ـ ما. بكت أمي قائلة: "يا بنتي هذه علامة سيئة"، وجدنا جواز السفر فيما بعد في بنطال قديم مهمل على السقيفة. الحب!. ذلك لم يكن حباً، بل افتناناً

---

(١) كان المواطن في الاتحاد السوفيتي السابق يحمل جوازي سفر، أحدهما يستعمل في الداخل ـ بمقام البطاقة الشخصية ـ والآخر للسفر خارج البلد. (المترجمان).

طويلاً. كيف رقصت أمام المرآة في الصباح: أنا جميلة، أنا شابة، إنّه يحبني! الآن أنسى وجهي، ذلك الوجه الذي كان لي معه... أنا لا أرى هذا الوجه في المرآة...

هل يمكن الحديث عن ذلك؟ وتسمية الأشياء بأسمائها... توجد أسرار... حتى الآن لم أدرك، ما حصل. قبل شهرنا الأخير... ناداني ليلاً... كانت لديه رغبة... لقد أحبّني أشد من ذي قبل... عندما نظرت إليه في النهار، لم أصدق، بالذي حصل ليلاً... لم نرغب في الفراق... لقد داعبته، وتلمّسته. تذكرت في تلك اللحظات، الأوقات الأكثر سروراً وسعادة في حياتي... وصوله من كامتشاتكي بلحية، فقد أرسل لحية هناك.. وعيد ميلادي على المقعد في الحديقة... "تزوجني...". هل من داع لأقول؟ هل يمكن؟ أنا التي سرت نحوه، كما يسير رجل نحو امرأة... ماذا كان بإمكاني أن أقدم له ماعدا الأدوية؟ أي أمل؟ كم أحبَّ أن لا يموت... كان لديه ثقة أن حبي له سينقذنا. هذا هو الحب! لم أخبر ماما بأي شيء، لأنها لم تكن لتفهمني. ولأنبتني. وشتمتني. إن هذا المرض ليس سرطاناً عادياً، كالذي يخافه الناس كذلك، إنّه سرطان تشرنوبل، إنّه أكثر إخافة. لقد قال الأطباء: لو ضربت الأورام داخل الجسم، لكان قد مات بسرعة، لكنها صعدت إلى الأعلى... في الجسم... وفي الوجه... شيء ـ ما أسود نما عليه. أين ذهبت ذقنه، وأين اختفت رقبته، تدلّى لسانه إلى الخارج. انفجرت الأوعية، وبدأ النزيف. أصرخ: "أوو، دم من جديد". من رقبته، ومن وجنتيه، ومن أذنيه... من كل الأماكن... أحضر مياه باردة، وأضعُ محلولاً ـ لا ينقذه. شيءٌ رهيب. امتلأت الوسادة كلّها.. وضعت وعاءً أحضرته من الحمّام... النقاط أخذت تضرب في أرض الوعاء... كما في سطل الحليب... إنّ ذلك الصوت... صوت سلميّ قروي... اسمعه الآن في الليالي... ما دام

في وعيه، يصفّق بيديه ـ هذه كانت إشارة اتفقنا عليها: استدعي.. استدعي "الإسعاف". كان لا يريد الموت... إنّه في الخامسة والأربعين من عمره... اتصلت بمحطة "سيارة الإسعاف"، أصبحوا يعرفوننا، لا يرغبون بالمجيء: "نحن لا نستطيع أن نساعد زوجك". لكن، ولو حقنة على الأقل! مخدّر. أنا أحقنه، لقد تعلّمت. والحقنة ـ تترك زراقاً تحت الجلد، لا يمتصّها الجسم. ذات مرّة اتصلت، وحضرت "سيارة الإسعاف"... طبيب شاب... اقترب منه، ثم أخذ يعود إلى الوراء شيئاً ـ فشيئاً، وسأل: "قولي لي، هو بالمصادفة أليس تشرنوبلي؟ من أولئك الذين كانوا هناك؟" أجبته: "نعم". بصوت خافت، صرخ قائلاً: "عزيزتي أنت، لتنتهي هذه الحالة! وبسرعة! لقد شاهدت، كيف يموت التشرنوبليون". قال هذا الكلام وزوجي ما زال في وعيه، ويسمع... جيد أنّه لا يعرف، ولم يتوقع: أنّه هو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من مجموعته... الأخير... لقد أرسلوا ذات مرّة ممرضة من المستوصف، بقيت واقفة في الممر، ولم تدخل حتى إلى الشقة، وقالت: "أو، أنا لا أستطيع؟". أنا أستطيع؟ أنا أستطيع فعل كل شيء!! بماذا أفكر؟ أين الإنقاذ؟ إنّه يصرخ... يتألّم... يصرخ طوال النهار... وجدت حينها مخرجاً: سكبت له في الأنبوب من خلال السرنك زجاجة فودكا. يغفو وينسى. لست أنا من فكّر بذلك، نساء أخريات نصحوني... عانوا المصيبة نفسها... تأتي أمّه وتقول: "لماذا سمحت له بالذهاب إلى تشرنوبل؟ كيف استطعت؟ لم تخطر لي أبداً حينها هذه الفكرة، أن لا أسمح له، وبالنسبة له، أعتقد أنّه ما كان باستطاعته عدم الذهاب. لقد كان حينها زمن آخر، كحالة الحرب. ونحن كنّا مختلفين عنا الآن. سألته ذات مرّة: "هل أنت نادم الآن، على ذهابك إلى هناك؟". هزّ رأسه ـ لا. وكتب في الدفتر: "عندما أموت،

بيعي السيارة، والإطارات الاحتياط عندنا، لكن لا تتزوجي توليك (توليك أخوه). توليك معجب بي...

أعرف الأسرار... أجلس جانبه... وهو نائم... كان ما زال لديه شعر جميل... أخذت المقص، وقصيّت خصلة... فتح عينيه، ونظر، إلى ما في يدي، وابتسم. بقيت عندي ساعته، وبطاقته العسكرية وميدالية تشرنوبل... *(بعد الصمت)* .آه، كم كنت سعيدة! أذكر، في دار التوليد، أجلس أياماً أمام النافذة، أنتظره، وأنظر. لم أكن أدرك بحق: ما بي، وأين أنا؟ كنت أرغب في رؤيته... لا أشبع من ذلك، وكأنني كنت أشعر أن كل شيء سينتهي قريباً. أُطعمه في الصباح وأمعن النظر كيف يأكل. وكيف يحلق ذقنه. كيف يسير في الشارع. أنا ـ موظفة مكتبة جيدة، لكني لا أفهم، كيف يمكن أن أحبّ العمل بحماسة. أنا أحببته هو فقط. وحده. ولا أستطيع من دونه. أصرخ في الليل... في الوسادة أصرخ، كي لا يسمعني الأطفال...

لم أكن أتصور لدقيقة، بأننا سنفترق... ماذا... قد عرفت الآن، لكني لم أكن أتصور... أمّي.. أخوه... قالا لي، ولمّحا، بأن الأطباء، ينصحون، ويعطون توجيه، باختصار، يوجد في ضواحي مينسك، مشفى خاص، حيث مات فيه أولئك الذين لا أمل لهم في الحياة... مقاتلو أفغانستان... من فقدوا أيديهم وأرجلهم... والآن ينقلون إلى هناك التشرنوبليين. حاولوا إقناعي: سيكون وضعه أفضل هناك، الأطباء دائماً إلى جانبه. لم أرغب، ولا أريد الاستماع لتلك النصائح. حينها أقنعوه هو، فأخذ يتوسّل إلي: "انقليني إلى هناك. لا تتعذبي". وأنا أطلب إجازة، أحيانا أطلب إجازة من دون راتب. وحسب القانون إجازة مدفوعة الأجر تعطى للاعتناء بالطفل المريض، وإجازة من دون راتب لمدة شهر فقط. لكنّه ملأ الدفتر كتابة. وأخذ مني كلمة، بأن أنقله إلى

هناك. ذهبت بالسيارة مع أخيه. وجدنا مبنى خشبياً كبيراً، وبئراً مهدّمة، وتواليتاً خارجياً، على طرف قرية اسمها غريبيونكا. جداتٌ، يلبسن الأسود... كهنة... لم أنزل حتى من السيارة. ولم أقف. ليلاً قبّلته: "كيف استطعت ان تطلب منّي هذا؟ لن يكون ذلك أبداً! لن يكون ذلك أبداً! أبداً!!" قبّلته في كل مكان...

كانت الأسابيع الأخيرة هي المخيفة أكثر... نصف ساعة للتبول في زجاجة تتسع نصف ليتر. لا يرفع عينيه. كان خجلاً. أقبّله وأقول له: "كيف يمكنك أن تفكر هكذا. حصلت في اليوم الأخير هذه اللحظة: فتح عينيه، وابتسم قائلاً: "فالوشكا!... "لقد خرستُ من السعادة... ومن صوته...

اتصلوا من العمل: "سنحضر شهادة تقدير حمراء". أسألُه: "زملاؤك يريدون القدوم. سيقدمون شهادة تقدير". هزّ رأسه: لا ـ لا! لكنّهم أتوا... جلبوا نقوداً، وشهادة بمجلّد أحمر مع صورة لينين. أخذتها وفكرت: "من أجل أي شيء يموت؟ يكتبون في الصحف، بأنّ ليس تشرنوبل فقط، بل الشيوعية أيضاً انفجرت. والحياة السوفيتية انتهت. وهنا البيانات الشخصية بمجلّد أحمر...". أراد الشباب أن يقولوا له كلمات ـ ما جيدة، لكنّه غطّى رأسه بالبطانية، شعره فقط هو الذي بدا فوق البطانية. وقفوا فوقه وخرجوا. لقد خاف الناس... أنا فقط لم يخفني. لكن الشخص وحده يموت... لقد ناديته، لكنّه لم يفتح عينيه. يتنفّس فقط... عندما دفنّاه غطيت وجهه بمنديلين. إذا طلب أحد أن يرى وجهه، رفعتهما... امرأة واحدة سقطت... لقد أحبّته يوماً ما، وأنا كنت أغار منها. "دعيني أراه للمرّة الأخيرة" ـ "انظري". لم أقلْ لكم، إنّه عندما مات، لم يستطيع أحد الاقتراب منه، خاف الجميع. وحسب التقاليد السلافيّة، لا يجوز للأقارب أن يغسلوا ميتهم ويلبسوه ثيابه

بأنفسهم. أحضرنا من موظفي ثلاجة الموتى شخصين من الممرضين، طلبا الفودكا، واعترفا: "لقد شاهدنا من قبل ما لا تتخيلون: جثث محطمة، مقطّعة، جثث للأطفال بعد الحريق... لكن هذا المنظر لأوّل مرّة"... (تتلاشى) .مات وتسجّى حاراً ـ حاراً. كان يصعب لمسه... أوقفت الساعة في البيت... السابعة صباحاً... وما زالت متوقفة، متعطّلة... استدعيت الساعاتي، فككها بيديه حاول أن يشغّلها وقال: "هنا ليس ميكانيك ولا فيزياء، بل ما وراء الطبيعة".

الأيام الأولى... من دونه... نمت يومين كاملين، لم أستطيع أن أصحو، أقف، أشرب الماء، حتى أنني لم آكل، وأعود ثانية إلى الوسادة وأسقط. أستغرب الآن: كيف استطعتُ النوم؟ زوج صديقتي رماها بالصحون وهو يموت. بكى. لماذا هي فتية وجميلة؟ أمّا زوجي فقد نظر إليّ فقط ونظر... كتب في دفترنا: "عندما أموت، احرقي ثيابي كلّها. لا أريدك أن تخافي". لماذا قرر ذلك؟ هناك إشاعات تقول: "التشرنوبليون حتى بعد الموت يضيئون"... يرتفع ضوء فوق مقابرهم ليلاً. أنا قرأت بنفسي، بأن الناس يبتعدون عن مقابر رجال الإطفاء التشرنوبوليين، الذين ماتوا في مستشفيات موسكو ودفنوا في ميتينو في ضواحي موسكو، ولا يضعون موتاهم بالقرب منهم. الموتى يخافون الموتى، فكيف الأحياء. لأنّ أحداً لا يعرف ما هو تشرنوبل. توقعات فقط وتكهنات. لقد أحضر من تشرنوبل بذلة بيضاء، عمل فيها هناك. والبنطال، والبذلة الخاصّة... وبقيت البذلة البيضاء عندنا في الخزانة حتى موته. ثم قررت ماما: "يجب رمي حاجياته كلّها". كان لديها خوف... وأنا احتفظت بالبذلة. مجرمة! عندي أطفال في البيت. بنت وصبي... أخذوها خارج المدينة ودفنوها... لقد قرأت الكثير من الكتب، أنا أعيش وسط الكتب، لكنها لا تستطيع التوضيح كما ينبغي. أحضروا وعاء...

غير مخيف... لمسته بيدي وهناك شيء ـ ما صغير، مثل الصدف على شاطئ البحر، كانت تلك قطع عظمية وركيّة. قبل ذلك كنت ألمس أغراضه، لم أسمع، ولم أشعر، وهنا كيف غمرتُها. أذكر، ليلاً وقد فارق الحياة، أجلس بالقرب منه. وفجأة دخان ـ ما يتصاعد... مرة أخرى شاهدت هذا الدخان فوقه في محرقة الجثث... إنّها روحه... لم يرها أحد، وأنا رأيتها... لديّ شعور: أننا التقينا مرّة أخرى...

آه، كم كنت سعيدة! كم كنت سعيدة... عندما كان يسافر في مهمة... أعد الساعات، والأيام حتى نلتقي، والثواني! أنا لا أستطيع فيزيائياً من دونه... لا أستطيع! *(تغطي وجهها بيديها)*. أتذكر... نذهب معه إلى بيت أخته في القرية، تدل أخته مساء: "فرشت لك في هذه الغرفة، وله في تلك". ننظر بعضنا إلى بعض ونضحك. لم نتصوّر، بأن ننام منفصلين، في غرف مختلفة. معاً فقط. لا أستطيع من دونه... لا أستطيع! الكثيرون تقدموا لخطبتي... أخوه خطبني... إنّهما متشبهان... الطول، وحتى طريقة المشي. لكن أتصوّر، إذا ما لمسني شخصٌ آخر فسأبكي وأبكي، ولن أتوقّف أبداً...

من أخذه منّي؟ وبأيّ حق؟ منحونا شهادةً بشريط أحمر في التاسع عشر من تشرين أول(أكتوبر) عام ألف وتسعمئة وستة وثمانين...

(تحضر ألبوما وتُريني صور العرس. وعندما أردت وداعها، استوقفتني).

كيف لي أن أعيش لاحقا؟ أنا لم أُنهِ بعد... للنهاية... لقد كنت سعيدة... حتى الجنون... هناك أسرار... يمكن، لا حاجة لذكر اسمي... أقرأ صلوات في السرّ... في نفسي... *(تتوقف)*. لا، اذكري اسمي! ذكّري الله... أريد أن أعرف... أريد أن أفهم، لماذا تحلُّ بنا مثل هذه

المعاناة؟ لأيّ سبب؟ هُيّأ لي في بداية الأمر، أنّه بعد كلّ ذلك، ستصبحُ رؤيتي سوداء معتمة. غريبة. لن أتحمّل... فما الذي أنقذني؟ ودفعني إلى الحياة؟ وأعادني... إنه ابني... لديّ أيضاً طفل آخر... أول ولد لنا نحن الاثنين... إنّه مريض منذ زمن... لقد نما، لكنّه يرى العالم بعيون الأطفال، بعيني صبيّ في الخامسة من عمره. أريد أن أكون معه... أحلم بتبديل الشقة، كي تكون أقرب إلى نوفيكي، هناك مشفى للأمراض النفسية. قد يعيش طوال حياته هناك. هذا حكم الأطباء: كي يعيش، يجب أن يكون هناك. أزوره كل يوم. يلاقيني: "أين بابا ميشا؟ متى سيأتي؟". من غيره سيسألني؟ إنّه ينتظره.

سننتظر أنا وهو معاً. وأنا سأقرأ صلاتي التشرنوبولية... هو - ينظر إلى العالم بعيون الأطفال...".

فاليتينا تيموفييفنا أناسييفيتش،

زوجة أحد العاملين في درء آثار الحادثة

بدل الخاتمة

"... مكتب سياحي في كييف يدعو إلى رحلات سياحية إلى تشرنوبل...

خط سير الرحلة، سيبدأ من مدينة بريبيات الميّتة: سيشاهد السيّاح البيوتَ المهجورة متعددةَ الطوابق مع الثياب البيضاء المسّودة على شرفات البيوت، عربات الأطفال. الشرطة القديمة، المستشفى، مبنى لجنة المدينة الحزبية. بقيت هناك شعارات الزمن الشيوعي ـ لم تتأثر بالإشعاعات.

يستمر خط السير من مدينة بريبيات إلى القرى الميّتة، حيث تتجوّل في وضح النهار الذئاب والخنازير البرية. تكاثروا ـ الظلمة!

جوهر الرحلة، أو كما يكتبون في الدعاية، متعتها، في مشاهدة "المخبأ" أو بصيغةٍ أسهل ـ التابوت. المبني فوق المبنى الرابع، والذي بسبب السرعة في التنفيذ، تغطّيه منذ زمن شقوقٌ، تخرجُ من خلالها حشوة قاتلة ـ بقايا الوقود النووي. سيكون هناك ما ستحدثون أصدقاءكم عنه، عندما تعودون إلى البيت. إنّها ليست جزر الكناري تزورنها أو ميامي. تختتم الرحلة بالتصوير للذكرى عند شواهد الأبطال الذين استشهدوا في تشرنوبل، كي تشعروا أنّكم مشاركون في التاريخ.

أما في نهاية الرخلة فسنعرض على محبي السياحة الاستثنائية نزهة خلوية مع غداء من المواد النظيفة إيكيولوجياً مع النبيذ الأحمر..

والفودكا الروسية... يعدونكم، بأنه لقاء اليوم الذي ستمضونه في المنطقة ستتلقون جرعة أقل، من الجرعة التي تتلقونها عادةً أثناء التصوير الشعاعي. لكن لا يُنصح بالسباحة، أو أكل السمكة المصطادة أو اللعب بها. أو جمع الثمار والفطور، وشيّها على الحطب. أو إهداء النساء من الورود البرية.

تعتقدون هذا هذياناً؟ تخطئون، السياحة النووية مزدهرة جداً وبخاصّة عند السياح الغربيين، يسافر الناس لأجل انطباعات قويّة وجديدة، وقليلاً ما يصادفونها، وإنّه لمتاح جداً... الحياة تصبح مملة. فنرغب بشيء ـ ما أبدي...

زوروا مكة النووية... الأسعار مقبولة"...

من مواد الصحف البيلاروسية، عام ٢٠٠٥

أعوام ١٩٨٦ ـ ٢٠٠٥

الفهرس

... مكتب سياحي في كييف يدعو إلى رحلات سياحية إلى تشرنوبل...

خط سير الرحلة، سيبدأ من مدينة بريبيات الميّتة: سيشاهد السيّاح البيوتَ المهجورة متعددةَ الطوابق مع الثياب البيضاء المسّودة على شرفات البيوت، عربات الأطفال. الشرطة القديمة، المستشفى، مبنى لجنة المدينة الحزبية. بقيت هناك شعارات الزمن الشيوعي ـ لم تتأثر بالإشعاعات.

يستمر خط السير من مدينة بريبيات إلى القرى الميّتة، حيث تتجوّل في وضح النهار الذئاب والخنازير البرية. تكاثروا ـ الظلمة!

جوهر الرحلة، أو كما يكتبون في الدعاية، متعتها، في مشاهدة «المخبأ» أو بصيغةٍ أسهل ـ التابوت. المبني فوق المبنى الرابع، والذي بسبب السرعة في التنفيذ، تغطّيه منذ زمن شقوقٌ، تخرجُ من خلالها حشوة قاتلة ـ بقايا الوقود النووي. سيكون هناك ما ستحدثون أصدقاءكم عنه، عندما تعودون إلى البيت. إنّها ليست جزر الكناري تزورنها أو ميامي. تختتم الرحلة بالتصوير للذكرى عند شواهد الأبطال الذين استشهدوا في تشرنوبل، كي تشعروا أنكم مشاركون في التاريخ.

تصميم: منال العويبيل
Manalines Design

